

الهيئة المصرية العامة للكتاب





رفاعة رافع
الطهطاوي

تخليص الابريز في تلخيص باريز

تخليص الابريز في تلخيص باريز

رفاعة رافع الطهطاوي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٣

مقـدمة

من الرجال من ترتبط حياته بحقبة معينة ، وتتصل أعماله بما يشغل زمنه أوثق اتصال ، ويتشكل مصيره بمغزى الأيام التى عاشها ، فاذا هو جزء من التاريخ ، تطور تطوره ، ونما نموه ، واذا هو يبدو أمامنا وكأنه قد تقمص عصره وجسمه لنا فى صـــورة انســان · من الرجال من خصصت له أمته دورا كبيرا وانتظرته ليؤديه ، فأقبــل فى الموعد المحدد ، وأظهر من الجدارة ما يعــادل الأمل المعقود عليه ، واستطاع أن يضطلع بمهمته حتى يكملها على خير وجه · من هؤلاء الرجال « رفاعة رافع الطهطاوى » ، فقد وجدت فيه مصر صانع نهضتها حينما أفاقت فى فجر القرن التاسع عشر ·

ما كاد ذلك القرن يبلغ عامه الأول حتى ولد رفاعة · وكانت الأقدار قد شاءت أن تجعل من هذا المولود ــ عندما يبلغ عمره ربع قرن ــ رحالة ترسله من الأزهر الى باريس ، ليعود ببذور النهضة الفكرية ويخرج مصر من ظلمات العصور الوسطى · بدأت الأقدار فدفعته ، وهو صبى فى الثانية عشرة من عمره ، الى مغادرة مسقط رأسه وراء أبيه الذى فر الى قنا وفرشوط من الضائقة الاقتصادية التى أصابت الأسرة فى طهطا تنقل الغلام اذن من قرية الى قرية ، تارة على ظهر مطية من ذوات الأربع ، وتارة « على ظهر النيل المبارك » ، وتارة أخرى ماشيا على قدميه · فلما بلغ السادسة عشرة من عمره ، صحبته الأقدار الى القــاهرة ، ليدرس فى الأزهر اقتداء بأخواله العلماء فراج الأنصــارى والشيخ أبى الحسن الأنصــارى والشيخ محمد الأنصارى ، وهم الذين تولوا تربيته فى طهطا بعد وفاة والده ·

ولم تكن الرحلة من طهطا الى القاهرة سنة ١٨١٧ بالأمر الهين ، بل كانت تستغرق نحو أسبوعين شاقين من الملاحة البدائية ، وكانت فى نظر أهل ذلك العصر مغامرة جريئة ٠

وفى الأزهر شاءت الأقدار أن يتتلمذ الفتى الصعيدى على رجل رحالة ، وأديب مرموق هو الشيخ حسن العطار ، الذى كان يمتاز من بين أساتذة ذلك العهد بعقلية تقدمية تستطلع الحديث وتؤمن بالتطور ٠ كان حسن العطار عالما ، نتيجة لميله ورغبته ، فقد أحب العلم ونزع اليه على الرغم من ارادة أبيه الذى كان يود أن يورثه تجارته وعطارته ٠ لذلك أصبح العلم لديه معرفة توسع الفكر ، لا استظهارا واجترارا وتكرارا ٠ لقد احتل التفكير فى تدريسه محل الحفظ . واحتلت الحركة فى حياته مكان الجمود ٠ كان قد اتصل به بعض ضباط بونابرت ليتعلموا اللغة العربية ، فلم يحتقرهم ولم ينبذهم ، بل جاورهم وحاورهم ، وعلمهم وتعلم منهم ٠ فطن الى أهمية كتبهم التى لاحظ ــ دون أن يستطيع قراءتها ــ أنها كتب منوعة تعالج شتى موضوعات الدنيا ، وفطن الى أهمية منهجهم المتحرر من منطق القرون الوسطى ، وبساطتهم المباشرة فى التعبير عن أفكارهم ، وأحس وتنبأ بضرورة تجديد الحياة العقلية فى القاهرة ، وكان مولعا بالجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش طريفة على كتاب « تقويم البلدان » لأبى الفداء ، وكان يتحدث عن كثير من المدن حديثا شخصيا ممتعا ، فقد جال فى فلسطين وتركيا وأقام طويلا فى دمشق ٠

وشاءت الأقدار أن يؤدى هذا الأستاذ المستنير أخطر دور فى حياة رفاعة ، فقد بلغ رفاعة فى عام ١٨٢٦ الخامسة والعشرين من عمره ، وبلغ أيضا أقصى ما يستطيع أن يناله فى مصر فتى مثله ، فتصدى للتدريس بالأزهر ، واشتغل اماما لبعض فرق الجيش ولاحت فى حياته مرحلة الاستقرار ، بعد أن انتهت مرحلة التحصيل ٠ ولو قد اتصلت حياة رفاعة على ذلك النحو ، لكان من

المرجح ألا نسمع عنه شيئا ، ولما طابق مصيره مجرى التاريخ ٠ فكم من أمثاله ولدوا فى طهطا وفى غير طهطا ، ثم تعلموا فى الأزهر على حسن العطار وعلى غير حسن العطار ، ثم اشتغلوا أئمة فى الجيش أو فى غير الجيش ثم ذهبوا دون أن يتركوا أثرا ٠

فى ربيع ذلك العام ، انتهز « محمد على » فرصة مرور السفينة الحربية الفرنسية « لاترويت » (La Truite) فكلف قبطانها « روبيار » (Robillard) أن يحمل معه الى مرسيليا أربعين شابا ليدرسوا فى باريس (١) ٠ وينبغى أن نذكر فى وضوح أن رفاعة رافع الطهطاوى لم يرسله الى فرنسا محمد على وانما أرسله الشيخ حسن العطار ٠

كان محمد على لا يثق بالمصريين ، وكان يتخذ أعوانه من الأجانب يشتريهم صغارا كما كانت تشترى المماليك ، ويسلمهم فى القلعة الى شخص موصلى يدعى « حسن أفندى الدرويش » ومن بعده الى شخص آخر تركى يدعى « روح الدين أفندى » ليتعلموا الخط والحساب واللغة التركية الى جانب التمرينات العسكرية ٠ وقد اعترف محمد على بذلك صراحة للقنصل الروسى (٢) ٠ وهناك من الوثائق المحفوظة الآن فى القصر الجمهورى بعابدين ما لا يدع مجالا للشك فى اتجاهه الى تكوين طبقة أرستقراطية مشتراة بالمال ، تدين له وحده بالولاء ، ويحكم بواسطتها البلاد ٠ لم يدخل مدرسة القلعة اذن الا عدد محدود من الصبية الأتراك والشراكسة والجيورجيين والأكراد والأرمن ٠ ومن هذا الخليط العثمانى انتخب محمد على معظم أعضاء بعثته ، دون مراعاة لما ينبغى أن يتحقق فى

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس :
Correspondance Consulaire,
Le Caire Vol. 26, Fo. 282, Le 4 Avril 1826.

(٢) René Cattaoui : Le règne de Mohamed Aly d'après Les arehires russes en Egypte. Le Caire, 1931, I, pp. 425-426.

طالب العلم من شروط الذكاء وحداثة السن والاستعداد · وحينما أوشكت البعثة على السفر ، أشـــار حسن العطار على الوالى بأن يضيف الى الطلبة اماما يسهر على شـئون دينهم فى تلك البـلاد البعيدة ، فلم يستطع محمد على أن يرفض هذا الاقتراح · وهكذا عين حسن العطار تلميذه رفاعة اماما للبعثة ·

وفى باريس ، اهتم « جومار » (Edme François Jomard) ، مدير البعثة ، بالشيخ الامام ، وجعله موضع عنـايته الخاصة · كان « جومار » مهندسا جغرافيا من علماء الحملة الفرنسية الذين اصطحبهم « بونابرت » الى ضفاف النيل ، وهو الذى أشرف فيما بعد على نشر الكتاب الضخم الذى ضم دراسات أولئك العلماء بعنوان « وصف مصر » (Description de l'Egypte) · وقد أصبح « جومار » رئيسا للجمعية الجغرافية ، وعضوا فى « المعهد الفرنسى » (Institut de France) ، ومحركا لكثير من الهيئات الثقافيـة والتربوية · ولم ينقطع اهتمامه بمصر ، بل اتصل مرارا بواليها الجديد « محمد على » ، وأفلح فى اجتذاب بعثاته الى باريس وكانت قد اتجهت فى أول الأمر نحو ايطاليا ·

توسم « جومار » فى رفاعة الذكاء ، فوجهه الى الافادة من رحلته بدراسة اللغة الفرنسية ، وترجمة مبادىء العلوم ، وانشاء كتاب عن مشاهداته فى باريس ، لعل هذا الفتى الصعيدى أن يصير همزة الوصل المنشودة بين ثقافة الغرب وعقلية الشرق ·

وبعد أن أمضى رفاعة فى باريس خمس سنين عامرة بالاطلاع والتفكير والتحصيل بين الأسـاتذة والمستشرقين وأهل العاصـمة الفرنسية وأئمة الحضارة الحديثة ، عاد الى وطنه سنة ١٨٣١ زاخر النفس بمعانى حياة جديدة ، متحفزا لعمل خطير هو اصلاح المجتمع المصرى بتعليم الشـعب وتنوير العقول · عـاد ليدرس وينشىء المدارس ، ويصنع من تلاميذه مدرسين للجيل الصـاعد ، وراح

يستعرض كتب الثقافة الغربية ، ويترجم ويصنع من تلاميذه مترجمين يتولون معه وتحت اشرافه ومن بعده نقل ذلك الكنز المفتوح ، ومضى يكتب ويخطب ، وينشر المجلدات والصحف ، يبسط العلوم ويعالج شئون التربية والاقتصاد والسياسة ، يهدم الآراء الفاسدة ويبث أفكار التقدم ، ويبصر أمته بروعة ماضيها وخصب حاضرها ورجاء مستقبلها ، لا يكل فى ذلك نشاطه على الرغم مما يقيده به محمد على ، ولا تفتر همته حين نفاه عباس الى السودان بل واصل رسالة الارتقاء التى آمن بها ، فى جميع الظروف وبجميع الوسائل ، حتى وافته المنية سنة ١٨٧٣ • انه رائد عملاق ، لولاه ولولا الفريق الذى رباه لظلت مصر متخلفة نصف قرن آخر • ما أصدق ذلك الكتاب الذى لم يكتب بعد وعنوانه « رفاعة رافع الطهطاوى أو نهضة مصر ! » •

تتجلى فى خبرة رفاعة تلك الظاهرة الكبرى التى يمتاز بها تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر ، ألا وهى الاتصال بالحضارة الغربية • ان رحلة رفاعة الى باريس هى أول علاقة مثمرة وبين الشرق والغرب فى العصر الحديث • أجل ، لقد تبادل الشرق وأوروبا التجارة والسفراء منذ القرون الوسطى ، ولكن اقامة التجار والسفراء الأوروبيين بين ظهرانينا لم تنتج قط امتزاجا انسانيا عميق الأثر • ثم انطوت مصر على نفسها ، حين دهمها الأتراك فى القرن السادس عشر ، فباتت فى ظلامها تجهل أنوار الفجر الجديد الذى طلع اذ ذاك على أوروبا • وامتد سباتنا حتى أيقظتنا فى آخر القرن الثامن عشر طلقات مدافع بونابرت •

كانت الحملة الفرنسية لقاء عنيفا بين أبناء الغرب وأبناء الشرق ، ولم يتح لها قصر الأجل ولا روح المقاومة الشعبية من الاستقرار ما يؤدى الى اتصال جليل النفع • وللرد على مبالغات

بعض المؤرخين فى تقدير النتائج المباشرة لتلك الحملة على مصر (١) يكفينا أن نذكر الجبرتى ، فان هذا الرجل الذى يعتبر من أكبر علماء عصره ، لم يستطع أن يدرك شيئا من علوم الفرنسيين ، بل انه لم يحاول أن يتفهم ما شهد من تجاربهم الكيميائية والطبيعية البسيطة ، وقنع فى آخر الأمر بابداء دهشته وعجزه ، اذ يقول : « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا » (٢) ٠

وخطت مصر خطواتها التالية فى سبيل الاتصال بالغرب عندما تفتحت عينا رفاعة على بلاد « الافرنج » ٠ شعر الفتى الصعيدى بمكانه من الدنيا ومن التاريخ ، وأحس بروعة الدور الذى ينتظره فى بلاده بعد أوبته ٠ ووضعه « جومار » فى مركز المعارف الجديدة ، فأقبل عليها ، وأفاد أكبر فائدة من التوفيق الذى حظى به ، فأصبحت رحلته هى أول صورة كاملة للقاء الشرق والغرب أمامنا . وأتحفتنا تجربته بجميع نتائج الاخصاب ، لأنها تمت فى ظروف مواتية ٠

لهذه التجربة الفريدة سجل ثمين ، كتبه بطلها نفسه فى أثناء اجرائها ، وعرف قيمته قبل أن نعرفها اليوم ، فسماه « الديوان النفيس » بعد أن عنونه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ٠ ترى ما مصدر الشغف الذى يجده قارىء هذا الكتاب بعد قرن وربع قرن من نشره ؟ ان أهميته « تخليص الابريز » ترجع الى غزارة مادته ، وتعدد دلالته بالنسبة لنا :

---

(١) كراسات التاريخ المصرى ٠ فبراير ١٩٥٥ :
Anouar Louca : "La Renaissance :
Egyptienne et les limites de l'oeuvre. de Bonapart". Cahiers d'Histoire Egyptienne le Caire, Sèr. VII, Fasc. 1, fèvrier 1955, pp. 1-20.

(٢) راجع عبد الرحمن الجبرتى : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ ٠ الجزء الثالث ص ٣٥ وما يليها ٠

قد يكون هذا الكتاب أوفى مصدر مباشر لدراسة البعثة التعليمية المصرية التى أرسلت الى باريس عام ١٨٢٦ • على أنه فى الوقت نفسه قصة شائقة تروى رحلة طريفة • وتلك القصة تشبه فى بعض سياقها تقريرا يرفعه الى حكومة مصر طالب عن بعثته راح يستعرض موضوعات دروسه وامتحاناته ، وهى تفاصيل تطلعنا على مراحل تطور عقل الكاتب ونضجه طوال خمس سنين • ولكنه تقرير أشمل من قائمة بنشاط طالب مجتهد ، فالكتاب بجملته تقرير جامع عن باريس باعتبارها عاصمة الحضارة الأوروبية • ومن وراء صورة فرنسا نستشف صورة مصر ، الا تبدو معالمها خلال الموازنات والحسرات والأمانى التى تلح على قلم المؤلف ، وتلك صورة لمصر فى نهضتها كما التقطها فتى من أبنائها الأبرار • والكتاب يعكس لنا أيضا صورة هذا الفتى وهو ينتقل من الشباب الى الرجولة ، فنحن نعيش معه فى هذه الصفحات حقبة من أهم حقب حياته ، نشاطره مطالعاته ومناقشاته ونزهاته ، ونعجب بدأبه واخلاصه ، ونعرف ذوقه الأدبى وقريحته الجادة مع ميله الى الفكاهة ، وتقواه التى توازى بل تفوق ايمانه بالمدنية والارتقاء • ويقدم لنا « تخليص الابريز » فضلا عن ذلك ، ملخصا ممتازا لجميع أعمال رفاعة المقبلة ، كما راوته مشروعاتها فى باريس • فكثيرا ما تبدأ جهود المصلحين بالأحلام والرؤى ، ونستطيع هنا أن نتتبع أحلام المواطن الصعيدى ، والطالب الذكى ، والمترجم والأديب • والكتاب فوق هذا كله ــ بما يحمل من أفكار جديدة فى أسلوب جديد ــ تاريخ يؤرخ فى الأدب المصرى الحديث ، فهو يعلن انقضاء عصر الركود العثمانى ، ويبشر بازدهار فنون أدبنا المعاصر •

وعلى الرغم من أهمية هذا الكتاب الزاخر بالمعانى التاريخية الاجتماعية والشخصية والأدبية ، فقد خيم عليه طويلا النسيان أو الاهمال ، ولا يكاد يذكره شباب اليوم الا ليتندروا بعنوانه المسجوع ! •

ومن الحق أن يستوقفنا ذلك العنوان قبل أن نشرع فى قراءة الكتاب ، فالجناس المصحف بين كلمتى « تخليص » و « تلخيص » ، ثم بين كلمتى « ابريز » و « باريز » ، يقرع سمعنا بجرس منظوم ، وسجع مرقوم • ويدعونا الى الابتسام من صنعة قديمة قوامها التكلف والافتعال • وهل يقنع المؤلف بهذا العنوان المطرب ؟ انه يصوغ عنوانا ثانيا تشهد فيه ألفاظ أخرى ، متجانسة مسجوعة ، ببراعة الفنان وحذقه • « الديوان النفيس بايوان باريس ! » ولا عجب ، فقد كانت الصناعة اللفظية واجادة الألعاب الانشائية هى خير صفات الكاتب فى نهاية عصر الانحلال بعد أن انعدم الاهتمام بالفكرة ، ولم يكن بد للأديب من اظهار مهارته فى اللعب بالألفاظ حتى يكون أديبا • فكأنى برفاعة يتحدى قارئه بهذا الاتقان ، ويغتصب اقباله على الكتاب اغتصابا •

على أن كلمة غريبة تبرز فى هذا العنوان المثنى العتيق ، كلمة مجهولة لم تظهر فى اللغة العربية حتى أول القرن التاسع عشر ، هى اسم العاصمة الفرنسية • فلم يذكر « باريس » الا « نقولا الترك » الذى عاصر حملة بونابرت وأرخ لها • ويبدو من تردد رفاعة فى كتابة هذا الاسم بين السين والزاى ، أنه يخطه بالحروف العربية للمرة الأولى وسواء كتب « باريس » أو « باريز » ، فهو ينظم الكلمة الجديدة فى سلك عنوانه ، ويحرص على وضعها موضع القافية من الشعر ، حتى تمتد موسيقاها فى أذن السامع ، وتقع لديه أهم موقع • وانها لظاهرة طريفة ، تروعنا بغزارة معناها • « باريس » التى ترمز الى حضارة العالم الحديث تتجاوب مع ألفاظ عبارة عربية بالية ، على غلاف كتاب كبير الحجم •• هنا لقاء القديم والجديد ، لقاء الشرق والغرب •

وحسبنا أن نلقى على الصفحات الأولى نظرة سريعة حتى تتضح لنا عناصر هذا الكتاب الكثيف المادة ، الذى تختلط بمتنه أشعار دخيلة ، ونصوص مترجمة متباينة •

هو هو ذا الشيخ حسن العطار ، شيخ الجامع الأزهر ، يقرظ بقلمه الرصين هذا الكتاب عن باريس ، في أول صفحة منه • انه لسعيد بأن يقدم للجمهور عمل تلميذه • ولا يعدو تقريظه فقرة واحدة من النثر المسجوع المتكلف ، الجميل بحسب مقاييس الكتابة الفنية فى تلك الأيام • ترى هل صدر المؤلف الشاب كتابه الداعى الى أفكار جديدة بثناء شيخ الأزهر ، ليدفع عن نفسه تهم الضلال والمروق والبدعة ؟ لعله أراد من هذه الصفحة فى أول الكتاب أن تحميه من هجمات أعدائه ، كما أراد تحميه بعد ذلك صفحات فى آخر الكتاب أضافها الى الطبعة الثنية وشحنها بقصائد فى مدح عباس باشا بمناسبة جلوسه على عرش مصر •••

ويبدأ رفاعة حديثه « بخطبة الكتاب » ، وهى أربع صفحات من النثر المنمق ، التزم فيها السجع وأكثر من المحسنات البديعية ، وحلاها بأبيات ركيكة من شعر ذلك العصر ، الا أنه أجاد بناءها ، وحمل الفاظها أفكارا • فهو ينظر فى نفسه من ناحية وفى عمله من ناحية أخرى ، ونستطيع أن نرى فى تلك الصفحات صورة مصغرة للرجل وللكتاب •

انه رجل تربى فى الأزهـــر ثم انتقل الى باريس ، فاحتفظ بالتقاليد الاسلامية ، وأضاف اليها التحليل العقلى الذى تتميز به الثقافة الفرنسية •

يتجلى حظ الأزهر فى طريقة الاستهلال بحمد الله « الذى ابتلاه فصبر ، وأغناه فشكر » وبالصلاة والسلام على رسوله « الذى سافر الى الشام وهاجر الى المدينة » ، وبتمجيد الحاكم فى مصر اذ ذاك • وبعد هذا الاستهلال التقليدى يقدم رفاعة نفسه للقارىء دون ابطاء ، فيذكر اسمه وبلدته ونسبه ومذهبه ، كأنه يبرز أوراقه الشخصية عند باب الدخول ! ويوجز قصة حياته ، فيشير الى افتقار أسرته بعد ثراء ، والى تعلمه فى الأزهر ، وتعيينه « واعظا فى العساكر

الجهادية » ثم « مبعوثا الى باريس صحبة الأفندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون بهذه المدينة البهية » • ويتجلى حظ باريس فى الانشاء المنطقي الذى صيغت فيه هذه الصفحات من ناحية ، وصيغت فيه من ناحية أخرى أبواب الكتاب ، كما راح يعددها المؤلف فى ختام خطبته • ان هذه الخطبة مقدمة جيدة ، أحسن فيها رفاعة استعراض كتابه ، وساق أفكاره سياقا منظما • فهو يروى — على سبيل التمهيد — كيف ولد كتابه ، ثم يبين أهدافه ، ويحدد مجال موضوعه ، ويشرح وجهة نظره ، ويعرف بخطته ومنهجه •

ولعل خير سبيل الى الاحاطة بجميع أطراف الكتاب لتقديره حق قدره هى أن نناقش مع المؤلف تلك القضايا التى يثيرها • ولكن لابد لنا قبل أن نبدأ هذا النقاش من أن نلم بمحتويات أبوابه وفصوله •

يتألف « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » — كما يعلن صاحبه — من « مقدمة » تضم أربعة أبواب ، ومن « مقصد » يشمل ست مقالات تنقسم كل منها الى عدة فصول ثم من « خاتمة » •

ويبدأ رفاعة ، فى أول أبواب مقدمته ، بذكر دواعى تلك الرحلة الى فرنسا ، فيصعد الى ما قبل التاريخ ، ويتتبع تطور الانسان وارتقاء المجتمع ، ويرى أن الشعوب من حيث تفاوتها فى درجات الحضارة تنقسم الى ثلاث مراتب : مرتبة المتوحشين ، ومرتبة البرابرة ، ومرتبة « أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن » • وقد كان العرب فى عداد هذه المرتبة الثالثة أيام العباسيين وملوك الأندلس ، غير أن « الافرنج » فى العصور الأخيرة تفرقوا عليهم بفضل ما أتقنوا من علوم ، وما أرسلوا من قواعد العدالة • وحلال طلب العلم فى بلاد الافرنج ، ألم يرد فى الحديث « اطلب العلم ولو بالصين » ؟ •

وفى البـاب الثانى من المقـدمة يعـدد رفاعة مختلف المـواد التى كان على المبعوثين أن يدرسوها ، وهى أولا مواد عامة لجميع التلاميذ ، كالحساب والهندسة والجغرافية والتاريخ والرسم ، ومواد تخصص ، كالادارة المدنية ، والادارة العسكرية ، والملاحة البحرية ، والدبلوماسية ، والهندسة المائية والميكانيكية والحربية ، والمدفعية ، وصناعة الأسـلحة ، والكيميـاء ، والطب ، والزراعة ، والتاريخ الطبيعى ، وصناعة الطباعة على الحجر ، والترجمة ٠

ولكى يحدثنا رفاعة ، فى الفصـل الثالث من المقدمة ، عن أسباب ارسال البعثة الى فرنسا دون سواها من بلاد الافرنج ، ينشىء مقدمة طويلة يستعرض فيها دول العالم كما جمعها الجغرافيون الافرنج فى خمس قارات ٠ ويبدو له « بحسب مزية الاسـلام وتعلقاته ، أن أفضل القارات هى آسيا ، لأنها مهد الاسلام ، ومهبط الأديان السماوية ، ومنشأ الأنبياء والمرسلين والصـحابة والأئمة الأربعة ، ولأنها وطن العرب ، وبها القبلة والأراضى المقدسة ٠ تليها افريقية لأنهـا تضـم مصر « وهى أيضـا عش الأولياء والصلحاء والعلماء » ٠ وأما ثالثة القارات فى الفضل فهى أوروبا ، اذ لا يشرفها الا « وجود الامام الأعظم سلطان الاسلام فيها » وبالمقياس عينه توضع جزر المحيط فى المكان الرابع « لعمارها بالاسلام أيضا مع عدم تبحرهم فى العلوم » ، فهى خير من أمريكا ، حيث لا وجود للاسلام بها أبدا ٠ ولكن رفاعة لا يلبث فى هـذا التصنيف أن يستدرك استدراكا جوهريا ، ويقرر أن جـدارة الأمم وفضلهـا وامتيازها لا تقاس بأديانهـا وانما تقاس بمستواهـا من العلم ٠ « ولا ينكر منصف أن بلاد الافرنج الآن فى غاية البراعة فى العلوم الحكمية » ٠ وأكثر هؤلاء الافرنج علماهم الانجليز يليهم الفرنسيون فالنمسويون ٠ غير أن « باريز » تمتاز على « لوندرة » باعتدال الجو وقلة الغلاء ، وبما تبيحه للأجانب من حرية الرأى والعبادة

والتصرف . ولذلك استأثرت فرنسا بأغلبية الطلبة المبعوثين من مصر ، ولم يقصد انجلترا والنمسا منهم سوى عدد قليل .

ورابع أبواب المقدمة باب قصير ، يسجل فيه رفاعة أسماء رؤساء البعثة ، وهم ثلاثة « أفندية » كانوا يتناوبون الامرة : « عبدى أفندى المهردار » وكان يتخصص فى الادارة المدنية ، و « مصطفى مختار أفندى الدويدار » وكان يدرس الادارة الحربية ، ثم « الحاج حسن أفندى الاسكندرانى » الذى كان يتعلم الملاحة البحرية ، الى أن انفرد الأول بالرياسة . وكان يشرف على البعثة « مسيو جومار » .

وهنا تنتهى « المقدمة » ويبدأ « المقصد » . ويأخذ رفاعة فى سرد وقائع رحلته وما خالجه من مشاعر فى الطريق الطويل الى فرنسا . منذ وصل الى الاسكندرية ـ بعد أربعة أيام على النيل ـ أحس أنه يدنو من بلاد الافرنج . ولما كان قليل الخروج فى أثناء الأيام الثلاثة والعشرين التى قضاها المبعوثون « فى سراية والى مصر » ، فان حديثه عن هذه المدينة لا يعدو ما لخصه عن تاريخ الاسكندر وشخصية « ذى القرنين » من بعض الكتب العربية والفرنسية ، ولاسيما « تقويم البلدان » لأبى الفداء و « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » وكذلك يحدثنا رفاعة من خلال الكتب عن « البحر المالح المتصل بثغر اسكندرية » وعن جزيرتى كريت وصقلية وجبل اتنا وأحوال البراكين . ان كل شىء جديد عليه ، من هذه البارجة الفرنسية التى تدهشه نظافتها الى اجراء الحجر الصحى على ركابها . وفى مياه مسينا ، حيث ترسو السفينة خمسة أيام دون أن يؤذن لها بالنزول يروق رفاعة أن ينظر الى المدينة البيضاء وهى توقد مصابيحها فى المساء ، وأن يشنف سمعه بتوقيع أجراس كنائسها ، دون تزمت ، بل يأخذه الطرب ليلة فيحاول التعبير عن أثر الموسيقى الجميلة فى نفسه ، وينظم وهو يسمر « مع بعض

الظرفاء » من زملائه ، أبياتا رقيقة يتغنى فيهـا بحبيب مجهول يصبو اليه ، وينتشى من سحر عينيه ٠

وتهب على السفينة رياح مضـادة لاتجاههـا ، فتردها الى « نابولى » بعد أن كانت قد جاوزتهـا فى عرض البحر ٠ فاذا استأنفت ملاحتهـا رأى رفاعة جزيرة كورسيكا ـ التى يسميهـا « قرس » قبل أن يترجل على أرض مرسيليا ، وقد استغرقت الرحلة ثلاثة وثلاثين يوما ٠

وأما بقية الرحلة الى باريس فهى مادة « المقالة الثانية » ٠ لم يدخل المبعوثون مباشرة مدينة مرسيليا وانما أنزلوا فى بيت خارجهـا للحجر الصـحى أقاموا فيه ثمانيـة عشر يوما ٠ وهل « الكرنتينة » مما يوجبه الشرع أو مما يحرمه ؟ لعلها « من جملة الفرار من القضاء » كما يقول بعض الفقهاء ٠ على أن رفاعة ـ فى اعتدال وحذر ـ يورد محاورة أنصار « الكرنتينة » وخصومها ، دون أن يفصـل فى المشكلة برأى شخصى ٠ ويبدأ المبعوثون فى الكشف عن العادات الفرنسية ، فيدهشهم ما يرون من بسـائط الحياة اليومية ، يدهشهم الجلوس على الكراسى والنوم على أسرة مرتفعة عن الأرض ، وطريقة اعداد المائدة ، ونظام تتابع الأطعمة ، واصطناع الشوكة والسكين فى تناولها ، وانفراد كل آكل بأدواته تلك ، وكوبه لا يشاركه فى استخدامها جاره القريب أو البعيد ٠٠٠ ومكث المبعوثون فى مرسيليا خمسين يوما أخرى فى انتظار نقلهم الى باريس ٠ أقاموا فى بيت كبير باحدى ضواحيها ، وشرعوا فى تعلم مبادىء قراءة اللغة الفرنسية ٠ وكانوا يخرجون للنزهة فى وسط المدينة ٠ ويعجب رفاعة باتساع الشوارع ، وبضخامة الأبنية ، وبأناقة « العربات المزينة المحملة التى تستمر عندهم آناء الليل وأطراف النهار تقرقع » ، ويشتد عجبه اذ يشاهد النساء سافرات يعملن فى المتاجر كالرجال ! انها امرأة تلك التى تدير ذلك المقهى الفاخر الذى دخله مع أصـحابه ، فرأى القوم يطالعون الصحف

ـ لأول مرة ـ وخيل اليه طويلا وهو بين المرايا المثبتة على الجانبين المتوازيين أنه فى طريق عام مزدحم بالحركة والناس ! ويلتقى رفاعة فى جولاته ببعض المهاجرين المصريين الذين استقروا فى مرسيليا ، ويسمع ما يرونه له من أخبار المصرية التى تزوجها القائد الفرنسى « عبد الله مينو » و « عبد العال » الذى تزوج فرنسية ٠

والفصل الثانى من هذه المقالة فصل قصير جدا « فى الخروج من مرسيليا الى دخول باريس » ، ينوه فيه رفاعة بالعربات الكبيرة التى يستقلها المسافرون أياما متواصلة ، ولا يشعرون فيها بدوار البحر ، والتى تحط بهم فى آخر كل مرحلة أمام فنادق « فى غاية النظافة والظرافة » وفى فندق بمدينة « ليون » يستريح الركب اثنتى عشر ساعة ، ولا يتاح لرحالتنا أن يرى من تلك المدينة الا ما تطل عليه نافذته ٠ وفى ختام الاسبوع تصل العربة الى باريس ٠ ولا يفوت رفاعة أن يصف جمال الطريق العامر بالقرى المتتالية ، تظلله « الأشجار المرصوصة بوجه مرتب مطرد » ، كما لا يفوته أن يصف جمال نساء الريف ، وما يمتزن به على الباريسيات من صفاء البدن والحسن الطبيعى ٠

والمقالة الثالثة ـ « فى دخول باريس وذكر جميع ما شهدناه وبلغنا خبره من أحوال هذه المدينة » ـ هى أطول مقالات الكتاب ، وتنقسم الى ثلاثة عشر فصلا ٠

يعالج الفصل الأول « تخطيط باريس من جهة وضعها الجغرافى وطبيعة أرضها ومزاج اقليمها وقطرها » ٠ وينظر رفاعة قبل كل شىء فى لفظة « باريس » فيشرح أصلها ، وكيف ينبغى أن تنطق باللغة العربية ٠ ويستطرد بعد ذلك ، لتحديد موقع باريس ، الى درس عن خطوط الطول وخطوط العرض ، استقاه بلا شك من كتاب فى مبادىء الجغرافية الفلكية ٠ وهو يحس بأنه يستدرج القارىء خارج الموضوع ، فيعتذر بأن فى استطراده هذا

معلومات جـديدة مفيدة • ويشبه رفاعة تقلب الجو فى باريس بتقلب طباع أهلهـا • فما أكثر ما تفجاك العاصفة فتنغص عليك نزهتك ، وقد حدد المناخ المطير هناك شكل المبانى المنحدرة السقوف ، وشكل الشوارع « المبلطة بالحجر » المزودة بمجار تحمل الماء الى البالوعات • ويصف رفاعة أنواع المدافىء التى يوقدها الفرنسيون لاتقاء برد الشتاء • ويعجبه خصب الأرض التى تهب البيوت بساتين وافرة الثمر ، متنوعة الشجر ، فقد يغرس الفرنسيون بها أشجارا من غير نبات منطقتهم كالنخل ، رغم قول القزوينى عن النخل فى كتابه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » انه « شجرة مباركة عجيبة ، من عجائبها أنهـا لا تنبت الا فى بلاد الاسلام » ! ••• ويفضل رفاعة ماء النيل على ماء « السين » ، والنزهة فى الروضة والمقياس على النزهة فى جزيرة « السيته » • وهو يتغنى بحنينه الى مصر فى قصيدة متكلفة ركيكة ، استهلها بالنسيب وحاكى فيها شعر المديح التقليدى ، وحيا رجال الأزهر والوالى • وقد لا تظهر روعة وطنيته فى هذه القصيدة المباشرة ، بقدر ما تظهر فى حرصه على اقتباس كل ما يراه نافعا لبلاده ، مثل تلك العربة التى تجرها الجياد بينما تنفتح ثقوب دنها الملىء بالماء لرش الشوارع والميادين • وبعد أن يحصى رفاعة قناطر نهر « السين » ، والطبقات الجولوجية التى تتكون منها أرض باريس ، يذكر عدد « الفسحات » أى الميادين التى تشبه « فسحة الرملية بالقاهرة ـ فى مجرد الاتساع لا فى الوسـاخة » ، وعدد أبواب المدينة الخارجية ، وعـدد قنواتهـا وصهاريجها ، وعدد سكانها ـ وهم يبلغون « فوق مليون من الأنفس » ويتزايدون باطراد ، وتتسـع دائرة عمرانهم « لاعانة ملوكهم على ذلك » •

والفصل الثانى فصل شائق « فى الكلام على أهل باريس » ـ لقد عرف رفاعة شدة ذكائهم ، وتأصل الثقافة فيهم ، وتوقهم الى الفهم والاستطلاع ، والوقوف على كل طريف ، وولعهم بالصيت

ودوام الذكر أكثر من تهافتهم على الكسب • وعرف نشاطهم الجم ، وخفة حركاتهم ، وتقلب مزاجهم وعواطفهم ، وان كانت آراؤهم فى جد الأمور رصينة ثابتة • انهم قوم يحبون وطنهم ، ويكثرون مع ذلك من الرحـلات ويحتفون بالأجانب ، وهم يحرصـون الى حـد التقتير ، الا أنهم يبذرون المال فى طلب اللهو • ويتفننون في اللهو ، ولكنهم يعملون فيتقنون عملهم • وقد يدفعهم الاعتزاز بالنفس الى هاوية الانتحار دون أن يذعنوا للقدر ، ولو أنهم أوفياء للعهد ، يحفظون الجميل ويؤدون الواجب • ومن الغريب أن الرجال عندهم عبيد النسـاء ، يثقون بهن ، ويدللونهن ، ثم يلجأون فى خيانة العرض الى ساحة القضاء بدلا من أن يثأروا ثأرا شخصيا • ويعجب رفاعة بعدم وجود الغزل بالمذكر فى أشعارهم • غير أنه يأخذ على النساء قلة العفاف ، وعلى الرجال قلة الغيرة ، وان كان يرى أن اضطراب الأخلاق نتيجة اجتماعية طبعية لبيئة المدن الكبيرة بوجه عام • وأما عن عقـائدهم ، فهى تقدمية تطورية ، يؤمنون بالعقل ويرفضون ما لا يقبله العقل من الخوارق ، ويقولون ان الحضارة فى المجتمع الراقى تؤدى دور الدين فى المجتمع البدائى • ويستنكر رفاعة انكار بعضهم القضاء والقدر • ثم يصف مظهرهم ، من بياض البشرة ـ لعدم اختلاطهم بالزنوج ـ الى رقة نسائهم اللطيفات ، اللواتى يشاطرن الرجال متعة النزهة والرقص •

ولما كانت لغة الباريسيين هى الفرنسية ، فقـد ختم رفاعة هذا الفصل بحديث عن مزايا هذه اللغة ، مقارنا لها باللغة العربية ، وعن فضل بعض من تعرف بهم من المستشرقين • فاللغة الفرنسية واسعة المجال غنية بالمعانى « لكثرة الكلمات غير المترادفة ، لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ولا بالمحسنات البديعية اللفظية » ، وترجع هذه الثروة اللغوية الى كثرة ما استعاره الفرنسيون من اللغـات الأخرى لاكمال مصطلحاتهم ولا سيما فى العلـوم • وأما جمال الأسلوب لديهم فلا يقوم على الجناس والتورية « فهى من هزليات

أدبائهم » ، « وربما عد ما يكون من المحسنات فى العربية ركاكة عند الفرنسيس » ويبدو لرفاعة أن « اصطلاح اللغة الفرنسية تقليل التصريف ما أمكن وتصريف الفعل مع فعل آخر » • ولكن لكل لغة كيانها ، نحوها وخطها وبيانها « فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك » • ويستطرد رفاعة الى ذكر « علوم العربية » الاثنى عشر ، فينقد تصنيفها ، وينفى نسبتها الى اللغة العربية وحدها • ويشهد هذا النقد وتشهد تلك المقارنات باتساع أفق الطالب الأزهرى القديم • لقد اكتسب معنى النسبية ، وأيقن أن « العلم هو الملكة » لا مجموعة المتون المحدودة التى يستظهرها الحافظ ويعيدها • ولا أدل على ذلك من أن العالم بلغة من اللغات ، كاللاتينية مثلا « له ادراك فى النحو فى حد ذاته ••• فمن الجهل أن يقال انه لا يعرف شيئا بدليل جهله باللغة العربية » • ألم يجالس ويناقش المستشرق الفحل « سيلفستر دى ساسى » Silvestre de Sacy ؟ ألم يقرأ شرحه لمقامات الحريرى ، وكتبه التى ألفها فى النحو « على ترتيب عجيب لم يسبق به أبدا » ؟ ان رفاعة يشبه هذا العلامة بالفيلسوف الفارابى ، ويستنكر « ما يتراءى من أن الأعاجم لا تفهم لغة العرب اذا لم تحسن التكلم بها كالعرب ، فهذا لا أصل له » •

ويستطرد الى سرد ترجمة لحياة الفارابى فيروى بعض نوادره وأبيات من شعره ، مما ينسينا أننا مازلنا نقرأ فصلا عن « أهل باريس » ثم يشيد رفاعة بتغلغل العلم فى جميع شعاب الحياة الفرنسية ، حتى لدى الطباخين والسوقة ! وللنساء فى التأليف والترجمة نصيب ملحوظ ، وفضل ثابت ، وهذا شىء جديد يسجله الصعيدى الرحالة ، ويدفعه الى تغيير رأيه فى المرأة • لقد قرأ رسائل « مدام دى سفينيه » ، وأيقن ان للمرأة مكانا فى الحياة الفكرية ينبغى أن تشغله • وأما الآداب الفرنسية « فلا بأس بها » ، ولكن رفاعة لا يقر جرى الشعراء على « عادة جاهلية اليونان وتأليههم

ما يستحسنونه » ، اذ يقولون مثلا اله العشق ! واله الجمال ! « فألفاظهم فى بعض الأحيان كفرية صريحة ، وان كانوا لا يعتقدون ما يقولون » • ويحاول رفاعة أن يتحفنا بشىء من الشعر الفرنسى ، ترجمه هو الى شعر عربى ، فاذا بترجمته عسيرة متكلفة ، الا أنها أفادته تمرينا وممارسة وصقلا ، وعلمته أن » هذه القصيدة كغيرها من الأشعار المترجمة من اللغة الفرنساوية عالية النفس فى أصلها ولكن فى الترجمة تذهب بلاغتها فلا تظهر علو نفس صاحبها ، ومثل ذلك لطائف القصائد العربية ، فانه لا يمكن ترجمتها الى غالب اللغات الأفرنجية من غير أن يذهب حسنها بل ربما صارت باردة » ولا شك أن ذلك كان نواة لشعور امام المترجمين المحدثين بصعوبات الترجمة ، ولاسيما ترجمة النصوص الأدبية الممتازة •

وفى الفصل الثالث ، يحدث رفاعة مواطنيه عن الحكومة الفرنسية ، « ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر » • انه معجب بالنظام الديمقراطى حيث يدافع عن الملك « ديوان البير » أى (مجلس الأعيان) ويدافع عن الشعب (مجلس النواب) أو « ديوان وسل العمالات » كما يسميه ، ويرى فى هذا التوزيع ذكاء واصابة وكفالة للعدالة « بنكتة لطيفة » ! •

وبعد أن يستعرض أجهزة الحكومة المختلفة ، يثنى على الدستور الفرنسى « وان كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم » ، ويحرص على ترجمة مواده « لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو أبدا ، والعدل أساس العمران » • ولا يكتفى رفاعة بالترجمة بل يعلق على المواد الرئيسية • انه يشيد أولا بالمساواة بين « سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع

ووضيع ··· حتى ان الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليها الحكم كغيره » · ويشيد بالعدل فى تحديد الضرائب والنزاهة فى تحصيلها « بحيث انها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطى وتنفع بيت مالهم ، خصوصا وأصحاب الأموال فى أمان من الظلم والرشوة » · كما يشيد بتشجيع الكفايات اذ أن لكل امرئ هناك الحق فى أن يتولى أى منصب تؤهله له جدارته ، وأن يصل الى أية رتبة يرفعه اليها عمله · ثم يشيد بمبدأ حرية الرأى والنشر الذى لولاه لما استطاعت الصحافة أن تؤدى رسالتها الجليلة · ويضيف رفاعة الى هذا الفصل الخطير ترجمة ما أدخل على الدستور من تعديلات بعد ثورة الشعب سنة ١٨٣١ ·

ويتناول الفصل الرابع « عادة سكنى أهل باريس » · وفيه يحدثنا رفاعة عن المواد التى يستخدمها الفرنسيون فى البناء ، وكيف يكسون جدران الغرف بورق منقوش ، وأرضها بخشب مصقول · ويصف ما يشمله البيت من مختلف الأثاث · وبعد أن يحصى ما فى غرفة الاستقبال من آنية الأزهار وآلة البيانو ، والسجاجيد النفيسة ، « النجفات العظيمة » ، يشير بوجه خاص الى وجود الصحف والكتب المستجدة ليطلع عليها من أراد من الضيوف ، وينتهى بالثناء على « سيدة البيت » التى « يكمل الأنس بحضورها » · ويصنف الدور ، حسب أحجامها ومستواها من الترف ، الى ثلاث مراتب ، ويشرح وظيفة البواب ، ويذكر أثمان العقارات وغلاء ايجار المساكن · ثم يصحبنا الى زيارة « حريم ملك فرنسا » ، حيث يقدر الأشياء بدرجة ما يتجلى فى صناعتها من فن لا بقيمة مادتها الأولية ، مما يدلنا على تطور شخصيته وارتقاء ذوقه · وأغنياء باريس يقيمون فيها أثناء الشتاء ، أما فى الصيف فيهجرون حرها ، وينزحون الى بيوتهم الريفية · والجمع مولعون بالرحلات ، حتى النساء « خصوصا فى مدة من السنة تسمى عندهم مدة التعطيل » · ويختم رفاعة هذا الفصل بمدح نظافة الفرنسيين ووسائلهم اليها ·

والفصل الخامس « فى أغذية أهل باريس وفى عاداتهم المآكل والمشارب » • فخبزهم من الحنطة ، يطحنونها فى طواحين الهواء والماء،ويخبزها الفران فيبتاعونها من دكانه،لأن الفرنسيين يشغلون أيامهم بما هو أهم من صناعة الخبز فى بيوتهم كما اعتاد الناس فى مصر•والأطعمة متنوعة،ولو عند الفقراء • ويهتم الشيخ الامام بطريقة ذبح ما يؤكل لحمه • وله هنا وصف شائق لطريقة ذبحهم للماشية ، وهو وصف لم يخل من فكاهة • على أن هناك المطاعم « الرسطوراطورات » — وهى أماكن فاخرة ، أكثر استعدادا من البيوت لتقديم المآكل والمشرب ، وتوفر راحة الباريسيين • ويعود رفاعة الى وصف المائدة وآدابها وترتيب قائمة الطعام ، مندهشا من اقلال الفرنسيين من شرب الخمر ، ومن التغنى بها كشعراء العرب المتفننين فى الخمريات ! تلى ذلك أرقام واحصاءات عن المواد الغذائية التى يستهلكها سكان باريس • وتثير صناعة المأكولات المحفوظة اعجاب رفاعة ، الا أنه — رغم شهرة الفطائر الفرنسية — لا يكاد يحب أطعمة الفرنسيين • ويروى فى ختام الفصل ما وقع ذات ليلة مع سكير خارج من احدى « الخمارات » •

وفى الفصل السادس عن « ملابس الفرنسيس » يثنى رفاعة على « لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم ، فان الموسر يغير فى الاسبوع عدة مرات ، وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش » • ويشير رفاعة الى هندام الرجال ، ولكنه يطنب فى وصف ملابس النساء التى يراها « لطيفة بها نوع من الخلاعة » • ويستعرض علامات الحداد السوداء ، ومتى والى أى مدى يحملها أصحابها فى كل مناسبة ، وعادة التحلى بالشعور المستعارة •

والفصل السابع تقرير ثمين عن الملاهى فى باريس ، يعرف رفاعة قارئه أولا بالمسرح ، وبرسالته الثقافية والأخلاقية • ورغم فقر اللغة العربية يومئذ فى الألفاظ والمصطلحات الفنية اللازمة

لتسمية ما يضمه المسرح ، لا يحجم رفاعة عن وصف قاعة التمثيل ، ومراحل « اللعب » ويشبه اللاعبين واللاعبات « بالعوالم » • ان هذه الصفحة الساذجة لوثيقة هامة يؤرخ بها دخول المسرح الحديث الى الأدب العربى المعاصر •

ويعدد رفاعة أنواع « التياتر » و « السيكتاكل » الباريسية ، من الأوبرا الى السرك • يتحدث عن لون آخر من اللهو وهو « البال » أى حفلة الرقص • ولا يفوته أن ينبه قارئه الى جمال هذه الرقصات التى يشترك فيها الرجال والسيدات وهم جميعا فى أفخر حللهم وزينتهم ، وكأنهم يؤدون حركات رياضية مهذبة راقية ، على حين بات الرقص فى مصر «من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات» •

ويختم رفاعة هـذا الفصـل بجولة فى حدائق باريس ، من « الشانزليزيه » الى الشوارع الكبرى « البولفـار » حيث يتنزه العشاق ليلا ، ويأخذه الطرب ، فيخرج من أعماق ذاكرته أبياتا من الشعر القديم عن الليل والغرام •

ويتدرج المؤلف من هذا الفصل الى الفصل التالى بعبارة بارعة : « وبالجملة فلا يمكن أن الانسان يتمتع بهذه المتنزهات الا بصحة البدن » • ذلك أنه يريد أن يشرح لنا الآن « سياسة الأبدان بمدينة باريس » • غير أنه لا يكاد يذكر تحت هذا العنوان الا الحمامات ، مقارنا لها بحمامات مصر ، ومدارس الرياضة البدنية • وأما الحديث عن الطب ، وما بلغته فيه باريس من تقدم ، فهو موضوع الفصل التاسع الطويل •

ويضيف رفاعة الى هذا الفصل « نبذة » فى الطرق الطبيعية للعناية بالصحة ، يوجهها الى صحاح البدن والى المرضى والى الناقهين ويعنونها « نصيحة الطبيب » ، وهى ترجمة لكتيب شعبى من نشرات بعض الهيئات الطبية الفرنسية •

ونعود في الفصل العاشر أيضا ـ « فى فعل الخير بمدينة باريس » ـ الى ذكر مختلف المستشفيات • ثم يتحدث رفاعة عن الجمعيات الخيرية ، وعن ملاجىء اللقطاء والأيتام ، والعمى • والشيوخ ، وجرحى الحرب ، وعن « دواوين الاحسان » أى المكاتب التى تتولى اعانة المحتاجين واغاثة المنكوبين ، وعن مراكز اسعاف المصابين وفى هذه المنظمات ما يعوض المجتمع عن بخل الفرنسيين أفرادا ، فان الجودشيمة العرب •

والفصل الحادى عشر « في كسب مدينة باريس ومهارنها » • ان حب العمل والسعي الى الكسب ، متأصلان فى نفوس هؤلاء الناس « حتى ان كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى الذم هى لفظة الكسل والتنبلة » • ويستعرض رفاعة تجاراتهم ، وأولها « معاملات الصيارفة » أى البنوك ـ « صيارفة الدولة أو الميرى ، وصيارفة باريس » • ثم يعرف بشركات التأمين ، وهو يسميها « جمعية الشركاء فى الضمانة » •

ويعدد أنواع المصانع ، وفوائد المعارض والمواد التى يدرسها الطلبة فى معاهد التجارة • ومما يساعد على رواج التجارة ، تيسير وسائل المواصلات ، وانتظام البريد ، ودعاية الصحف للسلع أو توزيع الاعلانات عنها • ولقد فطن الفرنسيون الى أن الاقتصاد من أهم قواعد الثروة الفردية والوطنية ، واشتد اهتمامهم بالتوفير ، و « تدبير المصاريف » حتى جعلوا من الاقتصاد علما ذا مقدمات ونتائج •

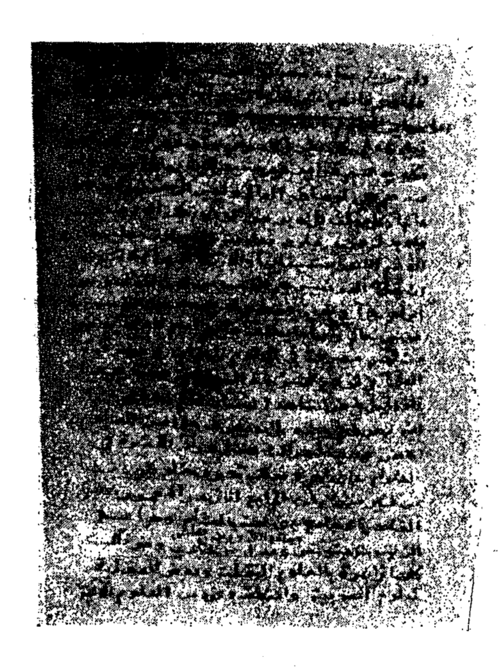
والفصل الثانى عشر « فى دين أهل باريس » • والفرنسيون ، فيما عدا قليل من اليهود والبروتستانت ، يدينون « بالنصرانية القاثوليقية » ، وفى أكثر الأحيان « ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم فهم داخلون فى اسم الكتابيين فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه » بل ومن الفرنسيين من ينكر العقائد ، ولا يؤمن الا بما

يقبله العقل ، ويقـاطع رجال الكنيسة وبرميهم بالجهل • ومن أحاديث هؤلاء المنصرفين عن الروحانيات استقى رفاعة ما يقال عادة فى ذم القسيسين ممن لا يؤذن لهم بالزواج « فان عـدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم » ، وممن يقومون فى بعض الأعياد بمواكب دينية غريبة « من باب الهوس » • ويشرح رفاعة لقارئه « درجـة القسيسية » من الكردينال الى الشماس • وقد عرض رفاعة مخطوط كتابه على المستشرق سيلفستر دى ساسى ، فعلق على هذا الجزء مصححا تعميمه بنظرات أدق ، مكملا اللوحة بما غاب عن بصر الشيخ الامام من التفاصيل ، ونشر رفاعة تعليق دى ساسى فى الفصل نفسه •

والفصل الثالث عشر فصل طويل عن « تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون والصنائع » يحرص فيه المبعوث على نقل صورة وافية عن الحياة الفكرية فى العاصمة الفرنسية • انه معجب اعجابا لا حد له بالعلوم التجريبية ونتائجها المحققة بفضل الأجهزة والمعامل المتخصصـــة ، ولكنه يحذر قارئه المؤمن من « الخوض فى لغـة الفرنساوية المشتملة على شىء من الفلسفة » لأن لهم « فى العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان ردها » • على أن اللغة الفرنسية بوضوحها ودقتها ، وتوفيرها على الأسلوب عناء التطبيقات البلاغية التى تعوق تيار الفكرى لدى المعبر باللغة العربية ، قد أصبحت أداة مثالية للبحوث العلمية • وما أصدق هذه الشكوى بقلم خريج الأزهر القديم ! وبفضل بساطة اللغة ، تجد الفرنسيين أصحاب ثقافـة يدهشك اتســـاعها ، وتجد « الصغير الذى خرج من سن الطفولية » ذا استعداد تام لتلقى المعرفة وتحصيلها • ويقارن رفاعة بين علمـاء باريس ، الذين يتوجون دراســاتهم العـــامة الطويلة بالتخصص فى فرع واحد يبتكرون فيه بحثا جديدا ، وبين علماء الأزهر الذين يحصرون العلم فى دائرة المواد الشرعية • ويبين كيف

أدى هذا التضييق الى املاق المدارس العربيـة من العـلم بمعناه الحديث • ثم يستعرض دور الثقافة والتعليم من المكتبات العامة والخاصة ، الى متاحف النبات والحيوان والجيولوجيا ، ومن المرصد الى « الأكاديميات » المختلفة ، والكليات والمدارس و « البنسيونات » • ويشتد اعجاب رفاعة بنشاط تجارة الكتب ، وبكثرة المنشـورات والدوريات ، ويعود الى ذكر فـوائد الصحف ، فانه يسـتكشف الصحافة استكشافا •

وفى المقالة الرابعة يعرف رفاعة قارئه بالثقافة التى حصلها فى باريس وبمراحل دراسته وامتحاناته ونظام البعثة • ففى الفصل الأول من هذه المقالة يذكر ذلك الكتاب الصغير المبسط المصور الذى تعلم فيه مبادىء قراءة اللغة الفرنسية بتقطيع الألفاظ ، ويثنى على منهجه التربوى • ثم يسجل البرنامج الذى اتبعه المبعوثون مدة عام تقريبا « فى بيت الأفندية » قبل أن يتفرقوا فى عدة « بنسيونات » يخالطون فيها ، وعنوانه الفرنسيين ليتقدموا فى اللغة ويفيدوا من الدروس • وفى الفصل الثانى ، وعنوانه « تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج » ، يسرد رفاعة مواد اللائحة التى وضعها المشرفون على البعثة • وفى الفصل الثالث ، يورد مثلا من الخطابات التى كان يرسلها محمد على الى هؤلاء الطلبة فى باريس ، مترجما من اللغة التركية « فمن هذه الفرمانات ما كان من باب ما يسمى عند الثمانية احياء القلوب ، ومنها ما كان من باب التوبيخ » كما يورد ترجمة لرسالة اليه من جومار مدير البعثة يعترف فيها باجتهاده وثمرة تحصيله • ويواصل رفاعة نشر الرسائل ، فيوافينا فى الفصل الرابع بما كتبه اليه المستشرقان « سيلفستر دى ساسى » وكوسان دى برسفال Caussin de Perceval من « تخليص الابريز » ، كما يضيف ترجمة لخطاب آخر • يسأله فيه المستشرق « جوزيف رينـــو » (Joseph Reinaud) عن الكتب التى ترجمهـــا من الفرنسية ، ولا ينسى أن يطلعنا كذلك على رسالة ودية من صديقه



صفحة من الفصل الثالث عشر فى المقالة الثالثة عن « علماء الفرنسيس » ـ كما وردت فى مسودة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » .

« جول سلادان » • وفى الفصل الخامس ، يستعرض رفاعة الكتب التى درسها فى النحو والتاريخ والرياضـــة والجغرافية والمنطق والأدب الفرنسى • ولما كانت الصحف من أحب مطالعاته فى باريس ، فانه يتحفنا بترجمة مقالة عن الحرب بين الأتراك والروس • وأخيرا يصل ، فى فصل سادس ، الى ذكر الامتحانات التى أداها والجوائز التى نالها • ويترجم لنا ما نشره جومار عن امتحانه النهائى فى المجلة الموسوعية (La Revue Encyclopédique) ، وهذا النص بالاضافة الى شهادة أستاذه « شيفالييه » Chevalier » خير تقرير عن بعثته •

ولقد شهد رفاعة فى باريس ، قبيل عودته الى مصر ، ثورة الشعب الفرنسى على حكومة الملك شارل العاشر فى يوليو سنة ١٨٣٠ ، فأفرد المقـالة الخامســة من كتابه لرواية هــذا الحديث التاريخى • والفصل الأول من هذه المقالة تمهيد يحاول فيه رفاعة المؤرخ أن يستنبط « علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم » ، متتبعا اتجاهات الأحزاب المختلفة منذ الثورة الكبرى سنة ١٧٩٠ (كذا) • والفصل الثانى عرض لأوامر الملك التى أطاحت بحرية النشر وأقامت الرقابة على الصحف والمطبوعات ، وما تلا ذلك من احتجاب الصحف ، واضراب العمال ، وغضب الشعب على الحكومة ، ونشوب حرب أهلية • وفى الفصل الثالث يستنكر موقف الملك المعادى لحرية الشعب ويقص كيف أفضى به عناده الى التنازل عن العرش وخلع المملكة على ابنه ، ولكن بعد فوات الأوان ، فقد رأى مجلس النواب أن يخلفه « الدوق دورليان » • ويتتبع فى الفصل الرابع الخطوات الدستورية التى اتخذت لتولية هذا الدوق ملكا للفرنسيين ــ لا ملكا لفرنسا ــ باسم « لويس فيليب » • ثم يروى فى الفصل الخامس كيف قبض الشعب على وزراء شارل العاشر وكيف حاكمهم ، ويذكرنا اعجاب رفاعة بنظام القضاء الفرنسى بما سبق من اعجاب الجبرتى به فى حديثه عن قضية اغتيال القـائد

« كليبر » في القاهرة . ويصور لنا الفصل السادس دهشة رفاعة وهو يستطلع فى شغف سخرية الفرنسيين من ملكهم المخلوع ، برسوم تظهر في الصحف أو تلصق على الجدران ، وبنشر فضائحه فى أوراق مطبوعة ، وهـذا فى نظره أكبر دليل على حرية الرأى هناك . ويحاول فى الفصل السابع أن يحيط بنتائج هذه الثورة من الناحية الدولية ، فقد أخذ كثير من الأمم الصـغيرة يطالب باستقلاله اسوة بالشعب الفرنسى ، وتحفز ملوك أوربا للنيل من فرنسا . لقد كتب رفاعة ـ في وضوح وذكاء ـ ذلك التاريخ الذى عاصره في باريس ، ورجع اليه فى مقالات الصحف .

والمقـالة السـادسة والأخيرة من « تخليص الابريز » كتيب تعليمى يقدم لمحات من المواد التى سافر الطلبـة ليحصلوهـا فى باريس . يبدأ رفاعة ـ في الفصل الأول ـ بشرح تصنيف الأوروبيين للعلوم ، مقارنا مذهبهم في ذلك بمذهب العرب . ويتوقف ـ فى الفصل الثانى ـ عند علم اللغة ليقارن بين قواعد الفرنسية وقواعد العربيـة . لقد حاول عبثـا أن يجد فى النثر الفرنسى الزخارف البديعية التى اعتادها . ثم ينظر فى الشعر ، فيردد ما سبق أن نبه اليه زملاءه الأزهريين : « نظم الشعر غير خاص بلغة العرب » . وينتهز هذه الفرصة فيملأ خمس صفحات بمختارات من « أحسن القصائد والمقطعات » تدلنا على ذوقه الأدبى وذوق معـاصريه . والفصل الثالث ـ « في فن الكتابة » ـ يؤكد لنا اتجاه رفاعة الجديد الى الدراسات المقارنة ، فهو يستعرض الحروف الهجائية في عدة لغات ويوازن بينها . ويعود ـ فى الفصـل الرابع ـ الى « علم البلاغة » ، فيعرف بموضوعه ، ويكرر أن « هذا العلم بهذه الحيثية ليس من خواص اللغة العربية بل قد يكون فى أى لغة كانت من اللغات » ، كما يكرر أن القيم الجمالية للتعبير تختلف من بيئة الى أخرى . ثم ينتقل ـ في الفصل الخامس ـ الى « المنطق » ، فيعدد مباحثه ومبادئه ، ويترجم في الفصل التالى « المقولات العشر المنسوبة

الى أرسطو » عن كتاب المنطق الشهير ، الذى درسه فى باريس "La Logique de Port-Royal" • وبعد أن يتحدث ـ فى الفصل السابع ـ عن « علم الحساب المسمى باللغة الأفرنجية الأريتماطيقى يقدم « نبذة » من الجغرافيا تحدد أقسامها الكبرى : جغرافيا طبيعية ، جغرافيا رياضية ، جغرافيا سياسية ، الخ • ولما كان التاريخ علما جديرا بالاهتمام فقد رأى رفاعة أن يترجم للقارىء ، عن العبر التى نستمدها من دراسة ماضى الانسانية ، صفحتين بليغتين من نثر أستاذه « جوزيف أجوب Joseph Agoub ويصرح رفاعة فى آخر مقالته بأنه تعهد بنقل هذين العلمين من الكتب الحديثة خدمة لمواطنيه •

هكذا قدم رفاعة لنا رحلته ، وثمرتها ، ولم يبق عليه الآن الا أن يكتب « الخاتمة » • وانه ليستهلها بمدح « ولى النعم » ورؤساء البعثة الذين عادوا ليشغلوا مناصب عليا ، مدحا أجوف ، فى جمل متكلفة مسجوعة • ثم وصف رفاعة طريق عودته من باريس • وقد وقفت به العربة فى « فونتنبلو » حيث أوحى اليه القصر التاريخى الذى زاره بعد أن تنكر الزمان لمن سكنوه ، أن يذم الدهر وأن يستطرد الى رواية أبيات من الشعر المأثور فى هذا المعنى • ويشبه رفاعة النصب الذى أرادت أسرة « البربون » أن تسجل عليه أسماء ملوكها ، بالآثار المصرية القديمة • ويورد آراء العلماء المحدثين فى الأهرام حتى يقابلها القارىء بما ذكره فيها المؤرخون العرب « من الأوهام » وهنا نلمس الوعى الجديد الذى يدفع هذا الصعيدى الناهض الى المطالبة بحماية آثار أصبح يقدر قيمتها الوطنية والجمالية • ثم يستأنف رفاعة استعراض المدن التى مر بها : « نيمور » Nemours وملان Melun ، حيث مماليك نابليون من مهاجرى مصر وسورية و « روانة » Roannes التى يميزها بهذه التسمية من « روان » Rouen الواقعة فى شمالى فرنسا ، و « ليون » Lyon ، و « أورجون » Orgon • وفى ميناء

مرسيليا ، ركب رفاعة سفينة تجارية أوصلته الى الاسكندرية . وهو لا يصف الطريق فى البحر « لأنه عين ما سبق فى المقصد » .

على أنه لا يضع القلم قبل أن يصارحنا بخلاصة رأيه فى الفرنسيين « لا شك فى أنهم أقرب الى العرب منهم الى الترك ، فهم يحرصون على الشرق والحرية ، ويحبون الافتخار ، ويفون بعهودهم » . ولكى يشبع استطلاع قرائه الذين يكثرون السؤال عن حال النساء عند الافرنج ، يعلن أن العفة ليست نتيجة الحجاب ، بل نتيجة « التربية الجيدة » و « التعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبة » و « الالتئام بين الزوجين » . وقد لاحظ فى فرنسا « أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات الى الرتبة الوسطى دون نساء الأعيان والرعاع » . ويعجب رفاعة « بمروءة » الفرنسيين ، وتلك من صفات العرب الأصيلة وان يكون أضعفها فى الأزمنة الأخيرة « مشاق الظلم ونكبات الدهر » . وأما الحرية التى يعتز بها الفرنسيون ، فقد كانت أيضا من أهم ما يعتز به العرب ، ورفاعة يستشهد على ذلك بأمثلة من تاريخ العرب وأشعارهم .

ولا ينسى الطالب الوفى أن يشكر « مسيو جومار » لتفانيه فى خدمة المبعوثين ، ويترجم شطرا من مقدمة التقويم الذى وضعه جومار « لاستعمال مصر والشام سنة ١٢٤٤ هـ » ، ففيه يتحدث عن وجوب الاصلاح فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة والصحة والتعليم . وفى الختام ، قبل أن يرفع الكاتب الدعاء التقليدى بالتوفيق للحكومة ، نحس أنه يدافع عن نفسه « من قال الناس وقيلهم » فى حزم وتواضع معا .

لكل كتاب قصة . وقصة تأليف « تخليص الابريز » يروى لنا رفاعة طرفا منها فى خطبته ، اذ يقول :

« فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه أشار على بعض الأقارب والمحبين ـ لاسيما شيخنا العطار ، فانه مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الآثار ـ أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة ، والأشياء العجيبة ، وأن أقيده ليكون نافعا ... » .

أما « الشيخ حسن العطار » فنحن نعرف ما سبق له من الاتصال بالفرنسيين فى مصر ، والتنقل فى الشام وتركيا ، لقد كان يحب الرحلات ويحب الكتب ويغدق النصح لتلميذه الأثير . وأما « الأقارب » فلابد أنهم أخوال رفاعة الذين شجعوه قبل ذلك على السفر فى طلب العلم من طهطا الى القاهرة ، وأما « المحبون » فهم بلا شك أصدقاؤه من شباب الأزهر الذين أخذوا يتطلعون الى بشائر النهضة ، وحسبنا أن نسمى من بينهم « عياد الطنطاوى » الذى رحل فيما بعد الى بطرسبرج ، وكتب سنة ١٨٥٠ « تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا » .

هؤلاء جميعا كانوا خليقين بدعوة رفاعة الى تأليف كتاب عن رحلته . ولو لم يفعلوا ، لكتب رفاعة من تلقاء نفسه « تخليص الابريز » . فهذا الفتى الأديب الذى يسعد بانشاء النثر وقرض الشعر ، هذا المصرى الذى لم يكد يغادر الأزهر حتى وجد نفسه فى قلب باريس ، هل كان يستطيع أن يصمت أمام مشاهد الحضارة الرائعة التى انكشفت له أسرارها ؟ لقد أقام خمس سنين تهتز مشاعره بما يرى وبما يسمع وبما يقرأ . فهى اذن باريس التى أوحت بهذا الكتاب ، على حين لا يظهر حسن العطار ولا تظهر توصيته توصيته الا فى الصفحات الأولى ، وهى فى أكبر الظن مكتوبة بعد عودة رفاعة الى مصر .

ان « تخليص الابريز » هو الثمرة الطبيعية للرحلة . وفيه نتتبع تجربة الكاتب تلك المحاولة العميقة لفهم الحياة الجديدة

واقتباسها • فالمقارنات بين العيش فى مصر والعيش فى فرنسا لا تكاد تنقطع • وفى كل فصل يتدفق تيار من الوطنية المتأججة هو الذى يدفع الصعيدى المتحرر الى الكتابة • لقد أملى هذه الصفحات عزم شديد متوثب ، يريد أن تنطلق مصر مسرعة الى الأمام لتلحق بركب الانسانية المتقدمة •

وأنشأ رفاعة كتابه وبلوره فى كثير من التأنى والروية ، كان عليه أن يتعلم اللغة الفرنسية ، وأن يلم بمبادىء العلوم الحديثة وأن يترجم ما يطلب منه ترجمته ، فاذا خلا الى نفسه فى أوقات الفراغ كتب ما تيسر له من « تخليص الابريز » • وكان يعود الى أوراقه فيضيف اليها سطورا جديدة عقب درس من الدروس ، أو مطالعة تأثر بها ، أو نزهة فى بعض أحياء العاصمة ، أو زيارة لسيلفستر دى ساسى « بالكوليج دى فرانس » ، أو لكوسان برسفال فى مدرسة اللغات الشرقية ، أو لجوزيف رينو بدار الكتب ، أو بعد حوار خصب مع جومار ، أو حديث شائق مع صديقه جول سلادان •

وفضلا عن هذه المصادر الشفوية ، كان رفاعة يستقى المعلومات من كتبه الدراسية ولاسيما فى الجغرافية والتاريخ ، ومن مقالات الصحف والمجالات التى شغف بقراءتها ، ومن هنا كان دأبه ، كلما ورد ذكر علم من الأعلام أو اسم مدينة شهيرة ، على اتحاف القارىء بمحصول غزير ثقيل من العلم المنقول • وينبغى ألا نلوم رفاعة على اسرافه فى الجمع من الكتب ، فقد كان متعطشا الى المعرفة ، تواقا الى الوقوف على كل جديد وقديم • وان نهم هذا الطالب لظاهرة من الظواهر التاريخية التى يتميز بها عصر النهضة فى كل مكان ، فالنهضة تفتح للمعرفة ، وكشف عن المجهول ، وانتهاب لكنوز التراث الانسانى ، وقد صور «رابليه» (Rabelais هذه النزعة فى قصة من أهم آثار الأدب الفرنسى فى القرن السادس

عشر عندما أعد لبطله العملاق « جارجانتوا » برنامجا موسوعيا يدرسه فى باريس .

على أن رفاعة ، وان مثل هذه النزعة باسترساله فى التعريفات والتحقيقات المختلفة ، لا يزال يبدو أمامنا بوجهه الأليف ، وجه « الواعظ » الذى اعتاد أن يتكلم ليرشد سامعيه ، الواعظ الذى يتحول الى « أستاذ » يشرح ويبحث ويترجم ، ويصبح المعلم الأول لشباب مصر الحديثة .

وعلى جانب هذه « النبذات » التى لا يخلو تجميعها وتلصيقها من سذاجة ، نستطيع أن نتسمع أصداء مطالعات أدبية أرقى وأظرف . فرفاعة يفتتح الفصل الأول من مقالته الأولى بالرجوع الى أصل المجتمع وبداية الحضارة كما كان يفعل كتاب القرن الثامن عشر الفرنسيون ممن اغتذى بأدبهم ، فقد كانت تملؤهم ثقة بالانسانية ، وثقة بتقدم العلم ، وثقة بذكائهم ، جعلتهم يتخيلون تاريخ الجماعة البشرية فى مختلف الأطوار ، وكأنهم يريدون اعادة خلق الدنيا وتشكيلها على ما يتمنونه من صور .

ومن الثابت أن رفاعة قد قرأ بعض مؤلفات « روسو » و « فولتير » و « مونتسكيو » ، ولا شك أنه فى حديثه الفكه عن الباريسيات والباريسيين ، وعن سرعة تنقلهم من زى الى زى ومن بدعة الى بدعة ، متأثر بصفحات شهيرة لمونتسكيو فى « الرسائل الفارسية » (Les Lettres Persanes)

وكان بين يدى رفاعة ، وهو يجمع مادة كتابه ويصنفها ، نماذج من كتب الرحلات ووصف الشعوب ، فهو يشير الى « رحلة صنفها بعض المسافرين فى بلاد الدولة العثمانية » و « رحلة فى بلاد الجزائر » دون أن يهتم بذكر اسم مؤلف هذه ولا اسم مؤلف تلك .

ولكنه يذكر مرارا وفى دقة كتابا ثالثا قرأه فى باريس ، واقترح عليه جومار أن يترجمه وفرغ فعلا من ترجمته قبل أن يتم « تخليص الابريز » بسنة على الأقل ، وذلك هو كتاب ديبنج : « لمحة تاريخية عن أخلاق الأمم وعاداتها » .
(Depping : Aperçu historique sur les moeurs et coutumes des nations.)

الذى عنونه رفاعة « قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » .
ان هذا الكتاب الجامع يرجع اليه الى حد كبير ، الطابع الموسوعى الذى اتخذته « رحلة » رفاعة . غير أنه علم رفاعة فن تقسيم مادته وتبويبها ، وحسبك القاء نظرة على فهرست هذا الكتاب من ناحية ، وعلى فهرست « تخليص الابريز » من ناحية أخرى ، حتى تقدر مبلغ ما يدين به رفاعة لديبنج . فموضوعات فصول رفاعة عن باريس ، الفصل الرابع والفصل الخامس والفصل السادس ، هى موضوعات الفصل الأول والفصل الثانى والفصل الثالث من كتاب ديبنج ، على التوازى : المسكن ، والمأكل ، والملابس ، لقد مضى رفاعة يطبق على أهل باريس ما درسه ديبنج لدى شعوب الأرض المختلفة . ولعل اطناب هذا الأخير فى حديثه عن النساء ، وعن التجارة ، وعن الألعاب والرياضة ، وعن الرقص والملاهى ، هو الذى أغرى رفاعة بالاطناب فى وصفها عند الفرنسيين . ولا شك أن الشيخ رفاعة ، حينما أخذ فى تأليف كتابه الأول ، كان فى حاجة الى مثال يحاكيه ، ومرشد يقتفى خطاه .

وفى ١٩ من أكتوبر سنة ١٨٣٠ ، يوم أدى رفاعة امتحانه النهائى فى باريس ، قدم « تخليص الابريز » الى اللجنة التى ناقشته ، كأنه رسالة تكميلية الى جانب اثنى عشر موضوعا مترجما (١) .

---

(١) Revue Encyclopédique, nov. 1831, t. XLVIII. pp. 521-523.

وفى شهر فبراير سنة ١٨٣١ ، حرص رفاعة قبل مغادرته باريس على أن يستطلع رأى المستشرقين سيلفستر دى ساسى وكوسان دى برسفال فى « تخليص الابريز » ، فعهد بمخطوطه الى كل منهما ، وأثبت ترجمة شهادتيهما فى كتابه · ومن خلال هذين التقريرين ، وتقرير ثالث طويل نشرته بعد عامين « الجريدة الآسيوية » · بقلم كوسان دى برسفال (١) نستطيع أن نعرف كيف كان ذلك المخطوط فى جملته ، لأننا لم نعثر بين أوراق رفاعة التى تحفظها أسرته الا على أجزاء متفرقة من مسودة « تخليص الابريز » · وعلى كل حال ، فان الصفحات الأربع التى ذيل بها كوسان دى برسفال مقالته ، لتكون أمثلة من نثر رفاعة ، هى أول ما نشر من الكتاب ، سنة ١٨٣٣ ·

تستوقفنا اذن فى دراسة تكوين الكتاب ثلاثة أطوار : المخطوط ، والطبعة الأولى التى تمت فى بولاق سنة ١٢٥٠ هـ · سنة ١٨٣٤ م · ، ثم الطبعة الثانية التى تمت فى بولاق سنة ١٢٦٥ هـ سنة ١٨٤٩ · أما الطبعة الثالثة ، الصادرة فى سنة ١٩٠٥ م · وان كانت لا تختلف عن سابقتها ، فلا تعنى الباحث عن تطور رفاعة ، لأنها أعدت ونشرت بعد وفاته ·

والى جانب تقريرات المستشرقين عن مخطوط « تخليص الابريز » ، لدينا اليوم من مسودته عدة أجزاء ، لم يرقم رفاعة صفحاتها ، وفيها نتتبع ما يأتى :

(أ) آخر صفحات « المقدمة » ، ابتداء من « بلاد غرناطة الجديدة » ، وأول صفحات « المقصد » حتى منتصف الفصل الثالث من المقالة الأولى عند عبارة « غير أن المعتمد على الكريم ، لا يخشى من الخطب العظيم » ·

---

(١) Nouveau Journal A iatique, t. XI. Mars, 1933.

(ب) الصفحات الأخيرة فى الكلام على اهل باريس ، أى من الفصل الثانى فى المقالة الثالثة ، ابتداء من « ليلا ونهارا على أحجار أرض باريس خصوصا اذا كانت المستأجرة للعربية مرأة فان العربجى يجهد خيله » حتى ترجمة « المادة الحادية عشرة » من الدستور الفرنسى ·

(ج) الصفحات الأخيرة من الفصل الثانى عشر « فى دين أهل باريس » ابتداء من « فساير من أراد أن تغفر ذنوبه » حتى نهاية المقالة الثالثة بنهاية الفصل الثالث عشر منها · وهنا تليها فى المسودة مباشرة « المقالة الرابعة فى ذكر نبذات من العلوم والفنون » · وهذه المقالة تبدأ « بنبذة » فى « اللغة » يتصل بها الحديث عن « فن الكتابة » ، ثم عن « علم البلاغة المشتمل على البيان والمعانى والبديع » ، ثم عن « علم المنطق » حتى « ومثال التعريف اللفظى قولك الانسان هو الآدمى اذا فرضنا أن لفظ الآدمى أشهر وأعرف » ·

(د) وقد وجدنا ورقة مزدوجة ، على ثلاث صفحات منها ترجمة عاجلة بخط رفاعة لطائفة من مواد القانون المدنى التى تنظم الزواج فى فرنسا ، أولها « ولنذكر لك عدة أحكام من شريعتهم المدنية » · ـ وثمة ورقة مزدوجة أخرى ، لاشك فى أنها من مسودات « تخليص الابريز » اذ تبدأ احدى صفحاتها بهذه الجملة ، ومكانها فى الفصل الحادى عشر من المقالة الثالثة : « وقد اخترعوا فى باريس عربيات كبيرة تدور الى طريق المدينة وتوسق من عدة معدودة كالسفينة بثمن معلوم تسمى الأمنيبوس معناه لكل الناس » تلى هذه السطور محاولة قصيرة لبداية فصل جديد لم يتم « فى السجن والجنايز والمقابر » لا يحمل رقما بعد · والطريف أن الجزء الثانى من الورقة عينها بصفحتيه يحمل تعريفا بالموسيقى الغربية مترجما من بعض كتب تبسيط العلوم ، وقد نقل رفاعة أيضا فى هذا الحيز ثلاثة رسوم توضح أول علامات تدوين الموسيقى ·

(هـ) كما وجدنا ورقة مزدوجة ثالثة ، مهد فيها رفاعة لفصل المنطق من مقالته الأخيرة بصفحة عامة عنوانها « الكلام جملى على علم الفلسفة » ، على حين اكتسى الجانب الآخر من الورقة بما قرأناه فى الكتاب من « الكلام على علم الحساب ». ولعل رفاعة قد أنجز ما وعدنا به فى عنوان تلك المقالة المدرسية الجامعة أى بذكر « نبذات من العلوم والفنون المسرودة فى الباب الثانى من المقدمة » فكتب بالفعل ـ نقلا عن مرجع فرنسى ـ فصولا عن « البحرية » وعن « علم مصالح البلدان المسمى بالأفرنجية الدبلماسيا » وعن « علم الميكانيقى » يعنى علم التحليل بالآلات وعن « الايدروليقى » وعن « علم الكيميا » وعن غيرها مما ضاع بعض أوراق هذه الكراسة الصغيرة التى تقدم لنا من خط المؤلف ومن أسلوبه مرحلة أكثر رسوخا ونضجا ، غير أنه عدل عن نشر هذا كله فى كتاب رحلته ، أو لعله أعده لطبعة تالية .

وتختلف الطبعة الأولى عن المخطوط فى الكم والكيف. فالمخطوط لم يكن يتألف كما لاحظنا الا من أربع مقالات ، رابعتها « فى ذكر نبذات من العلوم والفنون » . بل كانت هذه المقالة الرابعة ناقصة يوم تصفح العمل « كوسان دى برسفال » فلم ير سوى « لمحة فى الرياضة والفلك ومبادىء الهندسة والجغرافيا الطبيعية » . أضاف رفاعة اذن الى فصول تلك المقالة بعد رجوعه من باريس صفحات عن اللغة والمنطق والتاريخ ، وأضاف الى الكتاب خاتمة ومقالتين جديدتين رقمهما الرابعة والخامسة فأصبحت مقالة « العلوم والفنون » هى السادسة . وفى أولى المقالتين الجديدتين أودع أهم وثائق دراسته وامتحاناته ومراسلاته ، وفى الثانية روى ثورة الشعب الفرنسى سنة ١٨٣٠ . غير أنه نسى أن يصحح ، حتى فى الطبعة الثانية ، خطة الكتاب التى أعلنها فى مستهل « المقصد » فهى مازالت تنبىء القارىء بالمقالات الأربع القديمة .

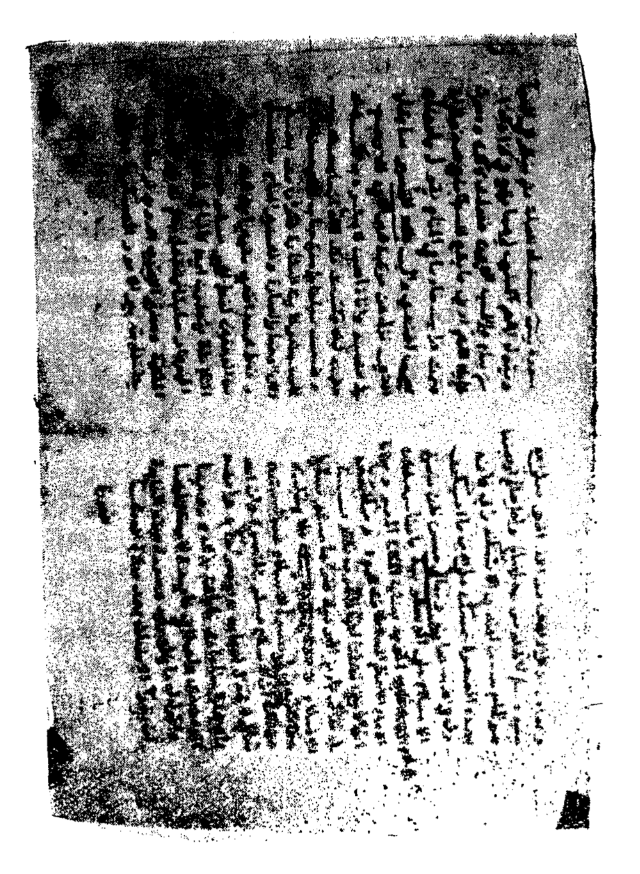
وعلى الرغم من ازدياد الكتاب بنحو ثلث حجمه بعد عودة

المؤلف الى مصر فقد حذف رفاعة بعض صفحات مخطوطه الباريسى قبل أن يسلمه للمطبعة • واذا كنا لا نستطيع احصاء جميع ما حذفه رفاعة ، لأننا لم نعثر على المخطوط كاملا ، فالثابت أنه حذف ـ على الأقل ـ نصين خطيرين •

وفيما يلى النص الأول ، نقلا من المسودة ، ومكانه فى نهاية الباب الرابع من « المقدمة » بعد تسمية « حسن أفندى الاسكندرانى » والدعاء له :

« والعادة أن كل أربعين من أمة النبى صلى الله عليه وسلم لاتخلو من رجل صالح ولعل صالح أربعيننا هو الحاج حسن أفندى الاسكندرانى • فانه بهذه السفرة تمسك على الدين ما أمكن • وله فى الله سبحانه وتعالى حسن ظن بنصرة الاسلام على الموسقوبية بأنفاس سلطان الاسلام المؤيد بعناية الملك المعبود ، مولانا الامام الأعظم السلطان محمود • ومما اتفق أنها كانت تصلنا أخبار الحرب مكتوبة فى تذاكر باريز اليومية فنراها مشومة على الاسلام ، فلايشك هذا الأفندى فى نصرة الاسلام • فسألته عن ذلك ، فكان يقول ان الاسلام مبشر بالنصرة ، وان الله تعالى لا يخذل أحبابه وينصر أعداءه وانه رأى جملة منامات ناطقة بذلك ، ورؤيا المؤمن حق • وأعطانى فائدة لأستعملها وأقول ما يظهر لى • وصورة هذه الفائدة أن يقرأ الانسان بعد صلاة العشاء سورة يس مستقبلا للقبلة ، ثم ينظر الى السماء ويقول الهم اكشف لي عما يقع فى كذا وكذا ، ثم ينام على الجنب الأيمن • ففعلت ذلك ، ودعوت قائلا اللهم أرنى ما يقع للسلطان فى هذه الحرابة • فنمت ، فرأيت خادما فى المنام يقول ما معناه : محمود أفندى والى القصير سابقا الذى عن مرتبة أمير الأى قد رجع فى منصبه ، وأنا ذاهب لأبشره بذلك اه •

فقمت ليلا وكتبت ذلك لئلا أنساه ، وقصصته صباحا على



من مسودة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز »
صفحتان فى آخر مقدمة الكتاب حذفهما رفاعة عند طبعه

حضرة جناب الحاج حسن المذكور فاستبشر غاية البشارة · فتواردت بعدل ذلك الأنباء السارة · وتفسير المنام سهل » ·

لابد أن رفاعة ، وهو يقرأ فى سنة ١٨٣٤ هذا الكلام الذى كتبه قبل انقضاء ست سنين أو سبع ـ وعلى وجه التحديد قبل أن ينفرد المهردار برياسة البعثة ـ لاحظ ما يبدو فيه من سذاجة ، ورفض أن ينشره · وبالمثل لا نجد فى الكتاب المطبوع ثانى مصراعى هذه العبارة التى خطها رفاعة فى حديث رحلته من القاهرة الى الاسكندرية: « ولا فائدة لذكر بعض البلاد أو القرى التى رسينا عليها ، غير أنه حصل لى الغم الشديد بعدم تيسر زيارتى سيدى ابراهيم الدسوقى فى القرب من دسوق »·فهو الآن قد يرى فى التبرك بالأضرحة افراطا فى السذاجة أيضا ·

ولكن ، هل رأى من الافراط فى الجرأة أن يحتفظ بالفقرة الخطيرة التى أورد فيها اثبات علماء الافرنج لدوران الأرض حول الشمس ؟ هاهى ذى، كما نقلها من مخطوطة كوسان دى برسفال (١) ومكانها بالمقالة السادسة فى آخر التعريف بالجغرافيا الفلكية :

« وقال بعض علماء الأفرنج ان القول بدوران الأرض واستدارتها لا يخالف ما وردت به الكتب السماوية ، وذلك لأن الكتب السماوية قد ذكرت هذه الأشياء فى معرض ونحوه جريا على ما يظهر للعامة لاتدقيقا فلسفيا ، مثلا : ورد فى الشرع أن الله تعالى وقف الشمس، فالمراد بوقف الشمس تأخير غيابها عن الأعين وهذا يحصل بتوقيف

---

(١) Nouveau Journal Asiatique, t. XI, Mars 1833, pp. 245, 251.

الأرض ، وانما أوقع الله الوقوف على الشمس لأنها هى التى يظهر فى رأى الأعين سيرها • انتهى • فظاهر كلامه أنه ارتكب غاية التأويل »•

لقد اقتنع رفاعة بالبراهين العلمية التى درسها ، ثم أعاد النظر فى مخطوطه ، فحذف هذه السطور ! وحذف كذلك الاشارة التى بدرت منه الى هذه المشكلة وهو يحذر مواطنيه — فى الفصل الثالث عشر عن أهل باريس — من « الحشرات الضلاليـة المخالفـة للكتب السماوية » فقـد كانت بقيـة الجملة : « كالقول بـدوران الأرض ونحوه » • ويبدو أنه كان اذ ذاك شديـد الحيرة ، فهو يعترف فى اللحظة نفسها بأنهم يقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان ردها »• ولابد من أنه وزن الأمور بعـد أوبتـه الى مصر بميزان معاصريـه ، فتحاشى مايعتبرونه بدعة ، وتجنب أن يقف موقف « جاليليو » وأن يعيد مأساتـه • واكتفى فى هذا الموضوع بما سبق له من تلخيص مناظرة « علماء » المغرب حول كروية الأرض وبسطها وحول دورانها وسكونها (١) • فلا خطر من ذكر آراء « العلامة الشيخ محمد المناعى المالكى المدرس بجامع الزيتونة ، ومفتى الحنفية العلامة الشيخ محمد البيرم ، والعلامة الشيخ مختار الكنتاوى بأرض أزوات بقرب بلاد تمبكتو » !

أما أسلوب « تخليص الابريـز » فى المخطوط فـكان مليئـا بالأغلاط اللغوية والنحوية • وقد نبه « سيلفستر دى ساسى » الى هذه الظاهرة ، وعللها بأن رفاعة « استعجل فى تسويده » ، ورجاه أن « يصححه عند تبييضه » • وقد اختفى بالفعل عند طبع الكتاب لأول مرة عدد كبير من هذه الأخطاء ومن التعبيرات الركيكة والعامية فلقد وجد رفاعة فى مصر من أوقات الفـراغ ومن صحبـة أساتذة الأزهر ، ما أتاح له أن يصحح وينقح كتابه قبل طبعه •

---

(١) فى بداية الفصل الأول من المقالة الثانية •

نهاية « المقدمة » وبداية « المقصد » فى مسودة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز »
لقد أضاف رفاعة أكثر من « مقالة » جديدة الى مادة كتابه الأولى

ولسنا نعنى أن الطبعة الأولى خلت من الأخطاء اللغوية ، فقد اشتغل رفاعة مرة أخرى ، وهو يعد الطبعة الثانية ، بمراجعة ألفاظه وتطبيق قداعد النحو والصرف وغنى عن القول أنه بـدأ بتصحيح الأخطاء المطبعية • على أن الطبعة الثانية تمتاز فوق ذلك على الأولى بعدة زيادات وتعديلات أدخلها رفاعة فى مواضع مختلفة • من هذه الفروق ما يصحح فكرة أو يحددها ، ومنها ما يضيف ذكر أعمال تمت منذ نشر الطبعة الأولى ، غير أن معظمها لاينبئنا بجديد سوى رغبة المؤلف فى تحلية كتابه بما راح يجمعه من جميل النثر والشعر لكل مقام •

فمن التعديلات التى تصحح فكرة أو تحددها ، حذف رفاعة لكلمة « كفرة » التى استعملها أول الأمر مرادفة لكلمة « نصارى » فى قوله : « ثم ان بلاد أوروبا أغلبها نصارى أو كفرة (١) • وقد خط رفاعة هذا النعت مرارا فى مسودته ، فقد كان يقول مثلا فى تقديمه للدستور الفرنسى : « فلنـذكره لك •• لتعرف كيف قد حكمت عقول الكفرة بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد » • ولعل فى تكرار هذه الكلمة ما يدلنا على أن رفاعة كان يستخدمها آليا ، مرددا فى ذلك تعبيرا جاريا على ألسنة أهل عصره ، أفقده التكرار معناه ، ولم يتدخل رفاعة فى انشائه على كل حال • أما اذا كان له أن يعبر تعبيرا شخصيا ، يعنى فيه ما يقول ، بعد أن عاش فى أوروبا ، وخبر « الافرنج » ، وكتب عن دينهم وناقش فى هذا الموضوع سيلفستر دى ساسى ، فانـه يتدخـل فى التعبير ليزيل هذا المرادف الذى اقتنع بأنه غير مرادف • وفى الوقت نفسه

(١) فى الباب الثالث من المقدمة •

يحرص المؤلف على اكتساب رضا أغلبية قرائه فقد ساءتهم بلاشك نهاية « عبد العال » ، أغا الانكشارية الذى هاجر من مصر الى فرنسا ثم تنصر « بسبب الزواج بنصرانية ثم مات بعد قليل » وها هو ذا رفاعة يضيف فى الطبعة الثانية رواية أخرى لنهاية عبد العال : « ويقال انه سمع منه عند موته يقول : أجرنى يارسول الله ، ولعله ختم له بخير وعاد الى الاسلام فقال بلسان الحال :

الحمـــد لله الحنيفـة ملتى   والله ربى وابن آمنة نبيى »(١)

ومن التعديلات التى تبعت عامل الزمن ، نجد بعض ما يدل على تغير التاريخ ، ففى الطبعة الأولى نقرأ أن المهردار « يشتغل بعلم تدبير الأمور الملكية » وفى الطبعة الثانية نقرأ الفعل فى صيغة الماضى: « اشتغل » (٢) كما يشير رفاعة الى بعثة تعليمية جديدة الى « بلاد النيمسا » (٣) وبعد أن شبه الاسكندرية بمرسيليا فى الطبعة الأولى، يضيف فى الطبعة الثانية : « ولما ذهب اليها سنة ٦٢ وجدتها قطعة من أوربا » (٤) ٠ وكان فى الطبعة الأولى قد تمنى أن تقتبس مصر نظام رش الشوارع بمثل العربات التى أعجب بها فى باريس ، وقد تحققت أمنيته قبل نشر الطبعة الثانية فكتب فى آخر تلك الفقرة بين قوسين : (قد صار الآن جل ذلك بمصر) (٥) ٠

على أن أكبر الزيادات حجما فى الطبعة الثانية هى أبيات الشعر التى دأب المؤلف الأديب على أن يستشهد بها ، ويضع صفحات مستحدثة تخللت الكتاب وفيها يستطرد رفاعة الى ذكر موضوعات من تاريخ الحضارة العربية ٠ ومن أطرف هذه الصفحات ما علق به

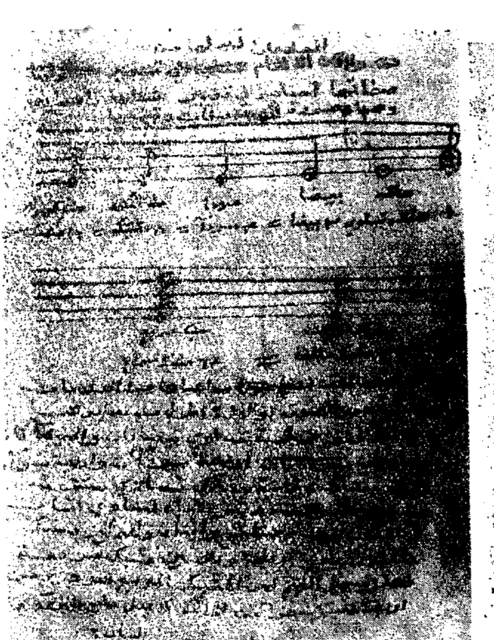
(١) فى الفصل الأول من المقالة الثانية ٠
(٢) فى الباب الرابع من المقدمة ٠
(٣) فى آخر الباب الثالث من المقدمة ٠
(٤) آخر الفصل الأول من المقالة الأولى ٠
(٥) فى الفصل الأول من المقالة الثالثة ٠

على شخصية الاسكندر ذى القرنين ، فقد مضى يمزج بين أساطير اليونان وأساطير العرب ، ملبيا نزعته الجديدة الى الدراسات المقارنة، رافعا فكرة بحثه هذا فى « الميتولوجيا المقارنة » الى الأكاديمية الفرنسية (١) لقد تفاعلت فى عقله معارف من الشرق ومعارف من الغرب فأخصبت • وثمة صفحة أخرى ، يشيد فيها رفاعة بسالف مجد العرب ردا على ما يراه من تفوق الافرنج ، وهو يسجع العبارة تلو العبارة ، حتى ينتهى بمدح ولى النعم (٢) • وحينما يضيف فى اطناب ترجمة حياة الفارابى لأنه شبه به « سيلفستردى ساسى »(٣)، أو يضيف نوادر أبى بكر الخوارزمى والصاحب بن عباد (٤) نتأكد نحن أن رفاعة قد عاد فى مصر الى أحضان الأدب العربى •

وماذا أراد رفاعة من كتابة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ؟ لقد أفصح عن أغراضه فى « الخطبة » التمهيدية حيث قال :

« ليكون نافعا فى كشف القناع ، عن محيا هذه البقاع ، التى يقال فيا انها عرائس الأقطار وليبقى دليلا يتهدى به السفر اليها طلاب الأسفار ، خصوصا وأنه من أول الزمن الى الآن لم يظهر باللغة العربية على حسب ظنى شيء فى تاريخ مدينة باريس ، كرسى مملكة الفرنسيس ، ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها ••• فما قصرت فى أن قيدت فى سفرى رحلة صغيرة•••وأنطقتها بحث ديار الاسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فان كمال ذلك ببلاد الأفرنج أمر ثابت شائع « والحق أحق أن يتبع » •

(١) فى الفصل الأول من المقالة الأولى
(٢) فى الباب الثالث من المقدمة •
(٣) فى الفصل الثانى من المقالة الثالثة •
(٤) انظر المصدر السابق •



من مسودة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » • صفحة فى التعريف بالموسيقي الغربية ـ لم تطبع ، وبداية فصل « فى السجن والجنائز والمقابر » ـ لم تتم

لقد وضع نصب عينية اذن أن يقدم للمسافر الى فرنسا دليلا مفيدا • ولقارىء الأدب العربى كتابا طريفا ، وللشعوب الاسلامية دعوة الى النهوض والأخذ من حضارة أوروبا • حاول أن يجعل من « ديوانه النفيس » ثلاثة أشياء فى آن واحد : رحلة عملية وتحفة فنيـــة ، ودرسا وطنيـــا • فالى أى مدى حقق كل غـــرض فى هذه الأغراض ؟

لكى يتحدث عن فرنسا بوصفها بلدا سياحيا كان عليه أن يجوب أرجاءها ، وأن يزور أشهر مدنها ومعالمها • ولكنه لم ينتقل من مكان الى مكان ، فظل مجال خبرته ومشاهداته محدودا • لم يقم طوال السنوات الخمس التى قضاها بعيدا عن مصر الا فى باريس ، باستثناء بضعة أسابيع أنفقها فى مرسيليا • واذا كان قد استروح نسائم الريف الفرنسى من نافذة العربة التى قطعت به الطريق الى العاصمة ، فانه يجهل الحياة فى الأقاليم • لذلك لامه سيلفستر دى ساسى قائلا • « غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به الا على أهـــل باريس » وفى الحـــق أن عنوان الكتاب ينصب على باريس وحدها لا على فرنسا بأسرها •

لقد اعتمد رفاعة فى كتابته عن باريس على ملاحظاته الخاصة ، ومحادثاته مع أهلها ، كما اعتمد على بعض الكتب التى تناولت بعض الحوادث الخاصة بالحياة هناك ، ولكنه عندما كان يتكلم عن فرنسا عامة كان يتكلم عنها من خلال ثلاث نوافذ احداها مشاهداته خارج باريس • ومن الحق أن نقـــرر أن هذه كانت محدودة فى العـــدد والنطاق ـ وثانيتها قراءاته عن الأمة الفرنسية مما كتبه المؤلفون الفرنسيون ، وثالثها باريس نفسها ، فقد اتخذها مثالا لما يحدث فى فرنسا جميعها • ولعله هنا كان أميل الى التعميم حيث كان الأولى به التخصيص • كما أشار الى ذلك أحد أساتذته حينما عرض عليه رفاعة أصول كتابه • وخير ما نصور به هذا الكتاب من حيث وصفه

لأهل فرنسا هما العبارتان اللتان أثبتهما رفاعة فى الكتاب نقلا عن بعض الأساتذة الفرنسيين :

فقد كتب لـه الأستاذ سلفستر دى ساسى : « أما بعد فانـه سيصلك مع هذا ما طلبته منـا من الشهادة بأننـا قرأنـا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك · وكل ما أمعنت فيه النظر من أخلاق الفرنساوية وعوائدهم وسياساتهم وقواعد دينهم وعلومهم وآدابهم وجدناه مليحا مفيدا يروق الناظر فيه ، يعجب من وقف عليـه · ولا بأس أن نعرض خط يدنا على مسيو جومار » ·

وكتب الأستاذ دى ساسى العبـارة الآتية الى مسيو جومار : « لما أراد مسيو رفاعة أن أطلع على كتاب سفره المؤلف باللغة العربية قرأت هذا التاريخ ـ الا اليسير منه ـ فحق لى أن أقول ، انه يظهر لى أن صناعة ترتيبه عظيمة ، وأن منه يفهم اخوانه من أهل بلاده فهما صحيحا عوائدنا وأمورنا الدينية والسياسية والعلمية ، ولكنـه يشتمل على بعض أوهام اسلامية · ومن هذا الكتاب يعرف علم هيئة العالم ، وبه يستدل على آن المؤلف جيد النقد ، غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به الا على أهل باريس والمدن الكبيرة ، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التى هو عليها حيث لم يطلع على غير باريس وبعض المدن » ·

وقد جد رفاعة فى معالجـة موضوع « تخليص الابريز » من نواح ثلاث ، مزودا السائـح بالمعلومـات ، متحفا القـارىء بجودة التصنيف ، مقارنا دائما بين أحوال فرنسا « العجيبة » وأحوال مصر التى ينبغى اصلاحها · ويعترف رفاعة بأنه رشح كتابـه بعد ذلك « ببعض استطرادات نافعـة ، واستظهارات ساطعـة » ، أى بكل ما وجده مفيدا أو جميلا · وكثيرا ما بدت له فصول كتب الجغرافية والتاريخ الفرنسية مفيدة ، وكثيرا ما بدت له أبيات الشعر العربى التى يحفظها جميلة ، وليس يدهشنـا الآن أن نراه قد أفسـح فى

« رحلته » مكانا لأربعة كتيبات مستقلة عنها كان أجدر به أن ينشر كلا منها على حدة ، وهى ترجمته للدستور الفرنسى ، وترجمته « لنصيحة الطبيب » ، وتاريخه لثورة ١٨٣٠ ، ومقتطفاته من » العلوم والفنون » • ولقد شرح المؤلف وجهة نظره فيما يختص بالمقالة الأخيرة ، فقد أراد أن يكمل فائدة رحلته للقارىء بايراد « ثمرتها » أيضا • وفى الواقع ، كانت لفظة « باريس » بالنسبة لرفاعة لفظه جامعة شاملة ، تمثل فى ذهنه البعثة الدراسية ، والطريق بما فيه الاسكندرية ، والمنظمات الأوروبية ، والعلم الحديث • وذلك ما يبرر عنوانه الغريب ، فقد كانت كتابته فى هذه الموضوعات كلها استخلاصا للذهب من مقامه الثمين فى باريس ، وتلخيصا لمعارفه التى استقاها عن باريس ومعارفه التى حصلها فى باريس •

واذا كان لابد لنا أن نلخص أسلوب رفاعة فى الكتاب فان ذلك يتلخص فيما يأتى : أنه كان يتحرر من الأسلوب العتيق ، الذى كان سائدا فى عصره بالتزام السجع والمحسنات المبديعية ، حينما كان يكتب فيما لا يحتمل التلكؤ الذى تقتضيه هذه القيود اللفظية ، وحينما كانت الأفكار التى يتناولها ، كتابة أو ترجمة ، أهم فى نظره من الاحتفال باللفظ اذا كان يرمى الى نشر معارف جديدة بين جماهير الشعب ، حتى لقد ذهب فى سبيل ذلك الى ابتكار عبارات عربية تؤدى المعانى الفرنسية التى لم يجد ما يقابلها فى اللغة العربية ، وأحيانا لجأ الى تعريب اللفظ الفرنسى بوضعه فى صيغة عربية ، مع قدر غير هين من النجاح فى ذلك ، مما ستذكر له بعض الأمثلة •

على أنه كان يعود الى السجع والحفاوة باللفظ فى بعض الأحيان ، ولا سيما فى استطراداته التى كان يستعرض فيها مقتبساته من الأدب العربى الذى كان سائدا فى عصره ، فمن ذلك أنه بعد أن ترجم « نصيحة الطبيب » فى نحو عشرين صفحة ، فى عبارة مرسلة اقتضتها طبيعة الموضوع التى لم تكن تحتمل السجع ،

عقب علىذلك بخاتمة فى نحو عشرين سطرا أتبع فيها شوقه للسجع بعد أن احتمى منه فى أثناء الترجمة ٠

ومن خصائصه الأسلوبية أنه كان كثيرا ما يبدأ فصول كتابه بقوله : اعلم أن كذا وكذا وهو فى ذلك خاضع لأسلوب عصره ٠ على أنه ، وهو الشيخ الأزهرى الوفى لثقافته ، لم يجد بأسا فى أن ينتقد كتب الأزهر وطريقة تأليفها ودراستها ٠ فيقول مثلا « واذا أراد المعلم أن يدرس كتابا (فرنسيا) لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا ، فان الألفاظ مبينة بنفسها ٠ وبالجملة فلا يحتاج قارىء كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر بخلاف اللغة العربية مثلا ، فان الانسان الذى يطالع كتابا من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق فى الألفاظ ما أمكن ، ويحمل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها ٠ وأما كتب الفرنسيس فلا شىء من ذلك فيها ، فليس لكتبها شراح ولا حواش ، الا نادرا ، وانما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة ، تكميلا للعبارة بتقييد أو نحوه ، فالمتون وحدها من أول وهلة كافية فى افهام مدلولها فاذا شرع الانسان فى مطالعة كتاب فى أى علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكة الألفاظ ، فيصرف سائر همته فى البحث عن موضوع العلم ، وعن مجرد المنطوق والمفهوم ، وعن سائر ما يمكن انتاجه منها ٠ وأما غير ذلك فهو ضياع ، مثلا اذا أراد انسان أن يطالع علم الحساب فانه يفهم منه ما يخص الأعداد من غير أن ينظر الى اعراب العبارات ، واجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة لتجنيس وقد خلت عنه ، وأن المصنف قدم كذا ، ولو أخره كان أولى ، وأنه عبر بالفاء فى محل الواو والعكس أحسن ونحو ذلك ٠»٠

أما الاستطراد فهو ظاهرة من ظواهر أسلوبه ، يلجأ اليه أحيانا لمناسبة يرى فيها فائدة لقرائه ، وأحيانا لمجرد تداعى المعانى فى ذهنه ، ولو لم يكن الاستطراد ذا فائدة فيما هو بصدده ٠

ويسترعى نظرنا استطرادان على سبيل المثال : يدلان على ما كان يختلج فى صدر هذا الرائد العظيم من آمال لأمته ، وما كان يشعر به مما هو جار فى بلاده وقد تنسم نسيم الحرية فى خارجها . ففى الفصل الذى يتكلم فيه عن تدبير الدولة الفرنسية . يستطرد عند الكلام على مظاهر العدل فى الدستور الفرنسى باقتباس عدة عبارات وأشعار عربية . ونكاد نوقن أن شعوره بالحاجة الى العدل فى بلاده دعاه الى الاستطراد بقوله : « وقلوب الرعية خزائن ملكها. فما أودعة اياها وجده فيها . وقال آخر : لا سلطان الا برجال ، ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ولا عمارة الا بعدل . وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم » .

وعند كلامه فى كسب مدينة باريس ومهارتها ، نسمعه يتنفس ما فى نفسه عن الحكم فى مصر اذ يقول : « قد يوجد بها ـ باريس ـ من أهالى الحرف الدنيئة من ايراده كل سنة أبلغ من مائة ألف فرنك ، وذلك من كمال العدل عندهم ، فهو المعول عليه فى أصول سياساتهم ، فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار ، أو وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار . ولا شك أنه تأسس فى قلوبهم قول الشاعر :

والملك الجبار والمنيع ما عنده هاد ولا شفيع
رعية الجبار مرعى الحرب والملك العادل نصف الخصب

ونذكر فيما يلى بعض محاولات رفاعة فى الترجمة كما أشرنا الى ذلك :

فقد عالج رفاعة الترجمة فى باريس:مقارنة فى سبيل الادراك. فعندما أخذ يترجم دستور فرنسا ، نشطت ذاكرته فى البحث عن مصطلحات من تاريخ النظم الاسلامية تعادل المصطلحات الفرنسية ، ووجد بعض ما يريد فوضع مقابل le loi كلمة « الشريعة » ومقابل le trésor public « بيت المال » ، ومقابل departement

« عماله » ومقابل le prefét « المحتسب » الخ • وعندما أخذ فى ترجمة نصوص عمليــة استعمل ــ متبعــا نفس الاتجاه ــ تسميات العلوم القديمة عنــد العرب فترجم « الميــكانيكا » بعلم « الحيــل » والتاريــخ الطبيعى بعلم « التولــدات أو المواليــد الثلاثة » والفلك أو الجغرافيا الرياضية بعلم « الهيئة » الخ •

انه يحاول أن يبعث من التراث العربى قوالب التعبير الثقافية والجمالية التى تقابل القيم الفكرية الحديثة ، وتفاصيل الحياة التى يعاصرها • ولكنه يصطدم بالعــدم فى كثير من الأحيان ، فاللغــة العربية التى بين يديه لغة قد تحجرت منذ قرون طوال ، وتخلفت عن الركب ، وأصبحت عاجزة عن تسمية محاصيل الحضارة الأخيرة • وكم كان يتمنى لو أنه استطاع أن يوفق دائما بين ما يجده فى موارد الفرنسية والعربية من الجرس والمعنى فى آن واحد ، كما وفق بين كلمة « شارت Charte » وكلمة « شرط أوشريطة » وظلع علينا بكلمة جديدة هى « الشرطة » ! غير أن مثل هذا الالتقاء لم يتوفر له ولم يتيسر ، وهيهات أن يقع الحافر على الحافر مادامت أرض فى الشرق وأرض فى الغرب فيضطر رفاعة الى الاحتفاظ بالكلمة الفرنسية راسما اياها بحروف عربية ، لا سيما اذا كانت من الأسماء الجغرافية أو أسماء الأشهر ، فضلا عن أسماء الأعلام • وهو ينقل تلك الألفاظ من الكتب نقلا صوتيا تاما ، أى باثبات كل حرف يراه فى الأصل وبهذه الدقة نسخ : washington وسهنجتون،و Afghanistan أفغهانستان ، و Etats-unis • الايتازونيــا (١) • وأما غــير أسماء الأعلام ، فانه ينقلها نقلا صوتيا مع شرح معناهــا للقارىء ، مثل سبكتاكل Spectacle ، بال Bal ، شمبر دوبير Chambrt des Paris ، أكدمــة Académie ، فسيولوجيــا Phisiologie ، أمنبوس Omnibus ، دلجنس Diligence ، رسطراطور restaurateur ، جرنال Journal الخ •

(١) هى الولايات المتحدة الأمريكية

على أنه يقنع بترجمة banguiers بصيارفة ، و acteurs بلاعبين ، و musiciens بآلاتية • وتوخيا للوضوح فى نقل المعنى، قد يلحق رفاعة باللفظة الجديدة تعريفا كاملا كما قال فى ترجمة Chambre des Séputés • « ديوان رسل العمالات الذين هم أمناء الرعايا ونوابهم » • فان الألفاظ فى رأيه هى التى ينبغى أن تكون فى خدمة المعانى ، وان العلة التى أوجدت اللفظ الأصلى هى التى ينبغى ابرازها فى أداته بلغتنا • وهكذا يترجم ــ فى المادة العشرين من « الشرطة » après un délai de dix jours بعد التفكر عشرة أيام لأن غاية تلك « المهلة "délai" » هى دعوة المجلس المذكور الى اعادة النظر فى قراراه أى « التفكر » •

وبعد فمن انصاف رفاعة فى حكمه ونزاهته أن نقرر هنا أن اعجابه بفرنسا والفرنسين لم يكن اعجابا أحمق ، لايرى الاالحسنات، فالى جانب ما ذكره من فضائلهم ومزاياهم ، سطر كثيرا من مثالبهم فمن ذلك حديثه عن بخلهم ، « وليس عندهم المواساة الا بأقوالهم وأفعالهم ، لا بأموالهم ، الا أنهم لا يمنعون عن أصحابهم ما يطلبون استعارته ، لا هبته ، الا اذا وثقوا بالمكافأة • وهم فى الحقيقة أقرب للبخل من الكرم » •

ويتكلم عن الشحاذين المحترفين عندهم فيقول • « لأن السائلين عندهم أصحاب حيل فى تحصيل الأموال فى غالب الأحوال ، حتى انهم يتشكلون فى صورة المجاريح ونحوهم ، ليشفق الناس عليهم ويرقوا لحالهم » •

كما أنه أشار غير مرة الى الاباحية المنتشرة بين نسائهم ، مما نتركه للقارىء يجده فى الكتاب •

وأخيرا لا نختم هذه المقدمة دون أن نشير الى ما كتبه رفاعة عن اغتصاب فرنسا للجزائر الباسلة التى نهضت اليوم نهضتها الثائرة

لاسترداد استقلالها · فقد روى رفاعة أنه عندما جاء وصل خبر وقوع الجزائر فى يد الفرنسيين الى « رئيس الوزراء (بولنياق) أمر بتسييب مدافع الفرح والسرور ··· وصار يتماشى فى المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه ، حيث ان مراده نفذ ، وانتصرت الفرنساوية فى زمن وزارته على بلاد الجزائر ، فما كانت أيام قلائل الا وانتصرت الفرنساوية عليه على ملكه نصرة أعظم من تلك ، حتى ان مادة الجزائر نسيت بالكلية ، صار الناس لا يتحدثون الا بالنصرة الأخيرة · على أن حاكم الجزائر خرج منها بشروط ، وأخذ منها ما يملكه ، وملك الفرنسيس خرج من مملكته يتندم على ما وقع منه · وللزمان صروف تدول ، وأحوال تجول · وكان هذا هو عاقبته على غارته على بلاد الجزائر بأسباب وأهمية لا تقتضى ذلك بل بمجرد ارضاء هوى النفس، واذا نصر الهوى بطل الرأى · ومما وقع أن المطران الكبير لما سمع بأخذ الجزائر ، ودخل الملك القديم الكنيسة يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك جاء اليه ذلك المطران ليهنيه على هذه النصرة ، فمن جملة كلامه ما معناه أنه يحمد الله سبحانه وتعالى على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الاسلامية ولا زالت كذلك (انتهى) · مع أن الحرب بين الفرنساوية وأهالى الجزائر انما هو مجرد أمور سياسية ، ومشاحنات تجارات ومعاملات ومشاجرات ومجادلات منشؤها التكبر والتعاظم ··· فلما وقعت الفتنة كسر الفرنساوية بيت المطران بعد هروبه ، وخربوه وأفسدوا جميع ما فيه ، حتى انه تخفى ، ولم يعلم له أثر ، ثم ظهر واختفى ثانيا ، وهجم على بيته ثانيا ولا زال مذموما مخذولا ، قال الشاعر :

لا تعجبن ، رويدا ، انها دول

دنيا تنقل من قوم الى قوم »

وبعد : فهذا كتاب « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » نقدمه مع التعريف به وبكاتبه العظيم ، بمناسبة احتفال المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بذكرى هذا الرائد للنهضة الفكرية العربية الحديثة ٠

القاهرة فى أكتوبر سنة ١٩٥٨

مهدى علام　　　　أنور لوقا　　　　أحمد أحمد بدوى

هذه رحلة الفقير الى الله تعالى رفاعة بدوى رافع الطهطاوى الى ديار فرانسا المسماة بتخليص الابريز الى تلخيص باريز أو الديوان النفيس بايوان باريس .

تقريظ شيخنا شيخ الاســـلام الشيخ العطار شيخ الجامع الأزهر على هذا الكتاب ســـبحان من أظهر عجائب مصنوعاته فى اختلاف أوضـــاع مخلوقاته ★ وتبـاين أنواع العالم واختلاف هيئاته ★ يـرى ذلك بعين الاستبصار ★ من ولج فى البحار واقتحم القفار ★ فان السفر مرآة الأعاجيب ★ وقسطاس التجاريب ★ وقد أودع فى هذه الرحلة مؤلفهـــا الأريب ★ والفاضل الذكى اللبيب ★ ما شـاهده من عجائب تلك البلاد ★ وأحوال هؤلاء العبـــاد ★ ما يحرض العاقل على الأسفار ★ والتنقل فى الأمصـــار ★ حتى يزداد بذلك علما يقينا ★ ويفوق بالاحاطة بأحوال عبـاده فى الزمن اليســـير بما لايدركه القاطن بداره ولو عاش من السنين مئينا .

حرره الفقير حسن العطار

خادم العلم بالأزهر

عفا الله عنه

(الوجه الأول من الورقة الأولى بعد الفهرست فى طبعة بولاق سنة ١٢٦٥ هـ) .



رفاعة رافع الطهطاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من سير آقدام الأنام الى ما مضى فى سابق علمه ، ويسر للانســـان الاقدام على محتم قضائه وحكمـه ، فلا محيص لقوى وضعيف ، وشريف ، عما جرى فى أم الكتاب ، ولا مفر لغنى وفقير ، وخطير وحقير ، عن الاقتراب الى مطوى ذلك الحجاب ٠

أحمده سبحانه وتعالى حمد من ابلاه فصبر ، وأغناه فشكر ٠ وأشكره شكر من توجه بجنانه للسير الى مرضاته ، فتنزه فى رياض القبول وجناته ٠ وأصلى وأسلم على من سارت ركائب شـــوقه الى مدبره ، وأشارت مواكب حسن خلقـه الى طيب عنصره : سيدنا محمد الذى سافر الى الشام وهاجر الى المدينة ، وسار من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى وكان جبريل أمينه ٠ وعلى آله وأصحابه ، وعترته وأحبابه ٠

أما بعـــد : فيقول العبد الفقير الى أمداد ســـيده ومولاه ، السائر حيث وجهه وولاه ٠ المعتمد على الكريم النـــافع ، رفاعة ابن المرحوم الســـــيد بدوى رافـع الطهطاوى بلدا ، الحسينى القاسمى نسبا ، الشافعى مذهبا : لما من الله سبحانه وتعـــالى على بطلب العلم بالجامع الأزهر والمحل الأنور ، الذى هو جنة علم دانية الثمار ، وروضــــة فهم يانعة الأزهار ، كما قال أســـتاذنا العلامة العطار :

لازم اذا رمت الفضائل مسجدا   بشموس أنوار العلوم تنورا
فيه رياض العلم أينع زهرها   فلذلك المعنى تسمى «الأزهرا»

وقال بعضهم ـ وأحبسن ـ بيتين ، معرضا بعلماء الحرمين :

ومن يغترب عن « أزهر » العلم فلينح
على بعد دار العلم والعلماء
ففيه بحور طاميات ، وغيره
بحور عروض لاتجود بماء (١)

وحصلت ما يسر به على الفتاح مما يخرج به الانسان من الظلام ، ويمتاز به عن مرتبة العوام ، وكنت من معشر أشراف جارت عليهم الأيام ، بعد أن أجرت غيثها فى ديارهم ، وأشارت الى نصبهم (٢) الأعوام • بعد أن نصبت أعلام راحتها فى مزارهم ، ومن المركوز فى الأسماع فى القديم والحديث ، وعليه الاجماع بعد الكتاب والحديث ، أن خير الأمور العلم ، وأنه أهم كل مهم • وأن ثمرته فى الدنيا والآخرة ، صاحبه تعود ، وأن فضله فى كل زمان ومكان مشهود • سهل لى الدخول فى خدمة صاحب السعادة أولا فى وظيفة واعظ فى العساكر الجهادية ، ثم منها الى رتبة مبعوث الى باريس صحبة الأفندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون الموجودة بهذه المدينة البهية • فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه أشار على بعض الأقارب والمحبين ، لا سيما شيخنا العطار (٣) ، فانه مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على

(١) فى العروض تورية ، فالعروض ميزان الشعر ، واسم لمكة والمدينة •
(٢) النصب : التعب •
(٣) هو الشيخ العطار ، ولد بالقاهرة سنة ١١٨٠ هـ (١٧٦٦ م) وتتلمذ على أكابر علماء عصره ، وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦ هـ ، وظل فى منصبه الى أن توفى سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٥) •

غرائب (ص ٤،٥) الآثار ، أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة ، وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة ، والأشياء العجيبة ٠ وأن أقيده ليكون نافعا فى كشف القناع ، عن محيا هذه البقاع ٠ التى يقال فيها : انها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلا يهتدى به الى السفر اليها طلاب الأسفار ، خصوصا وأنه من أول الزمن الى الآن لم يظهر باللغة العربية – على حسب ظنى – شىء فى تاريخ مدينة باريس ، كرسى مملكة الفرنسيس ٠ ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها ٠ فالحمد لله الذى جعل ذلك بأنفاس ولى النعمة وفى عهده ، وبسبب عنايته وتقويته للعلوم والفنون ، فما قصرت فى أن قيدت فى سفرى رحلة صغيرة ، نزهتها عن خلل التساهل والتحامل ، وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل ، ووشحتها ببعض استطرادات نافعة ، واستظهارات ساطعة ، وأنطقتها بحث ديار الاسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فان كمال ذلك ببلاد الافرنج أمر ثابت شائع ٠ والحق أحق أن يتبع ، ولعمر الله اننى ، مدة اقامتى بهذه البلاد ، فى حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الاسلام منه ، واياك أن تجد ما أذكره لك خارجا (١) عن عادتك ، فيعسر عليك تصديقه ، فتظنه من باب الهذر والخرافات ، أو من حيز الافراط والمبالغات ٠ وبالجمله فبعض الظن اثم ، والشاهد يرى مالا يراه الغائب :

وإذا كنت بالمدارك غرا ثم أبصرت مدركا لا تمار (٢)
وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى على ألا أحيد فى جميع ما أقوله عن طريق الحق ، وأن أفشى ما سمح به خاطرى من الحكم

(١) فى المطبوعة : خارقا ٠

(٢) فى المطبوعة : لاتمارى ٠

باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها ، على حسب ما يقتضيه الحال • ومن المعلوم أنى لا أستحسن الا ما لم يخالف نص الشريعه المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية •

وليست هذه الرحلة مقتصرة على ذكر السفر ووقائه ، بل هى مشتملة أيضا على ثمرته وغرضه ، وفيها ايجاز العلوم والصنائع المطلوبة ، والتكلم عليها ، وعلى (١) طريق تدوين الافرنج لهـا ، واعتقادهم فيها ، وتأسيسهم لها ، ولذلك نسبت فى غالب الأوقات (ص٥) الأشياء التى هى محل للنظر أو للاختلاف ، مشيرا الى أن قصدى مجرد حكايتها •

وقد سميت هذه الرحلة : « تخليص الابريز (٢) ، فى تلخيص باريز » ، أو : « الديوان النفيس ، بايوان (٣) باريس » •

وقد رتبتها على مقدمة ، وفيها عدة أبواب ، وعلى مقصد ، وفيه عدة مقالات ، وكل مقالة فيها عدة فصول ، أو كتب مشتملة على فصول ، وعلى خاتمة ، ـ راجع الفهرست فى أول الكتاب ـ •

وقد حاولت فى تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الايجاز ، وارتكاب السهولة فى التعبير ، حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضـه ، والوفود على رياضه ، ولو صغر حجمه ، وقل جرمه ، فهو مشحون بما لا يحصى ، من فوائد الفرائد ، وبما لايستقصى ، من جزائل الخرائد • (شعر) :

---

(١) فى المطبوعة : على بدون واو :

(٢) ذهب ابريز : اى خالص •

(٣) الايواء : المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاث حوائط •

فاذا بـدا لا تستقلوا حجمـه . وحيانكم ، فيـه الكثير الطيب

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الكتـاب مقبولا . (لدى الخاص والعام) وأن يوقظ به من نوم الغفلة سـائر أمم الاسلام من عرب وعجم . انه سميع مجيب ، قاصده لايخيب .

المقـدمة

الباب الأول

فى ذكر ما يظهر لى من سبب ارتحالنا الى هذه البلاد ، التى هى ديار كفر وعناد ، وبعيدة عنا غاية الابتعاد ، وكثيرة المصاريف لشدة غلو الأسعار فيها غاية الاشتداد .

أقول : ان هذا يحتاج الى تمهيد ، وهو أن الأصل فى الانسان الساذجية ، والخلوص عن الزينة . والوجود على أصل الفطرة ، لايعرف الا الأمور الوجدانية ، ثم طرأ على بعض الناس عدة معارف لم يسبق بها ، وانما كشفت له بالصدفة والاتفاق ، أو بالالهام والايحاء ، وحكم الشرع أو العقل بنفعها ، فاتبعت وأبقيت .

مثلا : كان فى أوائل الزمن ، يجهل بعض الناس تنضيج المطعومات بالنيران ، لجهل النار بالكلية عندهم ، ويقتصرون على الغذاء بالفواكه أو بالأشياء المنضجة بالشمس ، أو أكل الأشياء النيئة ، كما هو باق فى بعض البلاد المتوحشة الى الآن ، ثم حصل اتفاقا أن بعضهم رأى خروج شرارة نار من الصوان ، بمصادمة حديدة أو نحوها ، ففعل مثل ذلك ، وقدم وأخرج النار وعرف خاصيتها . وكان (ص ٧) فى الناس من يجهل الصبغ ، والتلوين للثياب باللون الأرجوانى مثلا ، فرأى بعضهم كلبا أخذ محارة من

البحر ، وفتحها وأكل ما فيها ، فاحمر حنكه ، وتلون بما فيها ، فأخذوها ، وعرفوا منها صناعة الصباغة بهذا اللون ، كما يحكى ذلك عن أهالي « صور » ببر الشام ٠

وكانت الناس في أول الأمر تجهل ركوب البحر ، ثم بالهام الهي ، أو باتفاق بشرى ، عرفوا أن من خواص الخشب السبح على وجه الماء ، فصنعوا السفينة ، ثم تبحروا فى السفن ، وعمروها ، ونوعوها أنواعا ، فكانت أولا صغيرة للتجارات ، ثم ترفعوا فيها ، حتى صلحت للجهـــاد والحرب ، وقس على ذلك ما أشبهه ، من المحاربة بالسهام والرماح أولا ، ثم بعد ذلك بالسلاح ، ثم بالمدافع والأهوان ٠

وقد كانت الناس في أول الزمن تعبد الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك ، ثم بالهام الله تعالى ، وبارســـاله الرسل صـــاروا يعبدون (١) الها واحدا ، فكلما تقادم الزمن فى الصعود ، رأيت تأخر الناس فى الصنايع (٢) البشرية والعلوم المدنيــة ٠ وكلما نزلت ، ونظرت الى الزمن فى الهبوط رأيت فى الغالب ترقيهـــم وتقدمهم فى ذلك ٠ وبهذا الترقى ، وقياس درجاته ، وحساب البعد عن الحالة الأصلية ، والقرب منها ، انقسم سائر الخلق الى عدة مراتب :

المرتبة الأولى : مرتبة الهمل المتوحشين ٠

المرتبة الثانية : مرتبة البرابرة الخشنيين ٠

المرتبة الثالثة : مرتبــة أهل الأدب والظرافة ، والتحضر ، والتمدن ، والتمصر المتطرفين ٠

---

(١) فى المطبوعة : يعبدونه ٠

(٢) فى المطبوعة : فى الصنايع ٠

مثال المرتبة الأولى : همل بلاد [المتوحشين] الذين هم دائما كالبهائم السارحة ، لايعرفون الحلال من الحرام ، ولا يقرءون ، ولا يكتبون ، ولا يعرفون شيئا من الأمور المسهلة للمعاش ، أو النافعة للمعاد ، وانما تبعثهم الوجدانية على قضاء شهواتهم كالبهائم ، فيزرعون بعض شيء ، أو يصيدونه ، لتحصيل قوتهم ، ويخصون بعض أخصاص أو خيام ، للتوقى من حر الشمس ونحوه ٠

ومثال المرتبة الثانية : عرب البادية ، فان عندهم نوعا من الاجتماع الانسانى ٠ والاستئناس ، والائتلاف ، لمعرفتهم الحلال من الحرام ، والقراءة والكتابة وغيرها ، وأمور الدين ، ونحو ذلك ، غير أنهم أيضا لم تكمل عندهم درجة الترقى فى أمور المعاش ، والعمران ، والصنائع البشرية ، والعلوم العقلية والنقلية ، وان عرفوا البناء ، والفلاحة ، وتربية البهائم ، ونحو ذلك ٠

ومثال المرتبة (ص ٨) الثالثة : بلاد مصر ، والشام ، واليمن ، والروم ، والعجم ٠ والافرنج والمغرب ، وسنار ، وبلاد أفريقية (١) على أكثرها ، وكثير من جزائر البحر المحيط ، فان جميع هؤلاء الأمم أرباب عمران وسياسات ، وعلوم وصناعات ، وشرائع وتجارات ٠ ولهم معارف كاملة فى آلات الصنائع ، والحيل على حمل الأشياء الثقيلة بأخف الطرق ولهم علم بالسفر فى البحور ، الى غير ذلك ٠

وهذه المرتبة الثالثة تتفاوت فى علومها وفنونها ، وحسن حالها ، وتقليد شريعة من الشرائع ، وتقدمها فى النجابة والبراعة فى الصنائع المعاشية ٠

مثلا : البلاد الافرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة فى العلوم

(١) فى المطبوعة : امريقة ٠

الرياضية ، والطبيعية ، وما وراء الطبيعة أصـــولها وفروعهـــا ، ولبعضهم نوع مشاركة فى بعض العلوم العربية ، وتوصلوا الى فهم دقائقها وأسرارها ، كما ســـنذكره · غير أنهم لم يهتدوا الى الطريق المستقيم ، ولم يسلكوا سبيل النجاة ، ولم يرشـــدوا الى الدين الحق ، ومنهج الصدق ·

كما أن البلاد الاســـلامية قد برعت فى العلوم الشرعيـــة والعمل بها ، وفى العلوم العقلية ، وأهملت العلوم الحكمية بجملتها، فلذلك احتاجت الى البلاد الغربية فى كسب مالا تعرفه ، وجلب ما تجهل صنعه ، ولهذا حكم الفرنج بأن علماء الاسلام انما يعرفون شريعتهم ولسانهم ، يعنى ما يتعلق باللغة العربية ، ولكن يعترفون لنا بأنا كنا أساتيذهم فى سائر العلوم ، وبقدمنا (١) عليهم ·

ومن المقرر فى الأذهان ، وفى خـــارج الأعيان أن الفضـــل للمتقدم ، أو ليس أن المتأخر يغترف من فضالتـــه (٢) ، ويهتدى بدلالته ، وما أحسن قول الشاعر :

ومما شجانى أننى كنت نائما أعلل من فرط الكرى بالتنسم
الى أن بكت ورقاء فى غصن أيكة تردد مبكاها بحسن الترنم
فلو قبل مبكاها بكيت صبابة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى، فهيج لى البكا بكاها ، فقلت الفضل للمتقدم

ويعجبنى أيضا قولهم فى هذا المعنى عند المكافأة :

أنا الشـــجاع الذى قد كنت فى ظمأ
وسط الهجير على الرمضاء فى الوادى
فجدت بالماء ، فضـــلا منك مبتدئا
بغير قل ، فأشـــفى غلة الصـــادى

---

(١) القدم : السبق والتقدم ·
(٢) الفضالة كالفضلة : البقية ·

هذا جزاؤك منـــا ، لا نمن بــه
فضلا بفضل ، وكان الفضل للبادى

(ص ٨ ، ٩) فاننا كنا فى زمن الخلفاء العباسـيين أكمل سـائر البلاد ، تمدنا ، ورفاهية ، وتربية زاهرة زاهية ، وسبب ذلك أن الخلفاء كانوا يعينون العلماء وأرباب الفنون وغيرهم ، على أن منهم من كان يشتغل بها بنفسه ، فانظر الى المأمون بن هارون الرشيد ، فانه زيادة عن اعانة ميقاتية (١) دولته كان يشتغل بنفسه بعلم الفلك ، وهو الذى قد حرر ميل دائـرة فلك البروج على دائـرة الاستواء ، فوجده بالامتحان ثلاثا وعشرين درجة ، وخمسا وثلاثين دقيقة ، وغير ذلك ٠

وقد أعان « جعفر المتوكل » من العباسية « أصطفان » (٢) على ترجمة الكتب اليونانية ، ككتاب « ذيسقوريدس » فى الأدوية ٠

وكذلك الملك « عبد الرحمن الناصر » صاحب الأندلس ، فانه طلب من ملك « قسطنطينية » المسمى « أرمانيوس » أن يبعث اليه رجلا يتكلم باللسان اليونانى واللاطينى ليعلم له عبيدا يكونون مترجمين عنده ، فبعث له راهبا يسمى ٠ « نقولا » الى غير ذلك ٠

فمن هنا تفهم أن العلوم لاتنتشر فى عصر الا باعانة صاحب الدولة لأهله ، وفى الأمثال الحكمية : « الناس على دين ملوكهم »٠

وقد تشتت عز الخلفاء ، وانهدم ملكهم ، فانظر الى الأندلس ، فانها بأيدى النصارى الاسبانيول ، من نحـو ثلاثمـــائة وخمسين سـنة ٠

---

(١) الميقاتية : هم الذين يحددون الوقت ويبينون ساعات الليل والنهار ، لمعرفة أوقات الصلاة ٠

(٢) هو اصطفان بن « بازيل » من تلامذة حنين بن اسحق ، وأول من قام بترجمة كتاب Dioscorides فى الطب ٠

وقد قويت شوكة الافرنج ببراعتهم ، وتدبيرهم ، بل وعدلهم ومعرفتهم فى الحروب ، وتنوعهم واختراعهم فيها ، ولولا أن الاسلام منصور بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان كلا شيء ، بالنسبة لقوتهم ، وسوادهم ، وثروتهم ، وبراعتهم وغير ذلك • ومن المثل المشهورة : « ان أعقل الحكام أبصرهم بعواقب الأمور » •

ولهذا تنبه (المتولى) على بلاد مصر ـ القاهرة ـ أن يرجع اليها شبابها القديم ، ويحيى رونقها الرميم ، فمن مبدأ توليته وهو يعالج فى مداواة دائها الذى لولاه كان عضالا ، ويصلح فسادها الذى قد كاد يكون زواله محالا ، ويلتجيء اليه أرباب الفنون البارعة ، والصنائع النافعة ، من الافرنج ، ويغدق عليهم فائض نعمته ، حتى ان العامة بمصر ، وبغيرها • من جهلهم يلومونه فى أنفسهم غاية اللوم ، بسبب قبوله (١) الافرنج ، وترحيبه بهم ، وانعامه عليهم ، جهلا منهم بأنه انما يفعل ذلك لانسانيتهم وعلومهم ، لا لكونهم نصارى ، فالحاجة دعت اليه ، ولله در من قال :

(ص١٠) ان المعلم والطبيب كلاهما
لم يبذلا نصحا اذا لم يكرما (٢)

فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه
واصبر لجهلك ان جفوت معلما

ولا يتأتى لانسان أن ينكر أن الفنون والصنائع الغربية بمصر قد برعت الآن ، بل وقد اجدت بعد أن لم تكن ، ويرجى بلوغها درجة كمال وفوقان ، فما أنفقه (الوالى) على ذلك كان فى محله

---

(١) فى المطبوعة : قبول •

(٢) الرواية المشهورة : لا ينصحان اذا هما لم يكرما •

اتفاقا ، فانظر الى « الورش » والمعامل والمدارس ونحوها ، وانظر الى ترتيب أمر العساكر الجهادية من « الايات » ومدارس حربية ، فانه من أحسن ما صنعه ، وأحق ما يؤرخ من فعـــل الخيرات ، ولايمكن ادراك ضرورية هذا النظـــام الا لمن رأى بـــلاد الافرنـــج ، أو شاهد الوقائع •

وبالجملة والتفصيل ، [فان الوالى] آماله دائما متعلقـــة بالعمار ، ومن الحكم المعروفة » العمارة كالحياة ، والخراب كالموت، وبناء كل [انسان] على قدر همته •

وقد سارع (الوالى) فى تحسين بلاده ، فأحضر فيها ما أمكنه احضاره من علماء الافرنج ، وبعث ما أمكنه بعثه من مصر الى تلك البلاد ، فان علماءها أعظـــم من غيرهم فى العلوم الحكمية • وفى الحديث « الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو فى أهل الشرك » قال بطليموس الثانى : « خذوا الدر من البحر ، والمسك من الفأرة ، والذهب من الحجر ، والحكمة ممن قالها » • وفى الحديث : « اطلب العلم ولو بالصين » ومن المعلوم أن أهل الصين وثنيون وان كان المقصود من الحديث السفر الى طلب العلم ، وبالجملة حيثما أمن الانسان على دينه ، فلا ضرر فى السفر ، خصوصا لمصلحة مثـــل هذه المصلحة •

ولعل هذا كله مطمح نظر (الوالى) فى هذه الارســـالية وغيرها من الارساليات المتتالية المتسلسلة (١) فثمرة هذا السفر تحصل ـ ان شاء الله تعالى ـ بنشر هذه العلوم والفنون الآتية فى الباب الثانى ، وبكثرة تداولها ، وترجمة كتبها وطبعها فى مطابع ولى النعم •

فينبغى لأهل العلم حث جميع الناس على الاشتغال بالعلوم والفنون ، والصنائع النافعة ، وليس هذا الزمان قابلا لأن يقال فيه

(١) زيادة فى الطبعة الثانية • وليست فى الطبعة الأولى •

كما « قال بهاء الدين أبو حسين العاملي » في صرف العمر في جمع كتب العلم وادخارها ومطالعتها ، في شعره :

على كتب العلوم صرفت مالك — وفي تصحيحها أتعبت بالك

(ص ١١)

وأنفقت البياض مع السواد — الى ماليس ينفع في المعاد
تظل من المساء الى الصباح — تطالعها ، وقلبك غير صاح
وتصبح مولعا من غير طائل — بتحرير المقاصد والدلائل
وتوضيح الخفا في كل باب — وتوجيه السؤال مع الجواب
لعمري ، قد أضلتك الهداية — ضلالا ماله أبدا نهايه
وب «المحصول» حاصلك الندامة — وحرمان الى يوم القيامه
وتذكرة « المواقف » والمراصد — تسد عليك أبواب المقاصد
فلا ينجي النجاة من الضلاله — ولا يشفي الشفاء من الجهاله
وبالارشاد لم يحصل رشاد — وبالتبيان مابان السداد
وبالايضاح أشكلت المدارك — وبالمصباح أظلمت المسالك
وبالتلويح مالاح الدليل — وبالتوضيح ما اتضح السبيل
صرفت خلاصة العمر العزيز — على تنقيح أبحاث الوجيز (١)
بهذا الأمر صرف العمر جهل — فقم واجهد فما في الوقت مهل
ودع عنك الشروح مع الحواشي — فهن على البصائر كالغواشي(٢)

---

(١) المقاصد ، والدلائل ، والمحصول ، والمواقف ، والمراصد ، والنجاة ، والارشاد ، والتبيان ، والايضاح ، والمصباح ، والتلويح ، والتوضيح ، والوجيز أسماء لكتب شرعية ولغوية ونحوية .

(٢) الغواشي : جمع غاشية ، وهي الغطاء .

وقوله :

أيها القوم الذى فى المدرسه كل ما حصلتموه وسوسه
فكركم ان كان فى غير الحبيب ماله فى النشأة الأخرى نصيب
فاغسلوا بالراح عن لوح الفواد كل علم ليس ينجى فى المعاد

لأن هذا مقال من تجرد عن الدنيا ، وانهمك على الأخرى ، أو من اشترى العلوم بأغلى ثمن ، فبخس صفقتها حادث الزمن .

الباب الثانى

من المقدمة

[يتعلق بالعلوم والفنون المطلوبة ، والحرف والصنائع المرغوبة]

ولنذكر لك هنا الصنائع المطلوبة ، لتعرف أهميتها ، ولزومها فى أى دولة من الدول • وهذه الفنون اما واهية في مصر ، أو مفقودة بالكليـة •

وهى قسمان : قسم عام للتلامذة ، وهو : الحساب ، والهندسة ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والرسم • وقسم خاص (ص ١٢) متوزع عليهم ، وهو عدة علوم :

العلم الأول : علم تدبير الأمور الملكية ، ويتشعب عنه عدة فروع :

الحقوق الثلاثة التى يعتبرها الأفرنج ، وتسمى بالنواميس ، وهى الحقوق الطبيعيـة ، والحقـوق البشرية ، والحقوق الوضعية ، وعلم أحوال البلدان ومصالحها وما يليق بهـا ، وعلم الاقتصاد فى المصاريف وعلم تدبير المعاملات والمحاسبات، والخازندارية وحفظ بيت المال •

العلم الثانى : علم تدبير العسكرية •

العلم الثالث : علم القبطانية ، والأمور البحرية •

العلم الرابع : فن معرفة المشى فى مصـــالح الدول (١) ، يعنى علم السفارة ، ومنه (الايلجيـة) (٢) ، وهى رسالة البلدان •

وفروعه • معرفة الألسن ، والحقوق ، والاصطلاحات •

العلم الخامس : فن المياه (٣) ، وهو صناعة القناطر ، والجسور ، والأرصفة ، والفساقى ، ونحو ذلك •

العلم السادس : الميكانيقا (٤) ، وهى آلات الهندسة ، وجر الأثقال•

العلم السابع : الهندسة الحربية •

العلم الثامن : فن الرمى بالمدافع وترتيبها ، وهى فن (الطوبجية)•

العلم التاسع : فن سبك المعادن ، لصناعة المدافع والأسلحة وغيرها •

العلم العاشر : علم الكيميا ، وصناعة الورق ، والمراد بالكيميا معرفة تحليـــــل الأجزاء وتركيبها ، ويدخل تحتهــــا أمور كثيرة ، كصناعة البارود والسكر وليس المراد بالكيميا حجر الفلاسفة، كما يظنه بعض الناس ، فان هذا لاتعرفه الافرنج ، ولا تعتقده أصـــــلا •

العلم الحادى عشر : فن الطب ، وفروعه ، فن التشريح ، والجراحة ، وتدبيرالصحة ، وفن معرفة مزاج المريض ، وفن البيطرة ، أى معالجة الخيل وغيرها •

العلم الثانى عشر : علم الفلاحة ، وفروعها ، معرفة أنواع الزروع،

---

(١) ترجمة ل La Diplomatie

(٢) عرف رفاعة (الايلجية) بأنهم رسل البلاد ، ولعلهم الوزراء المفوضون • مأخوذة فى الفرنسية من مادة Eligibilité ومنها •

(٣) ترجمة ل L'Hidraulique

(٤) ترجمة : Mècanique

وتدبير الخلا بالبناء اللائق به ، وغيرها • ومعرفة ما يخصه من آلات الحراثة المدبر للمصاريف •

العلم الثالث عشر : علم تاريخ الطبيعيات ، وفروعه ، الحيوانات ، ومرتبة النباتات ، ومرتبة المعادن •

العلم الرابع عشر : صناعة النقاشة ، وفروعها ، فن الطباعة ، وفن حفر الأحجار ونقشها ، ونحوها •

العلم الخامس عشر : فن الترجمة ، يعنى ترجمة الكتب ، وهو من الفنون الصعبة ، خصوصا ترجمة الكتب العلمية ، فانه يحتاج الى معرفة اصطلاحات أصول العلم المراد ترجمتها ، فهو عبارة عن معرفة اللسان المترجم عنه واليه ، والفن المترجم فيه •

فاذا نظرت بين الحقيقة (ص ١٣ ، ١٤) رأيت سائر هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الافرنج ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا ، ومن جهل شيئا فهو مفتقر لمن أتقن ذلك الشيء ، وكلما تكبر الانسان عن تعلمه شيئا مات بحسرته ، فالحمد لله الذى (أنقذنا) من ظلمات جهل هذه الأشياء الموجودة عند غيرنا • وأظن أن من له ذوق سليم ، وطبع مستقيم يقول كما أقول ، وسأذكر بعضها بالاختصار فى آخر الكتاب ان شاء الله تعالى ، وهو المستعان •

الباب الثالث

من المقـــدمة

[فى ذكر وضـــع البـــلاد الافرنجية ، ونسبتها الى غيرها من البلاد ، ومزية الأمة الفرنساوية على من عداها من الافرنج ، (وبيان وجه الحكمة فى) ارســـالنا (اليها) ، دون ما عداها من ممالك الافرنج] ٠

فنقول : اعلم أن الجغرافيين من الافرنج قسموا الدنيـــا من الشمال الى الجنوب ، ومن المشرق الى المغرب خمسة أقسام ، وهى : بلاد أوروبا (بضم الهمزة والراء وتشديد الباء) ، وبلاد (آسيا « » بكسر السين) ، وبلاد « الافريقة » ، وبلاد « الأمريقة » وجزائر البحر المحيط المسماة « الأوقيانوسية » ٠

فبلاد « أوروبا » محدودة جهة الشمال بالبحـــر المنجمد ، المسمى : ببحر ٠ الثلج الشمالى وجهة الغـــرب ببحر الظلمات المسمى ؛ البحر المظلم ، والبحر الغربى ، وجهة الجنوب ببحـــر الروم ٠ المسمى : البحر المتوسط والأبيض ، وبلاد « آسيا » ٠ وجهة الشرق ببحر « الخزر « ، (بضم الخـــاء والزاى ، آخــــره راء) ، ويقال له : بحر الحزز ، (بحاء مهملة مفتوحة ، ثم زايين معجمتين ، أولاهما مفتوحة) ، ويسمى أيضا : بحرجرجان وبحر طبرستان ، وببلاد آســـيا ٠

فحينئذ بلاد أوروبا تقال على بلاد الافرنج ، وبلاد الأروام • وبلاد قسطنطينية • وبلاد الخزر (١) ، والبلغـــار ، والأفلاق ، والبغدان (٢) ، والسرب ، وغيرهما •

وهي نحو ثلاث عشرة أرضا ، أي ولاية أصلية :

أربعة منها في الشمال : وهي بلاد الانكليز ، وبلاد «دانيمرق»، (بكسر النون وفتح الميم ، وسكون الراء) ، وبلاد « أســـوج » ، (بفتح الهمزة ، وســـكون الســـين ، وكسر الواو) ، وبـــلاد « الموسقو » •

وســـتة في الوســـط ، وهي : « بلاد الفلمنك » ، وبلاد الفرنسيس » ، وبلاد » السويسة » و وبلاد « النيمسة » ، وبلاد البروسية » (بضم الباء) • وبلاد « جرمانية » المتعاهدة •

وثلاثة في الجنوب ، وهي : بلاد (ص ١٤ ، ١٥) اسبانيا مع « البورتوغال » وبلاد « ايطاليا » ، وبلاد « الدولة العلية العثمانية » في بلاد « أوروبا » ، التي هي : بلاد الأروام ، والآرناؤط والبشناق، والسرب ، (بالباء أو الفاء) ، والبلغار ، والأفلاق ، والبغدان ، (بضم الباء ، وسكون الغين) •

فمن ذلك تعلم أن تفسير بعض المترجمين بلاد أوروبا وبلاد الافرنج فيه قصور ، اللهم الا أن تكون بلاد الافرنج تطلق على ما يعم بلاد الدولة العليـــة ، ولكن يناقض ذلك أن (مترجمي) الدولة العثمانية يقصرون بلاد « افرنجستان » على ما عدا بلادهم من بلاد أوروبا • ويسمون بلادهم ببلاد الروم ، وان كانوا يعممون أيضا

---

(١) تقع الى الغرب والشمال لبحر قزوين •

(٢) الأفلاق والبغدان يكونون دولة رومانيا الحديثة •

فى لفظ الروم ، فيريدون به بعض الأحيان ما يعم بلاد الافرنج ، وبعض البلاد الداخلية فى حكمهم من بلاد « آسيا » ·

وبلاد « آسيا » محدودة أيضا جهة الشمال بالبحر المنجمد الشمالى ، وجهة الغرب ببلاد « أوروبا » و « الأفريقية » ، وجهة الجنوب ببحر الهند ، وبحر الصين ، وجهة الشرق ببحر الجنوب المحيط ، وببحر بهونغ (١) · (بكسر الباء ، وسكون الهاء ، وفتح الراء ، وسكون النون ، وبالغين أو الكاف) ·

وهى تنقسم أيضا الى عشر أراض أصلية :

واحدة جهة الشمال ، وهى بلاد « سبير » ·

وسبعة فى الوسط ، وهى : بلاد الدولة العلية العثمانية التى هى « الشام » ، و « أرمينية » و « كردستان » و « بغداد » و « البصرة » ، و « قبرص » ، وغيرها ، ثم بلاد العجم ، وبلاد « بلوجستان » ، وبلاد « قابولستان » ، و « أفغهانستان » وبلاد « التتار الأكبر » ، وبلاد الصين ، وبلاد « يابونيا » (٢) ·

واثنان فى الجنوب ، وهى : بلاد العرب ، وبلاد الهند ، فبلاد الحجاز ، وبلاد الوهابية تحت حكم الدولة العلية · وبلاد اليمن تحت حمايتها · وبلاد عمان مستقلة ، وكلها أقاليم جزيرة العرب ·

فهذه هى ولايات آسيا ·

ثم بلاد « الافريقية » ، وهى محددة جهة الشمال ببحر الروم ، وجهة الغرب بالبحر الأطلنتيقى ، المسمى : بحر الظلمات ويسمى ·

---

(١) يفصل بين شبه جزيرة الاسكا وقارة آسيا ·

(٢) هى اليابان ·

بحر المغرب ، وجهة الجنوب بالبحر المحيط الجنوبى ، وجهة الشرق ببحر الهند ، « وببغاز باب المندب » وببحر « القازم » ، المسمى : البحر الأحمر ، وببلاد العرب ٠

ويمكن تقسيم « الافريقية » الى ثمان أراض أصلية ٠

اثنتان في الشمال ، وهى : بلاد المغاربة ، وبلاد مصر ٠

وأربعة فى الوسط ، وهى : « السينيغبينيا » (١) ، وبلاد « الزنج » ، وبلاد « النوبة » وبلاد « الحبشة » ٠

واثنتان في الجنوب وهما : بلاد « غينا » وبلاد « كفرية » (٢)٠

فهذا ما يسمى الآن عند الافرنج : بلاد افريقية ، وان كانت « افريقيه » فى الأصل بلدة (ص ١٦) معلومه جهة « تونس » وما حواليها ، ثم أضيف الى بلاد أوروبا ما قاربها من الجزائر ، وكذلك لبلاد « آسيا » و « افريقية » وهذه الأقسام الثلاثة يعنى ٠ « أوروبا » و « آسيا » و « افريقية » تسمى : الدنيا القديمة ، أو الأرض القديمة ، يعنى المعروفة للقدماء ٠

وأما بلاد « أمريكة » أو « أمريقة » ، (بالكاف أو القاف) فتسمى : الدنيا الجديدة ، وتسمى أيضا : الهند الغربى ، وتسمى فى بعض الكتب العربية (عجائب المخلوقات) ٠

وهى انما عرفت للافرنج بعد تغلب النصارى على بلاد الأندلس ، واخراج العرب منها ، فان هذا الوقت كان مبدأ للسياحة ، وجوب البحر المحيط ، واستكشاف البلاد باعانة لدول لأرباب الأسفار والملاحة ٠

---

(١) فى المطبوعة : السينغنيا ٠

(٢) عرفها رفاعة فى مقدمة كتاب قلائد المفاخر ص ٧٥ ، فقال : كفرية (بضم الكاف وفتحها) ٠٠٠ ولاية فى جنوب افريقية ، جهة اقليم زنجبار ٠

وأما الآن فقد كانت السـياحة تكون عند الافرنج فنا من الفنون ، فليس كل أحد يحسنها ، ولا كل دولة تتقنها ، وذلك أنه لما كثرت الآلات الفلكية والطبيعية ، سهلت الاستكشافات البرية والبحرية ، وتداولت الأسـفار ، واستكشفت الأماكن والأقطار ، وضم الى ما يعـرف من قديم الزمان ، هذه الدنيـا الجديدة التى انتظمت فى سلك معرفة أولى العرفان ·

ثم زاد الحال باختراع سفن النار ، ومراكب البخار ، فتقاربت الأقطار الشاسـعة ، وتزاورت أهالى الدول وصـارت المعاملات والمخالطات بينها متتابعة ·

ومما قام مقام آلات السياحة قبل ابتداعها ، وناب عن أدوات الملاحة قبل اختراعها · الأنوار المحمدية ، والغيرة الاسلاميـة ، بل والمعارف الوافرة فى العلوم الرياضية والفلكية والجغرافية ، فى زمن الخلفاء العباسية ، ففتحوا بلاد مصر ، والسودان ، والمغرب ، والعجم ، وبلاد قابول ، وبخارى ، والهنـد ، والسند ، وجزائر سيلان ، وسومطرة ، وبلاد التبت ، والصين ، وعدة ولايات ببلاد أوروبا ، مثل ممالك الأندلس ، وصقلية ، وبلاد الروم ، وغير ذلك ·

وتقدمت عنـدهم العلوم الجغرافيـة ، واشتهر من علمـاء الجغرافية كثيرون كالمسعودى (١) ، وابن حوقل (٢) ، والشريف

---

(١) جغرافى فقيه ، أديب : توفى بدمشق ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ·

(٢) رحالة جغرافى له كتاب « المسالك والممالك » (توفى نحو سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٠ م) ·

الادريسى (١) ، وابن الوردى (٢) ، والسلطان عماد الدين أبى الفدا صاحب حماة (٣) ٠

ثم لما خمدت عندهم أنوار هذه المعــارف ، وأهملوها ، ازدراء لها ، أو لسبب آخر ، قلت سياحاتهم ، وقام مقامهم طوائف الافرنج، وبرعوا فى ذلك ، واستفادت الدولة والرعية الفوائد الجسيمة ، بالأمور السياسية والتجارية (ص ١٧) ، وصيروا الأمم أشــباه البهائم الى ملة النصرانية ، وكان الاسلام أولى بتلك المزية ، ولقد تصدى (الحاكم) ، لاحياء هذه المعارف ، التليد منها والطارف ، حتى لاحت تباشير بدو (ر) (٤) العلوم ، وتلاشـــت عن المعارف غياهب الأحلاك والغيوم ٠ (شعر) :

واذا رأيت من الهــلال نمــوه   أيقنت أن سيصير بــدرا كاملا

ثم ان بلاد « الأمريقة » تتصل بستة بحور ، فيتصل بها من جهة الشمال البحر المحيط المنجمد وبحــر بافين (٥) ، ومن جهــة الشرق ببحر المغرب ، وببحر جزائر « الأنتيلة » (٦) ، وبالبحــر المحيط الأكبر ، المسمى « أقيانوس » ، « وبحــر بهرنغ » جهــة الغــرب ٠

---

(١) مؤرخ ومن أكابر العلماء بالجغرافيا ، ورحالة ، له كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » (٤٩٣ ـ ٥٦٥ هـ) (١١٠٠ ـ ١١٦٥ م) ٠

(٢) توفى سنة ٧٤٩ هـ ٠

(٣) أمير مؤرخ جغرافى له تقويم البلدان (٦٧٢ ـ ٧٣٢ هـ) (١٢٧٣ ـ ١٣٣٢ م) ٠

(٤) ى الأصل « بدو » ٠

(٥) يفصل بين جرينلاند وأمريكا الشمالية ٠

(٦) جزائر كثيرة متناثرة شرق أمريكا الوسطى ٠

وهى قسمان : الأمريقة الشمالية ، والأمريقة الجنوبية .

فأمريقة الشمالية ست أراض أصلية ، وهى : الأمريقة الرسية (١) . أو المحكومة بالموسقو ، وبلاد « أغرونلنده » (٢) ، وبلاد « بريطانيـــة الجديدة » (٣) ، أو بلاد الانكليز الجديدة ، وبلاد « الايتازونيا » ، وهى الأقاليم المجتمعة (٤) ، وبلاد «مكسيك» . وبلاد « غواتيمالا » .

والأمريقة الجنوبية تسع أراض ، وهى : بلاد « كلنبيا » وبلاد « ابريزيلة » (٥) ، وبلاد « برو » ، وبلاد « بولوية » (٦) ، وهى : « برو العليا ، وبلاد « براغية » (٧) ، وبلاد « بلاطة » (٨) ، وبلاد « شلى » ، (بكسر الشين ، وتشديد اللام المكسورة) ، وبلاد « ابتاغونيا » (بفتح الباء والتاء ، وضم الغين ، وكسر النون) .

وأما جزائر البحر المحيط فانها غربى بلاد الأمريقة ، وعلى الجنوب الشرقى من بلاد « آسيا » ، وهى محددة « من ســــائر جهاتها بالبحر المحيط وهى ، ثلاثة أجزاء أصلية « النوتازية » (٩) (بضم النون المشددة ، وكسر الزاى) .

« والأستورالية » ، (بضـــم الهمزة ، وســـكون السين ،

---

(١) هى شبه جزيرة « آلاسكا » .

(٢) هى ما تسمى اليوم : « جرين لاند » Greenland

(٣) Nouvelle-Bretagne - New Engand.

(٤) نسميها اليوم بالولايات المتحدة Etas-Unis

(٥) البرازيل Bresil

(٦) بوليفيا Bolivie

(٧) براجواى Paraguay

(٨) دلتا نهر بلاتا . وهى جزء من البرازيل .

(٩) هى اندونسيا Indonerie

وضم التاء ، وكسر اللام) « والبولينيزية » ، (بضم الباء ، وكسر اللام ، والنون والزاى) ٠

« ثم بلاد « أوروبا » فيها أربعة بنادر أصلية مشهورة بالتجارة : « اسلامبول » تخت الدولة العلية ، « ولوندرة » ، (بضم اللام ، وسكون النون ، وفتح الدال) تخت بلاد الانكيز ، « وباريس » تخت بلاد الفرنسيس ، « ونابلى » ، (بضم الباء) ببلاد « ايطاليا » ٠

والبنادر الأصلية ببلاد آسيا أربعة أيضا : « بكين » ، (بكسر الباء والكاف) قاعدة بلاد الصين ، « وقلقوطة » ، (بفتح القاف واللام ، وضم القاف) ، ويقال « كلكتة » ، (بكافين) قاعدة بلاد الهند التى تحت حكم الانكليز ، « وصورة » ، ببلاد الهند أيضا ، ويقال : هى التى كانت تسمى « المنصورة » ، « ومياقو » ، (ص ١٨) (بكسر الميم ، وضم القاف) فى بلاد جزيرة « يابونيا » ٠

والبنادر الأصلية ببلاد « الافريقية » أربعة « القاهرة » قاعدة مصر ، « وسنار » قاعدة حاكم بلاد النوبة ، والجزائر ، وتونس ، ببلاد المغاربة ٠

والبنادر الأصلية ببلاد « أمريقه الشمالية » هى : «مكسيكو»، ببلاد « مكسيك » « ونويرق » (١) فى بلاد « الايتازونيا » ، « وفيلادلفيا » ، (بكسر الفاء والدال ، وسكون اللام ، وكسر الفاء »، ومدينة « وسهنغتون » (٢) (بسكون السين ، وكسر الهاء ، ثم نون ساكنة بعدها غين مكسورة) ٠

---

(١) هى نيويورك New York

(٢) هى واشنطون Washington

وأربعة فى « أمريقة الجنوبيـــة » ، وهى : « ريوجانير » ، (بكسر الراء ، وضم اليـاء وكسر النـون) فى بلاد « ابريزيلة » « وبنوسيرس » ، (بكسر الباء والسين والراء) فى بلاد « بلاطة » ، « وليمة » ، (بكسر اللام) فى بلاد « برو » ، « وقيطو » ، (بكسر القاف) فى بلاد « غرناطة الجديدة » .

وفى بلاد البحر المحيط بندران شهيران ، وهما : مدينـــة « بتاويا » ، بندر جزيرة « جاوة » ، ومدينة « مانيلة » ، الواقعة فى جزيرة « مانيلة » احدى جزائر « فيليبينة » ، فهذه المدينة هى قاعدة جميع هذه الجزائر .

ثم ان بلاد « أوروبا » أغلبها نصارى ، وبلاد الدولة العلية هى بلاد الاسلام بهذه القطعة .

وأما بلاد « آسيا » فانها منبع بلاد الاسلام ، بل وســائر الأديان . وهى أوطان الأنبياء والمرسلين ، وبها نزلت سائر الكتب السماوية ، وهى تتضمن أشرف الأماكن والأرض المباركة ، والمساجد التى لاتشد الرحال الا اليها ، وفيها منشأ ومضم عظام سيد الأولين والآخرين ، والصحابة . وهى منشأ الأئمة الأربعة (رضى الله تعالى عنهم) لأن منشأ الامام الشافعى (رضى الله عنه) غزة ، ومنشـــأ الامام مالك (رضى الله عنه) المدينة المشرفة ، ومنشأ الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان الكوفة ، ومنشأة الامام أحمد بن حنبل بغداد ، التى كانت (كما قيل) فى أيام الخلفاء ، بالنسبة للبلاد ، كالأستاذ فى العباد . وكلها من بلاد « آسيا » .

وبها ، يعنى ببلاد « آسيا » العرب ، وهم أفضل القبائل على الاطلاق ، ولسانهم أفصح الألسن باتفاق ، وفيهم بنوهاشم ، الذين هم ملح الأرض ، وزبدة المجد ، ودرع الشرف .

ومما يدل على فضلها أن بها الأماكن المفضلة ، كالقبلة ، التى يجب على كل انسان أن يتوجه اليها خمس مرات فى اليوم والليلة ، والمدينتين اللتين نزل بهما القرآن العظيم ، ففضائلهـــا لاتحصى ، وآثار أهلها لاتستقصى ، قال بعض أهلها :

عطفة ، يا جيرة « العلم » (١) يا أهيـــل الجود والكرم
نحن جيران لذا « الحـــرم » حـــرم الاحســـان والحسن

(ص ١٩ ، ٢٠)

نحن أقوام به ســـــكنوا وبه من خوفهـــم أمنـــوا
وبآيات الكتـــاب عنــــوا فاتئد فينـــا أخـــا الوهن
نعرف « البطحا » ، وتعرفنـــا و « الصفا » و « البيت » يألفنا
ولنا « المعلى » ، « وخيف » منى فاعلمن هذا ، وكـــن ، وكـــن
ولنـــا خـــير الأنـــام أب و « على المرتضى » حســـب
والى « السبطين » ننتســـب نســـبا ما فيه من دخن (٢)

ومع أن الاسلام قد تولد فيها ، وانتشر منها الى غيرها ، ففيها جزء عظيم باق على الاتبـــاع أو الكفر ، كبلاد الصين ، وبعض بلاد الهند ، وجزء سالك فى اسلامه طريق الضلال ، كروافض العجم ٠

وأما بلاد « افريقية » فانها تشتمل على أعظم البلاد ، كبلاد مصر التى هى من اعظم البلاد وأعمرها وهى أيضا عش الأولياء والصلحاء والعلماء ، وكبلاد المغرب التى أهلها أهل صلاح وتقى وعلم وعمل ، وان شاء الله يمتد بها الاسلام ٠

وأما « أمريقة » فهى بلاد كفر ، وذلك أنها كانت عامـرة فى الأصل بهمل عبدة الأصـــنام ، فتغلب عليهـــا الافرنج ، لما قويت

---

(١) العلم : الجبل
(٢) الدخن : الفساد ٠

شوكتهم في الفنون الحربية ، ونقلوا اليها جماعة من بلادهم ، وأرسلو اليها قسيسين ، فتنصر كثير من أهلها ، فالآن بلاد « أمريقة » غالبها نصارى الا الهمل ، فهم وثنيون ، ولم يوجد بها دين الاسلام ، وسببه قوة الافرنج في علم ركوب البحر ، ومعرفتهم العلوم الفلكية والجغرافية ، ورغبتهم في المعاملات والتجارات ، وحبهم للسفر ، قال الشاعر :

ان العلا حدثتني، وهي صادقة — فيما تحدث: أن العز في النقل
لو أن في شرف المأوى بلوغ منى — لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وقال آخر :

قلقل ركابك للفلا — ودع الغواني والقصور
فمحالفو أوطانهم — أمثال سكان القبور
لولا التغرب ما ارتقت — درر البحور الى النحور

(ص ٢٠ ، ٢١) وقال الحريري :

لجوب البلاد مع المتربة — أحب الي من المرتبة

وقال غيره :

قم واغترب في البلاد مجتهدا — فمن ثوى في بلاده هانا
كبيدق لايزال محتقرا — حتى اذا سار فرزانا (١)

وقال :

أنفق من الصبر الجميل ، فانه — لم يخش فقرا منفق من صبره
والمرء ليس ببالغ في أرضه — كالصقر ليس بصائد في وكره

(١) البيدق : الجندي الراجل ، وهو اسم لقطعة في الشطرنج ، والفرزان : الوزير ، قطعة في الشطرنج أيضا ، يشير الشاعر الى أن البيدق لا يزال يتحرك في مكانه من قطعة الشطرنج ، الى أن يحل في مكان الوزير بعد أن يفقده صاحبه ، فيكون مطلق الحرية في التحرك كما يشاء يمينا ويسارا والى الأمام ، والى الخلف .

ومن المعلوم أن العنبر والمسك لايشرفان مالم يفارقا وطنهما ومعدنهما . وكل هذا لاينافى أن حب الوطن من شعب الايمان ، لأن المقصود السياحة ، والأخذ فى أسباب طلب الرزق ، وهذا لايمنع من تعلق الانسان بوطنه ومسقط رأسه ، فان هذا أمر جبلى ، قال الشاعر :

يابعيد الدار عن وطنه مفردا يبكى على شجنه
كلما جد الرحيل به زادت الأسقام فى بدنه

وقال غيره :

ولقد زاد الفؤاد شجى طائر يبكى على فننه
شفه ما شفنى ، فبكى كلنا يبكى على سكنه

ولا ينافى أيضا هذا الأمر مادة التوكل والاعتماد على المولى ، كما يفهم من كلام الشاعر فى قوله :

لقد علمت ، وما الاسراف من خلقى
أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى اليه ، فيعيينى تطلبه
ولو قعدت أتانى ليس يعيينى (١)

وقول الآخر :

اقنع بأيسر رزق أنت نائله واحذر ، ولا تتعرض للارادات
فما صفا البحر الا وهو منتقص وما تكدر الا فى الزيادات

---

(١) فى المطبوعة « لايعيينى » .

فان هذا معناه التسلية لمن لا يحب الأســـفار ، أو النهى عن السفر للطمع •

وأما بلاد (ص ٢٢) جزائر البحر المحيط فانها قد فتح كثير منها بالاسلام ، كجزيرة « جاوة » ، فان أهلهـــا مسلمون • وبالجملة فبلاد « النوتازية » أغلبها اســلام ، وندر وجــود دين النصرانية فيها •

ومن ذلك كله تعلم أنه يمكن أن أقسام الدنيا الخمسة يصح تفضيل بعضها على بعض ، يعنى تفضيل جزء بتمامه على الآخـــر بتمامه ، بحسب مزية الاسلام وتعلقاته ، فحينئذ تكون « آسيا » أفضل الجميع ، ثم تليها « افريقية » لعمارها بالاسلام والأولياء والصلحاء ، خصوصا باشتمالها على مصر القاهرة ، ثم تليها بلاد « أوروبا » لقوة الاسلام ، ووجود الامام الأعظـــم • امام الحرمين الشريفين ، سلطان الاسلام فيها ، ثم بـــلاد الجزائر البحـــرية ، لعمارها بالاسلام أيضا ، مع عدم تبحرها فى العلوم ، كمـــا هـــو الظاهر ، فأدنى الأقسام بلاد « أمريكة » ، حيث لا وجود للاسلام بها أبدا • هذا ما يظهر لى ، والله أعلم بالصواب •

وهذا كله بالنظر للاسلام ، والأمور الشرعيـــة ، والشرف الذاتى ، فان المراد بالشرف ما يعم الشرعى وغيره ، فلا يقـــال : ان أغلب ذلك من باب المزية ، وهى وحدها لا تستدعى أفضلية •

ولا ينكر منصف أن بلاد الافرنج الآن فى غاية البراعة فى العلوم الحكميـــة وأعلاها فى التبحـــر فى ذلك ، بلاد الانكليز والفرنسيس ، والنمسا ، فان حكماءها فاقوا الحكمـــاء المتقدمين ، كأرسطاطاليس ، وأفلاطون ، وبقراط ، وأمثالهـــم • وأتقنـــوا الرياضيات ، والطبيعيات ، والالهيات ، وما وراء الطبيعيات أشـــد

اتقان ، وفلسفتهم أخلص من فلسفة المتقدمين ، لما أنهم يقيمون الأدلة على وجود الله تعالى ، وبقاء الأرواح ، والثواب والعقاب ٠

فأعظم مدائن الافرنج مدينـــة « لوندرة » ، وهى كرسى الانكليز ، ثم « باريز » ، وهى قاعدة ملك فرنسا ، و « باريز » تفضل على « لوندرة » بصحة هوائهـا ، كما قيل ، وطبيعة القطر والأهل ، وبقلة الغلاء التام ٠

واذا رأيت كيفية سياستها علمت كمال راحة الغرباء فيهـا وحظهم وانبساطهم مع أهلها ، فالغالب على أهلها البشاشة فى وجوه الغرباء ، ومراعاة خواطرهم ، ولو اختلف الدين ٠ وذلك لأن أكثر أهل هذه المدينة انما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا ينتحل دينه ، ولا غيرة له عليـه ، بـل هو من الفـرق المحسنة والمقبحة بالعقـل ، أو فرقة من الاباحيين الذين يقولون : ان كل عمل يأذن فيه العقل صواب ، فاذا ذكرت له دين الاسلام فى مقابلة غيره من الأديان أثنى على سائرها ، من حيث (ص ٢٣) انها كلها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، واذا ذكرته له فى مقابلة العلوم الطبيعية قال : انه لا يصدق بشىء مما فى كتب أهل الكتـاب ، لخروجه عن الأمور الطبيعية ٠

وبالجملة ففى بلاد الفرنسيس يباح التعبد بسائر الأديان ، فلا يعارض مسلم فى بنائه مسجداً ، ولا يهودى فى بنائه بيعة ، الى آخره ، كما سيأتى فى ذكره سياستها ، ولعل هذا كله هو علة وسبب ارسال البعوث فيها هذه المرة الأولى أبلغ من أربعين نفسا ، لتعلم هذه العلوم المفقودة ٠ بل سائر النصارى تبعث أيضا اليها ، فيأتى اليها من بلاد « أمريكة » وغيرها ، من الممالك البعيدة ٠ وقد

بعث أيضا عدة طلاب للعلوم ببلاد الانكليز ، لكنهم ليسوا عديدين ، وكذلك ببلاد النمسا • وبالجملة فسائر الأمم تطلب العز ، وتسعى اليه ، كما قال الشريف الرضى : « أطلب العز ، فما العز بغال » •

ولا أعز من العلوم والفنون تطلبها الولاة والحكام ، فانهم كلما كانوا أجل خطرا ، وجب أن يكونوا أدق نظرا •

البــاب الرابع

[فى ذكر رؤساء هذه السفرة]

قد بعث الوالى في السفر الى بلاد فرنسا ثلاثة رؤســاء من آكابر ديوانه ، وجعلهم رباط نظر عام على من عداهم ، وهم على هذا الترتيب :

فأولهم : صــاحب الرأى التام ، والمعرفة والأحكام ، حائز فضيلتى السيف والقلم ، والعارف برسوم العرب والعجم · حضرة عبدى أفندى المهردار ·

والثانى : صاحب الرأى السديد ، والطالع السعيد ، حضرة مصطفى مختار أفندى الدويدار ·

والثالث : الحاوى بين العلم والعمل ، واليراع والأسل : حضرة الحاج حسن أفندى الاسكندرانى ، بلغه الله فى الدارين الأمانى · (آمين) ·

ثم ان حضرة الأفندية الثلاثة كانوا يتعلمون أيضا كالباقى ، فحضرة الأفندى المهردار سابقا اشتغل بعلم تدبير الأمور الملكية · وحضرة الأفندى الدويدار سابقا (يشتغل) (١) بعلم تدبير الأمور

(١) زيادة ليست فى المطبوعة ·

العسكرية . وحضرة الحاج حسن أفندى يشتغل بعلم القبطانية والهندسة البحرية .

وكان لسائر الثلاثة اجتهاد زائد ، وتحصيل بالغ ، مع أن الأمرية فى الغالب تأنف ذلك . وقد كان حكم هؤلاء الثلاثة بالنوبة (ص ٢٤ ، ٢٥) فكانت نوبة الواحد يوما ، والآخر يوما آخر ، وهكذا ، فآل الأمر الى أن صارت شهرا شهرا ، ثم صار الأفندى المهردار وحده .

ثم ان حضرة الأفندية الثلاثة كان معهم فى تدبير الدروس جناب « مسيو جومار » الذى (عين) ناظرا على الدروس . وهو أحد علماء « الأنستتوت » (١) ، (بفتح الهمزة ، وسكون النون ، وكسر السين) أى مشورة (٢) العلماء وأكابرهم ، والذى يتراءى فى طبعه ويشاهد منه دائما أنه يرغب فى الاعتناء بمصالح مصر من جهة نشر المعارف والعلوم فيها ، بل وفى سائر بلاد « الافريقية » ، كما يفهم ذلك من حاله ، ومما قاله فى طالعة « رزنامته » (٣) التى ألفها سنة ألف ومائتين وأربعة وأربعين من الهجرة : ، وشهرة معارف « مسيو جومار » وحسن تدبيره يوقع فى نفس الانسان من أول وهلة تفضيل القلم على السيف ، لأنه يدبر بقلمه ما لا يدبر غيره بسيفه ألف مرة ، ولا عجب ، فبالأقلام تساس الأقاليم . وهمته فى مصالح العلوم سريعة ، كثيرة التأليف والاشتغال .

والغالب أن هذه الخصلة فى سائر علماء الافرنج ، فان مثل

---

(١) كلمة فرنسية L'Institut

(٢) يريد بمشورة العلماء : مجلسهم .

(٣) الرزنامة : كلمة تركية بمعنى تقويم .

الكاتب كالدولاب اذا تعطل تكسر ، وكالمفتاح الحديد · اذا ترك ارتكبه الصدأ · وجنـــاب « مسيو جومار » يشتغل بالعلوم آناء الليل ، وأطراف النهار ، وسيأتى ذكره عدة مرات · وسنذكر لك عدة من مكاتيبه التى وصلت بيدى ، ان شاء الله تعالى ·

وهنا انتهت المقدمة ·

المقصد

[فى مدة السفر « من مصر الى باريس » ، وما رأيناه من الغرائب فى الطريق ، أو مدة الاقامة فى هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية ، والفنون والعدل العجيب ، والانصاف الغريب ، الذى يحق أن يكون من باب أولى فى ديار الاسلام ، وبلاد شريعة النبى (صلى الله عليه وسلم)] .

وهذا المقصد يتضمن عدة مقالات ، تشتمل على عدة فصول :

المقالة الأولى : فيما كان من الخروج من مصر الى دخول مدينة « مرسيليا » التى هى فرضة من فرضات الفرنسيس ، وفيها عدة فصول .

المقالة الثانية : فيما كان من دخول « مرسيليا » الى دخول مدينة « باريس » (ص ٢٥) وفيها فصلان .

المقالة الثالثة : فى دخول « باريس » ، وذكر جميع ما شاهدناه، وما بلغنا خبره من أحوال « باريس » .

وهذه المقالة : هى الغرض الأصلى من وضعنا هذه الرحلة ، فلذلك أطنبنا فيها غاية الاطناب ، وان كان جميع هذا لايفى بحق هذه المدينة ، بل هو تقريبى ، بالنظر لما اشتملت عليه ، وان استغرب هذا من لم يشاهد غرائب السياحة . قال بعضهم :

من لم يــر الروم ، ولا أهلها   ماعرف الدنيا ولا الناسا

فمن باب أولى بلاد « افرنجستان » .

المقالة الرابعة : فى ذكر نبذ من العلوم والفنون المذكورة فى الباب الثانى من المقدمة .

المقالة الأولى

الفصـــل الأول

[في الخروج من مصر ، الى دخول ثغر اسكندرية]

كان خروجنا من مصر يوم الجمعة ، الذى هو ثامن يـوم من شعبان ، سنة احدى وأربعين ومائتين بعد الألف ، من الهجـــرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، فتفاءلت بأن عقب هذا الفراق يحصل الاجتماع ، وأن تسليم العودة ســـيقوم مقام الوداع ·

فركبنا زوارق صغيرة ، وتوجهنا الى اسكندرية ، وأقمنا على ظهر النيل المبارك أربعة أيام ، ولا فائدة لذكر بعض البلاد والقرى التى رسونا عليها ·

وكان دخولنا الاسكندرية يوم الأربعاء (ثالث عشر يوما) (١) من شهر شعبان ، فمكثنا فيها ثلاثة وعشرين يوما ، فى (سراية) الوالى بهـــا ·

وكان خروجنا الى البلد فى هذه المدة (٢) قليلا ، فلم يسهل لى ذكر شىء فى شأنها ، غير أنه ظهر لى أنها قريبة الميل فى وضعها

---

(١) الصواب : الثالث عشر ·

(٢) فى المطبوعة : المهينة ·

وحالها الى بلاد الافرنج • وان كنت وقتئذ لم أر شـــيئا من بلاد الافرنج أصلا ، وانما فهمت ذلك مما رأيته فيها دون غيرها من بلاد مصر ، ولكثرة الافرنج بهـــا ، ولكون أغلب السوقة يتكلم ببعض شيء من اللغة الطليانية ونحو ذلك ، وتحقق ذلك عندي بعد وصولي الى « مرسيليا » فان اسكندرية (عينة) « مرسيليا » وأنموذجها ، ولما ذهبت اليها سنة ٦٢ وجدتها قطعة من اوروبا •

الفصل الثاني

[فى ذكر نبذة تتعلق بهذه المدينة ، لخصناها من عدة كتب عربية وفرنساوية وذكرنا ما ظهر لنا صحته]

فنقول : قال فى القاموس : ان « اسكندرية » منسوبة الى « اسكندر » ابن الفيلسوف (صوابه فيليبش) ، وهو الذى قتل « دارا » ، وملك البلاد .

والاسكندرية ستة عشر بلدا منسوبة اليه ، منها بلدة ببلاد الهند ، وبلدة بأرض بابل ، وبلدة بشاطىء النهر الأعظم ، وبلدة بصغد سمرقند ، وبلدة بمرو ، واسم لمدينة بلخ ، والثغر الأعظم ببلاد مصر ، وقرية بين حماة وحلب ، وقرية على دجلة قرب واسط ، منها الأديب أحمد بن المختار بين مبشر ، وقرية بين مكة والمدينة وبلدة فى مجارى الأنهار بالهند ، وخمس مدن أخرى .

ومرو : بلدة من خراسان ببلاد الفرس ، والنسبة اليها مروى ومروزى . وانظر ما مراده بالنهر الأعظم ؟ ثم رأيت فى كتاب تقويم البلدان لعماد الدين أبى الفداء اسماعيل ابن ناصر سلطان حماة أن بالأندلس نهرا ، يسمى بالنهر الأعظم ، وهو نهر « اشبيلية » ونص عباراته . ومنها نهر « اشبيلية » من بلاد الأندلس ، ويسمى عند أهل الأندلس النهر الأعظم . انتهى .

ولعله انما سمى عندهم بالنهر الأعظم لامتيازه بحادثة المد والجزر ، كما نبه على ذلك أبو الفدا فى قوله : يدخله المد والجزر عند مكان يسمى الأرحا لاتزال فيه المراكب منحدرة مع الجزر ، صاعدة مع المد • وقال بعضهم فى المد والجزر :

خليلى ، بادربى الى النهر بكرة   وقف منه حيث المد يثنىعنانه
ولا تجز الأرحـا ، فان وراءها   يبابا ، وعينى لاتريد عيـانه

فعلى هذا تكون « اسكندرية » اسم بلدة بالأندلس • ولعل « اسكندر » حين اجتيازه بجزيرة الأندلسى بنى بها بلدة •

وذكر صاحب كتاب « نشق الأزهار ، فى عجائب الأقطار » أن الأسكندر ذا القرنين اجتاز بلاد الأندلس ، وفتح بها (بغاز) جبل الطارق ، المسمى بحر الزقاق ، وأن محل هذا البغاز كان أرضا بين « طنجة » وبلاد الأندلس • ولم يذكر فى هذا الموضع أن « اســكندر » ابنى بلدة بهذه الجزيرة ، لكن هذا لايدل على عدم وجود بلدة بهـا •

وظاهر عبارتهم أنه يوجد اثنان ، كل منهما يسمى (ص ٢٧) الاسكندر : أحدهما « اسكندر ذو القرنين » والآخــر • هو قاتل « دارا » •

وقال فى القاموس فى موضع آخر : « ذو القرنين » اسكندر الرومى ، لأنه لما دعاهم الى الله تعالى ضربوه على قرنه ، فأحيـاه الله تعالى ، ثم دعاهم ، فضربوه على قرنه الآخر ، فمات ، ثم أحياه الله • أو لأنه بلغ قطرى الأرض ، أو لضفيرتين له • انتهى • فظـاهر كلامه أن اسكندر ذا القرنين هو نفس اسكندر الرومى •

والذى عليه علماء الشرق أن ذا القـرنين المذكور فى الآية الشريفة هو غير اسكندر اليونانى ، فان الاول أقدم من الثانى ،

وهو الذى قيل بنبوته ، وانه بنى سد « يأجوج ومأجوج » ، وانه بحث عن ماء الحياة بلا طائل ، وفاز به الخضر (عليه السلام) فلذلك كان حيا الى الآن ٠ وأما الثانى فانه يسمى « اسكندر الرومى » أو اليونانى ، يعنى الاغريقى ، لأن قدماء الأغارقة تسمى : اليونان ، والمتأخرون يشتهرون باسم الأروام ٠

وأما الافرنج فلا يقولون الا بوجود « اسكندر الأكبر » بن « فيليبش » أو ابن « فيلبوش » المقدونى (١) ، ويجعلونه عين ما يعبر عنه فى التواريخ العربية باسم « اسكندر ذى القرنين » ، وينسبون اليه سائر ما يحكى عنه من العجائب ، كسد « يأجوج ومأجوج » ونحو ذلك ٠ غير أنهم لايصدقون بمالا يوافق العادة (٢) ٠

وعلى كل حال ، فقد اتفق كلام العلماء وحكماء الافرنج على أن « اسكندرية » تنسب الى اسكندر الرومى ، وهو ابن « فيلبش » ٠

وأنا أقول : الظاهر أن ذا القرنين هو الذى يعبر عنه عند اليونان « بهرقليوس » أو « هرقول » ٠ يدل على ذلك تسمية بوغاز جبل طارق « بوغاز هرقليوس » ، مع عبارة كتاب « نشق الأزهار » ٠ وكذلك ما ذكر فى خرافات اليونان ، عند الكلام على عمودى « هرقول » ، من أنه أدخل « أوقيانوس » (البحر المحيط) فى الجزء الذى يفصل « أوروبا » من « اشريقة » ، حين فتح « بغاز قادس » المسمى الآن « جبل طارق » بين جبلين كانا قبل ذلك متصلين ببعضهما ٠ أحدهما يسمى : « قلبة » فى جهة اسبانيا ، والآخر يسمى « بيلا » فى جهة « أفريقة » ، وصارا بعد فتح البوغاز بينهما كأنهما عمودان ، وكتب عليهما « هرقول » ما معناه « ليس خلف ذلك شىء » ٠

---

(١) فى المطبوعة « المقدوالى » ٠

(٢) فى المطبوعة « للعادة » ٠

ومما يدل على ذلك أيضا : ما ذكره اليونان فى خرافاتهم ، من أن هرقول من فحول الرجال الذين يعبرون عنهم بأنصاف الآلهة ، ويعتقدون أنهم متولدون بين الباقى والفانى ، أى بين اله وبشر ، فان « هرقول » (ص ٢٦ ، ٢٨) (على زعمهم) متولد من « جوبتير » أى « المشترى » و « اللمينة » زوجة أنفتريون » ملك « طيوه » حيث تشكل بشكل هذا الملك ، وواقعها ، فحملت به منه ٠

وذلك قريب مما ذكره « الدميرى » فى كتابه : « حياة الحيوان » نقلا عن « الجاحظ » حيث قال ما ملخصه : ان عمرو بن يربوع كان متولدا بين السعلاة والانسان ٠

قا ل: وذكروا أن « جرهما » كان من نتاج الملائكة والآدميين، فكان اذا عصى الملك ربه فى السماء أهبط الى الارض فى صورة رجل ، كما صنع بهاروت وماروت ، وأن من هذا القبيل كانت « بلقيس » ملكة « سبأ » ، وكذلك كان ذو القرنين ، وكانت أمه آدمية ، وأبوه من الملائكة ، ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنه) رجلا ينادى رجلا : ياذا القرنين ، قال : أفرغتم من أسماء الأنبياء ، فارتفعتم الى أسماء الملائكة ؟ ٠

وقال : وزعموا أن التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والانس، فقال تعالى : « وشاركهم فى الأموال والأولاد » ، وذلك أن الجنيات انما تعرض لصرع رجال الانس على جهة العشق ، فى طلب السفاد ، وكذلك رجال الجن لنساء الانس ، ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال والنساء للنساء ٠ وقال تعالى : « لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان » ، ولو كان الجان لايفتض الآدميات ، ولم يكن : ذلك فى تركيبه لما قال الله هذا القول ٠ انتهى ٠

غاية ما هناك أن العلوية فى اعتقاد العرب آلهـة فى اعتقاد اليونان • وأظن أن هذه المسألة لو عرضـت كالجارى على أرباب مدرسة فرنسا العظمى المسماة « آكدمة » لأجابت بعد النظر فيها بالصحة ، وأيدت القول بذلك •

وقد سلف فى عبـارة القاموس أسماء البـلاد التى تسمى « باسكندرية » ، وليس مما ينسب الى « اسكندر » الرومى الشهير بلدة « الأرناؤط » المسماة « اسكندرياسى » ، يعنى « اسكندرية » ، بل هى منسوبة الى « اسكندربيك » •

وقال بعضهم : مدينة « اسكندرية » ببرمصر كانت تسـمى قبل بناء الاسكندر لها بنحو ثلاثمائة سنة واثنتين قبل ظهور عيسى (عليه السلام) « قيسون » (بفتح القاف وسكون الياء التحتية) •

وقال الافرنج : انها كانت تسمى « نو » ، (بضم النون) ، وقبل فتحها بالاسلام كانت تارة تحت حكم الرومان ، وتارة تحت حكم الأروام أو اليونان •

وفتحها عمرو بن العاص بأمر عمر بن الخطاب ، ولما فتحهـا كتب الى عمر (رضى الله عنه) أنه وجد بها أربعـة آلاف قصر ، وأربعة (ص ٢٦) آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى تدفع الجزية ، وأبعمائة ميدان ، واثنى عشر ألف بقال ، وخضرى ، وفاكهانى • ولعل هذا من مبالغات المؤرخين ، كما بالغوا فى غيرها من البلاد ، كمدينة بغداد •

ومن عجائب ما فيها خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص (رضى الله تعـالى عنه) ، فكانت عدة ما فيهـا مـن الكتب سبعمائة ألف مجلد •

وقد كان أهل هذه المدينة فى سالف الزمان ثلثمائة ألف نفس تقريبا ، وأهلها الآن أقل من ذلك بكثير ٠

وقد تغلب عليها الفرنسيس ثم أخرجهـــم الانكليز منهـــا ، ورجعت الى يد الاســـلام ٠

وهى الآن يلوح عليها أنوار العمارات ، وبها بهجة التجارة ، كما أنها كانت فى الزمن السابق مركزا للتجارات ، وصارت فى هذا الوقت دار اقامة الحاكم فى أغلب الأوقات ٠ وهى أشبه وضعا وعمارة بفرضات الافرنج ٠

وهى على الشمال الغربى من القاهرة بنحو خمسين فرسخا ، موضوعة فى احدى وثلاثين درجة ، وثلاث عشرة دقيقة من العرض ، يعنى درجة البعد عن خط الاستواء ، وسيأتى ذكر المســافة بينها وبين باريس ٠

الفصل الثالث

[فى ركوب البحر المالح المتصل بثغر الاسكندرية] (١)

اعلم أن هذا البحر يسمى فى كتب الجغرافيا العربية « بحر الروم » لأنه يتصل احدى جهاته ببلاد الروم ، ويسمى أيضا فيها « بحر الشام » لمجاورته أيضا لبلاد الشام ، ويسمى أيضا عند الافرنج « البحر المتوسط » أو الجوانى . وانما سمى بذلك ، لأنه داخل الأراضى الناشفة ، بخلاف البحر المحيط ، فانه محيط بجميع الأراضى ، حتى قال بعضهم : انه متواصل الجريان تحت الأراضى العالية على سطح مائه ، وان حقق بعضهم خلافه لوجود الأراضى اليابسة تحت سطحه ، كبعض أراضى « الموسقو » .

ويسمى هذا البحر الجوانى باللسان التركى « بحر سفيد » « والبحر الأبيض » ، لمقابلته ببحر « بنطش » أو « البحر الأسود » .

وهناك بحر آخر يسمى « بالبحر الأبيض » وهو فى بلاد « الموسقو » ، وهو المراد بالبحر الأبيض ، فى اطلاقات علماء الجغرافيا .

وكان ركوبنا هذا البحر عصر يوم الأربعاء ، خامس يوم من رمضان ، وقد امتطينا سفينة حرب فرنساوية لاتغادر فى فؤاد (ص ٣٠ ، ٣١) الانسان رعيا ورزينة صناعة تجذب قلب الراكب

---

(١) فى المطبوعة « بثغر سكندرية » .

حتى يصير فى وسطها صبا : محتوية على سائر ما يحتاج اليه من الحرف والصنائع ، مشتملة على آلات الحروب وعلى (الحربجية) (١) ومحصنة بثمانية عشر من المدافع ، وكان مجراهـــا يوم الخميس سادس يوم من شهر رمضان المبارك ، وكان هبوب الريح وقتئذ خفيفا فسرنا من غير اشـعار بالسير ، فتوسمنا فى وجهها الخير ، ولم نتالم بذلك ، وكنت قبل ركوب البحر عملت بما علمه لى بعض من سافر من العلماء الى اسلامبول ، من تجرع حسوات (٢) عظيمة من ماء البحـــر المالح ، وقال : انه يدفع ألمه ، فكان الواقع أنه لم يحصل لى ألم ، على أنى حين نزلت المركب كنت متمرضا بالحمى فبرئت منها بمجرد السفر وحركة السفينة : وربمـــا صـــحت الأجسام بالعلل ٠

ولازلنا نسير ، من غير شدة تحرك واضطراب ، نحو أربعـة أيام ، وبعدها عصفت الرياح ، وتموج ماء البحـــر وتلاعب بذات الألواح ، تلاعب الأشباح بالأرواح ٠ فلازم أكثرنا الأرض ، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض ٠ ووقع عندنا [جميل] (٣) الموقع قوله بعض الظرفاء : « خاطر من ركب البحر ، وأشد منه خطرا من جالس الملوك بغير علم ومعرفة » ! وتحقق عنـــدنا تضمين بعضهم لهزل أبى نواس فى قوله :

رأيت جميع الهائلات محيطـــة
بوطئى لأجل الحمل جارية البحر
فأقسمت عمرى ، لا ركبت سفينة
ولا سرت طول الدهر الا على الظهر

---

(١) الحربجية : الجند ٠
(٢) فى المطبوعة « حثوات » والصواب ما ذكرناه ٠
(٣) زيادة اقتضاها السياق ٠

غير أن المعتمد على الكريم ، لا يخشى من الخطب العظيم ، وما أحسن قول من قال :

لما ركبنا ببحر وكاد من خاف يتلف

على الكريم اعتمدنا حاشاه أن يتخلف

وقد ذهب هذا الأمر بعد نحو ثلاثة أيام ، وصار يزور غبا .

ومما يستحسن فى طباع الافرنج دون من عداهم من النصارى حب النظافة الظاهرية ، فان جميع ما ابتلى الله سبحانه وتعالى به قبط مصر (١) من الوخم والوسخ أعطاه للافرنج من النظافة ، ولو على ظهر البحر ! فان أهل المركب التى كنا فيها يحافظون على تنظيفها وأذهاب الوسخ ما أمكن ، حتى انهم يغسلون مقعدها كل يوم من الأيام ، (ص ٣١ ، ٣٢) ويكنسونها فى غرف النوم كل نحو يومين ، وينفضون الفراش وغيره ، ويشمونها (٢) رائحة الهواء ، ويزيلون أوخامها ، مع أن النظافة من الايمان ، وليس عندهم منه مثقال ذرة ! .

ومع ما عند الفرنساوية من النظافة الغريبة بالنسبة لبلادنا ، فانهم لايعدون أنفسهم من الأمم كثيرة الاعتناء بالنظافة ، كما يفهم من هذه العبارة المترجمة من كتاب « العوائد والأخلاق » المؤلف باللغة الفرنساوية ، وعبارته :

« أعظم الناس اعتناء بنظافة المنازل : أهل « الفلمنك » ، فتجد فى مدنهم غالب حاراتهم مبلطة بالحجر الأبيض ، المتعهد بالتنظيف ، وبيوتهم مجملة من خارجها أيضا ، وشبابيكهم (القزاز) تغسل دائما ، بل وحيطانهم الخارجية .

---

(١) فى المطبوعة « قبطة » .

(٢) فى المطبوعة « ويشممونها » .

وقد توجد النظافة فى حصة من بلاد الانكليز ، وببلاد الأقاليم المجتمعة (١) من « أمريكة » ، وهى قليلة فى فرنسا والنمسا وغيرهما .

ومن الأمم من هى كثيرة الاتساخ ، وكثيرة القمل ، بل تجد بعض أناس يأكلهم القمل ، ولا يبالون :

وقد ذهب داء البرص من منذ انتشار الأقمصة البيض التى تغسل ، ويغير بها كل أسبوع مرة ، وعدة مرات ، فالملابس البيض من جملة ما أنتج النظافة والسلامة من آثار الأوساخ الرديئة » انتهى .

(١) محاولة منه لترجمة كلمة Stats-unis

الفصل الرابع

[فيما رأينا ، من الجبال ، والبلاد ، والجزائر]

قد مررنا على جزيرة « كريد » سابع يوم من سفرنا ، ورأينا على بعد جبلها الشامخ المسمى عند اليونان « ايدا »، الشهير بالأمور الغريبة فى تواريخهم .

ثم فى اليوم الثالث عشر منه ، رأينا جزيرة « سيسيليا » ، (بالمهملتين) ، وبعضهم يكتبها بالمعجمتين ، وهى مشهورة باللسان العربى باسم « صقالية » ، أو « صقلية » .

وهذه الجزيرة على الجنوب من بلاد « ايطاليا » منفصلة عنها (بالبغاز) المسمى « بغاز مسينة » ، (بفتح الميم ، وتشديد السين المكسورة المهملة ، وسكون الياء ، وفتح النون) ، وهى من أعظم جزائر البحر المتوسط وأخصبها ، ولذلك كانت تسمى فى الزمن السابق « شونة رومة » ، وكانت فى الأعصر السالفة سببا لحرب الرومانيين مع أهل « قرطاجة » ، أى سكان الغرب ، ثم انتهى الأمر الى أن وقعت تحت حكم الروما ، ثم انتقلت منهم الى ملوك اليونان ، ثم فتحها المسلمون ، ثم تغلب عليها النصارى (ص ٣٤ ، ٣٥) « النرمندية » ، (بضم النون المشددة وسكون الراء ، وفتح الميم وكسر الدال ، وفتح الياء المشددة) فرقة من أهل الشمال ، وهم سكان اقليم « نرمنديا » الذى هو الآن من ايالات فرنسا ، ثم حكمها بعض ملوك الأسبانيول ، ثم النيمسا ، ثم انتهى الأمر الى أن كانت

جزءا من مملكة « نابلى الكتان » (١) المسماة « بولية » (٢) حتى انها هى و « نابلى » قد يسميان الآن عند الأفرنج « السيسيليتين » بتغليب « سيسيليا » على « نابلى » .

وفى كتب الجغرافيا أن أهل هذه الجزيرة مائة ألف نفس ، ومدنها فوق الجبال وقد رأينا بهذه الجزيرة على بعد ، فى اليوم الرابع عشر الجبل المسمى « منتثنا » (بفتح الميم وسكون النون ، وكسر التاء الفوقية ، وسكون الثاء المثلثة) و « منتثنا » كلمة مركبة من كلمتين : احداهما « منت » معناها: جبل ، والأخرى « اثنا » فالأحسن كتابتها هكذا « منت اثنا » . وهو مشهور الآن بلفظة « جبيل » . ويظهر لى أن هذا الاسم تحريف « جبل » فهو عربى أدخله المسلمون فى هذه الجزيرة ، وأطلقوه على هذا الجبل ، فبقى بعد خروجهم الى الآن ، وتغير بتحريف أهل هذه الجزيرة له .

وهذا الجبل جبل نار ، فانه يخرج منه بالنهار دخان ، وبالليل لهب ، وقد يقذف مواد حجرية محترقة .

ثم ان جبال النار تسمى بالافرنجية « الجبال البلكانية » ، ويسمى الجبل النارى « بلكان » ، (بضم الباء الموحدة ، وسكون اللام) ، ويقال « ولكان » ، (بضم الواو) . وقد صحف هذا الاسم بالعربية الى لفظة « بركان » بالراء) ولعله تعريب عن لغة أهل الأندلس . ويسمى « طهمة » (بفتح الطاء ، وسكون الهاء) كما ذكره المسعودى فى كتابه المسمى « مروج الذهب » .

وفوهة البركان تسمى بالفرنساوية : « كراتيرة » (٣) (بكاف

---

(١) باضافة « نابلى » الى الاقليم الذى فيه ويسمى : قطانيا .

(٢) Pouille

(٣) Cratère.

وتاء فوقية مكسورتين ، وفتح الراء الثانية) ، ولا يوجد جبل النار غالبا الا فى الجزائر ٠

وقد ذكر أرباب رصد هذا الجبل أن ارتفاعه على ظهر سطح البحر المحيط ألف وتسعمائة قدم وثلاث (١) أقدام ، وأن دورة قاعدة نحو خمسة وخمسين فرسخا فرنستاويا ودائرة فوهته ربع فرسخ ٠

ثم ان العادة أن جبل النار يهيج ، ثم يسكن ، ثم يهيج ٠ وقد يمكث مدة مطفيا حتى يظن الناس خموده بالكلية ، ثم يهيج ثانيا بعد مضى مدة أعصر ٠ وقد هاج « جبل اثنا » احدى وثلاثين مرة ، ومنها هيجانه سنة ألف وثمانمائة وتسع (٢) بتاريخ الافرنج ٠ وأعظم هيجانه ما كان سنة سبعمائة وثلاث وتسعين ، حيث (ص ٣٤) خرب مدينة « كابان » ، وأهلك ثمانية عشر ألف نفس ٠

وعلامة هيجان البراكين شدة العجيج والقرقعة والدوى تحت الأرض ، وابتداء التدخين ، أو ازدياده ٠ قال بعض الطبائعية (٣) اننا اذا قابلنا حوادث الزلازل بحوادث البراكين رأينا كأن هاتين الحادثتين معلولتان لعلة واحدة وهى النيران التى تحت الأرض أى المحتقنة فى باطنها ، الا أن آثار الزلازل أوسع من آثار البراكين ، يعنى أن آثار الزلازل تظهر فى متسع عظيم من الأرض ، بخلاف آثار جبال النار فلا تمتد الا بجوار قرب جبل النار ٠

وقد جرت العادة أيضا أن الزلزلة تعظم بقدر البعد عن البركان، وعلل ذلك بعضهم بقوله : ان النار التى تحت الأرض تحاول منفسا ، لتخرج منه ، فان كان فى الأرض بركان فانها تخرج منه ، فتذهب

---

(١) فى الاصل (ثلاثة) وهو خطأ ٠
(٢) فى الأصل : تسعة ٠
(٣) الطبائعية : علماء الجيولوجيا ٠

قوة النار ، فتتفقد الزلزلة ، بخلاف الأرض الخالية عن البراكين ، فان النيران تحاول منفسا فيها ، فلاتجده ، فترتج الارض بذلك •

وقال بعض الحكماء أيضا : ان كلا من الحوادث البركانية والزلازل ، صادر عن جاذبية المحاكة ، المسماة بالفرنساوية : « الاكتريستة » (١) ، بكسر الهمزة ، وسكون الكاف ، وكسر التاء والراء ، وكسر السين ، وفتح التاء) ، المسماة : « الرسيس » ، (بفتح الراء المشددة ، وكسر السين) التى هى خاصة الكهرباء عند حكها •

قال بعضهم فى رد هذا القول : انه ينافى ما اعتمده بعض الحكماء فى بناء الأرض ، ونظم طبقات صخورها •

ومن القواعد المقررة أن ثوران البركان يغلب كلما قل علوه ، ويقل كلما عظم العلو ، وهذا ما جرت به العادة • والله سبحانه وتعالى أعلم •

وفى اليوم الخامس عشر رسونا على مدينة « مسينة » ، لم نخرج من السفينة أبدا ، لأنهم لا يمكنون من يجىء من البلاد الشرقية الى بلادهم أن يدخلها الا بعد (الكرتنة) ، وهى : مكث أيام معلومة، لاذهاب رائحة الوباء ، ولكنهم يجيئون للانسان بسائر ما يحتاج ، ويناولهم الثمن ، فيضعونه فى اناء فيه خل ونحوه ، مع التحفظ التام (راجع الفصل الأول من المقالة الثانية) •

وقد تزودنا من هذه المدينة ما احتجنا اليه ، من الفواكه ، والخضراوات ، والمياه العذبة ••• الى آخره ، وأقمنا بموردتها خمسة أيام وشاهدنا من بعد قصورها العالية وهياكلها الشامخة السامية •

---

(١) Electricité

ورأيناها توقد قناديلها ووقداتها قبل أن يدخل وقت الغروب ، وتمكث بعد شروق الشمس ·

(ص ٣٥ ، ٣٦) والظاهر أن مدة مرورنا بها كانت عيدا ، حيث اننا سمعنا بها أصوات النواقيس مدة اقامتنا ، حتى ان ضربهم النواقيس مطرب جدا ·

وقد صنعت فى ليلة من هذه الليالى ، فى المحادثة مع بعض الظرفاء مقامة طريفة ، مضمونها ثلاثة معان :

الأول : المجادلة فى أنه لا مانع من أنه الطبيعة السليمة تميل الى استحسان الذات الجميلة مع العفاف ، وأنشأت فى ذلك حملة شواهد لطيفة ، وأنشأت فيه قولى :

أصبو الى كل ذى جمال
ولست من صبوتى أخاف

وليس بى فى الهوى ارتياب
وانما شيمتى العفاف

الثانى : سكر المحب من معانى خمر عين محبوبه ، واستغناؤه عن الراح براحته ، وأنشأت فيه هذا المعنى قولى :

قد قلت لما بدا ، والكأس فى يده
وجوهر الخمر فيها شبه خديه

حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه
ونشوتى من معانى سحر عينيه

الثالث : فى تأثر النفس بضرب الناقوس ، اذا كان من يضرب الناقوس ظريفا يحسن ذلك · وقد أنشدت فى هذا المعنى قول الشاعر :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له
من علم الظبى ضربا بالنواقيس

وقلت للنفس ، أى الضرب يؤلمكى
ضرب النواقيس،أم ضرب النوى؟قيسى

وذيلتها ببعض أبيات مجنسة ، والبحث فى معناها ، ونوع تجانيسها ، وبالجواب عن بعض ألغاز نحوية ٠٠٠ الى آخره ، وليس هذا محل بسط الكلام فى ذلك ٠

ثم سرنا من هذه المدينة اليوم المتمم العشرين من مدة سفرنا ، سرنا حتى حاذينا جبل النار ، وجاوزناه ٠

وفى اليوم الرابع والعشرين جاوزنا مدينة « نابلى » ، وقد كانت قديما تسمى باللغة التركية « بوليـة » ، وتعدينـاهـا بنحو تسعين ميلا ، فانعكس الريـح ، وصار قدام السفينة ، هابـا من المقصـد لا اليه : لأنه من جهة الهواء ٠ ويعجبنى قول بعضهم :

ومهفهف عنى يميـل ، ولم يمل
يومـا الى ، فقلت من ألم النوى
لم لا تميل الى يا غصن النقا ؟
فأجاب : كيف وأنت من جهة الهوا ؟!

وقول الصلاح الصفدى :

تقول له الأغصان اذ هز عطفه :
أتزعم : أن اللين عندك قد ثوى ؟!
فقم ، نحتكم فى الروض عند نسيمه
ليقضى على من مال منا مع الهوى

فبانعكاس الريح ، رجعنا الى مدينة « نابلى » بعد أن جاوزناها، ورسونا عندها ، ولم ندخلها ، لما تقدم ٠

وهى من المدن العظمى ببلاد الافرنج ، وملكها يحكم على بلاد جزيرة « صقلية » المتقدمة . ومدينة « نابلى » هى كرسى هذا الملك ، وقد تسمى باللغة العربية . « نابلى ألكتان » (١) ، (بفتح الهمزة ، وكسر اللام ، وسكون الكاف) .

وقد كانت مملكة « نابلى » فى يد الاسلام ، ومكثت نحو مائتى سنة ، ثم تغلبت عليها النصارى النورمندية ، هى ومملكة «صقلية»، ولم تزل الى الآن فى أيدى النصارى الايطاليانية ، حتى انها تسمى : بلاد ايطاليا الجنوبية .

وقد أسلفنا أن مدينة « نابلى » هى احدى (البنادر) الأربعة الأصلية بالبلاد الافرنجية .

ثم رأينا فى اليوم التاسع والعشرين جزيرة « قرسقة » ، (بضم القاف ، وسكون الراء وضم السين ، وفتح القاف) التى هى فى حكم الفرنسيس ، وتسمى الآن : جزيرة « قرس » . وقد فتحها المسلمون ، ولم يمكثوا فيها زمنا طويلا ، وهى وطن « نابليون » ، (بضم الباء ، وسكون اللام ، وبلياء) الشهير باسم « بونابارته » الذى تغلب على مصر فى غزوة الفرنساوية ، ثم تولى سلطنة فرنسا ، مع أن أباه كان رئيسا فى (الطوبجية) .

وفى اليوم الثالث والثلاثين رسونا على فرضة « مرسيليا » ، فكانت مدة مكثنا فى البحر ثلاثة وثلاثين يوما ، ومنها مكثنا خمسة أيام قدام « مسينة » ، (بفتح الميم ، تشديد السين المكسورة ، وفتح النون) ، ونحو يوم قدام « نابلى » ، وتأخرنا كثيرا بلعب الرياح . ولولا ذلك لوصلنا فى أقل من هذه المدة بشىء يسير .

---

(١) راجع ص ٩١ .

المقالة الثانية

الفصل الأول

[فى مدة اقامتنا فى مدينة مرسيليا]

قد رسونا على موردة « مرسيليا » التى هى احدى فرض بلاد فرنسا ، فنزلنا من سفينة السفر فى زوراق صغيرة ، فوصلنا الى بيت خارج المدينة معد (للكرنتينة) على عادتهم · من أن من أتى من البلاد الغربية لابد أن (يكرتن) قبل أن يدخل المدينة ·

ولنذكر هنا ما قيل فى (الكرنتينة) بين علماء المغرب ، على ما حكاه لى بعض من يوثق به من فضلاء الغرب · قال : وقعت بين العلامة الشيخ محمد المناعى التونسى (ص ٣٧) المالكى ، المدرس بجامع الزيتون ، ومفتى الحنفية العلامة الشيخ محمد البيرم ، المؤلف عدة كتب فى المنقول والمعقول ، وله تاريخ دولة بنى عثمان ، من مبدئها الى السلطان محمود الحالى ، محاورة فى اباحة (الكرنتينة) وحضرها ، فقال الأول بتحريمها ،والثانى باباحتها ، بل وبوجوبها ، وألف فى ذلك رسالة ، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة ، وأقام الأول الأدلة على التحريم ، وألف رسالة فى ذلك ، على اعتماده فيها فى الاستدلال على أن (الكرنتينة) من جملة الفرار من القضاء ·

ووقعت بينهما محاورة أيضا نظير هذه ، فى كروية الأرض وبسطها ، فالبسط للمناعى ، والكروية لخصمه ·

وممن قال من علماء المغرب بأن الأرض مستديرة ، وأنها سائرة ، العلامة الشيخ مختار الكنتاوى بارض أزوات ، بقرب بلاد « تمبكتو » ، وهو مؤلف مختصر فى فقه مالك ، ضاهى به « متن

خليل » وضاهى أيضا « ألفية » ابن مالك فى النحو ، وله غير ذلك من المصنفات فى العلوم الظاهرية والباطنية ، كأوراد وأحزاب ، كحزب الشاذلى • وقد ألف كتابا وسماه : « النزهة » ، جمع فيه جملة علوم ، فذكر بالمناسبة علم الهيئة ، فتكلم على كروية الأرض ، وعلى سيرها ، ووضح ذلك ، فتلخص من كلامه أن الأرض كرة ، ولا يضر اعتقاد تحركها أو سكونها •

مات هذا الشيخ سنة ألف ومائتين وست وعشرين من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام • وخلفه حفيده المسمى باسمه •

ثم ان هذا البيت الذى كنا فيه (للكرنتينة) متسع جدا ، به القصور والحدائق والبناء المحكم ، فبه عرفنا كيفية احكام أبنية هذه البلاد واتقانها ، وامتلائها بالرياض والحياض •• الى آخره •

ولم نشعر فى أول يوم الا وقد حضر لنا أمور غريبة فى غالبها، وذلك : أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية ، لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسى للجلوس عليها ، لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشة على الأرض ، فضلا عن الجلوس بالأرض • ثم مدوا السفرة للفطور • ثم جاءوا بطبليات عالية ، ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية ، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من (القزاز) ، وسكينا ، وشوكة ، وملعقة ، وفى كل طبلية نحو قزازتين من الماء ، واناء فيه ملح ، وآخر فيه فلفل ، ثم رصوا حوالى الطبلية كراسى ، لكل واحد كرسى ، ثم جاءوا بالطبيخ (ص ٣٨) فوضعوا فى كل طبلية صحنا كبيرا أو صحنين ، ليغرف أحد أهل الطبلية ، ويقسم على الجميع ، فيعطى لكل انسان فى صحنه شيئا يقطعه بالسكين التى قدامه ، ثم يوصله الى فمه بالشوكة لا بيده ، فلا يأكل الانسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره ، أو سكينه، أو يشرب من قدحه أبدا • ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة •

ومما يشاهد عند الافرنــج أنهم لا يأكلون أبــدا فى صحون النحاس ، بل ولا فى أونيه أبدا ، ولو مبيضة ، فهى للطبخ فقط ، بل دائما يستعملون الصحون المطلية ٠

وللطعام عندهم عدة مراتب معروفة ، وربما كثرت وتعددت كل مرتبة منها ، فأول افتتاحهم الطعام يكون (بالشوربة) ، ثم بعده باللحوم ، ثم بكل نوع من أنواع الأطعمة ، كالخضراوات والفطورات، ثم (بالسلطة) ٠

وربما كانت الصحون مطلية (١) بلون الطعام المقدم ، فصحون (السلطة) مثلا خضر منقوشة بلون (السلطة) ، ثم يختمون أكلهم بأكل الفواكه ، ثم بالشراب المخدر ، الا أنهم يتعاطون منه القليل ، ثم بالشاى والقهوة ٠ وهذا الأمر مطرد للغنى والفقير ، كل على حسب حاله ٠

ثم ان الانسان كلما أكل طعاما فى صحنه غيره ، وأخذ صحنا غير مستعمل ليأكل فيه طعاما آخر ٠

ثم انهم أحضروا لنا آلات الفراش ، والعادة عندهم أنه لابد أن ينام الانسان على شىء مرتفع نحو سرير ، فأحضروا ذلك لنا

ومكثنا فى هذا المحل ثمانية عشر يوما ، لا نخرج منه أبدا ٠ غير أنه متسع جدا ، وفيه حدائق عظيمة ، ومحال متسعة ، للتماشى فيها ، والتنزه فى رياضها ٠

ومن هذا البيت ركبنا العربات المزينة المجملة التى تستمر عندهم آناء الليل وأطراف النهار تقرقع ، وسرنا بها الى بيت فى المدينة ، لكنه فى حواشيها ، من القصور المصنوعة خارج المدينة

---

(١) فى المطبوعات : « المطلية » ٠

بحدائقها وأدواتها ، فمكثنا منتظرين التوجه الى مدينة « باريس » ومدة مكثنا فى هــذا البيت كنا نخرج بعض ساعات للتسلى فى البلد ، وندخل بعض القهاوى ٠

والقهاوى عندهم ليست مجمعا للحرافيش ، بل هى مجمع لأرباب الحشمة ، اذ هى مزينة بالأمور العظيمة النفيسة التى لا تليق الا بالغنى التام ٠ وأثمان ما فيها غاليــة جدا ، فــلا يدخلها الا أهل الثروة ، وأما الفقراء فانهم يدخلون بعض قهاوى فقيرة أو الخمارات والحاشبش ، ومع ذلك هذه المحال أيضا مجملة تجملا نسبيا ، وقد أسلفت أن مدينة اسكندرية (ص ٤٠) تشبه فى حالها مرسيليا ٠

وأذكر هنا أن الفرق بينهما اتساع السكك والطرق اتساعا مفرطا لمرور جملة عربات معــا فى طريق واحــد والآن صـــارت الاسكندرية بالهمة الخديوية بنحو ذلك ، ثم ان ســـائر القـّاعات والأروقة أو المنادر العظيمة يوضع فى حيطانها الجوانية مرآة عظيمة كبيرة ، حتى انه ربما كانت سائر جوانب القاعة كلها من زجاج المرآة ، ليظهر لها رونق عظيم ٠

فأول مرة خرجنا الى البلدة مررنا بالدكاكين العظيمة الوضع المزججة بهذه المرائى ، والمشحونة بالنساء الجميلات ، وكان هذا الوقت وقت الظهيرة ٠

وعادة نساء هذه البلاد : كشف الوجه والرأس ، والنحر ، وما تحته ، والقفا ، وما تحته ، واليدين الى قرب المنكبين ٠

والعادة أيضا أن البيع والشراء بالأصالة للنساء ، وأما الأشغال فهى للرجال ، فكان لنا بالدكاكين والقهاوى ونحوها فرجة عليها ، وعلى ما يعمرها ٠

وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهــوة عظيمــة ، دخلناها ، فرأيناهــا عجيبة الشــكل والترتيب ، والقهوجية امرأة

جالسة على صفة عظيمة ، وقدامها دواة وريش وقائمة ، وفى قاعة بعيدة عن الناس محل لعمل القهوة ، وبين محل جلوس الناس ومحل القهوة صبيان القهوة ، ومحل الجلوس للناس مرصوص بالكراسى المكسوة بالمشجرات وبالطاولات المصنوعة من الخشب الكابلى الجيد ، وكل طاولة مفروشة بحجر من الرخام الأسود أو المنقوشة ، وفى هذه القهوة يبـاع سائر أنـواع الشراب والفطورات ، فاذا طلب الانسان شيئا طلبه الصبيان من القهوجية ، وهى تأمر باحضاره له ، وتكتبه فى دفترها ، وتقطع به ورقة صغيرة فيهـا الثمن ، وتبعثها مع الصبى للطالب ، حين يريد الدفع ، والعادة أن الانسان اذا شرب القهوة أحضر له معها السكر ، ليلخطه فيها ويذيبه ، ويشربه ، ففعلنا ذلك كعادتهم • وفنجان القهوة عندهم كبير نحو أربعة فناجين من فناجين مصر • وبالجملة فهو قدح لا فنجان ، وبهذه القهوة أوراق الوقائع اليومية لأجل المطالعة فيها ، وحين دخولى بهذه القهوة ومكثى بها ظننت أنها قصبة عظيمة نافذة ، لما أن بها كثيرا من الناس ، فاذا بدا جماعة داخلها أو خارجها ظهرت صورهم فى كل جوانب الزجاج ، وظهر تعددهم مشيا وقعودا وقياما ، فيظن أن هذه القهوة طريق ، وما عـرفت أنها (ص ٥٤) قهوة مسـدودة الا بسبب أنى رأيت عدة صورنا فى المرآة ، فعرفت أن هذا كله بسبب خاصية الزجاج فعادة المرآة عندنا أن تثنى صورة الانسان ، كما قال بعضهم فى هذا الشأن :

أبرقـع منظر المـرآة عنـه	مخافـة أن تثنيـه لعينى
أقاسى ما أقاسى ، وهو فـذ	فكيـف اذا تجـلى فرقـدين !

وعادتها عند الافرنج ، بسبب تعددهـا على الجدران وعظم صورتها ، أن تعدد الصورة الواحدة فى سائر الجوانب والأركان ، ومن كلامى :

يغيب عنى فـلا يبقى له أثـر	سوى بقلبى ، ولم يسمع له خبر
فحين يلقى على المرآة صـورته	يلوح فيها بدور كلهـا صـور

وقال شيخنا العطار : لم أر ألطف تخيلا فى هذا المعنى من قول ابن سهل :

ألقى بمرآة فكرى شمس صورته   فعكسها شب فى أحشائى اللهبا

قال الحريرى فى مليح بيده مرآة :

رأى حسن صورته فى المرآة   فأصبح صبا بهـا مدنفـا
وصير يعقوب اسما لـه   يشير بأن قد رأى يوسفا

وسيأتى كمال الكلام على ذلك كله فى ذكر مدينة باريس .

ومدة اقامتنا فى مرسيليا بعد (الكرنتينة) شغلناها أيضا بتعلم تقطيع الحروف ، يعنى تعلم تهجى اللغة الفرنساوية .

ثم انه يوجد فى مدينة مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنساوية حين خروجهم من مصر ، وهم جميعا يلبسون لبس الفرنسيس ، وندر وجود أحد من الاسلام الذين خرجوا مع الفرنسيس ، فان منهم من مات ، ومنهم من تنصر ، والعياذ بالله ، خصوصا المماليك ، الجورجية والجركسية ، والنساء اللواتى أخذهن الفرنسيس صغار السن ، وقد وجدت امرأة عجوزا باقية على دينها .

وممن تنصر انسان يقال له عبد العال ، ويقال انه كان ولاه الفرنسيس بمصر (أغاة انكشارية) فى أيامهم ، فلما سافروا تبعهم ، وبقى على اسلامه نحو خمس عشرة سنة ، ثم بعد ذلك تنصر ، والعياذ بالله ، بسبب الزواج بنصرانية ، ثم مات بعد قليل ويقال انه سمع عند موته يقول : أجرنى يا رسول الله ! ولعله ختم له بخير ، وعاد الى الاسلام ، فقال بلسان الحال :

الحمـد لله ، الحنيفـة ملتى   والله ربى ، وابن آمنـة نبى

ولقد رأيت له ولدين وبنتـا ، أتوا فى مصر وهم على دين النصرانية أحدهما معلم الآن فى مدرسة أبى رعبل

ومثله ما حكاه لى بعضهم أن سر عسكر المسمى « منو » المتولى فى مصر بعد قتل الجنرال « كليبر » (بفتح الكاف ، وكسر اللام ، وكسر الباء) كان أسلم فى مصر نفاقا ، كما هو الظاهر ، وتسمى : عبد الله وتزوج ببنت شريف من أشراف رشيد فلما خرج الفرنسيس من مصر ، وأراد الرجوع ، أخذهـا معه ، فلما وصل رجع الى النصرانية ، وأبدل العمامة (بالبرنيطة) ومكث مع زوجته ، وهى على دينها مدة أيام فلما ولدت ، وأراد زوجها أن يعمد ولده على عادة النصارى لينصره أبت الزوجة ذلك وقالت : لا أنصر ولدى أصلا ولا أعرضه للدين الباطل ! فقال لها الزوج ان كل الأديان حق ، وان مآلها واحد وهو عمل الطيب ٠ فلم ترض بذلك أبدا فقال لها ان القرآن ناطق بذلك وأنت مسلمة فعليك أن تصدقى بكتاب نبيك ٠ ثم أرسل باحضار أعلم الافرنج باللغـة العربية « البارون دساسى » فانه هو الذى يعرف يقرأ القرآن وقال لها سليه عن ذلك فسألته ، فأجابها بقوله : انه يوجد فى القرآن قوله تعالى « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فحجها بذلك ! فأذنت بمعمودية ولدها ، ثم بعد ذلك انتهى الأمر على ما قيل أنها تنصرت ، وماتت كافرة ٠

كل دين ان فاتـك الاسـلام فمحـال ، لأنـه أوهـام

ومما رأيته من جملة المصريين فى مرسيليـا : انسان لابس أيضا كالافرنج ، واسمه محمد منطلق اللسان فى غير اللغة العربية ، فلا يعرف من اللسان العربى الا اليسير ، فسألته عن بلده ببر مصر ، فأجاب بأنه من مدينة أسيوط من أشرافها ، وأن أباه يسمى السيد عبد الرحيم ، وهو من أكابر هـذه البلدة ، وأمه تسـمى

مسعودة أو قريبا من ذلك الاسم ، وأنه اختطفه الفرنساوية فى حال صغره ، ويقول : انه باق على اسلامه يعرف من الأمور الدينية : الله واحد ومحمد رسوله ، والله كريم !٠

ومن العجائب أننى بعد كلامه توسمت فيه الخير ، وكان على وجهه سمة أشراف أسيوط (ص ٤٢ ، ٤٤) حقيقة ، فان صح كلامه كان من أولاد سيدى حريز بن سيدى أبى القاسم الطهطاوى واشراف طهطا من أولاد سيدى يحيى بن القطب الربانى سيدى أبى القاسم ، وله ولد ثالث يسمى سيدى على البصير ، ذريته أهل جزيرة شندويل ، وشهرة سيدى أبى القاسم الطهطاوى لا تخفى على من يعرفه ، وان لم يذكره سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى الطبقات ، وكثير من الأشراف بالبلاد العثمانية ينتهى نسبهم الى سيدى حريز المتقدم ٠

ومما رأيته فى مرسيليا الملعبة المسماة « السبكتا كل » وأمرها غريب ولا يمكن معرفتها بوصفها بل لابد من رؤيتها بالعين ، ونذكرها فى الكلام على « باريس » ومكثنا فى هذه البلدة خمسين يوما وتوجهنا الى باريس ٠

الفصل الثانى

[فى الخروج من مرسيليا الى دخول باريس وفى المسافة بينهما]

اعلم أن عادة المسافرين من مرسيليا الى باريس بالعربات أن يستأجروا العربة أو موضعا فيها ، فاما أن ياكلوا على كيسهم أو يدفعوا قدرا معلوما للعربة (١) والقوت مدة الطريق ٠

ثم ان السفر يكون ليلا ونهارا الا وقت الأكل ونحوه ، وكل البلاد التى فى الطريق فيها مواضع معدة للطعام والشراب ، مشتملة على سائر أنواع المطعومات والمشروبات فى غاية النظافة والظرافة ، وفيها محال للنوم مفروشة بالفرش العظيم ، وبالجملة فهى مستكملة الآلات والأدوات ٠

فلما ركبنا عربات السفر ، كل جماعة منا فى يوم ، وسرنا من مرسيليا سيرا سريعا ، مستمرا على حالة واحدة ، ولا يتأثر الانسان ، كسفر البحر بالرياح ونحوها ، وصلنا مدينة ليون فى ضحوة اليوم الثالث ٠ ومدينة ليون ، على البعد من مرسيليا باثنين وتسعين فرسخا فرنساويا ، ومن « ليون » الى مدينة باريس مائة وتسعة عشر فرسخا ، ومن « مرسيليا » الى « باريس » مائتان وأحد عشر فرسخا فرنساويا ، وقد مكثنا فى « ليون » نحو اثنتى عشرة ساعة ، للاستراحة ، ولم أر داخل هذه المدينة الا بالمرور فيها ، أو من شباك البيت الذى كنا فيه :

ومن لم يستطع أعلام رضوى   لينزل بعضها نزل السفوحا

(١) فى المطبوعة : للعربية ٠

ثم سرنا منها ليلا الى « باريس » ، فدخلناها صبيحة اليوم السابع من خروجنا من مرسيليا ، وقد مررنا بقرى كثيرة ، وأغلبها مشتمل على البيع والشراء والخفر ، عظيمة الأبنية مزينة بالاشجار ، وبالجملة فالقرى مسلسلة متصلة ببعضها (١) غالبا ، خصوصا (ص ٤٤) مع جد السير ، حتى ان الانسان لا يظن الا أنه فى بلدة واحدة ، والمسافرون غالبا فى ظل الأشجار المرصوصة بوجه مرتب مطرد فى سائر الطرق ، وندر تخلفه فى بعض المحال ٠ ثم ان الظاهر فى هذه القرى والبلاد الصغيرة أن جمال النساء وصفاء أبدانهن أعظم من ذلك فى مدينة « باريس » غير أن نساء الأرياف أقل تزينا من نساء « باريس » كما هو العادة المطردة فى سائر بلاد العمران ٠

(١) الصواب : سلسل بعضها ببعض ٠

المقالة الثالثة

الفصل الثالث

[فى تخطيط « باريس » من جهة وضعها الجغرافى ، وطبيعة أرضها ، ومزاج اقليمها وقطرها]

اعلم أن هذه المدينة تسمى عند الفرنسيس « بارى » (بالباء الفارسية التى تلفظ بين الفاء والبـاء) ولكن يكتب هـذا الاسم « باريس » ولا ينطق بالسين أبدا فيه ، كما هو عادة الفرنساوية من أنهم يكتبون بعض الحروف ولا يلفظون بها أبدا ، خصـوصا حرف السين فى آخر بعض الكلمات ، فانه لا ينطق به أبدا مثلا أتينه » (بامالة التاء) مدينة حكماء اليونان تكتب بالفرنسـاوية (أتينس) أو (باريز) ، وربما قالوا « فارس » • وأظن أن الأوفق كتابتها بالسين ، وان اشتهر على ألسنة غير أهلها قراءتها بالزاى ، ولعل ذلك انما نشأ عن أن السين فى اللغة الفرنساوية قد تقرأ زايا فى بعض الأحيـان ، ببعض شروط ، وان كانت مفقودة هنا الا فى حـال النسبة فان النسـبة الى « باريس » عند الفرنسيس بارزيانى ، وهذا بعينه هو السبب لأن النسبة ترد الأشـياء الى أصولها • ولكن هذه القـاعدة فى النسبة العربية ، والنسبة هنا أعجمية ، وقد مشيت فى بعض أشعارى التى أنشدتها فيها كتابتها بالسين

حيث قلت :

لئن طلقت باريسا ثلاثا فما هذا لغير وصال مصر
فكل منهما عندى عروس ولكن مصر ليست بنت كفر !

وقلت :

لقد ذكروا شموس الحسن طرا وقالوا ان مطلعها بمصر

(ص ٤٣ ، ٤٤)

ولكن لو رأوها وهى تبدو بباريس لخصوها بذكر

وسميت بذلك لأن طائفة من قدماء الفرنساوية كانت على نهر السين تسمى • (الباريزيين) ، ومعناها فى اللسان القديم الفرنساوى سكان الأطراف والحواشى ، وليس هذا الاسم منقولا عن « باريس » اسم رجل شهير كما قاله بعضهم •

ثم ان هذه المدينة من أعمر مدائن الدنيا ، ومن أعظم مدائن الافرنج الآن ، وهى كرسى بلاد الفرنسيس ، وقاعدة ملك فرنسا ، وسيأتى تفصيل ذلك فى محله •

وهى موضوعة فى التاسعة والأربعين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالى ، يعنى أنها بعيدة عن خط الاستواء جهة الشمال بهذا القدر •

وأما طولها فانه يختلف ، فاذا اعتبرنا خط نصف النهار الذى ينسب اليه الفرنساوية أطوال سائر الأماكن ، وهو خط نصف النهار المرسوم فى رصدهم السلطانى ، وهو يمر بباريس ، فهو حينئذ مبدأ الأطوال على حساب الفرنساوية ، كان طولها صفرا ، وأما اذا حسبنا على خط نصف النهار الذى كان يأخذ بطليموس

الأطوال منه ، ولا يزال (١) الى الآن مبدأ أطوال بعض الأمم ، كأهل « الفلمنــك » وهو خط نصف نهار « الجزائر الخالدات » ببحر المغرب ، كانت باريس فى عشرين درجة تقريبا من الطول الشرقى ٠

ولنذكر لك هنا كيفية معرفة درجتى الطول والعرض فى (٢) مكان من الأمكنة ، وثمرة ذلك ، وان كان يخرجنا عما نحن بصدده فنقول :

اعلم أن علماء الهيئة قد أوضحوا بالأدلة كروية الأرض ، وأنها غير صادقة التكوير ، ثم صنعوا على هيئتها صورة ، وسموها صورة الأرض ٠

ولامكان تقسيم الأرض ، وتسهيل معرفتها ، توهموا فيهــا دوائر أنصاف نهار ودوائر متوازية ، ومحورا وقطبين ورسموها على صورتها المصطنعة ، فمحور الكرة الأرضية هو الخط الموازى لمحور الفلك ، وطرفاه هما القطبان ، ويسمى أحدهما القطب الشمالى ، والآخر القطب الجنوبى ، ودوائر أنصاف النهار هى الدوائر التى تعبر من أحد القطبين الى الآخر ٠ وعلة تسميتها بذلك أنه اذا كانت الشمس فى سمت رأس محل يمر عليه هذا الخط وقت الظهر بذلك المحل ، ومركز هذه الدوائر هو مركز الأرض ٠

وأما الدوائر المتوازية فهى الدوائر الواقعة أعمدة على دوائر أنصــاف النهار ، وهى التى بينها وبين مركزهــا تواز على محور الأرض ٠ (ص ٤٥) وأعظمها دائرة الاستواء وهى الدائرة العظمى المستوية البعد من القطبين ٠ وهى تنصف الكرة نصفين أحدهما النصف الشمال ، والآخر النصف الجنوبى ٠ ثم ان دوائر أنصاف

---

(١) فى المطبوعة : « ولا زال » ٠

(٢) فيها : « من ؟ » ٠

النهـار ، والدوائر المتوازية كسـائر الدوائر ، تنقسم الى ثلثمائة وستين درجة وكل درجة تتجزأ الى ستين دقيقة ، وكل دقيقة الى ستين ثانية ، وكل ثانية الى ستين ثالثة ، وهكذا .

وللافرنج تقسيم آخر جديد ، وهو : أن الدائرة تنقسم الى أربعة أرباع ، وكل ربع يتجزأ مائة ، تسمى درجات مئينية ، وكل درجة مائة دقيقة مئينية ، وكل دقيقة مائة ثانية كذلك ، وهكذا . وهذا نشأ عن استعمالهم الحساب الأعشارى ، والحساب المترى ، والأول أشـهر استـعمالا ، وبهذه الداوائر العظمى يتحـدد الطول والعرض وذلك أن العرض هو بعد الدائرة متوازية عن المتوازية التى هى دائرة الاستواء ، فان أخذته جهة الشمال كان عرضـا شماليا ، ونهايته تسعون درجة ، وان كان جهة الجنوب فجنوبى ، ونهايته كذلك ، وأما الطول فهو بعد خط نصف النهار عن خط نصف نهار آخر مصطلح على أنه أولى . وهو شرقى ، وقدره مائة وثمانون درجة ، وغربى وقدره كذلك ، وقد وضع أصحاب الجغرافيا فى الكرة (١) أو الخرطات على كل دائرة متوازية ما تبعد به من الدرجات عن دائرة الاستواء ، كما جعلوا على كل دائرة نصف نهار عدد درج بعدها من دائرة نصف النهار الأولية .

وقد رسم كما أسلفنـاه « بطليموس » الحكيم دائرة نصف النهار الأولية فى « الجزائر الخالدات » ، فلما انكشفت بلاد أمريكة اختار الافرنج أن يجعل كل قطر من الأقطار خـط نصف نهارهم الأولى ببلادهم ، لينسبوا اليها ما عداها ، كما صنع الفرنساوية ، فانهم جعلوا خط نصف نهارهم الأولى فى مدينة باريس ، وبقيت منهم أمم كالفلمنك على أخـذ الأطوال من جزيرة الحديد بالجزائر الخالدات .

---

(١) الأصل : « الأكرة » .

وفى الواقع أن الأولى ، كما هو الظاهر ، اتخاذ مبدأ أطوال مشترك لجميع الأمم ينسب اليه ما عداه ، ويكون فى قطر لا عمار بعده معلوم أو ممتــاز بمزية كمكة المشرفة ، ثم ان كيفية تحديد الطول حينئذ يمكن أخذها بتفاوت الأوقات ، وذلك أنه من المعلوم أن الشمس أو الأرض ، كما يقوله الافرنج ، تقطع حركتها اليومية فى أربع وعشرين ساعة فهى تقطع من الدائرة التى ترسمها فى سيرها خمس عشرة (ص ٤٦) درجة فى كل ساعة فتقطع درجة كل أربع دقائق يعنى أنه اذا دخل وقت الظهر فى القاهرة مثلا فلا يدخل وقته فى المكان الذى يبعد عنها جهة الغرب بخمس عشرة درجة الا بعد ساعة ويدخل بعد ساعتين ، فيما يبعد عنها بثلاثين درجة ، وهلم جرا • وبعكس ذلك فى المكان الذى يبعد عنها جهة المشرق ، فانه اذا كان الظهر فى القاهرة يكون قد مضى ساعة بعد الظهر فى المكان الذى يبعد عنها جهة المشرق بخمس عشرة درجة ، ويكون مضى ساعتان فيما يبعد عنها فى هذه الجهة بثلاثين درجة الى آخره •

فلنذكر هنا حينئذ متى يكون الظهر فى « باريس » اذا كان الظهر فى أصول البلاد الغربية منها والشرقية ، وبذلك يفهم بعدها عن هذه البلاد ، فيقال : اذا كان وقت الظهر فى مصر القاهرة لا يدخل وقته فى « باريس » الا بعد مضى ساعتين الا أربع دقائق ، واذا كان الظهر فى « اسلامبول » كان فى « باريس » بعد مضى ساعة وست وأربعين دقيقة ، واذا كان فى بغداد كان دخوله فى باريس بعد ساعتين وثمان وأربعين دقيقة وفى حلب اذا دخل الظهر لا يدخل فى « باريس » الا بعد ساعتين وثلث ، واذا دخل الظهر فى الجزائر لا يدخل فى باريس الا بعد أربع دقائق تقريبا ، واذا دخل فى « تونس » فيدخل فى « باريس » بعد مضى نصف ساعة ودقيقتين ، ووقت الظهر فى « أصفهان » يدخل فى « باريس » بعد مضى ثلاث ساعات واثنتين وعشرين دقيقة ، واذا كان فى مدينـة « بكين »

(بكسر الباء والكاف) كرسى ملك الصين ، يكون فى « باريس » سبع ساعات واحدى وأربعين دقيقة ، وفى مدينة الباب الأبواب (١) تكون ساعة وثمانيا وأربعين دقيقة ، وفى مدينة « رومة الكبرى نصف ساعة وثمانى دقائق وهـذه البلاد على الشرق من مدينـة « باريس » .

وأما البلاد التى على غربيها فاذا كان الظهر فى مدينة « مدريد » كرسى ملك الأندلس فانه يكون فات وقته فى « باريس » باربع دقائق واذا كان فى مدينة « أشبونة » كرسى البرتوغال فانه يكون فات وقته فى باريس بخمس دقائق ونصف ، واذا دخل وقته فى « فيلادلفياء » (بكسر الفاء ، وسكون الياء ، وفتح اللام ، وكسر الدال المهملة ، وسكون اللام ، وكسر الفاء) مدينة بأمريكة ، فانه يكون قد مضى بعده فى « باريس » خمس (ص ٤٧) ساعات وثلاث عشرة دقيقة ، واذا كان وقته فى مدينة « ريوجانيرو » (بكسر الراء وضم الياء ، وكسر النون ، وسكون الياء) كرسى سلطنة « ابريزيلة » فى أمريكة ، فهو ثلاث ساعات تقريبا ، واذا كان نصف النهار فى جزيرة « كنفو » فى « أمريكة الموسقو » يكون نصف الليل فى « باريس » فانهما متقاطران .

والمسافة بين « باريس » و « اسكندرية » سبعمائة وتسـعة وستون فرسخا فرنساويا وبينها وبين القاهرة ثمانمائة وتسـعة فراسخ ، وبينها وبين مكـة المشرفة سبعمائة وأربعون فرسخا ، وبينها وبين « اسلامبول » خمسمائة وستون فرسخا ، وبينها وبين حلب ثمانمائة وستة وستون فرسخا ، وبينها وبين « مراكش » سبعمائة وخمسة وعشرون فرسخا ، وبينها وبين « تونس » ثلثمائة وسبعون فرسخا ، وبينها وبين مدينة « لوندرة » كرسى الانكليز

---

(١) وتسمى باب الأبواب ، وهي بحر قزوين .

مائة فرسخ ، وبينها وبين مدينة « بتربرغ » (١) كرسى الموسقو..
خمسمائة وستة وأربعون فرسخا ، وبينها وبين مدينة « موسقو »
كرسى الموسقوبية القديم ستمائة فرسخ وبينها وبين مدينة « رومة »
كرسى البابا ثلثمائة وخمسة وعشرون فرسخا ، وبينها وبين مدينة
« بجة » (٢) كرسى النيمسا ثلثمائة وخمسة وعشرون أيضا ،
وبينها وبين مدينة « نابلى » ثلثمائة وأربعة وثمانون فرسخا •

وارتفاعها بالنسبة لسطح البحر المحيط ثمانى عشرة قامة ، ومن المعلوم أنها من بلاد المنطقة المعتدلة ، فليست فى غاية الحرارة ، ولا فى غاية البرودة ، فان أقصى درجات الحر فيها احدى وثلاثين درجة ونصفا ، وهذا نادر • والحر الأوسط تسع وعشرون درجة ، وأقصى درجات البرد بها فى الغالب اثنتا عشرة درجة ، وندر بلوغه ثمانى عشرة (٣) ، والبرد الأوسط سبع درجات •

ومعلوم أن درجة الحر تحسب من شروع المتجمدات فى الذوبان الى حد فوران الماء ، ودرجات البرد من شروعه فى الجمود •

والأغلب فيها عدم صحو الزمن وكثرة الغيوم ، بحيث تمكث الشمس فى الشتاء عدة أيام لا تنكشف ولا يرى جرمها غالبا ، فما كانها الا ماتت وعاش الليل ، ويحسن هنا قول بعضهم •

قلت والليل مقيم ودجاه غير سارى
أعظم الخالق أجر الـ ـخلق فى شمس النهار
فلقد ماتت ، كما ما ت غرامى واصطبارى (٤)

---

(١) Pétersbourg.

(٢) هى مدينة فيينا •

(٣) المطبوعة : « ثمانية عشر » •

(٤) هنا فى الأصل المطبوع أبيات من الشعر فيها استطراد عن الموضوع والمشروع •

(ص ٤٨) وأما المطر فانه لا ينقطع فى هذه المدينة فى سائر فصول السنة ، واذا نزل فى الغالب نزل بكثرة ، فلذلك احتاجوا فى دفع ضرره الى جعل أعالى الدور منحدرة لتنزل منها المياه الى أسفل الدور · وفى سائر البيوت والطرق مجارى وبالوعـات ، فترى وقت المطر سائر طرق « باريس » محدودة بمجار ، كالقناة الجارية المياه ، خصوصـا وأرض هذه المدينـة مبلطة بالحجر ، فلا تتشرب المياه أبدا ، بل تسير الى هـذه المجارى ، ومنهـا الى البالوعات ·

وتغير مزاج الهواء والزمن فى « باريس » أمر عجيب ، فانه قد يتغير فى اليوم الواحد (ص ٤٩) أو مع ما بعده حال الزمن ، مثلا : يكون فى الصباح صحو عجيب لا يظن الانسان تغيره فلا يمضى نصف ساعة الا ويذهب بالكلية ، ويخلفه المطر الشديد ، وقد يكون حر يوم من الأيام أربعا وعشرين درجة ، ولا يصل اليوم الآتى الى اثنتى عشر (١) · وهكذا ، فقل أن يأمن الانسان تغير الوقت بهذه البلاد ، فمزاجها كمزاج أهلها كما سيأتى ·

ومعلوم أنه ينبغى أن يتحفظ الانسان من ضرر هـذا التغير وان كان هواء « باريس » فى الجملة طيبا مناسبا للصحة . ومع أن حرها لا يصل الى حر القاهرة فى الغالب فهو غير مألوف أبدا ، ولعل ذلك للانتقال من شدة البرد الى شدة الحر ·

وأما بردها فانه وان كان فى طاقة الانسان تحمله من غير عظيم تعب فانه لا يمكن للناس الشغل الا بالتدفئة بالنار ، فلذلك كان فى سائر قهاويها وخاناتها ومعاملها وحوانيتها مداخن مبنية فى الأود ، ليوقد فيها النار ، وهى مرتبة على وجه بحيث لا ينتشر فى الأودة دخان الحطب (٢) فان هذه المداخن نافذة الى الهواء ، فيجذب الهواء

---

(١) فى المطبوعة : « اثنى عشر » :

(٢) يقصد الوقود من فحم ونحوه ·

الدخان ، ويطرده خارج البيت ، وفى بعض الأود يصنعون نوعا من الفرن له باب من الحديد ويلحقون به قصبة من صفيح ، وينفذون هذه القصبة فى فرجة تتصل بالهواء ، فيضعون الخشب فى الفرن ، ويغلقون باب المحمى فيصعد الدخان جهة القصبة ، ومنها يصعد الى الخلاء فتسخن الفرن وتحمى قصبتها فتسخن الأودة أو الرواق ونحوهما (١) أو عندهم نوع آخر عجيب يسمى « المداخن المسقوبية » (٢) ٠ وعاد المدخنة أو الفرن المسماة عند الفرنساوية « بوالا » (٣) أن ظاهرها مطلى طلاء عظيما فى غاية النظافة ٠ والمدخنة دائما مرخمة الجوانب ، ولها عرصة من حديد ٠ وهى عند الفرنساوية لحسن صناعتها من زينة المحل فيكتنفونها فى الشتاء ٠ ومن أعظم اكرام الضيف عندهم فى الشتاء تقريبه جهة النار ، ولا عجب فى ذلك ، نسأل الله انقاذنا من حر نار جهنم ٠ ولله در القائل :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد　　أكل الفواكه شاتيا فليصطل

وأحسن من قال :

دخلت يوما على صديق　　والبرد يفرى به الفريا
فأوقد النار قلت كلا　　لأنت أولى بها صليا

(ص ٤٩) وبالجملة فالتدفئة فى الشتاء عند الفرنساوية جزء من المؤونة ، فهذا ما يستعينون به على البرد ٠

وأما ما يستعينون به على التوقى من ضرر المطر فهو المظلات المسماة فى مصر بالشمسيات ، يعنى وقايات الشمس ، وتسمى

---

(١) المخطوطة « ونحوها » ٠
(٢) المسقوبية اى الموسكوفية ٠
(٣) Poéles

تلك عند الفرنساوية وقاية المطر ، وفى الحر تمشى النساء بالشنمسيات ، ولا يمكن للرجال ذلك أبدا ٠

وأرض هذه المدينة مفلحة دسمة مثمرة ، فكيف لا وما من بيت من البيوت الوافرة الا وبه بستان عظيم الأشجار والخضراوات وغيرها ؟ وأغلب النباتات الغريبة يوجد بهذه البلدة ، فانهم يعينون بتطبيع (١) النباتات كالحيوانات الغريبة ببلادهم ، ومثلا شجر النخل لا يخرج الا فى الأقاليم الحارة ، ومع ذلك صنع الفرنساوية كل الحيل ، حتى زرعوا منه شيئا ، وان كان لا يثمر ، الا أنه ينفعهم فى الجوع اليه عند قراءتهم فى عم النباتات ، وقد اشتهر عندنا أن النخل لا يوجد الا ببلاد الاسلام ، ويرد عليه أنه عند كشف بلاد أمريكة وجدوا بها نخلا غير منقول ، كما هو الظاهر من بلادنا ، فانظر هذا مع قول الفاضل القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات ما نصه ، نخل شجرة مباركة عجيبة ، من عجائبها أنها لا تنبت الا فى بلاد الاسلام انتهى ٠ ولعل النخل الموجود فى غير بلاد الاسلام نوع مخصوص يصدق عليه اسم النخل عند أهل النباتات ، والمقصور على بلاد الاسلام نخل التمر ، لمناسبة مزاج (٢) قطرها فتأمل ٠

(ص ٥٣)

وبقرب أرض باريس عين ماء معدنى باردة الماء ٠

ويشقها نهران أحدهما وهو الأعظم والأشهر يقال له نهر السين (بفتح السين) والآخر نهر « غوبلان » قال بعض علماء الكيميا من الافرنج ان أقل المياه خليطا بالمواد الخارجية « نيل مصر » و « نهر الكنك » ببلاد الهند ونهر « السين » « بباريس »

---

(١) هو ما يسمى بأقلمة النباتات ٠

(٢) المزاج : المناخ ٠

ويتفرع على ذلك اعتبار مائها فى فن الطب من الأمور المناسبة لصحة الأبدان ، وأنه يحسن تطييب وطبخ الخضراوات بها دون غيرها ، وتحليل الصابون بها للغسل ونحو ذلك ٠

وفى نهر السين بداخل باريس ثلاث جزائر احداها تسمى « جزيرة السيتة » وكان بها باريس القديمة « والسيته » « بكسر السين وسكون الياء وفتح الفوقية » معناها المدينة فكانه قيل جزيرة المدينة وشتان بين هذا وبين النيل ، والروضة والمقياس ، فان نزهة الانسان فى الروضة والمقياس لا تضاهى ، لأن الخليج (ص ٥٠) يعبر مصر ، والسين يعبر « باريس » الا أن نهر السين بتمامه يشق « باريس » وتجرى به (١) السفن العظيمة الوسق ، وبه الأرصفة الجيدة والنظافة على حوافيه ، ومع ذلك فنزهته غير سارة وشتان أيضا بين ماء « النيل » و « السين » من جهة الطعم وغيره فان ماء النيل لو كانت العادة جرت بترويقه قبل استعماله كما هو العادة فى ماء نهر السين لكان من أعظم الأدوية ٠ وأقول أيضا انه فرق بعيد بين طعم ماء نهر « السين » وماء العيون والقطوع والسواقى ببلاد صعيد مصر ٠ وبالجملة والتفصيل ففرق بعيد بين تربة مصر و « باريس » ومياههما وفواكههما الا فى نحو الخوخ واقليمهما ، فلولا نجامة أهل باريس وحكمتهم وبراعتهم ٠ وحسن تدبيرهم ، واعتناؤهم بتعهد مصالح بلادهم ، لكانت مدينتهم كلا شىء ، فانظر مثلا الى نهر « السين » فانه وان كان نزهة فى أيام الحر فانه قد يبلغ فى وقت الشتاء ثمانى درجات من الجمود والانعقاد حتى انه يمكن أن يداس عليه بالعربات ، وانظر الى أشجار هذه المدينة فانها تكون مورقة فى أيام الحر ، وفى أيام البرد لا تجدها

---

(١) المطبوعة : « بها » ٠

الا قرعة رديئة المنظر ، كأنها حطب مصلب وهذا فى سائر البلاد الباردة ، وقال بعضهم فى هذا المعنى :

سألت الغصن لمَ تعرَّى شتاء ... وتبدو فى الربيع وأنت كاسى؟!
فقال لى : الربيع على قدوم ... خلعت على البشير به لباسى

(و) قال بعضهم فى وصف يوم برد وأجاد : فى يوم برد جعله الله منه فى حمى ، ومجال حرب كان الظفر فيه لابن ماء السما • كأنما ماجت الأرض فرحا لانهلال السحاب ، وقويت أوتادها اذ صار لها بالسماء من جبال المطر أمد الأسباب • وكأن السماء قد رأت ما بالأرض من السرور فبعثت تهنيها بصوت الرباب ، فلكم تفتحت أعين النور لعيون الغمام الساجمة ، ولكم استمرت به مسرة واستقرت به سائمة • ولكم ضحكت الأرض لبكاء السماء بمدامعها ، وظهر البشر على وجهها •

وانظر الى زمن تلك المدينة ، فانه دائما معتم فى سائر أيام الشتاء وغالب أيام الحر ، فاذا تنزه الانسان ساعة تنكد ساعة أخرى ، وذهب حظه بالرعد والبرق ، وانهطال المطر والصواعق ، الا أن الثلوج بها ومجارى البالوعات تقى من الوحل المضر ، فليست (ص ٥١ ، ٥٢) كأرض جيلان التى (١) قال فيها الشاعر :

أقمت بأرض جيلان زمانا ... ولم يك ذاك منى غير جهل
فلم أحصل على خير متاح ... سوى سح الغيوث وخوض وحل

وأهلها لا يبالون بذلك ، فيقال فى سائر أيامها ما قاله بعضهم فى وصف يوم شديد البرد من أنه يوم يجمد خمره ، ويخمد جمره • ويخف فيه الثقيل اذا هجر ، ويثقل فيه الخفيف اذا هجم • الا أن الفرنساوية يكثرون من الملاهى فى ليالى الشتاء ، لأنهم يبذلون

---

(١) فى المطبوعة : « الذى » •

جهدهم فى التوقى من مضارها ، نسأل الله تعالى الوقاية من برد الزمهرير ، فلو تعهدت مصر وتوفرت فيها أدوات العمران ، لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا ، كما هو شائع على لسان الناس من قولهم مصر أم الدنيا . وقد مدحتهـا مدة اقامتى « بباريس » بقصيدة وهى :

ناح الحمام على غصـون البان	فأباح شـيمة مغـرم ولهـان
ما خلتـه مـذ صـاح الا أنه	أضـحى فقيد أليفه ويعـانى
وكأنـه يلقى الى اشـارة	كيف اصطبارى مذ نأى خلانى
مـع أننى والله مـذ فارقتهم	ما طاب لى عيشى وصفو زمانى
لكننى صـب أصـون تلهفى	حتى كأنى لست باللهفـان
وبباطن الأحشـاء نار لو بدت	جمراتهـا ما طاقهـا الثقـلان
أبكى دما من مهجتى لفراقهـم	وأود ألا تشـعر العيشان
لى مذهب فى عشقهم واريتـه	ومذاهب العشـاق فى اعـلان
ماذا على اذا كتمت صـبابتى	حتى لو أن الموت فى الكتمـان
ما أحسن القتلى بأغصـان النقا	ما أطيب الأحـزان بالغـزلان
قالوا أتهوى؟ والهوى يكسو الفتى	أبـدا ثيـاب مذلة وهـوان
فأجبتهم لو صـح هـذا اننى	أختـار ذلى فيـه طـول زمانى
والذل للعشـاق غـير معـرة	بـل عين كل معـزة للعـانى
أصبو الى من حاز قدا أهيفـا	يزرى ترنحـه بغصن البـان
وأحن نحو شـقيق تم خـده	قد نم فيـه شقائق النعمـان
ويروقنى أبـدا نزاهـة مقلتى	فى حسن طلعـة فاتك فتـان
أمسى وأصبح بين شعر حالك	ومنير وجـه هكـذا الملوان
ولطالما قضيت معـه حقبـة	ونسـيم مصر معطر الأردان
زمن على به لمصر (فديتهـا)	حـق وثيـق عاطـل النكران
لو شابهت عيناى فائض نيلهـا	لم توف بعض شفائه أحزانى

أو لو حكى قلبى بحار علومها ... طربا لما أخلو من الخفقان
ولكم بأزهرها شموس أشرقت ... وأنارت الأكوان بالعرفان
فشذا عبير علومهم عم الورى ... وسرت مآثرهم لكل مكان
وحوتهمو مصر فصارت روضة ... وهمو جناها المبتغى للجانى
قد شبهوها بالعروس وقد بدا ... منها «العروسى» بهجة الأكوان
قالوا تعطر روضها فأجبتهم ... « عطارها حسن » شذاه معانى
حبر له شهدت أكابر عصره ... بكمال فضل لاح بالبرهان
لو قلت لم يوجد بمصر نظيره ... لأجبت بالتصديق والاذعان
هذا لعمرى ان فيها سادة ... قد زينو بالحسن والاحسان
يأيها الخافى عليك فخارها ... فاليك ان الشاهد « الحسنان »
ولئن حلفت بأن « مصر » لجنة ... وقطوفها للفائزين دوانى
و«النيل» كوثرها الشهى شرابه ... لأبر كل البر فى ايمانى

(ص ٥٤) وأما مصر فانها سليمة من مكاره شرد « باريس » ، كما أنها خالية أيضا عن الأمور المحتاج اليها فى وقت الحر ، مثل الاستعانة على تطرية الزمن ، فان أهل « باريس » مثلا سهل عندهم رش ميدان متسع من الأرض وقت الحر ، فانهم يصنعون دنا عظيما ذا عجلات ، ويمشون العجلة بالخيل ، ولهذا الدن عدة بزابيز ، مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة ، وعزم سريع ، فلا تزال العجلات ماشية ، والبزابيز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة ، لا يمكن رشحها بجملة رجال فى أبلغ من ساعة ، ولهم غير ذلك من الحيل ، فمصرنا أولى بهذا لغلبة حرها (قد صار الآن جل ذلك بمصر) (١) .

ثم من غرائب نهر « السين » أنه يوجد فيه مراكب عظيمة ،

(١) تعليق زاده على النص بعد عودته الى مصر .

فيها أعظم حمامات « باريس » المشيدة البناء وفى كل حمام منها أبلغ من مائة خلوة ، وسيأتى ذكرها .

ومن الأمور المستحسنة أيضا أنهم يصنون مجارى تحت الأرض توصل ماء النهر الى حمامات أخرى وسط المدينة ، أو الى صهاريج بهندسة مكملة . فانظر أين سهولة هذا مع ملء صهاريج مصر بحمل الجمال ، فان ذلك أهون مصرفا ، وأيسر فى كل زمن وشطوط هذا النهر داخل المدينة ، مرصفة بحيطان عظيمة عالية فوق الماء نحو قامتين ، يطل المار بجانبها على النهر ، وهى محكمة البناء .

وقناطر هذا النهر « بباريس » ست عشرة قنطرة ، فمنها قنطرة تسمى قنطرة بستان النباتات ، ولها أربعمائة (ص ٥٥) قدم من الطول وعرضها سبعة وثلاثون قدما ، ولهذه القنطرة خمسة قواصير من الحديد محكمة ومسندة على حجارة من أحجار النحاتة ، وقد بنيت هذه القنطرة فى خمس سنوات ، وصرف فيها ثلاثون مليونا من الفرنكات ، يعنى ثلاثين ألف ألف فرنك . وتسمى هذه القنطرة قنطرة « استرلتز » ، سميت بذلك باسم محل غلب فيه « نابليون » ملك « النيمسا والموسقو » ، فيقال لهذه الواقعة واقعة ، « استرلتز » ، ويقال واقعة السلاطين الثلاثة . ويقال لها واقعة موسم تتويج نابليون .

« واسترلتز » بلدة وقعت هذه النصرة بقربها ، وهذه النصرة تستحق عند الفرنساوية الذكر الجميل على ممر الدهور ، فلذلك أبدوها ببناء هذه القنطرة ، فتسميتها بهذا الاسلام للتذكار وبقاء الآثار .

ونهر السين يشق « باريس » نحو فرسخين ، وعرضه فيها مختلف ، فعند القنطرة المتقدمة يكون من الطول مائة وستة وستين مترا .

وقوة سير مياهه المتوسطة عشرون برمقا (١) فى كل ثانية ٠ أو ألف ومائتان فى كل دقيقة ٠

وسطح أرض « باريس » صنفان فالأول « جبس » والثانى طين ماء نهر « السين » بعد زيادته ٠ وأرضها مركبة من راقات مختلفة ، فالراق الأول مزرعة طينية مرملة ذات حصى الثانى : طفل مختلط بجبس وصدف ٠ الثالث : طفل صوانى ٠ الرابع طفل جيرى صدفى ٠ الخامس : حجر الجير المخلوط بصدف ٠ السادس : البحر الملح ٠ السابع : طين شبيه بالابليزى الثامن : من طباشير وجير مفحوم طباشيرى ٠

ثم ان هذه المدينة مشقوقة ومحوطة (٢) بصفوف أشجار مرصوصة على سمت الخطوط المتوازية ، لا يخرج بعضها عن بعض أبدا ، وعلى منوالها بطريق « شبرا » وفى « أبى زعبل » و « جهاد اباد » (٣) وهى مورقة فى أيام الحر يستظل المار بها من حر الشمس ، وتسمى « البلوار » (٤) (بضم الباء وسكون اللام) فيوجد فى « باريس » (بلوارات) خارجة كالسور للمدينة و (بلوارات) داخل المدينة ، ومحيط (البلوارات) الخارجة أبلغ من خمسة فراسخ ونصف ، وعدد (بلوارات) « باريس » اثنان وعشرون (بلوارا) ٠

وفى هذه المدينة عدة فسحات عظيمة تسمى المواضع ، يعنى الميادين ، كفسحة « الرملية » (٥) بالقاهرة ، فى مجرد الاتساع ، فى مجرد الاتساع ، لا فى الوساخة ٠ وعدها خمسة وسبعون ميدانا ولهذه المدينة أبواب خارجية برانية كباب النصر بالقاهرة ، وهى

---

(١) البرمق : الاصبع بالتركية ٠

(٢) فى المطبوعة : « ومحتاطة » ٠

(٣) كذا فى المطبوعة وهى أشبه بان تكون اسم بلد بالهند ٠

(٤) Boulevard

(٥) كانت تحت القلعة ٠

ثمانية وخمسون بابا وبهذه المدينة أرح قنايات من صنف (ص٥٢) المسماة عيونا ، وثلاثة دواليب لجرى المياه بالنواعير الا أنها عظيمة ، وستة وثمانون صهريجا ، ومائة وأربع عشرة حنفية على الطرق ·

ومما يدل على عمارة هذه المدينة كون أهلها دائما فى الزيادة لبينة ، وأرضها فى الاتساع ، وعماراتها فى التكميل والتحسين ، وهمتهم (١) جميعا فى توسيع دائرتها بالأبنية العظيمة ، لاعانة ملوكهم على ذلك برفع عوايد البيوت المستحدثة على التنظيم الجديد مدة من الزمن ، قال الشاعر :

ان البناء اذا تعاظم شأنه أضحى يدل على عظيم الشان

وبذلك يكثر أهلها ، فان أهلها الآن يعنى أهل الاستيطان بها ، فوق مليون من الأنفس · ومحيطها سبعة فراسخ فرنساوية ، ومطايا هذه المدينة ، كغيرها ، من بلاد فرانسا العربات ، الا أنه يكثر فيها ذلك ويتنوع ، ولا تزال تسمع بها قرقعة العربات ليلا ونهارا بغير انقطاع ، وسيأتى تفصيل ذلك فى غير هذا المحل ·

---

(١) فى المطبوعة : وهم ثم ·

الفصل الثانى

(فى الكلام على أهل باريس)

اعلم أن الباريزيين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل ، ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى الغويصات ، وليسوا مثل النصارى القبطة ، فى أنهم يميلون بالطبيعة الى الجهل والغفلة ، وليسوا أسراء التقليد أصلا ، بل يحبون دائما معرفة أصل الشىء والاستدلال عليه ، حتى ان عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة ، ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة ، كل انسان على قدر حاله ، فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الأنعام كعوام أكثر البلاد المتبربرة ٠

وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب حتى الصنائع الدنيئة ، فيحتاج الصنائعى بالضرورة الى معرفة القراءة والكتابة لاتقان صنعته ، وكل صاحب فن من الفنون يحب أن يبتدع فى فنه شيئا لم يسبق به ، أو يكمل ما ابتدعه غيره ٠ ومما يعينهم على ذلك زيادة عن الكسب حب الرياء والسمعة ودوام الذكر ، فهم يقتدون بقول الشاعر :

لعمرى رأيت المرء بعد زواله	حديثا بما قد كان يأتى ويصنع
فحيث الفتى لابد يذكر بعده	فذكراه بالحسنى أجل وأرفع

وقول ابن دريد :

وانمـــا المرء حديث بعـــده فكن حديثـــا حســـنا لمن وعى

وقيل لاسكندر : لو استكثرت من النساء كثر ولدك ، وطاب بهم ذكرك ، فقال : دوام الذكر فى حسن السيرة والسنن ، ولا يحسن لمن غلب الرجال أن تغلبه النساء ·

ومن طباع الفرنســـاوية التطلع والتولع بســـائر الأشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل فى سائر الأمور ، وخصوصا فى أمر الملبس ، فانه لا قرار له أبدا عندهم ، ولم تقف لهم الى الآن عادة فى التزيى ، وليس معنى هذا أنهم يغيرون ملبسهم بالكلية ، بل معناه أنهم يتنوعون فيه ، مثلا : لا يغيرون لبس (البرنيطة) ولا ينتقلون منها الى العمامة ، وانما هم تارة يلبسون (البرنيطة) على شكل ، ثم بعد زمن ينتقلون منه الى شكل آخر ، سواء فى صورتها أو لونها ، وهكذا ·

ومن طباعهم المهارة والخفة ، فان صاحب المقام قد تجده يجرى فى السكة كالصغير ، ومن طباعهم أيضا الطيش والتلون ، فينتقل الانسان منهم عن الفرح الى الحزن وبالعكس ، ومن الجد الى الهزل وبالعكس ، حتى ان الانسان قد يرتكب فى يوم واحد جملة أمور متضادة ، وهذا كله فى الأمور الغير المهمة ، وأما فى الأمور المهمة فآراؤهم فى السياسات لا تتغير ، كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ، ويؤيده مدة عمره ، ومع كثرة ميلهم الى أوطانهم يحبون الأسفار ، فقد يمكثون السنين العديدة والمـــدة المديدة ، طوافين بين المشرق والمغرب ، حتى انهم قد يلقون أنفسهم فى المهالك ، لمصلحة تعود على أوطانهم ، فكأنهم مصداق قول الحاجرى :

كل المنـــازل والبـــلاد عزيزة عنـــدى ولا كمواطنى وبلادى

وقال آخر :

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ما الحب الا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

ومن خصالهم محبة الغرباء والميل الى معاشرتهم ، خصوصا اذا كان الغريب متجملا بالثياب النفيسة ، وانما يحملهم على ذلك الرغبة والتشوف الى السؤال عن أحوال البلاد ، وعوائد أهلها ، ليظفروا بمقصدهم فى الحضر والسفر ، وقد جرت عادة النفوس الى الطمع من الدنيا بما لا تظفر به ، كما قال الشاعر :

ان النفوس على اختلاف طباعها طمعت من الدنيا بما لم تظفر

وليس عندهم المواساة الا بأقوالهم وأفعالهم ، لا بأموالهم ، الا أنهم لا يمنعون عن أصحابهم ما يطلبون استعارته لا هبته الا اذا وثقوا بالمكافأة ، وهم فى الحقيقة أقرب للبخل من الكرم ، وقد ذكرنا علة ذلك فى ترجمتنا « مختصر السير والعوايد فى ذكر الضيافة » وفى الواقع ، حقيقة السبب فى ذلك هو أن الكرم فى العرب ٠

ومن أصافهم توفيتهم غالبا بالحقوق الواجبة عليهم ، وعدم اهمالهم أشغالهم أبدا ، فانهم لا يكلون من الأشغال سواء الغنى والفقير ، فكأن لسان حالهم يقول : ان الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما ٠

ومن المركوز فى طبعهم حب الرياء والسمعة ، لا الكبر والحقد ، فهم كما يقولون فى مدح أنفسهم : أخلص قلوبا من الغنم عند ذبحها ، وان كانوا عند الغضب أشد افتراسا من النمور ، فلأن الانسان منهم اذا غضب قد يؤثر الموت على الحياة ، فقل أن يفوت زمن يسير من غير أن يقتل انسان نفسه خصوصا من داء الفقر أو العشق ٠

ومن طباعهم الغالبة : وفاء الوعد ، وعدم الغدر ، وقلة الخيانة . ومن كلام بعض الحكماء : المواعيد شباك الكرام ، يصطادون بها محامد الأحرار . وقال آخر : كفر النعمة من لؤم الطبيعة ورداءة الديانة . وقال آخر : الشكر وكاء النعمة ، والوفاء به صلاح العقبى . وقيل : وعد الكريم ، ألزم من دين الغريم . وقال بعضهم الخيانات تؤذى الأمانات .

ومن طباعهم الغالبة : الصدق ، ويعتنون كثيرا بالمروءة الانسانية ، قال بعضهم فى مدحها : المروءة اسم جامع للمحاسن كلها .

ومن الصفات التى يقبح وصف الانسان بها عندهم : كفر النعم ، مثل غيرهم . فيرون أن شكر المنعم واجب ، وأظن أن جميع الأمم ترى ذلك ـ وان كانت قد تفقد هذه الصفة عند أفراد ، فهو خروج عن الطبع ، فهى كشفقة الوالد وبر الولد ، فانهما قد يتخلفان فى بعض الأفراد ، مع أنهما صفتان جبليتان ، عند سائر الأمم والملل . ومما قيل فى ذلك ، وهو أحسن ما قيل مع ما فيه من الاستطراد :

هب البعث لم يأتنا نذره ... وأن لظى النار لم تضرم

أليس بكاف لذى فكرة ... حياء المسيىء من المنعم

ويقال ان أبا بكر الخوارزمى الشاعر المشهور قصد الصاحب بن عباد فأحسن نزوله وأكرمه وأقام فى نعمته مدة ، ثم حين ارتحاله كتب بيتين وجعلهما في مكان حيث يجلس الصاحب وهما :

لا تحمدن ابن عباد وان هطلت ... كفاه بالجود حتى أخجل الديما

فانها خطرات من وساوسه ... يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

فلما وقف عليهما الصاحب قال وقد بلغه موت الخوارزمى :

أقول لركب من خراسان أقبلوا   أمات خوارزميكم ؟ قيل لى : نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره: ألا لعن الرحمن من يكفر النعم !

وهذا بخلاف أبى طالب عبد السلام بن الحسين المأمونى من أولاد المأمون ، وهو شاعر محسن أقبل على الصاحب بن عباد ، فرماه ندماء الصاحب فسقطت منزلته عنده ، فقال قصيدة طلب فيها من الصاحب الاذن بالرحيل ، ومن وداعها قوله :

أسير عنك ولى فى كل جارحة   فم بشكرك يحوى منطقا أربا
انى لأهوى مقامى فى ذراك كما   تهوى يمينك فى العافين أن تهبا
لكن لسانى يهوى السير عنك لأن   يطبق الأرض مدحا فيك منتخبا
أظننى فت أهلى والأنام همو   اذا ترحلت عن مَغناك مغتربا

ومن خصالهم أيضا : صرف الأموال فى حظوظ النفس ، والشهوات الشيطانية ، واللهو واللعب ، فانهم مسرفون غاية السرف ٠

ثم ان الرجال عندهم عبيد النساء ، وتحت آمرهن سواء كن جميلات (١) أم لا ٠ قال بعضهم : ان النساء عند الهمل معدات للذبح ، وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت ، وعند الافرنج كالصغار المدلعين ، قال الشاعر :

اعص النساء فتلك الطاعة الحسنه   فلن يسود فتى يعطى النساء سنه
يعقنه عن كثير من فضائله   ولو سعى طالبا للعلم ألف سنه

ولا يظن الافرنج بنسائهم ظنا سيئا أصلا ، مع أن هفواتهن كثيرة معهم ، فان الانسان ، ولو من أعيانهم ، قد يثبت

---

(١) الأصل : « جمالات » ٠

له فجور زوجته ، فيهجرها بالكلية ، وينفصل عنها مدة العمر ٠
والتفريق بينهما بهذه المثابة يكون عقب اقامة دعوى شرعية ومرافعة يثبت فيها الزوج دعواه بحجج قوية على رءوس الأشهاد ، تتلوث فيها الذرية بالفضيحة وان كانت بدون لعان ، ولا تعرض للأولاد ٠ وهذا يقع كثيرا فى العائلات الكبيرة والصغيرة ، ويشهد مجلس المرافعة الخاص والعام ٠ فلا يعتبر الآخرون بذلك ، مع أنه ينبغى الاحتراس منهن ، كما قال الشاعر :

لا يكن ظنك الا سيئا بالنسا ان كنت من أهل الفطن
مارمى الانسان فى مهلكة قط الا ظنه الظن الحسن

ومن كلام بعض العرب العرباء خطابا لزوجته :

ان امرأ غره منكن واحدة بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

ومن الأمور المستحسنة فى طباعهم ، الشبيهة حقيقة بطباع العرب : عدم ميلهم الى الأحداث ، والتشبب فيهم أصلا ، فهذا أمر منسى الذكر عندهم ، تأباه طبيعتهم وأخلاقهم ، فمن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس فى جنسه ، فلا يحسن فى اللغة الفرنساوية قول الرجل : عشقت غلاما فان هذا يكون من الكلام المنبوذ المشكل ، فلذلك اذا ترجم أحدهم كتابا من كتبنا يقلب الكلام الى وجه آخر ، فيقول فى ترجمة تلك الجملة عشقت غلامه ، أو ذاتا ، ليتخلص من ذلك فانهم يرون هذا من فساد الأخلاق ٠ والحق معهم ٠ وذلك أن آحد الجنسين له فى غير جنسه خاصة من الخواص يميل بها اليه كخاصة المغناطيس فى جذب الحديد مثلا ، وكخاصة الكهربا فى جذب الأشياء ، ونحو ذلك ، فاذا اتحد الجنس انعدمت الخاصة ، وخرج عن الحالة الطبيعية ٠ وهذا الأمر عندهم من أشد الفواحش ، حتى انه قلما ذكروه صريحا فى كتبهم بل يكنون عنه بما أمكن ، ولا يسمع التحدث به أصلا ، ويعجبنى قول الشيخ عباس اليمنى :

كلفت بسـعدى والربـاب وزينب
ولم أعتبر آس العـذار ولامـه (١)

ولا اخترت تشبيبا بأمـرد مذهبـا
وان ذم طبعى من يراه ولامـه (٢)

وما حسنه عندى سوى فى عجاجة
وحمل قناه كالشـهاب ولامـه (٣)

ويغشى سعير الحرب ليس يصـده
حنانيك عن ضرب الرقاب ولامه (٤)

ومن خصالهم الرديئة : قلة عفاف كثير من نسائهم كما تقدم ، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الاسلام من الغيرة بمثل المصاحبة والملاعبة والمسايرة . ومما قاله بعض أهل المجون الفرنسـاوية : لا تغتر باباء امرأة اذا سألتها قضاء الوطر ، ولا تستدل بذلك على عفافها ، ولكن على كثرة تجربتها . انتهى . كيف والزنا عندهم من العيوب والرذائل ، لا من الذنوب الأوائل ، خصوصا فى حق غير المتزوج ، فكأن نسـاءهن مصداق قول بعض الحكمـاء : لا تغتر بامرأة (١) ، ولا تثق بمال وان كثر ، وقال آخر : النساء حبائل الشيطان ، وقال الشاعر :

تمتع بها ما ساعفتك ، ولا تكن	جزوعا اذا بانت فسوف تبين
فان هى أعطتك الليان فانهـا	لآخر من طلابهـا سـتلين
وان حلفت لاينقض النأى عهدها	فليس لمخضـوب البنـان يمين

(١) الآس : الريحان . والعذار : الخد ، ولامه : استدارته .
(٢) لام هنا بمعنى : عذل .
(٣) اللام مسهل اللأم : جمع لأمة ، وهى الدرع .
(٤) معه : اسم فعل أمر بمعنى أترك .

وبالجملة فهذه المدينة ، كباقى مدن فرانسا وبلاد الافرنج العظيمة ، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والاختلالات ، وان كانت مدينة « باريس » من أحكم سائر بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية ، وأثينة الفرنساوية وقد قابلتها فيما تقدم نوع مقابلة بأثينة أى مدينة حكماء اليونان ، ثم رأيت بعض أهل الأدب من الفرنساوية قالما معناه : ان الباريزيين أشبه الناس بأهل أثينة ، أو هم أثينيو هذا الزمان ، فان عقولهم رومانية ، وطباعهم يونانية . انتهى .

وقد أسلفنا أن الفرنساوية من الفرق التى تعتبر التحسين والتقبيح العقليين وأقـــول هنا انهم ينكرون خوارق العـــادات ، ويعتقدون أنه لا يمكن تخلف الأمور الطبيعية أصلا ، وأن الأديان انما جاءت لتدل الانسان على فعل الخير ، واجتناب ضده ، وان عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم فى الآداب والظرافة تسد مسد الأديان ، وأن الممالك العامرة تصنع فيها الأمور السياسية كالأمور الشرعية .

ومن عقائدهم القبيحة قولهم : ان عقول حكمائهم وطبائعييهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكى منها .

ولهم كثير من العقائد الشنيعة كانكار بعضهم القضاء والقدر ، مع أن من الحكم العاقل من يصدق بالقضـــاء ، ويأخذ بالحزم فى سائر الأشياء وان كان لا ينبغى للانسان أن يحيل الأشياءعلى المقادير أو يحتج بها قبل الوقوع ، فان من الأمثال التى سارت بها الركبان : من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير ، ومن كلام بعضـــهم اذا وقعت المجادلة فالســـكوت أفضـــل من الكلام ، واذا وقعت المحاربة فالتدبير أفضل من التقدير .

ومنهم جماعة يعتقدون أن الله تعالى خلق الخلق ، ونظمهم نظاما عجيبا ، فرغ منه ثم لايزال يلاحظهم بصفة له تعالى ، تسمى صفة

العناية والحفظ ، تتعلق بالممكنات اجمالا ، بمعنى أنها تمنعها عن خلل انتظام الملك . وسنذكر بعض عقائدهم فى غير هذا المحل .

ثم ان لون أهل « باريس » البياض المشرب بالحمرة ، وقل وجود السمرة فى أهلها المتأصلين بها،وانما ندر ذلك لأنهم لايزوجون عادة الزنجيـة للأبيض أو بالعكس ، محافظة على عدم الاختلاط فى اللون ، حتى لا يكون عندهم ابن أمة . قال الشاعر :

فى الهند طير ناطق سبحان مولى الهمه
يقول فى تغريده : ابن الأمه ماالأمه

بل لا يعدون أنه قد يكون للزنج جمال أصلا ، بل غيره عندهم من صفات القبح فليس لهم فى المحبة مذهبان ، ولا يحسن عندهم قول الشاعر فى غلام :

لك وجه كأن بنانى خطته بلفظ تمله آمالى
فيه معنى من البدور ، ولكن نفضت صبغها عليه الليالى
لم يشنك السواد بل زدت حسنا انما يلبس السواد الموالى

بل لسان حالهم دائما ينشد قول الآخر :

ألا ان عندى عاشق السمر غالط وان الملاح البيض أبهى وأبهج
وانى لأهوى كل بيضاء غادة يضىء لها وجه وثغر مفلج
وحسبى أنى أتبع الحق فى الهوى ولا شك أن الحق أبيض أبلج

على أنه لا يحسن عند الفرنساوية استخدام جارية سوداء فى الطبخ ونحوه ، لما ركز فى أذهانهم أن السود عارون عن النظافة اللازمة .

ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة ، حسان المسايرة والملاطفة ، يتبرجن دائما بالزينة ، ويختلطن مع الرجال فى المنتزهات،

وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المحال ، سواء الأحرار وغيرهن ، خصوصا يوم الأحد الذى هو عيد النصارى ، ويوم بطالتهم ، وليلة الاثنين فى (البالات) والمراقص الآتى ذكرها ، ويحسن قول بعضهم (شعر) :

والراقصات وقد مالت ذوائبها	على خصور كأوساط الزنابير
يخفى الردى سقمهاعنافيفضحها	عقد البنود(١)وشدات الزنابير

ومما قيل : ان « باريس » جنة النساء ، وأعراف الرجال ، وجحيم الخيل • وذلك أن النساء بها منعمات ، سواء بمالهن أو بجمالهن •

وأما الرجال فانهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء،فان الانسان يحرم نفسه وينزه عشيقته ، وأما الخيل فانها تجر العربات ليلا ونهارا على أحجار أرض « باريس » خصوصا اذا كانت المستأجرة للعربة امرأة جميلة ، فان (العربجى) يجهد خيله ليوصلها الى مقصدها عاجلا ؛ فالخيل دائما معذبة بهذه المدينة •

وحيث ان باريس من بلاد الفرنسيس ، فمعلوم أن لسان أهلها هو اللسان الفرنساوى • ولنذكر هنا نبذة من ذلك فنقول : اعلم أن اللسان الفرنساوى من الافرنجية المستحدثة ، وهو لسان الغلوية يعنى قدماء الفرنسيس، ثم كمل من اللغة اللاطينية ، وأضيف اليه شىء من اللغة اليونانية النيمساوية ويسير من لغة الصقالية وغيرها ، ثم حين برع الفرنساوية فى العلوم نقلوا كلمات العلوم من لغات أهلها • وأكثر الكلمات الاصطلاحية يونانية ، حتى كأن لسانهم من أشيع الألسن وأوسعها ، بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة ، لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ، ولا بالمحسنات

(١) البند : العلم الكبير ، يريد به الثوب •

البديعية اللفظية ، فانه خال عنها ، وكذا غالب المحسنات البديعية المعنوية ، وربما عد ما يكون من المحسنات فى العربية ركاكة عند الفرنسيس ، مثلا لا تكون التورية من المحسنات الجيدة الاستعمال الا نادرا فان كانت فهى من هزليات أدبائهم وكذلك مثل الجناس التام والناقص فانه لا معنى له عندهم وتذهب طرافة ما يترجم لهم من العربية ، مما يكون مزينا بذلك ، مثل قول صاحب البديعية :

من العقيق ومن تذكار ذى سلم　　براعة العين فى استهلالها بدم
ومن أهيل النقا تم النقا وبدا　　تناقص الجسم من ضر ومن ضرم

ولا يمكن أن ينقل الى لغاتهم ما قلته فى نظم مسطلح الحديث :

صحيح جسمى من فرط الجوى عضلا
ومرسل الدمع من عينى قد اتصلا
تواترت قصتى فى النـاس قاطبـة
حتى لضعفى رثى لى كل من عـذلا
تعنعن السحب عن عينى روايتها
كما يسلسل عنها القطر اذ هملا
رفعت أمرى الى قاضى الهوى فأبى
وقال : مالى على هذا المليح ولا
ياقلب صبرا على مافيك من علل
ولا تشذ ، وتجـزع ، واترك المللا
ودع بقية ما أبقـاه من رمـق
لديـه ، لاتعتبر تعنيف من عـذلا
فـذاك لاح وبالتـدريس مشـتهر
وقولـه منـكر ، زور ، وما قبـلا

الى آخر قولى فيها :

وقفت حبى عليــــه لايجـــاوزه

وهكذا شأن صب فى الهوى كملا

وسيأتى تتميم الكلام على ذلك . وبلجملة فلكــل لســـان اصطلاح وأصطلاح اللغة الفرنساوية تقليل التصريف ماأمكن،وتصريف الفعل مع فعل آخر . مثلا اذا أراد الانسان آن يخبر بأنه آكل فانه يقول : أملك مأكولا ، يعنى لا يمكن تصريف (أكل) فى بعض أحواله الا مع فعل الملك أو التلبس ، فكأنــه يقول : تلبست بالأكل واذا أراد أن يقول : خرجت ، يقول : أنا أكون مخرجا ، يعنى : خرجت وهكذا يسمى فعل الملك . وفعل الكينونة : فعلين مساعدين ، يعنى أنهما يعينان على تصريف الأفعال ، ويتجردان عن معناهما الأصلى ، واذا أرادوا تعدية الفعل قالوا : فعلت له الأكل ، يعنى جعلته يأكل، أو أكلته ، وفعلت له الخروج ، يعنى اخرجته وهكذا . فلا يمكنهم تصريف الأفعال كما يمكن فى اللغة العربية ، فلذلك كانت لغتهم ضيقة من هذه الحيثية ، ثم ان قواعــد اللسان الفرنساوى وفــن تركيب كلماته وكتابتها وقراءتها يسمى : (غرماتيقى) « واغرمير » (بتشديد الميم) عند الفرنسيس ، ومعناه فن تركيب الكلام من لغة من اللغات ، فكأنه يقول : فن النحو فيدخل فيه سائر ما يتعلق باللغة ، كما نقول نحن : علوم العربية : ونريد بها الاثنى عشر علما المجموعة فى قول شيخنا العطار :

نحو وصرف عروض بعده لغــة

ثم اشتقاق قريض الشعر انشاء

كذا المعانى بيان الخط قافيـــة

تاريـخ هذا لعلم العرب احصاء

وبعضهم زاد البديع ، وآخر استحسن زيادة التجويد وبالجملة

فباب الزيادة والنقص فيها مفتوح اذ حصرها وتقسيمها فى ذلك جعلى لاحصرى ·

والظاهر أن هذه العلوم جديرة بأن تسمى مباحث علم العربية فقط ، فكيف يكون كل من الشعر والقريض والقافية علما مستقلا برأسه وكل من النحو والصرف والاستقاق علما برأسه · وانظر ما المراد بالتاريخ وبكونه من العلوم العربية مع أن أول من ألف فيه علماء اليونان وأول ما ظهر فى هذا الفن كتب « اوميروس » فى واقعة « تروادة » ولم تؤلف فيه العرب الا فى الأزمنة الأخيرة ، اللهم الا أن يكون المراد بالتاريخ طريقة انشاء تواريخ الحوادث السنوية على أسلوب حساب الجمل ، فيكون أيضا تسميته علما من قبيل التوسع فى تعريف العلم · وعلم الخط قديم أيضا فالافرنج يدخلون هذه المباحث فى علم تركيب الكلام ، بل ويعدون من المنطق والوضع والمناظرة ·

ثم ان اللغة الفرنساوية كغيرها من اللغات الافرنجية لها اصطلاح خاص بها ، وعليه ينبنى نحوها ، وصرفها ، وعروضها ، وقوافيها ، وبيانها ، وخطها ، وانشاؤها ، ومعانيها ، وهذا ما يسمى « اغرماتيقى » فحينئذ سائر اللغات ذات القواعد لها فن يجمع قواعدها ، سواء كانت لدفع الخطأ فى القراءة أو الكتابة فيها أو لتحسينها ، فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك ، بل كل لغة من اللغات يوجد فيها ذلك ، نعم اللغة العربية أفصح اللغات ، وأعظمها ، وأوسعها ، وأحلاها على السمع ، فحينئذ العالم باللغة اللاطينية يعرف سائر ما يتعلق بها ، فله ادراك فى النحو فى حد ذاته وفى غيره كالصرف ، فمن الجهل أن يقال : انه لا يعرف شيئا ، بدليل جهله باللغة العربية ، واذا تبحر الانسان فى لغة من اللغات كان عالما باللغة الأخرى بالقوة ، يعنى أنه لو ترجم له ما فى اللغة الأخرى وعبر له عنه كان قابلا لتلقيه ومقابلته بلغته ، بل ربما

كان يعرفه من قبل ، ويعرف زيادة عليه ، ويبحث فيه ، (ص ٦٢) ويبطل منه ما لا يقبله العقل ، كيف والعلم هو الملكة وحينئذ فقد لا يعرف الانسان المطولات باللغة العربية ، ويعرف ذلك باللغة الفرنساوية لو ترجم له ، على أن كل لغة مخصوصة فلها مطولها وأطوالها وسعدها (١) نعم ليس كل مائع ماء ، ولا كل سقف سماء . ولا كل بيت بيت الله ، ولا كل محمد رسول الله وكما قال الشاعر :

وهيهات ما كل النسيم حجازيا
ولا كل نور يبهج الشرق والغربا

وقال آخر :

وما كل مخضوب البنان بثينة ولا كل مسلوب الفؤاد جميل

فلا شك أن لسان العرب هو أعظم اللغات وأبهج :

ومن ذهب صرف يحاكيه بهرج

ولله در من قال :

يفوق الخطاب اليعربى بأهله
فيهدى الوفا للنقص والحسن للقبح
ومن شرف الأعراب أن محمدا
أتى عربى الأصل من عرب فصح
وأن المثانى أنزلت بلسانه
بما خصصته فى الخطاب من المدح

ومع ما يتراءى أن الأعجام لا تفهم لغة العرب اذا لم تحسن التكلم بها كالعرب فهذا لا أصل له ، ومما يدلك على ذلك أنى اجتمعت فى « باريس » بفاضل من فضلاء الفرنساوية شهير فى بلاد الافرنج بمعرفة اللغات المشرقية ، خصوصا اللغة العربية والفارسية يسمى « البارون سلوسترى داساس » وهو من أكابر « باريس » وأحد أعضاء جملة جمعيات من علماء فرنسا وغيرها ، وقد انتشرت تراجمه

---

(١) السعد والاطول والمطول شروح وتعليقات لكتاب الخطيب القزوينى فى علم البلاغة .

فى « باريس » وشـــاع فضـــله فى اللغـــة العربيـــة ، حتى انه لخص شرحا للمقامات الحريرية ، وسماه مختار الشروح ، وقد تعلم اللغة العربية على ما قيل بقوة فهمه ، وذكاء عقله ، وغزارة علمه ، لابواسطة معلم الا فى مبدأ أمره ، ولم يحضر مثل الشيخ خالد (١) فضلا عن حضور المغنى (٢) مع أنه يمكنه قراءة المغنى ، كيف وقد درس البيضاوى عدة مرات ، غير أنه حين يقرأ ينطق كالعجم ولايمكنه أن يتكلم بالعربية الا اذا كان بيده الكتاب ، فاذا أراد شرح عبارة أغرب فى الألفاظ التى يتعـذر عليه تصحيح نطقها • ولنـذكر لك خطبته فى شرحه لمقامات الحريرى لتعرف نفسه فى التأليف، وقلم عبارته ، فانه بليغ ، وان كان به يسير من الركاكة ، وسبب ذلك أنه تمكن من قواعد الألسن الافرنجية ، فلذلك مالت اليها عبارته فى العربية ، قال فى طالعة شرحه التى حاول فيها الجرى على نهج دينه ودين الاسلام من غير أن يغبن أحدهما :

« بسم الله المبدىء المعيد • الحمد لله العالى المتعالى • الذى له الأسماء الحسنى • ولايخالط صفاته عز وجل من صفات المخلوق شىء أقصى ولا أدنى • العليم الذى ليس لعلمه نهاية ، والحكم الحكيم الذى حكمه وحكمته وراء كل حد وغاية • لا يحصر لاهوت وجوده زمان ومكان • ولا يشوب صفاء جبروته شائبة زيادة ولا نقصان • مسبب الأسباب الذى لا يتحرك فى أطراف الأرض والسماء متحرك الا بقدرته وارادته • ولا يتكلم فى أكناف الآفاق متكلم الا بالهامه وافادته • أحمده حمـد من اعترف بتقصير فهمـه ، وضعف عقله فهداه برحمته وتوفيقه الى تحصيل بعض العلوم والفنون • وأشكر له شكر من كان يخبط فى ظلام الجهل فأخرجه برافته وتأييده الى

---

(١) كتاب ابتدائى فى النحو •

(٢) كتاب للمنتهين فى النحو •

فضاء الرشد ونور التمييز حتى عرف الحق اليقين من أباطيل الظنون. ثم أتوسل اليه سبحانه وتعالى بأنبيائه المرسلين . وأوليائه المقربين. الذين كل واحد منهم كالغرة على جبهة الدهر . وكالتاج على مفرق العصر . وأسأله عز وجل أن يجعلني من عبـاده المهتدين . الذين أنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ، انه على كل شيء قدير ، وباجابة هذا الدعاء جدير .

أما بعد : لما فضل الله جنس الناس على سائر المبتدعات بفوائد الأفهام ، واختص بنى آدم من بين أصناف الحيوانات بكرامة الكلام ، بعث فى كل أمة من الأمم من يكون فى تمهيد قواعد البلاغة واستنباط أحكام شريعتها معروفا مشهورا ، ويصير لسالك طريقة الفصاحة اماما ودستورا ، فممن اشتهر بذلك بين الأنام . وصار المشار اليه فى هذا الباب عند أهل الاسلام ، مؤلف المقامات المشهور بالحريرى ، وهو الشيخ الامام أبو محمد القـاسم بن على بن محمد بن عثمان البصرى الذى از.رى من كان قبله من الأدباء والفصحاء ، وأجهد من جاء بعده من الظرفاء والبلغاء ، فانى لما رأيت أن كتابه المذكور ، لم يزل مذ ألفه الى يومنا هذا لعلم الأدب كالعلم المشـهور ، يحسبه الخاصـة والعامة واسـطة عقده ، وخلاصـة نقده ، ويعتقدونه نور مصباحه ، وضـياء صباحه ، بل لا يشـك أحد منهم أنه أزهار بستانه . وأثمار جنانه . وزلال مائه . ونسيم هوائه ، أحببت أن أشرحه شرحا متوسطا بين الايجاز والتطويل ، أكشف الغطاء عن مشكلاته ومجملاته بالتفسير والتفصيل .

وقد شرح المقامات الحريرية من علماء المشرق والمغرب كثير ، وذكرهم الحاج خليفة فى كتابه المسمى « كشف الظنون ، عن أسامى الكتب والفنون » ، وما وصل يدى اليه من مؤلفاتهم شروح أربعة منها « غـريب الايضـاح فى غـريب المقامات الحريريـة » للامام برهان الدين أبى الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزى الخوارزمى

المتوفى سنة عشر وستمائة ، وهذا الشرح مع وجازته كتاب مفيد محصل للمقصود ٠

والمطرزى كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وأنواع الأدب ، وهو صاحب كتاب « المغرب » تكلم فيه على الألفاظ التى يستعملها الفقهاء من الغريب ٠

ومنها كتاب « شرح ماغمض من الألفاظ اللغوية ، من المقامات الحريرية » تأليف الشيخ محب الدين عبد الله بن الحسين العكبرى البغدادى المتوفى سنة عشر وستمائة، قال:انى رأيت المقامات الحريرية مشحونة بالألفاظ اللغوية ، وهى أحد الكتب التى عنى بها علماء العربية ، ودعانى ذلك الى تفسير ما غمض من ألفاظها على الايجاز ، وقد كنت عثرت لبعض الناس على شىء من ذلك الا أنه أسهب بما لا يحتاج اليه ، وربما فسر اللفظة بغير ما قصد منشئها ٠

ومنها « شرح المقامات » للأستاذ اللغوى النحوى أبى العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القسى الشريشى المتوفى سنة تسع عشرة وستمائة وهو شرح طويل ، ذكر الشريشى أنه لم يترك فى كتاب من شروح المقامات فائدة الا استخرجها،ولا عائدة الا استدرجها، ولا نكتة الا علقها ، ولا غريبة الا استحلقها ، حتى صار شرحه تأليفا فى المقامات يغنى عن كل شرح تقدم فيها ، ولا يحوج الى سواه فى لفظة من ألفاظها ، ولا معنى من معانيها ، وقد أخذ شيئا كثيرا من شرح ابن ظفر الصقلى صاحب كتاب « سلوان المطاع » فى عدوان الأتباع المتوفى بمدينة حماة سنة خمس وستين وخمسمائة ٠

ومن شرح الفندهجى ، وهو الشيخ الامام تاج الدين أبو سعيد محمد بن ســـــعادات عبد الرحمن بن محمد الخراسانى المروزى

الفندهجى ، وقيل : البندهجى ، المتوفى بمدينـــة دمشـــق ســـنة أربع وثمانين وخمسمائة ٠

ومنها شرح آخر تأليف الشيخ شمس الدين أبى بكر محمد ابن أبى بكر الرازى ، صاحب أسئلة القرآن ، ومختار الصحاح ، المتوفى بعد سنة ستين وستمائة ٠ وهذا الشرح لم يذكره الحاج خليفة فى كتابه المذكور ، وهو شرح لطيف ، يشهد لصاحبه بكمال الأدب الا أن النسخة التى هى فى ملكى نسخة ناقصة سقط منها نحو نصف الكتاب حتى لم يبق الا شرح الخطبة ، ثمّ شرح المقامة الخامسة والعشرين ، أخذا من قول الحريرى : وانى والله طالما تلقيت الشتاء بكافاته الى آخرها ، وشرح ما يتلوها من المقامات الى (١) قوله فى المقامة الخمسين ٠

(ولم تزل معتكفا   على القبيح الشنع)

هذا ما كان لى من شروح المقامات ، وقد اجتمع عنـدى أيضا نسخ ست من كتاب المقامات بلا شرح ، غير أن أكثرها يوجد به من التعليقات والحواشى ما ينتفـع به القـارىء ، وقد اخترت من تلك الشروح والحواشى كل مايحتاج اليه طالب العلم فى تحصيل المقصود، ويستعين به الراغب فى الأدب ، على ادراك المطلوب ، ثم أضفت الى ذلك شيئا كثيرا نقلته من كتب أئمـة النحو واللغة ، ومن مجمـع الأمثال ، للعلامة الميدانى ، وكتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبن خلكان ، ثم من ديوان البحترى ، ومن ديوان المتنبى ، وشرح المعلقات للزوزنى ، وغير هذا من كتب الأدب كل ذلك ليتيسر على من أعجبه الغوص فى بحار اللغات العربية أن يظفر من دررها بكل يتيمة عقيلة ، وليسهل على المولع بغرائب العلوم الأدبية المشرقية أن يصل من جواهر معادنها الى كل فلذة ثمينة جزيلة ، وانما المرجو ممن

---

(١) فى النسخة المطبوعة ببولاق : « الا » ٠

نظر في هذا الشرح المختار أن لا يؤاخذنى على ما ظهر عليه من العثرات ، بل أن يستر بذيل كرمه ما استبان له من العورات ٠ والله أسأله أن يجعل هذا الكتاب لمن تصفحه من أهل الشرق والغرب نافعا مفيدا ٠ ولجميع من أسرع الى مورده من أبناء جنسنا ومن غير جنسنا هنيئا مريئا حميدا انتهى كلامه ٠

وقال فى المقدمة الفرنساوية لهذا الكتاب : ان المقامات البديعية تفضل المقامات الحريرية ٠

وقد ترجم الى الفرنساوية عدة مقامات من الاثنتين فى مجموعه: كتاب الأنيس المفيد ، للطالب المستفيد ، وجامع الشذور ، من منظوم ومنثور ٠ وبالجملة فمعرفته خصوصا في اللغة العربية مشهورة ، مع أنه لا يمكنه أن يتكلم بالعربى الابغاية الصعوبة ٠ وقد رأيت له فى بعض كتب توقيفات عظيمة ، وايرادات جليلة ، ومناقضات قوية، وله اطلاع عظيم على الكتب العلمية المؤلفة فى سائر اللغات ، وسبب ذلك كله تمكنه من لغته بالكلية ، ثم تفرغه بعد ذلك لمعرفة اللغات شعر :

العلم لايدرك بالتمنى	عليك بالتكرار والتأنى
كم أعجمى ألكن أخن	أدرك بالتكرار كل فن

ومن جملة مؤلفاته الدالة على فضله كتاب فى النحو سماه التحفة السنية ، فى علم العربية ، فانه ذكر فيه علم النحو على ترتيب عجيب لم يسبق به أبدا ، وله مجموع سماه المختار من كتب أئمة التفسير والعربية فى كشف الغطاء عن غوامض الاصطلاحات النحوية واللغوية ، فقد جمعه وترجمه من العربية الى الفرنساوية ، وله غير ذلك من المؤلفات والتراجم خصوصا فى اللغة الفارسية ، فانه بارع فيها غاية البراعة ، وشهرته بالفضل فى بلاد الافرنج لاتنكر ، حتى انه قد أتحف بعلامات الشرف من كبار ملوكهم ٠ واتساع دائرة

هذا الحبر في معرفة لغات أهل المشرق والمغرب القديمة والحديثة بها يسهل تصديق ما قيل فى حق الفارابي فيلسوف الاسلام : من أنه كان يحسن سبعين لسانا ولنذكر ترجمته هنا مراعاة للنظير ، فنقول :

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركى الفارابي الحكيم الفيلسوف فيلسوف الاسلام الماهر الباهر ، قدم على سيف الدولة بن حمدان ، وكان مجلسه مجمع الفضلاء فى جميع العلوم ، فأدخل عليه ، وهو بزى الأتراك ، وكان ذلك عادته فوقف بين يديه ، فقال له سيف الدولة : اجلس ، فقال : حيث أنت أو حيث أنا ؟ فقال : حيث أنت ، فتخطى رقاب الناس ، حتى انتهى الى مجلس سيف الدولة وزاحمه فى مسنده حتى أخرجه عنه ، وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان يسارهم به قال أن يعرفه أحد، فقال لهم بذلك اللســـان : ان هذا الشيخ قد أساء الأدب ، وانى مسائله عن أشـــياء ان لم يعرف بهـا فأخرجوه ، فقال له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الأمير اصبر ، فان الأمور بعواقبها ، فتعجب سيف الدولة منه ، وقال له : أتحسن هذا اللسان ؟ فقال : نعم ، أحسن أكثر من سبعين لسانا، فعظم عنده ، ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين فى المجلس فى كل فن ، ولم يزل كلامه يعلو ، وكلامهم يسفل ، حتى صمت الكل وبقى يتكلم وحده ، ثم أخـذوا يكتبون ما يقول ، فصر فهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك فى أن تأكل ؟ قال : لا ، قال : فهل تشرب ؟ قال : لا ، قال : فهـل تسمع ؟ قال : نعم ، فأمر سيف الدولة باحضار القيان ، فحضر كل ماهر فى هذه الصناعة بأنواع الملاهى . فلم يحرك أحد منهم آلته الا عابه أبو نصر ، وقال له : أخطأت فقال له سيف الدولة : فهل تحسن فى هذه الصنعة شيئا ؟ قال : نعم ، ثم أخـرج من وسطه خريطة ،ففتحها ، وأخرج منها عيدانا فركبها ، ثم لعب بها ، فضحك كل من فى المجلس ثم فكها ، وركبها ، ولعب بها ، فبكى كل من فى

المجلس ، ثم فكها ، وركبها ، ولعب بها ، فنام كل من فى المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج ! .

وكان منفردا بنفسه ، لا يجالس الناس ، وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالبا الا عند مجتمع ماء ، أو مشتبك أشجار ورياض، يؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه (١) المشتغلون عليه وكان يلازم غياض السفرجل ، وربما صنف هناك ، وقد ينام ، فتحمل الريح تلك الأوراق ، وتنقلها من مكان الى مكان . قيل : وهو السبب فى نقص بعض مصنفاته فانه كان يصنف فى الرقاع دون الكراريس .

وكان أزهد الناس فى الدنيا متقللا منها أجرى عليه سيف الدولة فى كل يوم أربعة دراهم ، ومن شعره :

لما رأيت الزمان نكسا	وليس فى الصحبة انتفاع
كل رئيس به ملال	وكل رأس به صداع
لزمت بيتى وصنت عرضا	به من العزة اقتناع
أشرب مما اقتنيت راحا	لها على راحتى شعاع
لى من قواريرها ندامى	ومن قراقيرها سماع
وأجتنى من علوم قوم	قد أقفرت منهم البقاع

ومنه :

أخى خلِّ حيِّزَ ذى باطل	وكن بالحقائق فى حيز
فما الدار دار مقام لنا	ولا المرء فى الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على	أقل من الكلم الموجز
وهل نحن الا خطوط وقعن	على نقطة وقع مستوفز
محيط العوالم أولى بنا	فماذا التزاحم فى المركز

توفى أبو نصر الفارابى سنة ٣٣٩ من الهجرة .

---

(١) فى المطبوعة البولاقية : « وينتابه » .

ثم ان الفنون باللغة الفرنساوية قد بلغت درجة أوجها حتى ان كل علم فيه قاموس مرتب على حروف المعجم في ألفاظ العلوم الاصطلاحية ، حتى علوم السوقة ، فانها لها مدارس كمدرسة الطباخة ، يعنى مجلس علماء الطباخة وشعرائها ، وان كان هذا من أنواع الهوس ، غير أنه يدل على اعتناء هذه البلاد بتحقيق سائر الأشياء ، ولو الدنيئة وسواء فى ذلك الذكور والاناث ، فان للنساء تآليف عظيمة ومنهن مترجمات للكتب من لغة الى أخرى ، مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ، منهن من يتمثل بانشائها ومراسلاتها المستغربة ، ومن هنا يظهر لك أن قول بعض أرباب الأمثال : جمال المرء عقله ، وجمال المرأة لسانها ، لا يليق بتلك البلاد ، فانه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهمها وعن معرفتها ٠

ثم العلوم الأدبية الفرنساوية لا بأس بها ، ولكن لغتها وأشعارها مبنية على عادة جاهلية اليونان وتأليههم ما يستحسنونه، فيقولون مثلا : اله الجمال ، واله العشق ، واله كذا ، فألفاظهم فى بعض الأحيان كفرية صريحة وان كانوا لا يعتقدون ما يقولون ، وانما هذا من باب التمثيل ونحوه ٠ وبالجملة فكثير من الأشعار الفرنساوية لا بأس به ، ولنذكر لك شيئا من بعض أشعارهم مترجمة من كلام بعضهم للعبد الفقير :

واذا القلوب تعلقت	رأت الجميع جميلا
كسفينة تسعى الى	شعب يكون مهولا
لهفى على زمن الهنا	ان صح كان بخيلا

وقوله مترجما لى

ودع القلب فيك يا قاتلى	يا خيال المسعد الزائر
ان روحى بالجراح اصطلت	وعلى البرء لست بالقادر
وسرورى فى الهوى لمحة	مثل زهر الورق الزاهر

ومن القصيدة المسماة : نظم العقود ، فى كسر العود ، للخواجة يعقوب المصرى منشأ ، الفرنساوى استيطانا ، وقد اعتنيت بترجمتها سنة ألف ومائتين واثنتين وأربعين : ، وأخرجتها من ظلمات الكفر الى نور الاسلام قول صاحبها ونظمه للعبد الفقير :

زادبى الحال اذ صفالى حانى وغنائى بالعود والألحان
باسم ربى والسادة الأعيان وترنمت شجوة بالحسان

وبسعدى ذات الجبين المفدى

فصغى سمعها الى انشادى ورمى النار لحظها فى فؤادى
فلهذا شعرى غدا فى اتقاد وبدا من حماسه فى انفراد

لذوى الفهم والمعارف يهدى

أحرق العشق قلبها كاحتراقى فأتت تطفىء اللظى بالعناق
فتضاممنا ضمة المشتاق وتلاثمنا عادة العشاق

فتثنت لتخجل الغصن قدا

شنف السمع من رقيق التغانى واستمع يا أخى صوت المثانى
يا خليلى بالله هلا ترانى أننىقد أحببت شعر«ابنهانى»

بعد أن كان قد توسد لحدا

وبعد هذا بعدة أبيات تخلص الشاعر الى ذم العشق وتوابعه ، فقال :

واحيائى واخجلتى صار فنى أننى فى هوى الملاح أغنى
برخيم الغنا كظبى أغن وبأوتارى أبتدى وأثنى

ما أرى هذا للفضائل أجدى

أفأيامى كلهـا لى عقيمـه أو مـالى عواقب مستقيمه

بل على طاعة الهوى مستديمة أفما هذه مـراق ذميمـه

اقتفى هزلها وارفض جدّا

أعلى احتساء كأس نصيب خامـل غير كافـل لأريب

مـع أنى والله غير مـريب همتى همة الذكى النجيب

تقنص المجد والسوا تتعدى

وقال يذم نفسه ويوبخها على العزم على فراق محبوبته، لاسيما وهى تتأذى من فراقه :

ويح عز وسؤدد نشتريـه بنواح المـلاح اذ نشتهيه

يا فؤادى سل عند أى فقيه يغفر الذنب من قتال بتيه

لنوال الفخار علك تهدى ؟

يافؤادى قد أسلمتك الأمورا وأباحتك متجرا لن يبورا

أفترضى على الظبا أن تجورا لست ألفيك آسفا مقهورا

حيث قديت قلبها الآن قدا

وهذه القصيدة كغيرها من الأشعار المترجمة من اللغة الفرنساوية عالية النفس فى أصلها ، ولكن فى الترجمة تذهب بلاغتها ، فلا تظهر علو نفس صاحبها • ومثل ذلك لطائف القصائـد العربية ، فانـه لا يمكن ترجمتها الى غالب اللغات الافرنجية من غير أن يذهب حس ، بل ربما صـارت باردة ، وسـيأتى تتميم الكلام على غالب الآداب الفرنساوية والعلوم والفنون •

الفصل الثالث

(فى تدبير الدولة الفرنسية)

ولنكشف الغطاء عن تدبير الفرنساوية ، ونستوفى غالب أحكامهم ، ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر ، فنقول : قد سلف لنا أن « باريس » هى كرسى بلاد الفرنسيس ، وهى محل اقامة ملك فرنسا وأقاربه وعائلته المسماة « البربون » (بضم الباء الموحدة ، وسكون الراء ، وضم الباء الثانية) فلا يكون ملك فرانسا الا من هذه العائلة •

ومملكة الفرنساوية متوارثة ، ومسكن ملك فرنسا (سراية) تسمى ، « التولرى » (بضم التاء وكسر الواو وكسر الراء) ، والغالب أن الفرنساوية يعبرون عن ديوان فرنسا بقولهم : « كابينة التولرى يعنى ديوان هذه السراية ، أى ديوان الملك •

ثم ان أصل القوة فى تدبير المملكة لملك فرنسا ، ثم للجماعة أهل « شمبر دوبير (١) » (بفتح الشين ، وسكون الميم) يعنى ديوان « البير » (بفتح الموحدة) أى أهل المشور الأولى ، ثم لديوان رسل العمالات ، ثم ان الديوان الأول ، يعنى ديوان «البر » هو فى قصر « بباريس » يسمى قصر « لقسمبورغ » والديوان الثانى

---

(١) Chamlre des paris بالفرنسية أى مجلس الأعيان ويلاحظ أن المؤلف استعمل (de) وهى للمفرد ، مكان (des) وهى للجميع •

فى قصر « بوربون » ، ثم يلى ديوان رسل العمالات ديوان الوزراء والوكلاء ، ثم ديوان يسمى « الديوان الخصوصى » ، وبعد ذلك يوجد ديوان يسمى « ديوان سر الملك » وديوان يسمى « ديوان الدولة للمشورة » فحينئذ ملك فرنسا صاحب قوة تامة فى مملكته بشرط رضاء تلك الدواوين المذكورة ، وله خصوصيات أخر سيأتى ذكرها فى السياسة الفرنساوية ٠

ووظيفة أهل ديوان « البير » تجديد قانون مفقود ، أو ابقاء قانون موجود على حاله ، ويسمى القانون عند الفرنساوية : شريعة : فلذلك يقولون : شريعة الملك الفلانى ومن وظيفة ديوان « البير » أن يعضد حقوق تاج المملكة ، ويحامى عنه ، ويمانع سائر من يتعرض لها ٠ وانعقاد هذا الديوان يكون مدة معلومة من السنة ، فى زمن اجتماع ديوان رسل العمالات ، باذن ملك الفرنسيس ٠ وعدد أهل ذلك الديوان غير منحصر فى عدة مخصوصة ، ولا يقبل دخول الانسان فيه الا وهو ابن خمس وعشرين سنة ولا يشرك فى الشورى الا وهو ابن ثلاثين سنة مالم يكن من بيت المملكة ، والا فبمجرد ولادته يحسب من أهل هذا الديوان ويشرك فى المشورة حين يبلغ عمره خمسا وعشرين سنة ٠

وكانت وظيفة « البيرية » متوارثة للذكور فيقدم أكبر الأولاد ، ثم بعد موته يقدم من يليه وهكذا ٠

ووظيفة ديوان رسل العمالات غير متوارثة ، ووظيفتهم امتحان القوانين والسياسات والأوامر والتدبير والبحث عن ايراد الدولة ومدخولها ومصرفها ، والمنازعة فى ذلك والممانعة عن الرعية فى المكوس والفرد (١) وغيرها ، ابعادا للظلم والجور وهذا الديوان

(١) الفرد جمع الفردة وهى الضريبة ، وهى كلمة تستعملها العامة فى مصر الى وقتنا هذا ٠

مؤلف من عدة رجال ينصبهم أهالى العمالات وعددهم أربعمائة وثمانية وعشرون رسولا ولا يقبل الا من يكون سنة أربعين سنة • ولابد ان يكون لكل واحد منهم عقارات تبلغ فردتها ألف فرنك كل سنة • وأما الوزراء فانهم متعددون ، فمنهم وزير الأمور الداخلية ، ثم وزير الحرب ، ثم وزير الأمور الخارجية ، ثم وزير البحر والخارجين من بلاد الفرنسيس ، النازلين ببلاد يعمرونها ، فى غير بلاد الفرنسيس، ثم وزير الخزينة ثم وزير الأمور الدينية ، ثم وزير تعليم الفنون والصنائع ، ثم وزير التجارات ووزير الأمور الداخلية نظير (الكتخدا) ببر مصر ، ووزير الخزينة نظيرا لخازندار ، ووزير التجارات نظير ناظر التجارات ، ووزير الأمور الخارجية نظير رئيس افندى بالدولة العثمانية ، ووزير الحرب نظير ناظر عموم الجهادية ، وهكذا ، غير أنه عندنا ليس وزيرا ، وعندهم يعدونه من الوزراء •

وأما الديوان الخصوصى فانه تخصيص الملك لجماعة بمشورته اياهم على مادة مخصوصة ، والغالب على أهل هذا الديوان كونهم من أقاربه ووزرائه •

وأما ديوان سر الملك فانه يتألف من وزراء السر ومن أربعة وزراء أخر ، لهم وزارة مطلقة ثم جماعة من أرباب المشورة فى الدولة •

وأما ديوان الدولة فانه يتألف ممن يعينه الملك من أقاربه من الوزراء التسعة الكاتمين سر الدولة ، ثم من وزراء الدولة المطلقين ، ومن أرباب المشورة ، ومن جماعة وكلاء على التقارير ، ومن جماعة يستمعون المشورة ، ليتعلموا تدبير الدولة •

ومن ذلك يتضح لك أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنساوية هى قانون مقيد بحيث ان الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بها أهل الدواوين ، وأن ديوان « البير » يمانع عن الملك وديوان رسل العمالات

يحامى عن الرعية ، والقانون الذى يمشى عليه الفرنساوية الآن ويتخذونه أساسا لسياستهم هو القانون الذى ألفه لهم ملكهم المسمى : لويز الثامن عشر (بضم اللام وكسر الواو) ولازال متبعا عندهم ومرضيا لهم ، وفيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل ٠

والكتاب المذكور الذى فيه هذا القانون يسمى الشرطة (١) ومعناها فى اللغة اللاطينية ورقة ثم تسومح فيها ، فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة ، فلنذكره لك ، وان كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ، ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير المماليك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا ، والعدل أساس العمران ٠

ولنذكر هنا نبذة مما قاله فيه العلماء والحكماء أو فى ضده ، من كلام بعضهم : ظلم اليتامى والأيامى مفتاح الفقر ٠ والحلم حجاب الآفات ٠ وقلوب الرعية خزائن ملكها ، فما أودعه اياها وجده فيها ٠ وقال آخر : لا سلطان الا برجال ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل ٠ وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم ٠ وقال بعضهم : أبلغ الأشياء فى تدبير المملكة تسديدها بالعدل ، وحفظها من الخلل ٠ وقيل : اذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع ، ان المولى اذا كلف عبده مالا يطيعه فقد أقام عذره فى مخالفته ٠ وقال بعضهم شعرا يفيد أن النصر يتوقف على العدل :

---

(١) La Charte.

تروم ولاة الجـور نصرا على العـدا
وهيهات يلقي النصـر غير مصـيب
وكيف يروم النصر من كان خلفه
سـهام دعاء من قسى قلـوب ؟

وقال آخـر :

لا يفـلح المغتال والظلـوم والبغى مرعى نبته وخيم
فمضجع الظالم بئس المضجع ومصرع الباغى فبئس المصرع
ان القصاص واقع بالمثـل والدهر يجزى بيسير الفعل

وفى هذا القانون عدة مقاصـد : المقصد الأول الحق العام « للفرنساوية » • الثانى : كيفية تدبير المملكة : الثالث فى منصب ديوان « البير » • الرابع : فى منصب « ديوان رسل العمالات » الذين هم أمنـاء الرعايا ونوابهم • الخامس : فى منصب الوزراء • السادس : فى طبقات القضاء وحكمهـم • السـابع : فى حقوق الرعية • قال صاحب الشرطة المذكورة :

الكلام على حق الفرنساوية المنصوب لهم

المادة الأولى : سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة •

المادة الثانية : يعطون من أموالهم بغير امتياز شيئا معينا لبيت المال ، كل انسان على حسب ثروته •

المادة الثالثة : كل واحد منهم متأهل لأخذ اى منصب كان وأى رتبة كانت •

المادة الرابعة : ذات كل واحد منهم يستقل بها ، ويضمن له

حريتها ، فلا يتعرض له انسان الا ببعض حقوق مذكورة فى الشريعة، وبالصورة المعينة التى يطلبه بها الحاكم ٠

المادة الخامسة : كل انسان موجود فى بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يحب لا يشاركه أحد فى ذلك ، بل يعان على ذلك ويمنع من يتعرض له فى عبادته ٠

المادة السادسة: يشترط أن تكون الدولة على المله (القاثوليقية) الحوارية الرومانية ٠

المادة السابعة : تعمير كنائس (القاثوليقية) وغيرهم من النصرانية يدفع له شيء من بيت مال النصرانية ولا يخرج منه شيء لتعمير معابد غير هذا الدين ٠

المادة الثامنة : لا يمنع انسان فى فرنسا أن يظهر رأيه وأن يكتبه ، ويطبعه بشرط أن لا يضر ما فى القانون فاذا ضر أزيل ٠

المادة التاسعة : سائر الأملاك والأراضى حرم ، فلا يتعدى أحد على ملك آخر ٠

المادة العاشرة : للدولة دون غيرها أن تكره انسانا على شراء عقاره لسبب عام النفع ، بشرط أن تدفع ثمن المثل قبل الاستيلاء ٠

المادة الحادية عشرة : جميع ما مضى قبل هذا القانون من الآراء والفتن يجب نسيانه ، وكذلك ما وقع من المحكمة وأهل البلد ٠

المادة الثانية عشرة : أخذ العساكر يرتب وينقص عما كان عليه وقد يعين بقانون معلوم وضع عساكر فى البر والبحر ٠

كيفية تدبير المملكة الفرنساوية

المادة الثالثة عشرة : ذات الملك محترمة ووزراؤه هم الكفلاء فى كل ما يقع ، يعنى هم الذين يطالبون ، ويحكم عليهم ، ولا يمكن أن يمضى حكم الا اذا أنفذه أمر الملك ٠

المادة الرابعة عشرة : الملك هو أعظم أهل الدولة فهو الذى يأمر وينهى فى عساكر البر والبحر وهو الذى يعقد الحرب والصلح والمعاهدة والتجارة بين ملته وغيرها ، وهو الذى يولى المناصب الأصلية ، ويجدد بعض قوانين وسياسات ، ويأمر بما يلزم ، ويمضيه اذا كان فيه منفعة للدولة ٠

المادة الخامسة عشرة : تدبير أمور المعاملات بفعل الملك وديوان « البير » و « وديوان رسل العمالات » ٠

المادة السادسة عشرة : يقرر الملك وحده جزاء القوانين ، ويأمر باعلانها واظهارها ٠

المادة السابعة عشرة : يبعث القانون بأمر الملك الى ديوان « البير » أولا ، ثم الى ديوان رسل العمالات الا قانون الجبايات والفردة ، فانه يبعث أولا الى ديوان رسل العمالات ٠

المادة الثامنة عشرة : تنفذ الدولة القانون اذا رضى به جمهور كل من الديوانين ٠

المادة التاسعة عشرة : لأحد الديوانين أن يلتمس من الملك اظهار قانون فى أمر كذا ، وأن يبين له فائدة وضع ذلك القانون ٠

المادة العشرون : يصنع هذا القانون بأحد الديوانين فى مجلس سرى ، وما صنعه أحد الديوانين واستقر رأيه عليه يبعثه للديوان الآخر بعد التفكر عشرة أيام ٠

المادة الحادية والعشرون : اذا رضى الديوان الآخر بالقانون فانه يصوغ عرضه على الملك فاذا طرحه الديوان الآخر لا يمكن عرضه له أى لذلك الديوان مدة اجتماعه فى هذه السنة ٠

الثانية والعشرون : الملك وحده هو الذى يأذن بالقانون ويظهره للرعية ٠

الثالثة والعشرون : ماهية الملك محدودة له مدة توليته على كيفية واحدة لا تزيد ولا تنقص عن القدر المعين له عند توليه من مجلس ديوان « البير » يعني ديوان المشورة الأولى .

الرابعة والعشرون : ديوان « البير » هو جزء ذاتي لتشريع القوانين التدبيرية .

الخامسة والعشرون : يجتمع هذا الديوان ويفتح مدة أشهر بأمر الملك في زمن واحد مع انفتاح ديوان رسل العمالات فيفتحان معا في يوم واحد ويغلقان كذلك .

السادسة والعشرون : لو اجتمع ديوان (١) « البير » قبل انفتاح ديوان رسل العمالات أو قبل اذن ملك فرنسا كان سائر الترتيب الصادر من هذا المجلس مدة الاجتماع ممنوع الامضاء وملغيا .

السابعة والعشرون : تسمية الشخص « بير فرانسا » هو حق الملك وعدد أهل ديوان « البير » غير محدود وللملك أن يلقب « البير » بأي لقب كان ، وله أن يجعل ذلك اللقب له مدة حياته ، وأن يجعله متوارثا لذريته .

الثامنة والعشرين : يمكن أن يدخل « البير » في الديوان وهو ابن خمس وعشرين سنة ، ولا يبدي رأيه في المشورة الا بعد بلوغه في السن ثلاثين سنة .

التاسعة والعشرون : رئيس ديوان « البير » هو قاضي قضاة فرنسا مهردار ملكها أي وزير خاتم ملكها ، فان اعتذر خلفه من أهل الديوان من يعينه الملك لذلك .

---

(١) مجلس الأعيان .

الثلاثون : أقارب الملك وذراريه يكون لهم الدخول فى مرتبة «البيرية» بمجرد ولادتهم ، ويجلس كل منهم بعد رئيس ذلك الديوان، ولا يكون لهم كلمة ورأى فى المجلس الا بعد بلوغهم فى السن خمسا وعشرين سنة ٠

الحادية والثلاثون : لا يمكن لاحد من أهل مجلس « البير » أن يدخل فى ذلك الديوان عند انفتاحه الا باذن من الملك بأن يبعث رسولا فان فعلوا غير ذلك كان ما فعل بحضرتهم لاغيا ٠

الثانية والثلاثون : كل آراء ديوان « البير » يجب كتمها عن غيرهـم ٠

الثالثة والثلاثون : ديوان الملك هو الذى يستقل بالقضاء على الخيانة فى الدولة ونحوها من كل ما يضر الدولة مما هو مقرر فى القـوانين ٠

الرابعة والثلاثون : لا يمكن أن يقبض أحد على واحد من أهل ديوان « البير » الا بأمر ذلك الديوان ، ولا يمكن أن يحكم عليه غيرهم فى مواد الجنايات ٠

ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية

الخامسة والثلاثون : ديوان رسل العمالات مؤلف من جملة رسل ينتخبهم المنتخبون (بكسر الخاء) الذين يقل لهم « اللكتور » (بكسر اللام المشددة ا وسكون الكف) وترتيبها مصنوع بقوانين مخصـوصة ٠

السادسة والثلاثون : كل العمالات تبقى على ما هى عليه قبل هذه الشرطة من عدد مالها من الرسل ٠

السابعة والثلاثون : من الآن فصاعدا تختار الرسل لتمكث سبع سنوات لا خمسة ، كما كانت ٠

الثامنة والثلاثون : لا يصلح الانسان للدخول فى ديوان الرسل الا اذا بلغ أربعين سنة ، وكان له أملاك يدفع عليها ألف فرنك فـردة .

التاسعة والثلاثون : لابد أن يجمع فى كل عمالة خمسون ألف نفس موجود فيهم شرطا السن والملك المذكوران ، ليختار الرسل منها ، فان لم يكمل ممن يدفعون ألف فرنك خمسون وجب تكميلها ممن (١) لهم أملاك يدفعون عليها دون ألف فرنك ، ثم اختيار الرسل من جملة الخمسين .

الأربعون : شرط « اللكتور » أى المنتخب للرسل أن يكون له ملك يدفع فردته ثلثمائة فرنك ، وأن يكون قد بلغ من العمر ثلاثين سـنة .

الحادية والأربعون : رؤساء مجلس المنتخبين ينصبهم الملك ، فيدخلون فى أهل هذا المجلس .

الثانية والأربعون : يجب أن يكون نصف رسل العمالات، فصاعدا مستوطنا عادة فى تلك العمالة .

الثالثة والأربعون : رئيس ديوان رسل العمالات ينصبه الملك ويختاره من خمسة رسل يعرضهم ذلك الديوان .

الرابعة والأربعون : مجالس هذا الديوان تكون جهرية الا اذا أراد خمسة من رسل العمالات كتم شىء ، فانه يجوز اخراج الناس الأجانب من الديوان .

الخامسة والأربعون : الديوان ينقسم الى دواوين صغيرة تسمى

---

(١) فى المطبوعة : « مما » .

« البورو » يعنى مكاتب ، فأهل هذه « البورو » تمتحن الأشياء التى يستحسنها الملك ويبعثها لها ٠

السادسة والأربعون : لا يقع تصليح شيء في آداب سياسات فرانسا ، ولا يمضى الا اذا رضى به الملك وبحث فيه في تلك الدواوين الصغيرة ٠

السابعة والأربعون : ديوان رسل العمالات يتلقى تقارير طلب الفرد ، والمكوس ولا تصل الى ديوان « البير » الا اذا رضى بها ذلك الديوان ٠

الثامنة والأربعون : لا يمكن أن ينفذ أمر الملك فى الفرد الا اذا رضى به الديوانان وأقره الملك ٠

التاسعة والأربعون : فردة العقار لا تقطع الا سنة فسنة ، ويمكن قطع غيرها لأجل معلوم ٠

الخمسون : على الملك أن يأمر بفتح الديوانين كل سنة ولكن متى أراد ، وله أن يبطل ديوان رسل العمالات ، بشرط أن يصنع ديوان رسل جديدا ، وأن لا يزيد فى تجديد الآخر عن ثلاثة أشـــهر ٠

الحادية والخمسون : لا يمكن أن يقبض أحد على انسان من أهل مجلس رسل العمالات مدة فتح الديوان ، وشهرا ونصفا قبل فتحه ، وشهرا ونصفا بعده ٠

الثانية والخمسون : لا يمكن أن يقبض على أحد من أعضاء الديوان بسبب مادة من مواد العقوبات ، مادام الديوان مفتوحا ، ومادام اجتماع الديوان ، الا اذا بغت وهو متلبس بالخطيئة أو أذن الديوان يأخذه ٠

الثالثة والخمسون : عرض الحال الذى يعرض على أحد الديوانين لا يقبل الا اذا كان مكتوبا ، وآداب السياسة الفرنساوية لا تجوز أن يقدم الانسان تقريرا بنفسه فى المجلس .

الــــوزراء

المادة الرابعة الخمسون : يجوز أن يكون الوزير من أهل كل من الديوانين ، وله زيادة على ذلك حق الحضور فى أحدهما ، ومتى طلب أن يتكلم فى الديوان وجب أن يصغى الى كلامه .

الخامسة والخمسون : يسوغ لديوان رسل العمالات أن يتهم الوزراء ، فتسمع دعواه في ديوان « البير » ليحكم بينهم ذلك الديوان فيفصل خصومتهم .

السادسة والخمسون : لا يتهم الوزير الا بخيانة فى التدبير بالرشوة أو باختلاس الأموال ، فيحكم عليه على حسب ما هو مسطر فى القوانين المخصوصة .

طائفة القضــاة

المادة السابعة والخمسون : الحكم حق الملك ، يعتبر كأنه صادر منه ، فيحكم القضاة المنصبون من الملك الذين لهم ماهية من بيت المال ، ويبتون الحكم باسم الملك .

الثامنة والخمسون : اذا ولى الملك قاضيا وجب أبقاؤه ولا يجوز عزله

التاسعة والخمسون : القضاة المنصبون وقت هذه الشرطــة لا يمكن عزلهم ولو تجدد قانون آخر .

الستون : اقامة قضاة المعاملات لا يمكن ابطالها أبدا .

الحادية والستون : اقامة قضاة المصالحة تبقى أيضا ولكن قاضى المصالحة يجوز عزله ، وان كان منصبه يأتى له من الملك

الثانية والستون : لا شيء يخرج عن حكم هؤلاء القضاة ٠

الثالثة والستون : لا يسوغ بسبب ما تقدم تجديد محاكم أو مجالس زائدة الا بجمع قضاة النقباء الذين يقال لهم « بربوتال » اذا احتاج الأمر الى ذلك ٠

الرابعة والستون : اقامة الدعوى والتشاجر بين الخصوم قدام الحاكم الشرعى تكون على رؤوس الأشهاد فى مواد العقوبات ، الا اذا كان الذنب مضرا اشهاره بين العامة أو مخلا بالحياء ، فان أهل المحكمة يخبرون الناس بأن هذا الأمر يقع سرا ٠

الخامسة والستون : اقامة (ص ٧٩) الجماعة المحكمين المسماة « جورية الجنايات » لا تبطل أبدا ، واذا لزم تغيير بعض شيء فى مواد القضاة لا يمكن الا اذا كان بقانون من الديوانين ٠

السادسة والستون : قانون معاقبة الانسان بالاستيلاء على ما تملكه يده قد أبطل بالكلية ، ولا يمكن تجديده أبدا ٠

السابعة والستون : للملك أن يعفو عن الانسان ، وأن يخفف مواد العقوبات ٠

الثامنة والستون : كتب قوانين السياسات التى عليها العمل الغير المناقضة لما فى هذا الشرطة لا ينسخ حكم ما فيها الا اذا تغير بقانون آخر ٠

حقوق الناس التى يضمنها الديوان

المادة التاسعة والستون : كل أهل العسكرية سوى أصحاب خدمة دائمة أو متروكين لوقت الحاجة ، وكل النساء المتوفى عنهن آزواجهن وهم فى العسكرية يبقى لهم مدة حياتهم وظيفتهم ودرجتهم وخروجهم ٠

السبعون : ديون الرعية التى فى ذمة الديوان هى مضمونة على حسب اصطلاح الدولة مع أرباب الديون ٠

المادة الحادية والسبعون : لم يفضل لأهل الشرف القديم من درجات الشرف الا الاسم فقط ، وكذلك لأرباب الشرف الجديد ، ثم لملك فرانسا أن يعطى درجة الشرف الفرنساوى لأى انسان شاء ولكن ليس له أن يخص من يعطيه ذلك برفع الفرد ونحوها عنه ، فليس للشرف مزية غير التسمية ٠

الثانية والسبعون : من له علامة التميين المسماة درجة « الشوالية » يعنى الفارس فى فنه فان له أن يحفظها على الصورة التى يعينها ملك فرنسا لهذه الدرجة ٠

الثالثة والسبعون : القبائل والنزلات الخارجة من فرنسا لتعمير بلاد أخرى ، وللاستيطان بها ، تكون مدبرة بقوانين وسياسات أخرى ٠

الرابعة والسبعون : على كل ملك من ملوك فرنسا أن يحلف عند تولية المملكة الفرنساوية ألا يحيد عن هذه الشرطة ٠

ثم ان هذه الشرطة قد حصل فيها تغيير وتبديل من منذ الفتنة الأخيرة الحاصلة فى سنة احدى وثلاثين وثمانمائة وألف ، بتاريخ الميلاد ، فراجعها فى باب قيامة الفرنساوية وطلبهم للحرية والمساواة انتهى ، فاذا تأملت رأيت أغلب مافى هذه الشرطة نفيسا ، وعلى كل حال فأمره نافذ عند الفرنساوية ، ولنذكر هنا بعض ملاحظات فنقول :

قوله فى المادة الأولى: سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة، معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى اجراء الأحكام المذكورة فى القانون حتى ان الدعوى الشرعية

تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر الى هذه المادة الأولى فانها لها تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم ، وارضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظرا الى اجراء الأحكام .

ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية ، وتقدمهم فى الآداب الحضرية .

وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف وذلك ، لأن معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوى فى الأحكام والقوانين ، بحيث لا يجور الحاكم على انسان ، بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة ، فهذه البلاد حرية بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل أقطارها

وفيها توالى الصفا والوفا

وبالجملة اذا وجد العدل فى قطر من الأقطار فهو نسبى اضافى لا عدل كلى حقيقى فانه لا وجود له الآن فى بلدة من البلدان ، فهو كالايمان الكامل ، والحلال الصرف ، وأمثال ذلك ونظائره ، فلا معنى لحصر المستحيل فى الغول والعنقاء والخل الوفى ، كما هو مذكور فى قوله :

لما رأيت بنى الزمان وما بهم خل وفى للشدائد اصطفى

أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والنقاء والخل الوفى

ومع أن ذلك ممنوع فى العنقاء ، فانها نوع من الطيور ، موجود الأفراد ، يذكر عند أرباب علم الحشائش . وذكر الثعلبى فى قصص الأنبياء قضية العنقاء مع سيدنا سليمان فى تكذيبها بالقدر ، نعم لا وجود للعنقاء بالمعنى المشهور عند العامة من العرب

والافرنج : من أنها من أعلاها عقاب ومن أسلفها أسد ، وعلى كل حال فلها فى الجملة وجود ٠

وأما المادة الثانية فانها محض سياسية ، ويمكن أن يقال : ان (الفــرد) ونحوها لو كانت مرتبـــة فى بلاد الاســـلام كما هى فى تلك البـــلاد لطابت النفس ، خصـــوصا اذا كانت الزكوات والفىء والغنيمة لاتفى بحاجة بيت المال ، أو كانت ممنوعة بالكلية وربما كان لها أصل فى الشريعـــة على بعض أقوال مذهب الامام الأعظم ٠ ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء : « الخراج عمود الملك » ٠

ومدة اقامتى بباريس لم أســـمع أحـدا يشكو من المكوس و (الفرد) والجبايات أبدا ، ولا يتأثرون ، بحيث انها تؤخذ بكيفية لاتضر المعطى ، وتنفع بيت ما لهم ، خصوصا وأصحاب الأموال فى أمان الظلم والرشوة ٠

وأما المادة الثالثة فلا ضرر فيها أبدا ، بل من مزاياها أنهـــا تحمل كل انسان على تعهد تعلمه ، حتى يقرب من منصب أعلى من منصبه ، وبهذا كثرت معارفهم ، ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة مثل أهل الصين والهند ، ممن يعتبر توارث الصـــنائع والحرف ، ويبقى للشخص دائما حرفة أبيه ٠

وقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر فى سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فان شريعة قدماء القبطة كانت تعين لكل انســـــان صنعته ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده قيل سبب ذلك أن جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العـــادة من مقتضيات الأحوال ، لأنها تعين كثيرا على بلوغ درجـــة الكمال فى الصـــنائع ، لأن الابن يحسن عادة ما رأى أباه يفعله عدة مرات بحضرته ، ولا يكون له طمع فى غيره ، فهذه العادة كانت تقطع عرق

الطمع ، وتجعل كل انســـان راضيا صنعته ، لايتمنى أعلى منها ، بل لايبحث الا عن اختراع أمور جديدة نافعة لحرفته توصـــل الى كمالها انتهى ·

ويرد عليه أنه ليس فى كل انسان قابلية لتعلم صنعة أبيه ، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائبـــا فى هذه الصنعة ، والحال أنه لو اشتغل بغيرها لصلح حاله ، وبلغ آماله ·

وأما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فانها نافعة لأهل البلاد والغرباء · فلذلك كثر أهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء · وأما المادة الثامنة فانها .تقوى كل انسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله ، مما لا يضر غيره ، فيعلم الانســـان سائر ما فى نفس صاحبه خصوصا الورقات اليوميـــة المســماة « بالجورنالات » و « الكازيطات » الأولى جمع (جرنال) والثانيـــة جمع (كازيطة) فان الانسان يعرف منها ســـائر الأخبار المتجددة ، سواء كانت داخليـــة أو خارجية ، أى داخل المملكة أو خارجها ، وان كان قد يوجـــد فيهـــا من الكذب مالا يحصى ، الا أنهـــا قد تتضمن أخبارا تتشوق نفس الانســان الى العلم بها ، على أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق ، أو تنبيهات مفيـــدة أو نصائح نافعة ، سواء كانت صـــادرة من الجليـــل أو الحقير ، لأنه قد يخطر ببال الحقير مالا يخطر ببال العظيم ، كما قال بعضهم: لاتحتقر الرأى الجليل ، يأتيك به الرجل الحقير فان الدرة لاتستهان، لهوان غواصها ، وقال الشاعر :

لما سمعت به سمعت بواحد	ورأيتـــه فاذا هو الثقلان
فوجدت كل الصيد في جوف الفرا	ولقيت كل الناس فى انسان

ومن فوائدها : أن الانسان اذا فعل فعلا عظيما ، أو رديئا ، وكان من الأمور المهمة كتبه أهل (الجورنال) ليكون معلوما للخاص

والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، وردع صـــاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان ، كتب مظلمته فى هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص والعام ، فيعرف قصـــة المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ، ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر

وأما المادة التاسعة فانها عين العدل والانصاف ، وهى واجبة لضبط جور الأقوياء على الضعاف · وتعقيبها بما فى العاشرة من باب اللياقة الظاهرة ، وفى المادة الخامسة عشرة نكتة لطيفة ، وهى : أن تدبير أمر المعاملات لثــلاثة مراتب ، المرتبـــة الأولى : الملك مع وزرائه ،والثانية : مرتبة « البيرية » المحاميـــة للملك ، والثالثة : مرتبة رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية والمحامون عنهم ، حتى لاتظلم من أحد ، وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ، ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها · وعلى كل حال فهى مانعة للظلم عن نفسها بنفسها ، وهى آمنة منه بالكلية ، ولا يخفى عليك حكمة باقى المواد ·

خلاصة حقوق الفرنساوية الآن بعد سنة ١٨٣١
من الميلاد وتصليح الشرطة

حقوق الفرنساوية الواجبة لهم والواجبة عليهم
(مضمون الشرطة بعد التغيير)

الفرنســــاوية مستوون فى الأحكام على اختلافهم فى العظم والمنصب والشرف والغنى ، فان هذه مزايا لا نفع لها الا فى الاجتماع الانسانى والتحضر فقط ، لا فى الشريعة فلذلك كان جميعهم يقبل فى المناصب العسكرية والبلدية ، كما أنه يعين الدولة من ماله على قدر حاله ٠

وقد ضمنت الشريعة لكل انسان التمتع بحريته الشخصية ، حتى لايمكن القبض على انسان الا فى الصــورة المذكورة فى كتب الأحكام ، ومن قبض على انسان فى صورة غير منصوصة فى الأحكام يعاقب عقوبة شديدة ٠

ومن الأشياء التى ترتبت على الحرية عند الفرنساوية أن كل انسان يتبع دينه الذى يختاره يكون تحت حماية الدولة ويعاقب من تعرض لعابد فى عبادته ٠

ولا يجوز وقف شىء على الكنائس أو اهداء شىء لها الا باذن صريح من الدولة ٠

وكل فرنساوى له أن يبدى رأيه فى مادة السياسات ، أو فى مادة الأديان ، بشرط أن لايخل بالانتظام المذكور فى كتب الأحكام ٠

كل الأملاك على الاطلاق حرم لاتهتك ، فلا يكره انسان أبدا على اعطاء ملكه الا لمصلحة عامة ، بشرط أخذه قبل التخلية قيمته ، والمحكمة هى التى تحكم بذلك •

كل انسان عليه أن يعين فى حفظ المملكة العسكرية بشخصه، بمعنى أنه كل سنة يجمع أولاد احدى وعشرين سنة لتضرب القرعة ، لأخذ العساكر السنوية منهم ، ومدة الخدمة العسكرية ثمان سنوات، وكل فرنساوى عمره ثمان عشرة سنة ، وله حقوقه البلدية يمكنه أن يتطوع ويدخل العسكرية •

ويعافى من العسكرية عدة أناس : الأول : من طوله دون متر وخمسة وسبعين (سنتيمترا) يعنى أربعة اقدام وعشرة برامق (١) : الثانى : أصحاب العلل : الثالث الابن أكبر الاخوة الأيتام من أبيهم وأمهم : الرابع • الابن البكرى أو المنفرد أو ابن الابن الاكبر أو المنفرد عند فقده اذا كانت الام والجدة لازوج لها أو كان أبوه أعمى أو سنه سبعين سنة : الخامس : البكرى أحد الأخوين اللذين وقعا فى قرعة لمة واحدة • السادس : الأخ الذى أخوه باق تحت البيرق أو مات فى الخدمة أو جرح فى الحرب ، ولو أراد انسان أن ينوب عنه غيره فان المنوب عنه يضمن النائب سنة من خوف الهرب ، الا اذا كان الهارب قبض عليه فى السنة أو مات تحت بيرق الفرنساوية ، وفى أحد وعشرين فى شهر (دقمبر) (٢) من كل سنة كل العساكر التى تمت خدمتهم يؤذن لهم بالعود الى محلهم •

ولما كان لايمكن لكل انسان أن يدخل بنفسه فى عمل الدولة ، وكلت الرعية بتمامها عنها فى ذلك أربعمائة وثلاثين وكيلا تبعثها

(١) اصابع •

(٢) هكذا فى المطبوعة ولعله : ديسمبر •

الى باريس فى المشورة : وهؤلاء الوكلاء تختارهم الرعية وتوكلهم بأن يمانعوا عن حقها ، ويصنعوا ما فيه مصلحة لها ، وذلك أن كل فرنساوى مستكمل للشروط التى منها أن يكون عمره خمسا وعشرين سنة ، له أن يكون ممن له مدخل فى انتخاب رسل عمالاته ٠

وكل فرنساوى له أن يكون رسولا اذا كان عمره ثلاثين سنة ، وكان موصوفا بالشروط المذكورة فى كتاب الأحكام ٠

وفى كل مأمورية مجمع اختبار وانتخاب ، ومجامع انتخاب للأقاليم الصغيرة : ومجامع المأموريات الكبيرة مؤلفـــة من المنتخبين الكبار ، وتعين ١٧٢ رسولا ، ومجامع انتخـــاب الأقاليم الصغيرة تعين ٢٥٨ رسولا ، ودفاتر أرباب الانتخاب تطبع وتكتب فى الطرق شهرا قبل فتح مجامع الانتخاب حتى انه يمكن لكل انسان أن يكتب اعلاما به ، وكل منتخب (بكسر الخاء) يكتب رأيه سرا فى ورقة ويعطيها للرئيس مطوية والرئيس يضعها فى اناء القرعة ٠

وديوان رسل العمالات يتجدد أهله بالكلية كل خمس سنوات، ولايمكن أخذ الفرد الا بخلاصة من مشورة الديوانين ، مقررة من طرف الملك ، ويمكن لأهل البلدان أن يراســـلوا أهل الديوانين بطرق (العرضحال) ليشتكوا من شيء ويعرضوا شيئا نافعا ٠

القضاة لاينعزلون فلا يحكم على انسان الا بقضاة محـــل استيطانه ٠ والدعاوى تقام جهرا ، وذنوب الجنايات لا يحكم فيها الا بحضرة جماعة يسمون « الجوريين (١) » والعقوبة بالقبض على الأموال بطلت ٠

للملك أن يعفو عن المعاقب وأن يخفف العقاب الشديد — على

---

(١) يسمون المحلفين والكلمة فرنسية الأصل Jurés

الملك وورثته أن يحلفوا عند ارتفاء الكرسى بأن يعملوا بما فى كتاب قوانين المملكة .

ثم انه يطول علينا ذكر الأحكام الشرعية أو القانونيـــــة المنصوبة عند الفرنساوية ، فلنقل : ان أحكامهـم القانونية ليست مستنبطة من الكتب (ص ٨٥) السماوية ، وانما هى مأخوذة من قوانين أخر غالبها سياسى ، وهى مخالفة بالكلية للشرائع وليست قارة الفروع ، ويقال لها : الحقوق الفرنســـاوية ، أى حقوق الفرنساوية بعضـــهم على بعض ، وذلك لأن الحقوق عند الافرنج مختلفة ، ثم ان بباريس عدة محاكم وفى كل محكمة قاض كبير كأنه قاضى القضاة وحوله رؤساء وأرباب مشورة ، ووكلاء الخصوم ، ومحامون للخصوم ونواب عن المحامين ، وموقع الوقائع .

(شــعر)

مـــن ادعى أن له حاجـــة ... تخـــرجه عن منهج الشرع
فلا تـكونن له صاحبـــا ... فانه ضر بـــلا نفـــع

الفصل الرابع

[فى عادة سكنى أهل باريس وما يتبع ذلك]

من المعلوم أن البلدة أو المدينة تبلغ من الحضـــارة على قدر معرفتها ، وبعدها عن حالة الخشونة والتوحش ، والبلاد الافرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التى لاينكر انســـان أنها تجلب الأنس وتزين العمران • وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممتازة بين الأمم الافرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف ، فهى أعظـــم أدبا وعمرانا والبنادر أولى فى العمارات عادة من القرى والضـــياع • والمدن العظمى أولى من سائر البنادر وتحت المملكة أولى من سائر ما عداها من مدن تلك المملكة فحينئذ لا عجب أن قيل : ان باريس التى هى قاعدة ملك الفرنسيس من أعظم بــلاد الافرنج بنـــــاء ، وعمارة ، وان كانت عماراتها غير جيدة المادة فهى جيدة الهندســة والصناعة ، على أنه ربما يقال أيضا : ان مادتها جيدة الا أنهـــا ناقصة ، لعدم كثرة حجر الرخام فيها ، ولخلوها عن بعض أشياء أخر — كيف لا ؟ وأساس حيطانها من أحجـــار النحاتة ، وكذلك الحيطان الخارجية ، وأما الداخلية فانها تتخذ من الخشب الجيد فى الغالب ، وأما عواميدها فهى غالبا من النحاس ، فقل أن كانت من الرخام ، كما أن تبليط الأرض يتخذ من حجر البلاط ، وقد يكون من الرخام الأسود مع البلاط ، وذلك أن الطرق دائما مبلطة بحجر البلاط المربع ، والحيشان مبلطة بالبلاط المذكور ، والقيعان بالآجر

أو بالخشب ، أو بالمرمر الأسود مع البلاط المشغول ، وجودة الحجر أو الخشب تختلف باختلاف يسار الانسان ٠

ثم ان حيطان الغرفات والأرض من خشب كما تقدم ، وهم يطلونه يطلونه بالطلاء ، ثم يسترون الحيطان بورق منقوش نقشا نظيفا ، فهو أحسن من عادة تبييض الحيطان بالجير ، فان الورق لايعود منه شيء على من مس الجدار ، بخلاف الجير ، بل وهو أهون مصرفا وأعظم منظرا وأسهل فعلا خصوصا فى (أوضاتهم) المزينة بأنواع من الأمتعة التى لايمكن الافصاح عنها ٠ غاية ما يقال : ان الفرنساوية يحاولون اضعاف نور (الأوض) بوضع الستائر الملونة، خصوصا الخضراء ، وأرض أوضـــهم مبلطة بخشب أو بنوع من القرميـد الأحمر ، ويحكون أرض (الأوضـــة) كل يـوم بالشمع الأصفر ، المسمى عندهم شمع الحك ، وعندهم حكاكون بالأجــرة معدون لذلك بالخصوص ، وتحت أسرتهم ، المكسوة بالمخيشـــات وبالمشجرات وغيرها ، سجادات عظيمة يطؤونها بالنعال ، وفى كل (أوضة) مدخنة للنار ، وهى على شكل صفة القلل مرخمة بجيد الرخام ، وفوقها ساعة « بشتختة » (١) وحول الساعة من الجهتين آنية من تقليد الرخام الأبيض ، أو من البلور ، فيها أزهار أو تقليد ازهار ، وحول هذا من الجهتين القناديل الافرنجية الدولابية التى لايدرك صورتها حقيقية الا من رآها موقودة،وفى غالب (أوضهم) آلات الموسيقى المسماة « البيانو » (بكسر الباء وضم النـــون) ، فاذا كانت (الأوضة) أوضة شغل وقراءة ففيها طاولة مشتملة على آلات الكتابة وغيرها ، مثل سكاكين قطع الورق المصنوعة من العاج أو البقس (٢) أو غيرهما ٠ وأغلب (الأوض) مشحونة بالصور ،

(١) نوع من المناضد الصغيرة ذات الأدراج ٠

(٢) اسم لنوع من الأشجار ٠

خصوصا صور الأقارب • وفى (أوضة) الشغل أيضا قد توجد صور « عجيبة » وأشـــياء من غرائب ما كان عنـــد القدماء على اختلافهم •

وربما رأيت على طاولة الشغل أوراق الوقائع على اختـلاف أجناسها ، وربما رأيت كذلك في (أوض) الأكابر (النجفات) العظيمة التي توقد بشموع العسل ، وربمـــا رأيت أيضـــا فى (أوضهم) فى يوم تلقى الناس طـــاولة وعليهـــا جميع الكتب المستجدة والوقائع وغيرها لتسلية من أراد من الضيوف أن يسرح ناظره ، وينزه خاطره في قراءة هذه الأشياء ، وهذا يدل على كثرة اهتمام الفرنساوية بقراءة الكتب ، فهى أنسهم •

ومن التوقيعات اللطيفة : الكتاب وعاء ملء علمـا ، وظرف حشى ظرفا ، ومن لك بروضة تقلب فى حجر وبستان يحمل فى كم ، وما أحسن قول بعضهم شعرا :

دفترى مؤنسى وفكرى سميرى	ويدى خادمى ، وحلمى ضجيعى
ولسانى سيفى، وبطشىقريضى	ودواتى عيشى ، ودرجى ربيعى

وقال آخر :

لنا جلســـاء ما يمل حديثهم	ألباء مأمونون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم مامضى	وعقلا وتأديبـــا ورأيا مسددا
فان قلت أموات فما أنت كاذب	وان قلت أحيـاء فلست مفندا

ومن كلام بعضهم : نعم المحدث الدفتر • ومن كلام بعض الظرفاء : ما رأيت باكيا أحسن تبســـما من القلم • ثم ان جميع هذه التحف يكمل الأنس بها بحضور سيدة البيت أى زوجة صاحبه التى تحيى الضيوف أصـــالة ، وزوجها يحييهم بالتبعية ، فأين هذه (الأوض) بما احتوت عليه من اللطائف من (أوضنا) التى

يحيا فيها الانسان باعطاء شبق (١) الدخان من يد خادم فى الغالب قبيح اللون ·

وأما السقوف فانها من الخشب النفيس ، ثم ان البيت فى العادة مصنوع من أربع طبقات ، بعضها فوق بعض ما عدا البناء الأرضى فلا يحسب دورا وقد يصل الى سبعة أدوار ، وغيرها تحت الأرض من المخادع التى تستعمل أيضا لربط الخيل ، أو المطبخ وذخائر البيت ، وخصوصا النبيذ والخشب للوقود ·

ثم ان البيت عندهم كما فى بيوت القاهرة ، مشتمل على عدة مساكن مستقلة ففى كل دور من أدوار البيت جملة مساكن ، وكل مسكن متنافذ (الأوضات) · وقد جرت عادتهم بتقسيم البيوت الى ثلاث مراتب · المرتبة الأولى : بيت عادى · والثانية : بيت لأحد من الكبار · والثالثة : بيوت الملك وأقاربه ودواوين المشورة ونحوها ، فالأول يسمى : بيتا ، والثانى يسمى : دارا ، والثالث يسمى : قصرا أو (سراية) ·

ويمكن أيضا تقسيم البيوت من حيثية أخرى الى ثلاث مراتب أيضا : المرتبة الأولى : البيوت التى لها حاجب ، ولها باب كبير يسع دخول العربة منه ، والثانية : البيوت التى داخلها دهاليز ولها بواب ، ولايمكن أن تدخل العربة من بابها ، والثالثة البيوت التى لا بواب لها ، أى لا مكان للبواب فيها يسكن فيه ، ووظيفة البواب فى باريس أن ينتظر الساكن الى نصف الليل ، فاذا أراد الساكن أن يسهر فى المدينة زيادة عن الليل ، فعليه أن ينبه البواب لينتظره ، ولكن لابد أن يعطيه بعض شىء ، وليس على الحارات بواب أصلا ، وليس لها أبواب كما فى مصر ·

---

(١) الشبق : أنبوبة مجوفة من عود خشبى يثبت فى أحد طرفيها الحجر الذى يوضع فيه التبغ وكانت تستعمل للتدخين فى ذلك العصر ·

ثم ان العقارات بباريس غالية الثمن والكراء ، حتى ان الدار العظيمة قد يبلغ ثمنها مليون فرنك ، يعنى نحو ثلاثة ملايين قروشا مصرية ، ثم ان كراء المساكن فى باريس قد يكون لمجرد المسكن ، وقد يستأجرها الانسان بفراشها العظيم وجميع أثاثها وآلاتها .

وآلات البيت عند الفرنسيس هى آلات الطباخة والمآكل بأجمعها ، بطقمها المشتمل على الفضيات ونحوها ، وآلة الفراش للنوم ، وهو فى الغالب عدة طراحات احداها من الريش ، وملاية فرشه تتغير كل شهر ، وحرامات الغطاء ، ثم آلات التجمل ، وتلقى الزوار ، وهى الكراسى المكسوة بالحرير ونحوه والشزلانات (١) المكسوة كذلك ، والكراسى العادية والآلات العظيمة المنظر ، كالساعات الكبيرة المسماة عندهم : « بندول » وكأوانى الأزهار العظيمة ، وغيرها من أوانى القهوة المموهة بالذهب وكالنجفة المعلقة التى تتقد بالشموع المكررة ، وكخزانة الكتب التى لها باب من (القزاز) يظهر منه ما فيها من الكتب جيدة التجليد ، وكل انسان له خزنة كتب سواء الغنى أو الفقير حيث ان سائر العامة يكتبون ويقرءون .

والغالب أن الرجل ينام فى (أوضة) غير التى تنام فيها زوجته ، اذا تقادم الزواج .

ومن العوائد التى لا بأس بها أن قصر ملك فرنسا وقصور أقاربه تنفتح حين خروج السلطان وأقاربه كل سنة الى الاقامة فى الخلاء مدة أشهر ، فيدخل سائر الناس للفرجة على بيت الملك وأقاربه ، فيرون أثاث البيت وسائر الأشياء الغريبة ، ولكن لايدخل أحد الا بورقة مطبوعة مكتوب فيها الاذن بدخول شخص أو شخصين أو أكثر ، وهذه الورقة توجد عند كثير من الناس فاذا طلبها الانسان

---

(١) التى يسمى واحدها بالشازلون . أى الكراسى الطوال .

ممن يعرفه أعطاها له ، فترى في البيت ازدحاما عظيما للفرجة على جميع ما فى حريم الملك وأقاربه ، وقد دخلت ذلك عدة مرات فرأيته من الأمور العجيبة التى ينبغى التفرج عليها ، وفيه كثير من الصور التى لاتمتاز عن الناس الا بعدم النطق ، وفيه مصور كثير من ملوك فرنسا وغيرهم ، وكل أقارب السلطنة وكل الأشياء الغريبة ، وأغلب الأشياء الموجودة فى حريم السلطنة مستحسنة من جملة جودة صناعتها لانفاستها بالمادة مثلا سائر الفراش كالكراسي والأسرة حتى كراسى المملكة مشغولة شغلا عظيما بالقصب المخيش، ومطلية بالذهب الا أنه لايوجد بها كثير من الأحجار الكريمة كما يوجد ببلادنا ببيوت الأمراء الكبار بكثرة ، فمبني أمور الفرنساوية في جميع أمورهم على التجمل لا على الزينة واظهار الغنى والتفاخر ٠

ثم سائر الأغنياء « بباريس » يسكنون في الشتاء في نفس المدينة وقد أسلفنا فى ذكر طبيعة اقليم « باريس » أن كل بيت به مداخن تتقد فيها النيران فى القيعان (والأود) وأما في مدة الحر ، فمن له يسار سكن فى الخلاء ، لأن القصور بالخلاء أسلم هواء من داخل المدينة ، ومن الناس من يسافر فى بعض بلاد فرنسا أو ما جاورها من البلاد ، ليستنشق رائحة البلاد الغريبة ، ويطلع على البلاد ، ويعرف عوائد أهلها ٠ خصوصا فى مدة من السنة تسمى عندهم مدة التعطيل ، أو مدة الفراغ ، يعنى البطالة ، حتى النساء فانهن يسافرن وحدهن ، أو مع رجل يتفق معهن على السفر ، وينفقن عليه مدة سفره معهن ، لأن النساء أيضا متولعات بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها ، أو ليس أنه قد يأتى منهن من بلاد الافرنج الى مصر ، ليرى غرائبها من الأهرام والبرابى (١) وغيرها ، فهن كالرجال فى جميع الأمور ٠ نعم قد

---

(١) المسلات ٠

يوجد منهن بعض نساء غنيات مستورات الحال يمكن من أنفسهن الأجنبى ، وهن غير متزوجات فيشعرون بالحمل ، ويخشين الفضيحة بين الناس ، فيظهرن السفر لمجرد السياحة أو لمقصد آخر ليلدن ، ويضعن المولود عند مرضع بأجرة خاصة ليتربى فى البلاد الغريبة ، ومع هذا الأمر فليس بشائع ، وبالجملة « ما كل بارقة تجـــود بمائها » ففى نساء الفرنساوية ذوات العرض ، ومنهن من هى بضد ذلك ، وهو الأغلب لاستيلاء فن العشق فى فرنسا على قلوب غالب الناس ذكورا واناثا وعشقهم معلل ، لأنهم لايصدقون بأنه يكون لغير ذلك الا أنه قد يقع بين الشاب والشابة فيعقبه الزواج •

ومما يمدح به الفرنساوية نظافة بيوتهن من سائر الأوساخ ، وان كانت بالنسبة لبيوت أهـل الفلمنـك كلا شىء فان أهل الفلمنك أشـد جميـع الأمم نظافـة ظاهريـة كما أن أهـل مصر فى قـديم الزمان كانوا أيضا أعظم أهل الدنيا نظافة ، ولم يقلدهم ذراريهم وهم القبطة فى ذلك •

وكما أن باريس نظيفة فهى خلية أيضا من السميات ، بل ومن الحشرات فلا يسمع بأن انسانا فيها لدغته عقـــرب أبدا ، وتعهد الفرنساوية تنظيف بيوتهم وملابسهم أمر عجيب ، وبيوتهم دائما مفرحة بسبب كثرة شبابيكها الموضوعة بالهندسة وضـــعا عظيما يجلب النور والهواء داخل البيوت وخارجها وظرفات (٢) الشبابيك دائما من (القزاز) حتى اذا أغلقت فان النور لايحجب أصـــلا ، وفوقها دائما الستائر : للغنى والفقير ، كما أن ستائر الفرش التى هى نوع من الناموسية غالبة لسائر أهل باريس •

---

(٢) يريد ما يسمى الضرفة : المصراع •

الفصل الخامس

[فى أغذية أهل باريس وفى عاداتهم فى المآكل والمشارب]

اعلم أن قوت أهل المدينة هو الحنطة ، وهى فى الغالب صغيرة الحبوب ، الا اذا كانت منقولة من البلاد الغريبة فيطحنونها فى طواحين الهواء والماء ، ويخبزونها عند الفران فيباع الخبز فى دكانه ، وسائر الناس لها مرتب يومى تشتريه من الخباز ، وعلة ذلك توفير الزمان والاقتصاد فيه لأن سائر الناس مشغولون فى أشغال خاصة ، فصناعة العيش فى البيوت تشغلهم ٠

ثم ان المحتسب يأمر الخبازين أن يكون عندهم كل يوم من العيش ما يكفى المدينة وفى الحقيقة لايمكن فقد العيش أبدا بمدينه باريس بل ولا فقد غيره من أمور الأغذية ٠

وأدم أهل هذه المدينة اللحوم والبقول والخضراوات والألبان والبيض وغيرها ، والغالب تعدد الأطعمة ولو عند الفقراء ٠ ثم ان المذابح عندهم تكون بأطراف المدينة لاداخلها ، وحكمة ذلك أمران دفع الوخم ، ودفع أضرار البهائم اذا انفلتت ٠ وكيفية الذبح تختلف عندهم ، فأما ذبح الضأن فانه أهون من ذبح غيره ، فانهم ينفذون السكين وراء زوره يعنى بين زوره ورقبته ، ثم يقطعونه بعكس ما نفعل ٠ وأما ذبح العجول فانه مثله ٠ وأما الثيران فيضربونها بمقامع من حديد فى وسط رأسها فيدوخ من عظم الخبط ، ثم

يكررون ذلك عدة مرات ، فيقطع الثور النفس مع بقاء الحركة ، ثم يذبحونـه كما تقـدم من ذبـح الضـأن ، ولقـد بعثت خادمـا لى مصريا الى المذبح ليذبح ما اشترى منه كما هو عادتى ، فلما رأى معاملة الثيران بمثل ذلك الأمر البشع جاء يستجير ويحمد الله تعالى حيث لم يجعله ثورا فى بـلاد الافرنج ، والا لذاق العذاب كالثيران التى رآها ! والعجـول والثيران تكون من البقر اذ لا وجـود للجواميس بهذه البلاد الا للفرجة .

وأما ذبح الطيور فانه على أنواع مختلفة : فمنهم من يصنع فيها كالغنم ، ومنهم من يقطع لسان الطائر ، ومنهم من يخنقه بفتلة خيط ، ومنهم من يذبحه من قفاه الى غير ذلك .

وأما الأرانب فانها لاتذبح أبدا ، بل تخنق ليحقن فيها دمها .

وأما ذبح الخنازير فلم أره لأن له مذبحا مخصوصا ، والظاهر أنهم يصنعون بها كالعجول ، ثم من الأمور التى بها راحة للنـاس بمدينة « باريس » محـال الأكل المسماة « الرسـطراطور » أى « اللوكنجة » (١) ، فانها مستوفية لما يجده الانسان فى بيته بل أعظم ، وقد يجد الانسان ما يطلبه حاضرا ، وفى هذه «الرسطراطور» غرف لطيفة متعددة مستوفية لآلات البيوت ، وربما يوجد فيها محال للنوم مفروشة بأعظم الفراش ، وكما يوجد فى « الرسطراطور » أنواع المآكل والمشارب يوجد فيها أنواع الفواكه والنقل .

وعادة الفرنسـاوية الأكل فى طبـاق كالطباق العجميـة أو الصينية ، لا فى آنية النحاس أبدا ، ويضعون على (السفرة) دائما قدام كل انسان شوكة وسكينا وملعقة ، والشوكة والملعقة من

---

(١) يريد (اللوكاندة) : الفندق .

الفضة ، ويرون أن من النظافة (أو الشلبنــــة) (٢) أن لايمس الانسان الشيء بيده ، وكل انسان له طبق قدامه ، بل وكل طعام له طبق ، وقدام الانسان قدح ليصب فيه ما يشربه من (قزازة) عظيمة موضوعة على (السفرة) ثم يشرب فلا يتعدى أحد على قدح الآخر ٠

وأوانى الشرب دائما من البلور والزجــــاج ، وعلى السفرة عدة أوان صغيرة من الزجاج أحدها فيه ملح ، والآخر فيه فلفل ، وفى الثالث خردل الى آخره ٠

وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيباتها عظيمة جدا ، وابتداء المائدة عندهم (الشوربة) واختتامها الحلويات والفواكه ، والغالب فى الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء ، وفى الغـــالب ، خصوصا لأكابر الناس ، أن يشرب من النبيذ قدر لايحصـــــل به سكر أصلا فان السكر عندهم من العيوب والرذائل ، وبعد تمـــام الطعام ربما شربوا شيئا يسيرا من العرقى ، ثم انهـــم مع شربهم من هذه الخمور لا يتغزلون بهـــا كثيرا فى أشــــعارهم ، وليس لهـم أســماء كثيرة تـدل على الخمرة كما عند العرب أصـــلا ، فهم يتلذذون بالذات والصفات ، ولا يتخيلون فى ذلك معانى ولا تشبيهات ولا مبالغات ، نعم عندهم كتب مخصوصة متعلقة بالسكارى ، وهى هزليات فى مدح الخمرة ، لاتدخل فى الأدبيات الصحيحة فى شىء أصـــلا ٠

ويكثر فى « باريس » شرب الشاى عقب الطعام ، لأنهم يقولون انه هاضم للطعام ، ومنهم من يشرب القهوة مع السكر ، وفى عوائد أغلب الناس أن يفتتو الخبز فى القهوة المخلوطة باللبن ، ويتعاطوها فى الصباح ـ واذا أردت بعض شىء يتعلق بالمأكل والمشرب فراجع فصل المآكل والمشارب فى ترجمتنا « كتاب قلائد المفاخر » ـ ٠

---

(٢) التظرف ٠

ثم ان الغالب أن ما يقطعه أهل هذه المدينة من المآكل والمشارب كل سنة يكون هذا تقريبـــه ، فمن الخبز ما تزيـد قيمتـــه على خمســة وثلاثين مليونا من الفرنكات ، وتأكل من اللحــوم نحـــو واحد وثمانين الف ثور ، وأربعمائة وثلاثين ثورا ، ومن البقر نحو ثلاثة عشرة الف بقرة ، ومن الضان أربعمائة وسبعين الف كبش ، ومن الخنازير الوحشية والأهلية نحو مائة الف خنزير ، ومن السمن بنحـــو عشرة ملايين مـن الفرنـكات ، ومـن البيض بنحـــو خمسة آلاف فرنك ٠

ومن غرائب الأشياء أن فيها التحيل على عدم عفونة الأشـياء التى من شأنها العفونة ، فمن ذلك ادخار اللبن بكيفية خاصـــة خمس سنين من غير تغير ، وادخار اللحــم طريا عشر ســـنوات ، وادخار الفواكه لوجودها فى غير أوانها ٠ ومع كثرة تفننهـــم فى الأطعمة والفطورات ونحوها ، فطعامهم على الاطلاق عديم اللذة ، ولا حلاوة صادقة فى فواكه هذه المدينة الا فى الخوخ ٠

وأما خماراتها فانها لاتحصى ، فما من حارة الا وهى مشحونة بهذه الخمارات ، ولا يجتمع فيها الا اراذل الناس وحرافيشهم مع نسائهم ، ويكثرون الصياح وهم خارجون منها بقولهم ما معناه : الشراب ، الشراب ! ومع ذلك فلا يقع منهـــم فى ســـــكرهم أضرار أصلا ٠

وقد اتفق لى ذات يوم وأنا مار فى طريق فى « باريس » أن سكران صاح قائلا : ياتركى ، ياتركى ، وقبض بثيابى ، وكنت قريبا من دكان يباع فيه السكر ونحوه ، فدخلت معه ، وأجلسته على كرسى ، وقلت لرب الحـانوت على سـبيل المـزح هـل تريد أن

تعطينى بثمن هذا الرجل سكرا أو نقلا ؟ فقال صاحب الحانوت : ليس هنا مثل بلادكم ، يجوز التصرف فى النوع الانسانى ! فما كان جوابى له الا أننى قلت : ان هذا الشخص السكران ليس فى هذا الحال من قبيل الآدميين · وهذا كله والرجل جالس على الكرسى ، ولا يشعر بشىء ، ثم تركته بهذا المحل وذهبت ·

الفصل السادس

[فى ملابس الفرنسيس]

من المعروف عندنا أن غطاء رأس الافرنج (البرنيطة) ، وأن نعالهم فى الأكثر الصرم السوداء ، و (التاسومات) : وأن لباسهم فى الغالب هو الجوخ الأسود ، وأما الفرنساوية فانها فى الغالب أيضا على هذا الملبس الا أنهم لا يلزمون ملبسا خاصـــا ، بل كل انسان يلبس باختياره ما تأذن له العادة بلبسه ، والغالب أن لبسهم ليس له زينة ، وانما هو فى غاية النظافة • ومن العوائد العظيمة : انتشار لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم ، فان الموسر يغير فى الأســـبوع عدة مرات ، وبهذا يستعينون على قطع عرق (الواغش) (١) فلذلك كان لا أثر للقمل ونحوه الا عند من اشتد به الفقر •

وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة ، خصوصا اذا تزين بأغلى ما عليهن ، ولكن ليس لهن كثير من الحلى فان حليهن هو الحلق المذهب فى آذانهن ، ونوع من الأســـاور الذهب يلبسنه فى أيديهن خـــارج الأكمـــام ، وعقد خفيف فى أجيادهن ، وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبدا ، ولبسهن فى العـــادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو (الشيت) أو (البفت) الخفيف ،

---

(١) يريد : الحشرات •

ولهن فى البرد شريط فروة فيضعنه على رقابهن ، ويرخين طرفيه كالمآزر ، حتى يصل بطرفيه الى قرب القدمين ٠

ومن عوائدهن أن يحتز من بحزام رفيع فوق أثوابهن ، حتى يظهر الخصر نحيفا ويبرز الردف كثيفا ٠ ومما أنشده الحاجرى فى ديوانه ، وان كان فيه خروج قوله :

ومزنر ياليتنى أستاذه كيما أفوز بضمة من خصره
القس يسقيه شبيهة خده والمسلمون بأسرهم فى أسره
فوحقه لولا رشاقة قده مارق اسلامى لشدة كفره

ومن العجائب أنه يمكن الانسان أن يضع فى الخصروقت الحزام يديه فترى لدقته ٠

ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيبا من صفيح من البطن الى آخر الصدر ، حتى يكون قوامهن دائما معتدلا لا اعوجاج به، ولهن كثير من الحيل ٠

ومن خصالهن التى لايمكن للانسان أن لايستحسنها منهن عدم ارخائهن الشعور ، كعادة نساء العرب ، فان الفرنسيس يجمعن الشعور فى وسط رؤوسهن ، ويضعن فيه دائما مشطا ونحوه ٠ ومن عوائدهن فى أيام الحر كشف الأشياء الظاهرية من البدن ، فيكشفن من الرأس الى ما فوق الثدى ، حتى انه يمكن أن يظهر ظهرهن ، وفى ليالى الرقص يخلعن عن أذرعتهن ٠ وبالجملة فلا يعد ذلك من الأمور المخلة عند أهل هذه البلاد ، ولكن لايمكن لهن أبدا كشف شيء من الرجلين ، بل هن دائما لابسات للشرابات ، الساترة للساقين ، خصوصا فى الخروج الى الطرق ، وفى الحقيقة سيقانهن غير عظيمة أصلا ، فلا يصلح لهن قول الشاعر :

لم أنسه اذ قام يكشف عامدا عن ساقه كاللؤلؤ البراق
لاتعجبوا ان قام فيه قيامتى ان القيامة يوم كشف الساق

وملابس الحزن عند الفرنسيس هى علامة حزن تلبس مدة معلومة ، ولها محل معلوم فالرجل يضع علامة الحزن فى (برنيطته) مدة معلومة ، والمرأة فى ثيابها والولد على فقد أبيه أو أمه يلبس علامة الحزن ستة أشـــهر وعلى فقد الجدة أربعـــة أشهر ونصفها والزوجة على فقد الزوج سنة وستة أسابيع ، وعلى فقـــد الزوجة ستة أشهر ، وعلى فقد الأخ أو الأخت شهرين ، وعلى فقد الخال ، والخالة ، والعم ، والعمة ثلاثة أسابيع ، وعلى فقـــد أولاد الأعمام والعمات والأخوال والخالات أسبوعين ٠

ثم ان ما يباع فى باريس من الجوخ كل سنة بنحو مليون من الفرنكات تقريبا ، ومن الحريـــر بثلاثة ملايين من الفرنكات ، ومن الفراوى بمليون من الفرنكات ، ولعـــل السبب فى ذلك هو أن الفراوى تشترى من خصوص باريس ، لأهل باريس ٠

ومن المتداول عند الفرنساوية استعمال الشعور العارية لنحو الأقرع وردىء الشعر ، بل قد يستعملونهـــا فى اللحى والشارب للتقليد ، وقد شاعت عندهم تلك العادة من زمن « لويز الرابع عشر» ملك فرانسا ، حيث ان هذا الملك كان يلبســـها ، ولا يخلعهـــا من رأســـه أصـــلا الا عنـــد النوم ، ولازالت الى الآن مستعملة ، لكن للأقرع أو ردىء الشعر ، ومن الغريب أنها تستعمل الآن فى مصر بين نساء القاهرة ٠

الفصل السابع

[فى منتزهات مدينة باريس]

اعلم أن هؤلاء الخلق حيث انهم بعد أشغالهم المعتادة المعاشية لا شغل لهم بأمور الطاعات ، فانهم يقضون حياتهم فى الأمور الدنيوية ، واللهو ، واللعب ، ويتفننون فى ذلك تفننا عجيبا .

فمن مجالس الملاهى عندهم محال تسمى « التياتر » (١) (بكسر التاء المشددة ، وسكون التاء الثانية) ، « والسبكتاكل »(٢) وهى يلعب فيها تقليد سائر ما وقع ، وفى الحقيقة أن هذه الألعاب هى جد فى صورة هزل ، فان الانسان يأخذ منها عبرا عجيبة ، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ، ومدح الأولى ، وذم الثانية ، حتى ان الفرنساوية يقولون : انها تؤدب أخلاق الانسان وتهذبها ، فهى وان كانت مشتملة على المضحكات ، فكم فيها من المبكيات . ومن المكتوب على الستارة التى ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاطينية ما معناه باللغة العربية : « قد تصلح العوائد باللعب » .

وصورة هذه « التياترات » أنها بيوت عظيمة لها قبة عظيمة ، وفيها عدة أدوار كل دور له (أود) موضوعة حول القبة من داخله .

(١) Le Théatre.

(٢) Le spectacle

وفى جانب من البيت مقعد متسع يطل عليه من سائر هذه (الأود) بحيث أن سائر ما يقع فيه يراه من هو فى داخـــل البيت ، وهو منور (بالنجفات) العظيمة ، وتحت ذلك المقعد محل للآلاتية ، وذلك المقعد يتصل بأروقة فيها سائر آلات اللعب ، وسائر ما يصنع من الأشياء التى تظهر ، وسائر النساء والرجال المعدة للعب ، ثم انهم يصنعون ذلك المقعد كما تقتضيه اللعبة ، فاذا أرادوا تقليد سلطان مثلا فى سائر ما وقع منه ، وضعوا ذلك المقعد على شكل (سراية) وصوروا ذاته ، وأنشدوا أشعاره ، وهلم جرا ومدة تجهيز المقعد يرخون الستارة لتمنع الحاضرين من النظر ، ثم يرفعونها ويبتدئون باللعب ، ثم ان النســاء اللاعبــات ، والرجال يشبهون العوالم فى مصر .

واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضـــل عظيم ، وفصاحة ، وربمـا كان لهؤلاء النـاس كثير من التآليف الأدبيـة والأشـعار ، ولو سمعت ما يحفظـه اللاعب من الأشـعار وما يبديـه من التــوريات فى اللعب ، وما يجـاوب بـه من التنكيت والتبكيت لتعجبت غاية العجب .

ومن العجائب أنهم فى اللعب يقولون مسائل من العلوم الغريبة والمسائل المشكلة ويتعمقون فى ذلك وقت اللعب ، حتى يظن أنهم من العلماء ، بل الأولاد الصغار التى تلعب ، تذكر شواهد عظيمة من علم الطبيعيـــات ونحـــوها ، ثم انهـــم يبتدئون اللعب بآلات الموسيقى (١) ، ثم يلعبون ما يريدون لعبه ، واللعبة التى تظهر تكتب فى ورقة وتلصق فى حيطان المدينة ، وتكتب فى التذاكر اليومية ليعرفها الخاص والعام وفى الليلة يلعبون اللعبات ، وبعد فراغ كل

---

(١) فى المطبوعة رسمت « الموسيقى » هكذا كلما ذكرت فى الكتاب .

لعبة ترخى الستارة ، فاذا أرادوا مثلا لعب شاه العجم ألبسوا لاعبا لبس ملك العجم ، وأحضروه واجلسوه على كرسي ، وهكذا •

وهذه (السبكتاكلات) يصورون فيها سائر ما يوجد ، حتي انهم قد يصورون فرق البحر لموسى عليه السلام ، فيصورون البحر ويجعلونه يتماوج حتى يشبه البحر شبها كليا ، وقد رأيت مرة في الليل أنهم ختموا (التياتر) بتصوير شمس وتسييرها ، وتنوير (التياتر) بها حتى غلب نور هذه الشمس على نور النجف ، حتى كأن الناس فى الصباح • ولهم أشياء أغرب من هذا ، وبالجملة (فالتياتر) عندهم كالمدرسة العامة ، يتعلم فيها العالم والجاهل •

وأعظم (السبكتاكلات) في مدينة باريس المسماة « الأوبرة » (بضم الهمزة وتشديد الباء المكسورة ، وفتح الراء) وفيها أعظم (الآلاتية) وأهل الرقص ، وفيها الغناء على الآلات والرقص باشارات كاشارات الأخرس ، تدل على أمور عجيبة ، ومنها (تياتر) تسمى : كوميك » فيغنى فيها الأشعار المفرحة •

وبها (تياتر) تسمى : « التياتر الطليانية » وبها أعظم (الآلاتية) ، وفيها تنشد الأشعار المنظومة باللغة الطليانية ، وهذه كلها من (السبكتاكلات) الكبيرة • وفى باريس « سبكتاكلات » أخرى وهى مثل تلك الا أنها صغيرة •

وهناك أيضا (سبكتاكلات) يلعبون فيها الخيل والفيلة ونحوها ، ومنها (التياتر) المسماة « تياتر فرنكونى » (بكسر الفاء وفتح الراء وسكون النون وضم الكاف وكسر النون الثانية) ، وفيها فيل مشهور بالألعاب الغريبة معلم تعليما عجيبا •

وكما أن أكبر (التياترات) « الأوبرة » فأصغرها (تياتر) تسمى : تياتر « الكمت » وهى معدة لنزاهة الصغار كالحاوى فى

مصر » والكمت » اســـم معلم هذه السبكتاكل (١) وكل اللاعبين
(ص ٩٧) واللاعبات صغار السن ، وهذه (التياتر) يوجد بها كثير
من (الشعبيثيات) و (السيم) (٢) ونحوهـا ، ولو لم تشـتمل
(التياتر) في فرانسا على كثير من النزعات الشيطانية لكانت تعد
من الفضائل العظيمة الفائدة ، فانظـــر الى اللاعبين بهـا فانهـــم
يحترزون ما أمكن عن الأمور التى يفتتن بها المخلة بالحياء ، ففرق
بعيد بينهم وبين عوالم مصر ، وأهل السماع ونحوهم ٠

ولا أعرف اسما عربيا يليق بمعنى (السبكتاكل) أو (التياتر)
غير أن لفظ (سبكتاكل) معناه منظر أو منتزه أو نحو ذلك ٠ ولفظ
(تياتر) معناه الأصلى كذلك ، ثم سمى بها اللعب ومحله ، ويقرب
أن يكون نظيرها أهل اللعب المسمى خياليا ، بل الخيالى نوع منها ٠

وتشتهر عند الترك باسم (كمديه) وهذا الاسم قاصر الا أن
يتوسع فيه ، ولا مانع أن تترجم لفظه (تياتر) أو (سبكتاكل)
بلفظة خيالى ، ويتوسع فى معنى هذه الكلمة ، ويقرب من تصوير
(السبكتاكل) أو هو منها مواضع ، يصور فيها للانســـان منظر
بلد أو أراض أو نحو ذلك ، فمن ذلك (بانورمه) (٣) وهو محل
تنظر فيه فترى المدينة التى تريد تصويرها ، ففى صورة مصر ترى
كأنك على منارة السلطان حسن مثلا والرميلة تحتك ، وباقى المدينة،
ومنها (كسمورمه (٤)) ، وفيه صورة بلدة ثم أخرى وهكذا ٠
ومنه (ديورمه (٥)) وفيه صورة دار ، ومنها (أورانورمه (٦))

---

(١) Spectacles.

(٢) هي « الشمبثيات : يريد بها ألوان الشعوذة ، ويريد بالسيم : ما يشبه خيال الظل ٠

(٣) Panorama

(٤) Cosmorama.

(٥) Diorama (٦) Uranorama.

وفيه صورة الفلك الأعظم ،وسائر ما يحتوى عليه مصورا على مذهب الافرنج ، فالمتفرج فيه يمكنه أن يطالع علم الفلك ، ومنها (أوروبرمه (٧)) وفيه صورة بلاد الافرنج ٠

ومن المنتزهات محال الرقص المسماة « البال » وفيه الغناء والرقص ، وقل ان دخلت ليلا فى بيت من بيوت الأكابر الا وسمعت به الموسيقى والمغنى ، ولقد مكثنا مدة لا نفهم لغنائهم معنى أصلا ، لعدم معرفتنا بلسانهم ، ولله در من قال فى مثل هذا الأمر :

ولم أفهم معانيها ، ولكن شجت كبدى، فلم أجهل شجاها
فكنت كأننى أعمى معنى يحب الغانيات ولا يراها

(البال) قسمان : (بال) عام ، ويدخله سائر الناس ، (كالبال) فى القهاوى والبساتين ، (وبال) خاص ، وهو أن يدعو الانسان جماعة للرقص والغناء والنزهة ونحو ذلك ، كالفرح فى مصر ، (والبال) دائما مشتمل على الرجال والنساء ، وفيه وقدات عظيمة ، وكراسى للجلوس ٠

والغالب أن الجلوس للنساء ولا يجلس أحد من الرجال الا اذا اكتفت النساء ، واذا دخلت امرأة على أهل المجلس ، ولم يكن ثم كرسى خال قام لها رجل وأجلسها ، ولا تقوم لها امرأة لتجلسها ، فالأنثى دائما فى المجالس معظمة أكثر من الرجل ، ثم ان الانسان اذا دخل بيت صاحبه فانه يجب عليه أن يحيى صاحبة البيت قبل صاحبه ، ولو كبر مقامه ما أمكن ، فدرجته بعد زوجته أو نساء البيت ٠

---

(١) L'europeorama.

ومن المتنزهات جمعية الناس ، كضمة (١) مصر ، الا أن فيها دائما آلات الموسيقى والغناء والرقص ، وبين كل نوبة من الموسيقى والغناء يقسم على الحاضرين بعض مطعومات ومشروبات خفيفة ٠ وبالجملة فالموسيقى بالأصالة ، والشراب الخفيف بالتبعية هما حظ هذه المجالس ، كما قال الشاعر :

هل العيش الا ماء كرم مصفق(٢)
ترقرقه فى الكأس ماء غمام
وعود « بنان » حين ساعد شدوه
على نغم الأوتار ناى « زنام » (٣)

وقد قلنا ان الرقص عندهم فن من الفنون ، وقد أشار اليه المسعودى فى تاريخه المسمى : « مروج الذهب » فهو نظير المصارعة فى موازنة الأعضاء ودفع قوى بعضها الى بعض ، فليس كل قوى يعرف المصارعة ، بل قد يغلبه ضعيف البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم ، وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء ٠ وظهر أن الرقص والمصارعة مرجعهما شىء واحد يعرف بالتأمل ، ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة لا من الفسق ، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء ، بخلاف الرقص فى أرض مصر فانه من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات ، وأما فى باريس فانه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدا ٠ وكل انسان يعزم امرأة يرقص معها ، فاذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية ، وهكذا ، وسواء كان يعرفها أو لا ، وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص معهن ، ولا يكفيهن واحد

(١) الضمة : جماعة يسيرون حول العريس ليلة العرس يغنون ويصفقون ٠
(٢) المصفق : الشراب المحول من اناء الى آخر ليصفو ٠
(٣) بنان وزنام : موسيقيان ، والشعر للبحترى فى الخليفة المتوكل ٠

ولا اثنـــان • بل يحببن رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسآمة أنفسهن من التعلق بشيء واحد ، كما قال الشاعر :

أيـا مـن ليس يرضيها خليل ولا ألفا خليـــل كل عـام
أراك بقية من قوم موسى فهم لايصبرون على طعام

وقد يقـع في الرقص رقصـــة مخصوص بأن يرقص الانسان ويـده في خـاصرة من ترقص معـه ، وأغلب الأوقـات يمســكها بيده • وبالجملة فمس المرأة أياماً كانت في الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى • وكلما حسن خطـــاب الرجل مع النساء ، ومدحهن عد هذا من الأدب • وصاحبة البيت تحيي أهل المجلس •

ومن النزه : المواسم العامة التى تصنع فى الصيف ، ومبناها على الرقص والآلات ، وتسييب البارود ، ونحو ذلك •

ومن المواسم العامة عندهم أيام تسمى أيام (الكرنوال) ، وتسمى عند قبطة مصر أيام الرفاع (١) ، وهى عدة أيام يرخص لسائر الناس فيها سائر التقليدات والتشكلات ، فيتشكل الرجل بشكل امرأة ، والمرأة فى صورة رجل ، ويتراءى (الخواجة) فى صورة راع ونحو ذلك • وبالجملة فيباح سائر مالا يضر براحـــة المملكة وانتظامها •

ويقول الفرنساوية ان هذه الأيام أيام جنون ، ويدور بهذه البلدة فحل أسمن فحول فرنســــا ، فى موكب عظيم مدة أيـام الزفر (٢) الثلاثة ، ثم يذبحونه ويعطون لصاحبه (بخشيشا) فى نظير تسمينه له حتى يسمن سائر الناس عجولهم •

---

(١) الأيام السابقة للصيام •
(٢) أكل لحم الطيور ، كما يسمى فى بعض بلاد مصر الى اليوم •

ومن منتزهات باريس الحدائق العظيمه العامة • ففي باريس نحو أربعة بساتين كبرى يتماشى فيها العام والخاص ، فمنها حديقه (التولرى) (١) التى بها قصر الملك ، وهى من أعظم المنتزهات ، يدخلها المتجملون من الناس ، ويحجز الأسافل من دخولها فكأنها مصداق قول بعض الظرفاء :

لو كنت أملك للرياض صيانة   يوما لما وصل اللئام ترابها

ومنها حديقة تسمى « الشمزليزه » (٢) ، ومعناه بالعربية : رياض الجنـــة ، وهى من أرق المنتزهات وأنضرها ، وهى بستان عظيم يبلغ أربعين « اربانا » ، و « الاربان » هو قياس يقرب من الفدان • ومع أن طول طريقها نحو ألف قامة فانها موضوعة بحيث انك اذا مددت نظرك رأيت طرفها الثانى قدام عينيك • وفى هذه الروضة العظيمة دائما شىء من الملاهى لايمكن حصره • وسائر أشجار هذا البستان متصافة ، متوازية بعضها مع بعض ، رتبت بحيث انه يوجد مدخل من كل الجهات ، فهو على سمت الخطوط المستقيمة من سائر الجهات • وفى وسط كل جملة من الأشجار يوجد محل مربع ، وهذه الحديقة يتصل أحد جوانبها بنهر السين ، وبينها وبينه رصيف ، وبجانبها الآخر بيوت بأطـراف الخـلاء ، وفيها كثير من القهـاوى (الرسطواطـورات) (٣) ، يعنى بيـوت الأكل وفيهـا سائر أنواع الطعام والشراب ، وهى مجمع الأحباب والأكابر ، وبها كثير من المرامح للخيل ، ويدخل فيها الأكابر بالعربات المزينــة ، وفيها عدة آلاف من الكراسى بالأجرة ، يجلس عليها فى زمن الربيع نهارا وفى زمن الصيف ليلا ، وأعظم اجتماع الناس فيها يوم الأحد ، فانه يوم البطالة عند الفرنساوية • وبالجملة فهذه الحديقة محل

---

(١) Jardins des Tuileries.

(٢) Chemps-Elysées.

المواسم والأفرح العامة والزينات ، وبها تتماشى سائر النســاء الجميلات (١) ٠

ومن المتنزهات المحال المسماة « البلوار » ، وهى الأشجار المتصافة المتوازية ، وقد أسلفنا بيانها ، وهى محل يتماشى فيه سائر الناس ، فى سائر الأيام ، وفيه أعظم قهاوى باريس ، وتدور فيه الآلاتية المتنقلون بآلاتهم ، وفيه كثير من محال (التيانرات) ٠ وبه أيضا تدور النساء اللواتى يتعرفن بالرجال ، سيما بالليل ، فهو فى جميع الليالى ، وفى ليلة الاثنين ، يحوى كثيرا من الناس ، فترى فيه كل عاشق مع معشوقته ، ذراعه فى ذراعها الى نصف الليل ، ويصلح هنا قول الشاعر :

لا تلق الا بليــل من تواصله ... فالشمس نمامة والليل قوام
كم عاشق وظلام الليل يستره ... لاقى الأحبة والواشون رقاد

وقال آخــــر :

أيها الليل طر بغير جنــــاح ... ليس للعين راحة فى الصباح
كيف لا أبغض الصباح وفيه ... بان عنى أولو الوجــوه الملاح

ولا يمدح الليل الا من ترقب فيه وصال محبوبه ، وتفقد فيه نيل مطلوبة ، بخــلاف من كثر فيه حرقــه ، وزاد أرقه ، وطــال سهاده ، وطار رقاده ، فانه يهوى الصباح ، ليذهب همه ويرتاح ، قال الشاعر :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجــومه ... على صفحات الجوشدت بيذبل

---

(١) فى المطبوع : الجمالات ٠

وقال آخـر :

ليلى وليلى نفى نومى اختلافهما
بالطول والطول ، ياطوبى لو اعتدلا
يجود بالطول ليلى كلما بخلت
بالطول ليلى ، وان جادت به بخـلا

وقال س يشكو من الليل :

ياليل طـــل ، أو لاتطـــل لابـــد لى أن أســـهرك
لو كان عنـــدى قمـرى مابـت أرعى قمـــــرك

وقال آخر مثله :

ياليل طل ، ياشوق دم انى على الحالين صـــابر
لى فيك أجـــر مجـاهد ان صح أن الليل كافر

وهذا أيضا من باب الشكوى ٠

ومن المنتزهات أيضا سوق تبـــاع فيه الأزهـــار ، وفى هذا السوق تجد سائر الأشجار والنباتات والأزهار الغريبة النـــادرة ولو فى غير أوانها ، حتى ان الانسان يمكنه أن يجدد بستانا فى يوم واحد بأن يشترى سائر ما يحتاجه ، ثم يزرعه فى يوم ٠ وبالجملة فلا يمكن أن الانسان يتمتع بهذه المنتزهات الا بصحة البدن ٠

الفصـــل الثامن

[فى سياسة صحة الأبدان بمدينة باريس]

لما كان من ضروريات الحكمة الاعتناء بحفظ صحة الأبدان ، وكان الافرنج أحكم الأمم ، كثر اعتناؤهم بهذا الفن ، وبتكميل آلاته ووسائطه ، وكانوا أشد الناس مسارعة لما فيه نفع للبدن ، كالحمامات والمحام الباردة المياه ، وترييض الجسم وتعويده على الأمور الشاقة ، كالعوم ، وركوب الخيل ، والألعاب التى يخف بها البدن ٠

والحمامات فى باريس متنوعة ، وفى الحقيقة هى آنظف من حمامات مصر ، غير أن حمامات مصر أنفع منها وأتقن وأحسن فى الجملة ، وذلك أن الحمام فى مدينة باريس عدة خلوات ، فى كل خلوة مغطس من نحاس يسع الانسان فقط ٠ وفى بعض الخلوات مغطسان ، وليس عندهم مغطس عام كما فى مصر ، ولكن هذه العادة أسلم بالنسبة للعورة ، فانه لا طريقة أن يطلع انســـان على عورة آخر ، حتى ان الخلوة التى فيها مغطسان بين كل مغطس ستارة تمنع أن ينظر الانسان صاحبه ٠ وليس فى دخول الانســـان هذه المغاطس الصغير لذة كالدخول فى الحمـامات ،ولا يعرق الانسان بها أبـدا ، اذ الحرارة لاتوجد الا فى المغطس لا فى الخلوة أبدا وان كان يمكن أن يوصى الانسان على حمام بالبخار ، فانهم يصنعون له ذلك ولكن بثمن آخر غير الثمن المعتاد ٠

وفى الحمام صفان من الخلاوى : صف للرجـــال وصف للنساء ، وكما أنه يوجد حمامات مستقرة يوجد حمامات منقولة ، فاذا طلب الانسان حماما فى بيته ، أو كان مريضا ، أو نحو ذلك ، فانهم يحملون اليه فى عربة كالبرميل الماء البارد فى شقة ، والساخن فى أخرى ومعها محم ، فيوضع المحم فى بيت الانسان ، ويملأ من الماء المسخن ، فيغتسل الانسان منه ، ثم بعد فراغه يحملونه الى بيت الحمام ٠

ومن الحمامات حمام يضـــع فيــه الانسان بعض بدنه لبعض الأمراض ، فيسمى نصف حمـــام ، والحمــامات بباريس كثيرة ، وأشهرها ثلاثون حماما تقريبا ٠

ومن أمور الرياضات النافعة لصحة البدن مدارس يتعلم فيها علم السباحة ، وهى ثلاثة مكاتب على نهر السين ، ومنها مدارس لتخفيف البدن ، وجعله قابلا للأشـــياء العجيبة كالبهلوانيـــة ، والمصارعة ، ونحو ذلك ٠

الفصل التاسع

[فى الكلام على اعتناء باريس بالعلوم الطبية]

اعلم أن مدينة باريس هى أعظم مدن الافرنج التى يرحل اليها الغرباء ، لتعلم العلوم خصوصا العلوم الطبية ، وقد ينتقل اليها المرضى من بلاد بعيدة للبحث عن تداويهم فيها ، والعلوم الطبية التى تسمى أيضا علم الحكمة هى : علم الطب والجراحة والتشريح وفن (الفيسيولوجيا) (١) ومعرفة داء الانسان من حاله ، وسياسة الصحة لحفظها وتطبيب الحيوانات وغير ذلك ٠

والحكماء فى باريس كثيرون جدا ، حتى يوجد فى كل خط عدة حكماء ، بل الطرق مملوءة من الحكماء حتى ان الانسان اذا أصيب فى الطريق بداء فانه لابد أن يجد الحكيم حالا ، لكثرة الحكماء بهذه البلدة ٠

ووضع المرضى بالنسبة للأطباء مختلف ، فمن المرضى من يطلب الطبيب ليزوره عنده ، وللحكيم قدر معلوم على كل مرة يأتيها اليه ٠ ومن المرضى من يذهب الى الطبيب فى بيته ٠ وللطبيب ساعات معينة يمكث فيها قصدا فى بيته لتلقى الناس ٠ ومن المرضى من ينتقل مدة معينة فى بيت يسمى بيت الصحة ، معد لمن يدفع قدرا معينا فى نظير أكله وشربه وسكناه وتطبيب بدنه وخدمته ونحو ذلك ٠

---

(١) Physiologie.

وفى باريس بيوت حكماء معدة لمن ابتلى بخلل شىء من عظام البدن ، كالاحديداب فانه يدخل بيتا من هذه البيوت للتطبيب ، فيقومون بدنه بشىء من علم الحيل ، كما اذا كان انسان مقطوع أحد الأطراف ، فانهم يجبرون ذلك بأن يضعوا له من المعدن أو الخشب شيئا فى محله ٠

وفى هذه المدينة أيضا بيوت يدخل فيهــا النساء الحوامل المشرفات على الولادة ، لتلدن فيها وتقضين فيها مدة النفاس ٠ وفى هذه البيوت توجد القوابل وسائر ما يحتاج اليه فى الولادة ٠

ومن المواضع المعدة للمـرضى والتى يوجـد فيها الأطبـاء المارستانات العامة ، فتدخلها المرضى للعـلاج والاقامـة مدة المرض بلا عوض ٠

ثم ان الأطباء فى باريس فرقتان : احداهما أطباء عامة لمطلق الأمراض على تنويعها والأخرى لداءات خاصة ٠ وذلك أن علم الطب متسع جدا ، فقـل أن يشتغل انسان بسائر فروعـه ويحققها ، فاحتاج أطباء الفرنساوية الى أن الطبيب بعد أن يقرأ فروع العلوم الطبية ينبغى له أن يختار منها فنا ليصرف فيه همته ، ويتقوى فيه ويتبحر ، حتى يشتهر ويمتاز عن غيره من الأطباء بتحقيق ذلك الفن، حتى يجلب اليه من به داء يدخله شىء من ذلك الفن ، فلذلك يوجد فى باريس أطباء مثلا لخصوص مرض الرئة ، وأطباء لمرض العين تسمى : « الكحلاتية » وأطباء لأمراض الأذنين ، وأطباء لداء الأنف وتجبيره ، حتى ان من أطباء الأنف من يمكنه بالحيلة أن يرجع الأنف المجدوع صحيحا ٠

وفى باريس أطباء تستعمل جاذبية المغناطيس الانسانيـة ، للاستعانة على مداواة الانسان ٠ وتفصيل ذلك أن فى باريس جماعة من الطبائعية ، تزعم أنه ثبت عندهم أن بدن الانسان يشتمل على

مادة سيالية ، يعنى جاذبية المغناطيس الانسانيـة ، يعنى أن هذه المادة لها خاصية المغناطيس : وتحصل هذه بتقريب اليد عدة مرات، كالمسح ، فينعس الانسان ، أو تغيب حواسه ، حتى لا يحس بشىء ، فاذا غاب وكان مريضا بمرض شديد عالجه الحكماء بقطع شىء أو بفتح شىء من بدنه من غير أن يشعر بشىء أبدا،وقد جرب ذلك فى قطع ثدى امرأة ، بعد مغناطيسيتها ، فمكثت عدة أيام ثم ماتت ، فقال علماء المغناطيسية : انها ماتت بسبب آخر لا بألم القطع ، فانها عاشت بعده ، فالمغناطيسية نافعة لمعالجة الأمراض العصبية ٠

وفى باريس أيضـــا حكماء لخصوص مداواة خلل العقل . أو لألم أعضاء التناسل ، أو الحصوة ، ولخصوص الأمراض الجلدية المنفرة وغيرها ، كالجذام والجرب ٠

وفى باريس أيضا حكماء لتوليد النساء ، فان العادة أيضا فى باريس أن المرأة يولدها رجل حكيم عارف بأمور الولادة ٠

وبها حكماء لمعالجة البياضة التى تنزل بالعـين ، والماء الذى يعميها ٠ وبها حكماء لأوجاع الصدر وداء الفالج الذى هو شلل بعض الأعضاء ، فيداوونـه بعـلاج يسمى : « الاكمبكتور » (١) (بكسر الهمزة والكاف ، وسكون الميم ، وضم الباء ، وسكون الكاف ، وضم التاء) يعنى شكات دبابيس كثيرة دقيقة ، فيخرجون بذلك شيئا من الدم ، ينفع لتخفيف ضرر هذا الداء ٠ وبها حكماء لعلاج اختلال خلقة الانسان ، وهذا العلاج يسمى : « الأرتوبيدى » (٢) (بضم الهمزة ، وسكون الراء ، وضم التاء ، وكسر الباء ، وسكون الياء ، وفتح الدال) يعنى فن اصلاح خلل أعضاء الأطفال ٠ فمن الحكماء من يصلح خلل الفم أو الوجه ، ومنهم من يشتغل بتدبير الأعضاء الناقصة لسد خللها بأعضاء أخرى مدبرة ٠

---

(١) L'acuponcture.

(٢) L'orthopédie.

ثم ان فروع العلوم الطبية كثيرة ، فالمشهور منها فن التشريح، وفن تمييز أمراض الانسان من حال طبيعته ، وفن الكيمياء العقاقيرية ، وفن أسباب الأمراض الباطنية الطبية ، وعلم الجراحة الطبية ، ووضع العصابة على الجراح ، والتضميد بالمراهم ، وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلى بأمراض ظاهرية ، وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلى بأمراض باطنية ، وفن معالجة النفساء ، وتوليد الحامل ، وعلم الطبيعة التى تدخل الطب ، وعلم العقاقير والأدوية المفردة أو المركبة ، وصناعة المعالجة ومباشرة المريض .

ومدارس الحكمة بمدينة باريس منافعها شهيرة ، فمنها مدرسة كبيرة تسمى « أكدمة الحكمة السلطانية ، وهى ديوان الحكماء السلطانية وهى مجعوله لحاجة المملكة الفرنسيسية،ومباشرة الأمراض العامة الضرر ، كالأمراض الوبائية ، والأمراض التى يعتقد الفرنساوية أنها معدية ، وكمرض فصل البهائم .

ومن وظيفة علماء « أكدمة الحكمة » معالجة سائر الناس بماتجعله المملكة اموقوفا على النفع العام ، كاشهار تلقيح البقرى ، لاخراج الجدرى ، ومتحان الأدوية الجديدة ، والأدوية المكتومة ، وامتحان الأدوية المعدنية الأصلية أو المصطنعة ، لادخالها فى الأدوية . وبالجملة فأهل هذه الجمعية السلطانية أعظم الحكماء الفرنساوية .

ولنذكر هنا بعض ما يتعلق بمارستانات باريس فى فصل فعل الخير ، وقد أسلفنا بعض شىء من ذلك فى الفصل السابق .

ولنذكر لك نبذة من فن قانون الصحة ، وتدبير البدن ، حتى تتم فائدة هذه الرحلة . وهذه النبذة ترجمتها فى باريز لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها ، لصغر حجمها ، فهى وان كانت تخرجنا عما نحن بصدده ، الا أن منفعتها عظيمة ، وثمرتها جسيمة.

نصيحة الطبيب

المادة الأولى فى وصية صحاح البدن :

لاشك أن الأطباء معتبرون بين الناس لشدة نفعهم عندهم ، ومع ذلك فالأولى الاستغناء عنهم لأنهم رفقاء المرضى فلنحرص على حفظ أنفسنا من أسباب المرض ومن الاحتياج الى الطبية ٠

والدواء المجرب لمنع الاحتياج اليه هو اعتياد الكد والقناعة ولنذكر لك بعض أمور آخر :

الأول : لا تسكن دارا مماسة لمزرعة مرتفعة أو دارا غائرة فى الأرض يسيرا ، فان كلا هذين الوضعين يجعل الدار رطبة ومضرة للصحة فالعافية ولو كانت قوية تذهب فيهما على تداول الأيام ٠

ارفع أرض بيتك بعض قراريط ، برمل أو حصى ، أو طوب مسحوق ، أو ما أشبه ذلك ، وتجنب البناء فى أرض مماسة لأرض أعلى منها ٠ اجعل منافس الهواء الى الجنوب الشرقى أى اجعله بين الشرق والجنوب ، فان ذلك للصحة أسلم من جميع الأوضاع ٠

الثانى : الهواء المخزون يجلب الحمى المحرقة ، فوسع طاقاتك ليسهل فيها دخول الهواء والنور ، وافتحها فى غالب الأحيان لأن البرد للصحة أوفق من الحر،فأهل الجانب الشمالى حياتهم وصحتهم أبرك من أهل الجنوب والمريض يشفى فى غرفة مفتوحة لسائر الرياح ، وربما هلك لو كان بجانب الحرارة ٠

الثالث : بركة الماء الراكد اذا اشتد قربها من البيوت فانه يتصاعد منها أبخرة لا تناسب الصحة ، بل تؤذيها أو ربما قتلت ، وبسبب ذلك ترى بعض البلدان منتنا بالأوباء فاجتنب هذه الأشياء الجالبة للأمراض والأوجاع ٠

الرابع : السكر يرعى البدن ويحرقه ، ويسرع بالمشيب ، فنصيب من ينهمك على شرب الخمور وغيرها من المسكرات أن يصاب بداء الذبول وبقصر الأجل ٠

الخامس : من أسباب الأمراض اختلاف الزمن كتعاقب الحر والبرد ، ونزول المطر السريع أو نزوله باردا فى وسط الأيام الحارة ، فأولى ما يطرد هذه الأمراض أن تلبس أزيد مما يقتضيه الفصل ، فالبس أثواب الشتاء قبل فراغ الخريف ، ولا تعجل خلعها عند دخول الربيع ، واذا ابتل بدنك كله بماء بارد فاغتسل بالماء الفاتر ، فان لم يبتل الا عضو فقط فاغسله وحده ٠

السادس : احذر اذا اشتد حرك أن تمكث فى موضع بارد أو تشرب ماء شديد البرودة ، والا فالعرق ينحبس حالا ويتداخل فى الباطن ، ويتسبب عن ذلك داء الخناق وورم الصدر والقولنج (١) المحرق وغير ذلك ، فاذا نفذ القضاء وابتلى بأحدها ، فالواجب تداركه لعله يخف فأول ما تحس بمبادىء العلامات فضع القدمين فى ماء هين الحرارة ، وطر بالماء الفاتر ظاهر المتألم من الحلق أو الصدر أو البطن واحتقن بالماء الفاتر المخلوط بيسير اللبن وتعاطى(الشوربة) التى صورتها أن تأخذ قبضة من زهر « الخمان » وتضعها فى اناء خزف مع أوقية ونصف من جيد الخل ورش على الجميع قدح ماء مغلى وغط الاناء ودعها تبرد ، فمتى بردت هذه (الشوربة) فصفها بخرقة وذوب فيها أوقيتين من العسل ، فاذا فعلت ذلك فقد غنمت ما حرمت منه الطبيب من الدراهم ، فان ما تعطيه له منها ذاهب عن يدك ، وربما كان ذلك الطبيب لا يفيدك فى هذا الداء شيئا ٠

---

(١) القولنج : مرض معوى مولم يعسر معه خروج الثفل والريح ٠

المادة الثانية فى الدلالة على ما يصنع حين أخذ المرض فى الظهور :

اعلم أن كثيرا من الناس باعتناء فاسد يريد أن يداوى المرضى فيهلكهم ، فأول ما يبدو قليل من الحمى أو القىء فلا يجد أحسن من تعريق المريض فيضغطه تحت أغطيــة ثقيلة ، ويحجب عنه الهواء ويسقيه شوربة الخضراوات الحارة وربما سقاه خمرا حارا أو حلوا، فهل من الأصحاء من يستطيع حمل ذلك ؟ أو ليس أن هذا يمرض من ليس بمريض ؟ نعم ، قد يكون العــرق به الشـــفاء لكن حين تكون الأمراض قد صــــدرت عند انحباســـه أو بعد تقليـــل هذه أو ازالتها بكثرة تعاطى (الشوربات) وعلى كل حال فلابد من ادخال الهواء اللين فى موضع المريض : لما أن حاجة الانسان الى الهواء كحاجة السمك الى الماء ، و (الشوربات) الحادة تزيد الحرارة التى تهلك المريض وتحرقه وتيبسه ، والخمر هو سم حقيقى فى الحمى ، فعليك بخلاف ذلك من (الشوربات) الرطبة الباردة فانها تذيب الأخلاط المنفسدة وتسهل خروجها وتجفف الحرارة ، وتنظف المعدة ، وبعض الناس يريد أن يرد العافية لذى القىء فيعطيه المرق : فيضاعف ألمه مع أن من الحقيقة المقررة عنـــد أكابر الأطبــاء أن المريض الذى به خمــيرة المعـــدة كلمـــا أعطوه من الأغذية زاد ضــــعفه ، وهذه الأغذية اذا انفسدت بالأخـــلاط المعفونة التى تختلط معهـــا فى الجــوف تنقلب مرضـــا جديدا ، فما يتعين فى شـــفاء المريض هو ما يضعف المرض ففى كل عشرين مريضا يموتون فى الأرياف فأكثر من الثلثين يمكن أنه كان يشفى بلاشىء لو كان فى موضــع مستور من مضـار الريــاح ، وكان لا يشرب الا ماء مبردا • ولكن لا مفر من القدر • وأغلب الأمراض الحادة والحميات يتقدمها أيام تشويش كيسير الخدر ، وقلة النشاط وعدم شهية الأكل ويسير ثقل المعدة والتعب وثقل الرأس والنعاس الثقيل ، عديم الراحة غير المصلح القوى بل وثقل الصدر والميل الى البرودة وتيسر العرق غير

المعتاد وانقطاع العرق المعتاد ، وعنــد ذلك يتيسر تدارك أو تخفيف هذه الأمراض المضرة بأربعة : الأول ترك سائر الأشغال الشاقــة والمقاومة على الأشغال الهينــة . الثاني : تقليــل أكل المغذيــات أو اجتنابها لا سيما ترك اللحم والمرقوالبيض والنبيذ . الثالث : اكثار الشرب يعني أن يشرب كل يوم قزازة فأكثر فى كل نصف ساعة طاسة من الشربة المذكورة فى المادة السابقة أو من الماء الفاتر المخلوط فى كل قزازة اما بخمسة عشر أو بعشرين حبة من الملح المعتاد أو بفنجان خل أو بملاعــق من العسل . الرابع : الاحتقان بماء فاتر أو بهذا الدواء وهو أن تأخذ قبضتين من الحشـائش أو من زهر الخبازى وتغمرهما وترش عليهما نصف (قزازة) ماء مغلى وتصفيها بخرقة وتضيف عليهما أوقية عسل .

المادة الثالثة : فى الدلالة على ما يصنع حين ظهور المرض :

اعلم انه ينبغى للمريض اذا تلبس بالبــرودة ، أو القى (١) أو الألم أن يلزم الفراش والجلوس ، وأن يتغطى زيادة عن عادته ، وأن يشرب فى كل ربع ساعة فنجانا من مسخن (الشـوربة) السابقة، فلا بأس بتغطية المرضى حال بردهم ، ولكن لابد من تخفيف الغطاء كلما خفت البرودة،حتى يكون بمجرد انقطاعها ليس عليهم الا الغطاء المعتــاد .

ثم ان بعض أهالى القرى يعتادون النوم على طراحة مكبوسة ريشا ، ويتغطون بغطاء ثقيل من الزغب ، والحر الصادر عن الريش هو خطر على المحمومين ، لكن لما اعتيد على ذلك يمكن اغتفار هذه العادة فى بعض الأحيان ، الا فى مدة الحر واشتداد الحمى فليتخذ للنوم طراحات مكبوســة بالقش ، وللغطــاء ملاحف أو أكسية أقل خطرا من الريش فهذا هو ما يريح المريض .

---

(١) فى الأصل : القى .

وينبغى الحذر من تسخين هواء محل المريض ، ومن كثرة الناس ، واللغط ، ومن الكلام معه الا على قدر الحاجة ، وينبغى فتح طيقانه ، وأقله ربع ساعة فى النهار ، وربع ساعة بالليل ، وينبغى مع فتح الطيقان فتح باب الغرفة ليتجدد الهواء ، ولكن لابعاد المريض عن جريان الأهوية فلتسحب عليه ستائر فراشه ، أو ليحجب عن الهواء بكيفية أخرى ، وفى زمن الحر ينبغى ابقاء طاقة من الطيقان مفتوحة .

ويحسن أيضا تبخير غرفته بخل مطفى فوق نحو مجرفة حديد محماة .

وينبغى فى الهجير ، والمريض متعب بالهواء الحار ، أن يرش بلاط غرفته ، وأن يوضع فيها فروع غليظة من شجر الصفصاف ونحوه ، تغمس فى اناء فيه ماء ح لتكون مسقية .

وليجتنب المريض تناول الأطعمة المغذية ، ولا يأكل الا يسيرا من خفيف الثريد المنضج أو الأرز المطبوخ بالماء مع يسير من الملح ، ولا بأس فى الصيف بالأثمار المستوية وفى الشتاء بالتفاح المنضج، أو البرقوق والاجاص ، بعد تيبسهما وطبخهما ، فهذه الأثمار اذا أكلت بلا اكثار منها تروى وتبرد وتصلح الصفراء المنفسدة الحارة ، فهى الأغذية اللائقة بالمحموم ، واستعمل الشراب الرطب ، والمبرد الذى ذكرناه سابقا ، ولا بأس أيضا أن تضع فى نحو (قزازة الماء) طاسة من عصير الفواكه التى ذكرناها قريبا .

وينبغى للمريض أن يشرب كل يوم (قزازتين) من ماء فأكثر، وأن يتناول فى المرة يسيرا ، ففى كل ربع ساعة يشرب فنجانا ما لم ينم . واللائق أن يكون الشراب غير شديد البرودة ، ففى اعتدال الزمن يكون فى مزاج طراوة نسيم الغرفة .

ولو امتنع المريض من حاجة الانسان جملة أيام ، أو لم يبل بكثرة أو خرج بوله أحمر ، أو خلط فى كلامه ، أو كانت (حمته)

قوية ، أو كان وجع رأسه أو كليته شديدا أو كانت بطنه متألمة ، أو كان محتاجا كثيرا الى النوم فليحتقن كل يوم مرة بالحقنة المركبة مما سبق ذكره فى المادة الثانيــة ، فالاحتقان شفاء المحموم الا اذا حدث للمريض العرق النافع فلا يحتقن ٠

واذا خف المرض فينبغى الخروج من الفراش فى اليوم ساعة فأكثر ، كما يمكنه ، ولكنه لا أقل من نصف ساعة ، ولا ينبغى ترك فراشه وهو متلبس بالعرق ٠

ومن المستحسن تصليح فراشه كل يوم ، وتغيير ما على بدنه كل يومين ، اذا تيسر ذلك ٠ ومن الضرر البين الحكم بخلاف ذلك ، واعتقاد انه يخشى على المريض من خروجه من فراشه ، فيتركه فى ثيابه المتسخة ٠ وهذه الثياب لا تقتصر فى أضرارها على ابقاء أصل المرض فقط ، بل تقويه ٠ (ولو) قيل ، ان المريض تعبان جدا ٠ وهذه حجة عاطلة ولو سلم أن استعمال ذلك يتعبه درجة فانه يزيد مابقى من قوته ، ويسرع تخفيف ألمه ٠

المادة الرابعة : فى معالجة الناقه :

اعلم أنه مادام بالانسان قليل من الحمى فلا يتناول الا الأغذية الخفيفة التى بيناها ، فاذا انقطع عرق الحمى فلا بأس أن يتناول غيرها كقليل من اللحم الطرى ، أو السمك ، أو المرقــة أو البيض هين النضج ، فهذه الأغذية تصلح القوى بشرط عدم الاكثار فيما يتناول منها ، والا فتبطىء الصحة : لأن المعدة الضعيفة من المرض ليست متأهلة الا ليسير الهضم ، فلو أعطيتها فوق ما فى قوتها لم ينهضم سائر ما يدخل فيها ، بل ينفسد ، وقوام البدن انما هو بما تهضمه المعدة لا بما يصل اليها فقط ، فينبغى للناقه أن يكون كالمريض فى تناوله قليلا فى كل مرة ، ولكن فى غــالب الأوقات ، وأن لا يتعاطى فى المرة الا جنسا واحدا من الأطعمة ، وأن لا يكثر من تغيير الأطعمة ، وأن لا يستعجل فى مضغ ما يتناوله من الجوامد ،

وأن لا يكثر من الشرب ، وخير الشراب هو الماء المخلوط بشيء من الأنبذة ٠

وليسر على قدر ما يستطيع ما شيا أو راكبا عربة أو فرسا ، ومن العبث ترك ركوب الخيل فى هذه الحالة لمن يملك الخيل ، كأغلب أهل الأرياف ٠ واذا كان السير بعد تناول الطعام كان مقويا لمادة الهضم بخلاف فعله قبل ، فهو ربما يضر الهضم ، وليتناول من قام من المرض يسيرا من الطعام فى المساء ، لأن النوم أريح وأصلح له من الأكل ، ولا يضره عدم قضاء الحاجة كل يوم ، نعم اذا جاوز يومين من غير خروج شيء فليحتقن ثالث يوم ، أو قبله ان علم أن قبض بطنه تتولد عنه الحرارة ، أو الانتفاخ ، أو ضيق الصدر ، أو وجع الرأس ، وينبغى لمن قام من مرضه جديدا ألا يسرع فى العود الى شغله فان لم يصبر الى تمام عافيته طال ضعفه،فالاستعجال على الشغل قبل أوانه يعقبه من الخسارة زيادة على ما يؤمل كسبه ، فان لم يتحفظ على نفسه ، والا أصابه مرض الذبول فينبغى حين ارادة الأخذ للمبادى مراقبة العواقب ٠

المادة الخامسة : فى وصايا عامة على الصحة :

اتخذ القناعة فى الأكل ، فمن لم يقنع لا يشبع بل يهلك نفسه ٠ قيل :

« من أرخى على الطعام طويل عنانه،حفر مقبرته بحدة أسنانه »
لا تأكل دون مرتين فى اليوم ، بل لا بأس بثلاثة ، والصغار لهم أن يأكلوا أربع مرات بل خمسا ٠

لا تنم عقب الأكل ، ومدة النوم للسليم ست ساعات أو سبع، وللضعيف والصغير أطول من ذلك ٠

تضمحل القوة والعقل ، ويذهب كل منهما باعتياد تطويل النوم ٠

النظافة نصف الصحة ، فلتكن فى البدن والثوب والمسكن والغذاء والمتاع ·

لا تمضغ الدخان ، ولا تنتشق به فكثرة اللعاب الذى يكسبه للطبيعة مضعفة على طول الزمن ، وبه يضيع الريق اللازم فى الهضم، وينتن النفس ، وتسود الأسنان ، وتنفسد ، وقد شوهد أن كثيرا من الناس اعترته الحماقة بالاكثار من شرب الدخان أو شم المنشوق·

اياك والانهماك على تعاطى الخمور والمسكرات سيما أيام الصوم ، وقد توهم أنها تشد القوى ، مع أن القوة المستفادة من تعاطيها تمر فى أدنى زمن ، ويعقبها وهن ، وذلك كما أن النار تذكو إذا أكثرت من نفخها وترعى الوقود سريعا ، ولا تعطى الحرارة الا درجة ·

وأما الفلاحون الذين يشتغلون فى وقت الصيف فعليهم تغطية رءوسهم وأن يتداركوا أشغالهم ·

المادة السادسة : فى معالجات لجملة علل وأمراض :

الأول : الزكام والنزلة · يقال : هذا ليس بشىء ، ان هو الا زكام أو نزلة · نعم ، نسلم أن الانسان لا يموت بذلك ، لكن يتسبب عن ذلك حرارة الصدر المهلكة له ·

ومن كلام بعض الحكماء الأقدمين : يهلك بالنزلة والزكام أبلغ مما يهلك بالوباء · وعلاج ذلك : استعمال الشربة المذكورة فى المادة الأولى ، أو تعاطى سلاقة الخمان التى ربعها أو ثلثها لبن ، وينبغى قبيل النوم وضع الرجلين فى الماء الفاتر ، ولو انحبست البطن تعين الاحتقان · وينبغى الاقتصار على تناول الأطعمة الخفيفة ، وتعاطى اليسير فى المآكل ، ولا بأس بتعاطى بعض طاسات من خفيف مرقة الخشخاش الأحمر · وقد توهم بعضهم أن هذا الداء يذهب بالعرقى

المحروق ، أو الخمر المعطر ، أو الحلو ، مع أن هذا كالقاء الحطب في النار ، اذ هذه الأشربة أقرب في تثقيل هذا الداء من ازالته ، أو ليس أن هذا الداء حرارة وهي تزداد بهذه الأشربة .

الثاني : وجع الأسنان اذا كان الوجع ناشئا عن فساد السن فخير علاجه ، كما قيل الكلبتان . فاللائق قلعه ، والا دام الوجع ، وفسد غيره من الأسنان ، وربما جر ذلك الى فساد الحنك ، ولكن لو اختير بقاء السن خوفا من قلعه فلا بأس أن نختبر ، بأن تلطخ على موضع الفساد قطنة مبلولة فى قطرات من عصير القرنفل ، فان ذلك يصلحها زمنا طويلا ، وربما كانت نهايته تفتتها وسقوطها ، ويمكن أيضا اصلاحها بأن تلطخ على ذلك الموضع قطعة صغيرة من عرق عاقر قرحا ، وتتمضمض بسليق النبات المسمى : حشيشة الفضة ، وأما اذا تحرك الوجع من غير أن تكون الأسنان منفسدة ، فادم الغرغرة بالشعير ، أو بالماء واللبن ، وتضميد الصدغ بالضماد المطرى ، واتخذ الحموم جملة ليال بماء فاتر ولا تشرب الأنبذة المخدرة ولا تكثر من الأكل . وأما اذا كان بالأسنان قرح فتنضيجه بأن تديم فى فمك لبنا أو تينا مطبوخا فى لبن ، فاذا نضج فافتحه فانه سهل غير مؤلم .

الثالث : السكتة اعلم أن داء السكتة يأتى الانسان فجاءة فيعطل الحواس والحركات الاختيارية ما عدا النبض ، وبه يعسر التنفس ، وهذا المرض مخوف فتجب المسارعة الى الطبيب . ومدة انتظار حضوره يجب أولا كشف رأس المريض ، وتغطية ما عداه من البدن بشيء خفيف جدا ، وجلب الهواء الطرى عنده ، وفتح طوقه (١) بالكلية ثانيا : يقام حسبما يمكن رأسه الى أعلى ورجلاه الى أسفل . ثالثا : يحقن بحقنة مصنوعة من سلاقة الحشائش

---

(١) الطوق : (الياقة) : الجيب .

الطرية والملح • رابعا : اسقه كثيرا من الماء حسب الامكان • خامسا : ابعاده عن الأشربة المخدرة كالخمر ، وكذلك الماء المعطر شربا وضمادا وسعوطا • سادسا : عدم مسه وتحريكه الا للضرورة • سابعا : عصب الرجلين تحت الداغصة ، وهي العظم المدور والمتحرك في وسط الركبة ، حتى ينحجب الدم عن الصعود الى الرأس ، وربما يرجع داء السكتة بعد ذهابه ، وكلما رجع ، كان أصعب مما قبله ، فالواجب تداركه من قبل بأن يأكل وهو في هذه الحالة قليلا جدا ، وأولى ما ينفع له أن يترك العشاء ، وأن يتجنب الأشياء الغزيرة المائية ، وطيبات الروائح والحوامض والأشربة المقوية والقهوة ، وأن يأكل قليـلا من اللحم كثيرا من الخضراوات والفواكه ، وأن يشرب دواء مسهلا مرتين أو ثلاثا ، كل سنة ، وأن يتريض ، وأن لا يكثر من السخونة في (أودته) أو حرارة الشمس ، وألا يتأخر في النوم أو في القيام منه ، وأن لا يلبث فوق ثمان ساعات في فراشه •

الرابع : ضربـة الشمس ، هو مـرض يصيب الانســان متى اعترض في الشمس زمنا طويلا عريان الرأس ، فيعرف هذا المرض بوجع الرأس الشديد ، واحترار البشرة واحمرار العيون ، وجمود الدموع،وضعف البصر عن الامتداد الى الضوء • وقد يحصل للمريض به سهر ، وربما أحس بالنوم وقلق (قلقا) شديدا • وفي الغالب تكون بشرة الوجه محترقة ، فالمريض لا يزال شديـدا حتى يأتي الطبيب سريعا ، فينبغي في مدة انتظاره أن تضع رجلي المريض في ماء فاتر ، وتدخله نصف حمام ، أو حماما كاملا ، واحتقنه بأعشاب مطرية واسقه كثيرا من شربة الليمون والماء ، أو اسقه ماء مخلوطا بيسير الخل • وأنفع من ذلك مصل اللبن الصافي المخلوط بيسير الخل ، والطخ على جبهته وصدغه ورأسه خوقـة مطراة بماء بارد وخل معـا •

الخامس : نهش السميات • أولا أخرج الزبـان اذا لصقت

بالمحل الملدوغ • ثانيا : نعهده بالماء • ثالثا : الطخ عليه اما كزبرة أو كرفسا أو زهر الخمان • رابعا : فان عظم الحرقان فأسرع ما ينفع هو أن تبل خرقة صوف فى ســلاقة الخمان وتلطخها ، وهى هنية الحرارة خامسا : أن تاصق على الوجع لبخة من سحيق بزر الكتان أو من لباب الخبز الممزوج باللبن أو العسل •

السادس : قاعدة يجب اتباعها فى تعهد الصغار والأطفال • حق على الأمهات اللاتى يردن حفظ صحة أبنائهن وتربيتهم أن يتركن عوائد البربر من لف الأطفال بكيفية يمتنع معها تحركهم ، وتنقل أرجلهم أو أيديهم ، فكيف يقلن لو أخبرهن انسان أن اللازم لصحتهن أن يحتبسن فى أثوابهن وأن يلصقن أذرعتهن ببدنهن،وألا يتحركن، كالمسلسل ! فــلأى شيء يصنعن ذلك بأطفــالهن ، وهم ضعاف ، فليطلقنهم يتحركوا وليعرضن أطرافهم للهواء • من يتوهم من غير مستند أن الفرس الصغير أو العجل كذلك من المستحسن لصحتهما ربطهما تكتيفهما على ذلك الوجه ، أو ليس أن حكم تربيــة الآدمى كغيره من باقى الحيوانات ؟ •

السابع : السم بالفطر (١) وهى جنس ردىء من الكمأة ، كثير من الناس من يهلك بميله الى الفطر ، وكان الأحسن فى حقهم يقيناً أن يتجنبوه • وقد شوهد غير مرة أن الأم تحمل لعيالها كثيرا من الفطر لتبرئهم به فتقتلهم بيدها ، وأعمال هذا النبات السمى لا يظهر الا بعد مضى ست ساعات الى اثنتى عشرة ، فأول ما تحس بها أطلب الطبيب وتناول مدة انتظار حضوره حبتين أو ثلاث حبات من الطرطر مقىء أى ملح الطرطير : المقىء بعد تذويبه فى طاستى ماء •

الثامن : السم بالزنجار • اعلم أن آنية النحاس التى تستعمل فيها المطبوخات هى خطرة بسبب زنجرتها سريعا ، والزنجار سم

---

(١) يسمى بنات اوبر

قوى ، فلتبيض أوانيك وقتا بعد وقت بالقصدير ، ولا تترك الأطعمة تبرد فيها ، خصوصا اذا كان بها الخل أو الحماض أو الحريفات أو الدسمة ، فاذا اعتراك وأنت محترز عن ذلك قولنج أوقيىء فامزج نحو خمسة عشر من بياض البيض فى (قزازتى) ماء ، واشرب منها طاسة فى نحو دقيقتين لتتقايأ السم ، فان لم تجد البيض فأكثر من شرب اللبن فان عدمت اللبن فمن الماء المحلى أو ماء الصمغ ٠

التاسع : داء الكلب ، وهو معروف لسائر الناس بوصفه وعمله الرديئين ، وهو يتولد طبيعة فى الزئاب والثعالب والسنانير وخصوصا فى الكلاب ٠ وعضة الحيوان الكلب تكسب هذا الداء للآدميين وغيرهم من الحيوانات ٠ وعلامة الكلب الكلب أنك تراه أولا كئيبا ذابلا مدة أيام ، فيختفى ، ويسلك المحال المظلمة ، ولا ينبح ، بل يختفى ويترك المأكل والمشرب ، ثم يهجر بيت أصحابه ، ويجرى من جهة الى أخرى ، ويقف شعره ، ويبتل لسانه من اللعاب، ويتدلى من فمه ، وينعوج ذنبه بين رجليه ، ويهرب من المائعات ويهم أن يعض سائر الناس ، حتى صاحبه ، ثم يموت بعد يوم أو يومين بشدة مصارعته ، وتفوح من جيفته رائحة منتنة ، فالواجب حينئذ دفنها فى عميق من الأرض ٠

ومتى عض هذا الكلب الانسان فان الجرح من عادته أن يلتئم بالسهولة ، كأنه غير متسمم ، وبعد مدة قليلة أو كثيرة ، وهى ثلاثة أسابيع الى ثلاثة أشهر يحس بالجرح وجع مكتوم ، فينتفخ أثره ، ويحمر ، وينتفخ ، ويقيح ، ومدته تخرج حارة منتنة محمرة ، ويذوق المريض الكآبة والخدر والكسل والبرودة ، ويعسر عليه التنفس ، ويمسك الوجع أمعاءه ، يضطرب فى نعاسه ، يعطش عطشا مهلكا ، ويقاسى اذا شرب ، ثم يعتريه الارتعاد من الماء والمائع ، ويبح صوته ، ثم يجن ويموت ٠ وليس من شأن من أصيب بهذا الداء أن يعض غيره دائما ، بل معظم المبتلين بهذا الداء اذا أحس هجومه عليه ينصح

الحاضرين بأن يكونوا منه على حذر • وما يذوقه من الألم تقصر عنه العبارة ، فيتمنى ولو الموت •

ومعالجته هى : أن أول ما يعضه الكلب تسرع الدواء فيه ، فان توانيت سرح السم الى الدم ، ولا يجدى التطبيب شيئا ، وذلك هو أن تستخرج الدم من الجرح بعد كشفه ، وتغسله بماء مملح ، وتكويه بحديدة بعد احـراقها فى النـار حتى تبيض بعد الاحمرار وتغرزها فى سائر أقطار الجرح ، فلو بقى جزء من الجرح غير محكم الكي كان الكى كلا شيء ، ويصح أن تستعمل بدل الحديدة المحرقة دهن الزاج فتدخله بين شفتى الجرح وتجريه فى سائره ، ومتى انكوى اللحم تغطيه بخرقـة مدهونـة بالقيرووطى ، أى المرهـم ، أو بالزبدة الطرية ، واعلم أنه يجب غسل الثياب المنقوبة بأسنان الكلب الكلب ، لما أنها حين تشربت من ريقه تخلل بها جزء من سمه• وما تقدم لك هو الكيفية المتعينة المجربة فى هذا المرض الشديد ، فلا تتردد ، أو تخف قليلا من الألم الذى يطرد غيره من الألم الشديد، أو الهلاك المفزع ، وأيضا لو طلبت الحكيم لأثبت لك بسداد رأيه هذه المعالجات السالفـة ، ولا بأس أن تستعمل هذا الدواء فى أى حيوان معضوض بكلب كلب •

وأزل ما على الجرح من الشر ، ولو كان المعضوض أذنا أوذنبا فلتقطعه ولتكو على ما سبق موضع القطع • وينبغى أن تعزل البهائم المعضوضة عن غيرها من سائر البهائم حتى يزول ما بها ولا تعدى غيرهـا •

العاشر : الاستعاصنة على افاقة الغريق •

لا تيأس من افاقة الغـريق الا اذا أخذ بدنه فى العفونة ، فحينئذ ولو مضت ساعات كثيرة من وقت غرقه ، أو ذهبت حركته بالكلية ، أو فقد أمارات الحياة فافعل به ما يستحقه عليك من واجبات

الأخوة : فقبل كل شيء اطرد من اجتمع عليه من الخلق لأنه يضيق الصدر ، ويحجب الهواء •

ثانيا : لو رأيت الغريق قد فقد الحس والحركة فامل رأسه ، بحيث يكون وجهه الى أسفل ، وافتح شفتيه ، حتى يخرج بسهولة الماء الذى قد دخل من الفم أو الأنف ، وارفع رأسه مغطاة بقلنسوة من صوف ان تيسرت ، وادرج باقى بدنه فى نحو ملحفة •

ثالثا : أنقله سريعا الى أقرب موضع •

رابعا : بعد وصوله اخلع ما عليه من الثياب بأسهل ما يمكن، ولو بقطعها بآلات ان لزم •

خامسا : افرش له عند ذلك بعض طراحات و (مخدات) بها بعض صلابة واجعلها قريبا من نار متقدة ، وضع فوق الطراريح ملحفة من الصوف ، ورقد الغريق فوقها مرفوع الرأس ملفوف البدن •

سادسا : دلك البدن تحت الملحفة بالرفق بخرقة صوف مدفأة يابسة ، ثم دلك ، بالمائات القوية المستقطرة على ظاهر بدنه خصوصا على السرة وما حولها ، والأولى خصوصا فى الشتاء أن تسخن عاجلا ماء ، وتملأ منه مثانات (١) على الثلثين من ماء هين الحرارة ، وتضعها فوق أجزاء البدن المحتاجة للحرارة •

سابعا : مدة الدلك أو عقب وضع المثانات ينبغى أن تدخل الهواء فى صدره ، بأن تضع قصبة أو ريشة فى فم المريض ، أو فى احدى طاقتى أنفه ، مع فتح الأخرى ، وانفخ فى تلك القصبة بمنفاخ لدفع الهواء فيها ، فان كان النفخ فى الفم فاقبض الأنف ، ولكن أرخ أصابعك مرة بعد أخرى ، ليخرج منه الهواء أحيانا •

---

(١) زجاجات •

ثامنا : أشممه القلى البخارى ، يعنى الروح البخارية من ملح النشادر ، بأن تقرطس ورقة حتى تكون مبرومة فى صورة فتيلة وتشربها من (قزازة)قلى بخارى ، وتعرضها تحت أنف الغريق أو تداخلها فى منخاره ، وتكرر هذا العمل مرارا بالرفق •

تاسعا : ألعقه ان أمكن يسيرا من روح الأنبذة المخلوط بالكافور، وربما مكث هذا المانع فى فمه يسيرا من الزمن ، ثم بلعه ولكن لاتملأ فمه منه حتى يتعسر بلعه •

عاشرا : لو بلعها فاعطه أكثر منها فلو تحركت معدته من غير وجود قيىء ، وذلك مما يتعبه فاعطه ثلاث حبوب من الطرطر المقيىء مذوبة فى ثلاثة أو أربعة ملاعق ماء ، فان تقايأ بهذه الكيفية فاسقه ماء فاترا ، وان أنزل من المخرج شيئا فقوه بتناوله شيئا من الأنبذة •

حادى عشر : لو أبطأ عن الاحساس فاحقنه حقنة حريفة ، وصورتها أن تأخذ أوراقا يابسة من الدخان ، قدر نصف أوقية ، ومن الملح المعتاد ثلاثة دراهم ، وتغلى ذلك فى مقدار من الماء يعادله نحو ربع ساعة وتحقنه به • ويصح أن تؤلف هذه الحقنة من نصف طاسة ماء وطاسة خل ، وربع رطل من الملح المعتاد • وهذه كيفية معالجة الافاقة للغريق ، وتدبيرها ممكن لكل انسان ، حتى يحضر الطبيب ، فيعينهم أيضا ، ولو كانت مفيدة ، ففائدتها لا تحصل الابعد التدبير مدة ساعات على التوالى ، ففائدة ذلك بطيئة خفية ، ولذلك كان اللازم استدامة ذلك زمنا ، فمن الغرقى من لا يفيق الا بعد ست ساعات أو سبع من مبدأ خروجه من الماء •

الحادى عشر : غيبوبة الحياة برائحة بيوت الأخلية والبالوعات والآبار والمجارى ونحوها •

أولا : أخرج سريعا من أصيب بهذا الداء ، وضعه تحت الهواء

ثانيا : جرده من الثياب ، ورش على بدنه ماء باردا : أو ماء مشوبا بخل ، وهو أولى ، وأولى منه حامض الجير ·

ثالثا : ألعقه ماء باردا ممزوجا بقليل من الخل ·

رابعا : احقنه بحقنة ماء بارد ثلثها خل ، ثم بعد ذلك احقنه بملح ذائب ·

خامسا : أدخل فى أنفه طرف شعر ريشة ، وحركها بالرفق ·

سادسا : أدخل الهواء فى صدره بواسطة قصبة ، وانفخها بمنفاخ ، كما سلف فى الغريق عند العمل ·

السابع : اسلك سبيل النشاط والاستعجال فى هذه المعالجة ، فكلما أبطأت كلما ظن اليأس من انتاجها ، ولما كان الموت لا ينكشف الا بعد مدة ، تحتم ادامة المعالجة حتى يتيقن ·

الثانى عشر : غيبوبة الحياة بالبرودة :

اعلم أن شدة البرد قد تستحكم بأعمالها فى الانسان ، فتجمد الأعضاء ، وتحبس جريان الدم ، وربما مات بها الانسان ، ودواؤها مخوف العاقبة جدا وان كان لا ألم به أبدا ، فمباديها هو الرعشة التى تكاد تصرع الانسان ، وصلابة الجسم ، وانحباس الدم ، وخدر المفاصل ، وذهاب الاحساس ، والتذاذ البدن بالنوم ، وانقياده اليه ولو بالقهر ، وانقطاع حركات الحياة على التدريج ، وعاقبته خروج المبتلى به من حيز الأحياء الى حيز الأموات، وفى الحقيقة حركات الحياة ليست الا متوقفة ، فعليك أن تسرع فى معالجته بدواء ، سواء ذهبت أمارات الحياة بالكلية ، أو بقى منها شىء · واعلم أن بعض الناس توهم أن معالجة افاقته تكون بالحرارة ، وهذا وهم فاسد ، لاضرار الحرارة بكثير من الناس ، ولكن معالجته هى أن تلف أولا بدنه فى مخلفة من صوف ، وتحمله

الى أقرب ما يرتاح فيه من الأماكن ، وتخلع ثيابه وتضعه فى فرش غير محمى • ثانيا : اذا كان عندك ثلج فدلك البدن مع رفق بشىء من ذلك ، مارا من القلب الى المفاصل ، ثم بعد لحظات أدلكه بدل الثلج بخرقة مسقية بماء بارد ، وبعده بماء فاتر ، ثم بماء مسخن ورش على وجهه شيئا من هذه المياه ثالثا : لو تعذر الثلج فضعه فى حمام فيه ماء بئر بارد ، وبعد نحو ثلاث دقائق أفرغ عليه قليلا من الماء المسخن • وهلم جرا ، فأفرغ عليه كل ثلاث دقائق ، حتى تذهب برودة الماء على التدريج ، ويصير فاترا معتدلا ، واعمل جميع ذلك نحو ثلاثة أرباع ساعة فقط ، فان استشعرت برجوع حركة نبض المريض فلك أن تزيد حرارة الحمام ، حتى يصير فى درجة سخونة الحمام المعتاد • وما دام المريض فى الحمام فرش على وجهه يسيرا من ماء بارد بعد تدليكه بخرقة رقيقة • رابعا : الهواء فى صدره بواسطة أنبوبة أو منفاخ ، كما سبق فى الغريق • سادسا : أعطه سفوفا حبات من الملح المعتاد ، وألعقه لعقتين ماء باردا مخلوطا بقطرات من ماء الملكة • سابعا : اذا بقى بالمريض الخدر ، فاسقه قليلا من ماء ممزوج بخل وان كان نومه به سباتا فاحقنه بحقنة حادة، وهى ما تقدمت فى شأن الغريق • ومن سوء الخطأ توهم أن استعمال الخمور والمسكرات القوية ، يمكن أن يتدارك به ابعاد هذا الداء، مع أن الأمر بعكس ذلك ، وهو أن كثرة الأشربة تحبس جريان الدم ، فمن ينهمك على تعاطيها فهو أشد تأثرا من غيره بآفات البرودة •

الثالث عشر : غيبوبة الحياة بدخان الفحم ، كل من يمكث فى غرفة مغلقة موقد (١) بها فحم فقد ألقى نفسه فى مهلكة ، فمبدؤها يحصل للانسان شدة وجع الرأس ، وبعد ذلك يعتريه

(١) فى الأصل : مغلوقة موقود •

تعسر النفس ، ثم يقع فى ذبول ، كحالة الموتى ، فان عولج فذاك ، والا هلك ٠

ومعالجته هى أن تسرع الى تعريضه فى الهواء وتجرده من أثوابه ، وتنيمه على ظهره ، وتسقيه ماء ممزوجا بخل وترش من هذا الماء على وجهه وصدره ، وتبل خرقة من ذلك الماء وتدلك بدنه بها ، وتمسح وجهه ثم تعيد ذلك عدة مرات ، رتقرب نحو مشامه عود كبريت مشتعلا ، أو غيره من حاد الرائحة ، وتغمزه فى باطن أنفه بطرف ريشة ، وتحقنه مرتين : الأولى بماء ممزوج بخل والثانية بماء ملح ، فان بقى بعد ذلك على حالته فدلك فقار ظهره بممسحة من عرف حيوان والطخ شيئا من معجون الخردل على بطن رجليه ، وأدخل الهواء فى صدره بأن تدخل فى احدى طاقتى أنفه فم منفاخ وليس فى الغالب يفوق المريض ، فان ساعدتك المقادير على افاقته ، وتنفخ ، والحال أن الأخرى مسدودة ، فاجتهد وواظب على ذلك ، وليس فى الغالب يفوق المريض فان ساعدتك المقادير على افاقتــه وظهر شىء من أمارات الحياة فضعه فى فرش عظيم التسخين ، فى غرفة بها الهواء وألعقه شيئا من خير الأشربة ٠

الرابع عشر : فى معالجة الحرق أول ما يحترق عضو الانسان فليغمس العضو فى أبرد ما يمكن من الماء ، وان تعذر غمسه فى الماء فرشه دائما باسفنجة مملوءة منه ، وكلما تسخن الماء المستعمل فى ذلك الغسل فجدده ، وواظب على ذلك ساعات ، وافتح ما ينتفخ من الدمامل بطرف ابرة واحذر أن تفشخها أو تسلخ البشرة ، ثم ألطخ على ذلك العضو المرهم الملصوق على بعض خرقة رقيقة بورق اللازوق ومحل هذا كله مالم يمض نصف ساعة قبل غسل العضو المحترق فى ماء بارد ، والا فهذا الدواء يكون مضرا ، بل فى هذه الحالة لابد أن تكتفى باستعمال المرهــم الذى تنوب عنه الزبدة الطرية ، ولو رأيت الحرق امتد على العضو بتمامه فعليك بالحكيم لتستعين به على ذلك ٠

الخامس عشر : فى الجـدرى والتخلص من مجيئـه بتلقيح البقـرى ٠

أمر الجدرى معلوم ، وكونه اما قاتلا أو مشوها ، لا سيما بالوجه بين عند سائر الناس ، وربما أذهب البصر وأورث أسقاما لا تنقضى الا بانقضاء الأجل ، وهناك طـريقة لتـداركه قبـل أوانه مجربـة فمن مرض بالجـدرى مع وجودهـا فهو من سوء تفـريط والديه واهمالهما ، فعلى أبى الانسان وأمه المبادرة لذلك ، فاذا بلغ سن المولود ستة أسابيع الى ثمانية وجب طلب الحكيم ليخرج سم الجدرى بالتلقيح ولا عذر لهما ان أهمـلا فى ذلك ، لقدرتهما على مداواة ولدهما ، فلو تركاه حتى أصيب بالجدرى فقد فات أوان استعمال تلقيح البقرى ، فيندمان حيث لا ينفع الندم ٠

وفى بعض الممالك تلقيح البقرى للأطفال معين على بيت المال ، فلا كلفه فيه خصوصا على الفقراء ، فعلى أهل هذه المملكة أن يقبلوا عليه فى الحال ، ولا يتأخروا الى غد ، فربما فى اليوم القابل تحرك سم الجدرى ، ولا يغتر بقول من يزعم أنه غير مثمر شيئا ، فصحيح التجربة أوضح فائدة استعماله ، ومن استعمله لطفل فأصيب الطفل بعد ذلك بالجدرى فذلك لفقد شروط : كان التلقيح كان غير محكم الوضع ، والحبات التى أخذت كانت غير تامة ، فاذا استعملته فى المولود فأطلع الحكيم على حبات البقرى تتحقق اصابة استعماله وعدمها ، واستعمال تلقيح البقرى غير مؤلم فهو أخف من شكة ابرة ولا يمرض به الانسان ، ويصح استعماله لأى عمر كان ٠

والجدرى داء متوقع مدة أجل الانسان ، حتى كأنه دين مآله الى القضاء ، وقضاؤه يحصل بالمسارعة الى استعمال تلقيح البقرى لمن يريد التخلص من اصابته ٠

خاتمــة

هذا آخر ما أردنا شرحه من النصائح النافعة للصحة ، فالصحة جوهر نفيس عن سائر ما عداه ، اذ بسلبها لا تنفع زينة الحياة ، فما ثمرة الأموال لعليل ، لا يتمتع منها بشفاء الغليل . يذهب المريض كنوز ذهبه ، لمن يبريه من وصبه ، ومع ذلك قد يكون خلاف غرضه ، فلا يصح له الشفاء من مرضه ، تقرع الأمراض باب الخطير ، على نسق ما تقرع باب الحقير . ولا ترق لشكواه ، ولا تسمع دعواه. حكمة بالغة للحكم العدل ، ذى الاقتدار والفضل ، فليس بنا قوة ولا حول ، بل الكل بحول وقوة ذى الطول . فهو الممرض والشافى ، والمبتلى والمعافى ، ها نحن الآن فى حيز الحياة والثبات ، ولا ندرى هل نعد غدا فى زمرة الأموات ؟ فهذا سر خفى لا نصل الى فهمه ، كيف وقد اســـتأثر به الله فى غامض علمـــه ! فلا تثق بالمخايل الظاهرة ، من الصحة الزاهية الزاهرة ، فربما فى أسرع من البرق اللامع ، تعترينا الأمراض وتلزمنا المضاجع . وقدرتنا على القبض على الأجل ، وحفظ الصحة من الخلل . كاقتدارنا على عروج السما ، واتخاذ الأفلاك ملزما . فعلينا بالاستعداد للمعاد ، ولنكن كالمسافر المستحضر على الحمل والزاد . العازم على الرحيل ، الجازم من الاقامة بالقليل . قد كان بالأمس نوبة الجار ، وستأتى غدا نوبة صاحب الدار ، ولا خوف علينا ولا حزن ، حيث كان خلاص ذمتنا حسن . هذا ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على نبيه وآله وصحبه وسلم .

الفصل العاشر

(فى فعل الخير بمدينة باريس)

اعلم أن غالب الناس ببلاد الافرنج وسائر البلاد التى تكثر الصناعة والنجامة فيها يعيشون من كسب أيديهم ، فاذا حصل للانسان منهم مانع كمرض أو نحوه ، فقد معيشته واضطر الى أن يعيش من غير كسب يده ، كأن يتكفف الناس ، أو نحو ذلك : فشرعت المارستانات المعدة لفعل الخير ، حتى ان الانسان لا يسأل ما فى أيدى الناس ، وكلما كثرت صنائع بلدة وكثر كسبها كثرت أهاليها فاحتاجت الى مارستانات أكثر من غيرها ، ومعلوم أن مدينة « باريس » من أعمر المدن وأكثرها صناعة ونجامة ، فلذلك كثرت مارستاناتها وجمعيات فعل الخير بها سادة لخلل شح أفراد أهلها وبخلهم ، لما تقدم أنهم بمعزل عن الكرم من العرب ، فليس عندهم حاتم طى ، ولا ابنه عدى . ولم يخرج من بلادهم معن بن زائدة الشهير بالحلم والندى الذى قال فيه الشاعر :

يقـولون : معن لا زكاة لمـا لـه	وكيف يزكى المال من هو باذله
اذا حال حول لم يكن فى دياره	من المال الا ذكـره وجمائلـه
تراهُ اذا ما جئته متهلـلا	كأنك تعطيه الذى أنت نائله
هو البحر من كل النواحى أتيته	ولجته المعروف والبر ساحله
اذا مر بالوادى فتبكى تلاله	عليه وبالنادى فتبكى أرامله
تعود بسط الكف حتى لو انه	أراد انقباضا لم تعطه أنامله
ولو كان ما فى كفه غير روحه	لجاد بها فليتق الله سائله

ولم يسمع في بلادهم عند ملوكهم ووزرائهم شيء ولو يسيرا مما يحكى عن بني العباس والبرامكة أصلا ، فالملك المنصور المشهور بالدوانقي (١) أكرم الكرماء بالنسبة اليهم ، نعم ان البلاد المتحضرة يقل اكرامها ، وأيضا يرون أن اعطاء القادر على الشغل شيئا فيه اعانة له على عدم التكسب •

وفي مدينة باريس ديوان لتدبير المارستانات ، وأهله خمس عشرة نفسا للمشورة العامة ، وفي هذا الديوان خمس نظارات : النظارة الأولى : لمباشرة المارستان • النظارة الثانية : لمباشرة مهمات المارستان ، والخدمة للمرضى والعقاقير العامة • النظارة الثالثة : مباشرة الأوقاف • النظارة الرابعة : مباشرة الفقراء في بيوتهم واعانتهم • النظارة الخامسة : مباشرة مصاريف المارستان وتوابعها •

ولا يدخل الانسان المارستان الا اذا أثبت مرضه • يقول الحكماء: ومن قام من مرضه في المارستان وأراد أن يخرج منه قبل أن يتم شفاؤه وترجع له قوته أخذ من الوقف بعض شيء يستعين به على قوته ، حتى يمكنه الرجوع الى أشغاله •

وأعظم مارستان « بباريس » المارستان المسمى : « أوتيل ديو يقرب أن يكون معناه « بيت الله » وهو موقوف على المرضى والجرحى، ولا يدخل فيه الأطفال ولا أرباب الداء العضال ، ولا المجانين ولا النفساء ولا أرباب الأمراض المزمنة ، ولا المبتلى بالافرنجي ، فان كل داء من هذه الأشياء له ما رستان خاص •

ومن المارستانات الشهيرة في « باريس » مارستان يسمى « سنلويز » وهو معد لأرباب الأمراض المزمنة ، ولأرباب الدمامل والقوبة ، والحكة ، والجرب ، ونحو ذلك •

---

(١) المنسوب الى (دوانق) ، وهى جمع (دانق) كصاحب ، وهو سدس الدرهم •

وفى باريس مارستان للقطاء ، يعنى الأطفال الذين يلتقطونهم من الطرق فيدخل فيه الذين يهملهم أهلهم كأولاد الزنا ونحو ذلك

« وبباريس » مارستان أيضا للأيتام ، وفيه يدخل الأولاد الفاقدون لأهاليهم ، وهو موقوف على نحو ثمانمائة ذكر وأنثى . فالذكور فيه فى جهة ، والاناث فى أخرى · ويباشر هذا المارستان عدة راهبات تسمى عندهم : أخوات الاحسان ، ويتعلم صغار هذا المارستان فيه القراءة والكتابة والحساب ، ولهذا المارستان ديوان يدبره فلا يوضع الصغير فى هذا المارستان الا بأمر هذا الديوان ، واذا بلغ الانسان احدى عشرة سنة فى السن فانه يخرج باذن أهل ذلك الديوان من هذا المارستان ، ويسكن عند معلم صنعة ومصرفه يخرج من وقف المارستان ، ولمعلم الصنعة أن يتبنى الصغير ، أى يأخذه وينزله منزلة ابنه ، ولكن بشرط أن يثبت لأهل ذلك الديوان يساره وفضله وحسن حاله ·

ومن جملة مارستانات « باريس » مارستان موقوف لتلقيح الجدرى بوضع البقرى ·

ومنها مارستانان يسميان « مارستانى الشيخوخة والهرم » فأحدهما للذكور ، والآخر للنساء ، ومنها مارستان لأصحاب الداء العضال ، موقوف على أربعمائة وخمسين مريضا ذكرا وخمسمائة وعشرين مريضة » ·

ومنها : مارستان العميان ، من أهل « باريس » أو غيرها من العمالات ، فلهم فيه الأكل والشرب ، وسائر ما يحتاجون اليه فى تعليمهم ونحو ذلك ·

ومنها : مارستان المجانين ، وفيه (قشلة) (١) عظيمة تسمى مارستان السقط ، وفيه يوضع مجاريح الحروب ومقاطيع الأيدى

---

(١) القشلة : المستشفى ·

أو الأرجل أو نحو ذلك ، وهو من أنظف وأعظم المارستانات ، وفيه ستة عشر طبيبا ، وجرائحيا ، وستة عقاقيرية لصناعة الأدوية ٠

ويوجد فى « باريس » زيادة عن هذه المارستانات ديوان عام يسمى « ديوان الاحسان » المقصود منه تكميل الخير الذى لا يمكن فى المارستانات ، كما اذا أحرقت تجارة تاجر أو انكسر ، فانه يجبر من هذا الديوان بشروط معلومة ٠

وفى كل خط « بباريس » ديوان احسان ، والاحسان فيه قسمان : احسان حالى واحسان حولى ، فالأول يعطى للفقير الذى وقف حاله أو حدث له ما يعطله ، والثانى لمن به حالة دائمة تمنعه من الشغل ٠ ومن فعل الخير بمدينة « باريس » أنه يوجد بشاطىء نهرها علب وحوائج بها روائح لتشميم الغريق والمغمى عليه والجريح ونحو ذلك ليفيق ٠ ويوجد أيضا بهذه المواضع عدة رجال من أهل الخبرة ، لينهضوا لاسعاف من وقعت له حادثة عارضة ٠

ومن هذا كله يتبين أن فعل الخير بمدينة « باريس » أكثر منه فى غيرها بالنسبة للجملة أو للمملكة ، لا لكل واحد على حدته فانه قد يشاهد فى طرقها أن بعض الناس الذين لا يذهبون الى المارستانات الموقوفة ونحوها يقع فى وسط الطريق من الجوع ، وربما تراهم ينهرون السائل ، ويردونه خائبا ، زاعمين أنه لا ينبغى السؤال أبدا ، لأنه اذا كان السائل قادرا على الشغل فلا حاجة الى السؤال ، وان كان عاجزا عنه فعليه بالمارستانات ونحوها ، ولأن السائلين عندهم أصحاب حيل فى تحصيل الأموال فى غالب الأحوال ، حتى انهم يتشكلون فى صورة المجاريح ونحوهم ، ليشفق الناس عليهم ويرقوا لحالهم ٠

ومن فعل الخير أنهم يجمعون عند الحاجة أشياء لمن نكبه الزمان حتى يصير بها غنيا ، فمن ذلك أنهم جمعوا لأولاد « الجنرال نى » نحو مليونين من الفرنكات يعنى ستة ملايين من القروش ٠

الفصل الحادى عشر

(فى كسب مدينة باريس ومهارتها)

اعلم أن المركوز فى أذهان هؤلاء الطوائف محبة المكسب والشغف به ، وصرف الهمة اليه بالكلية ، ومدح الهمة والحركة ، وذم الكسل والتوانى ، حتى ان كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى الذم هى لفظة الكسل والتنبلة ، وسواء فى محبة الأشغال العظيم والحقير ، ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس فكأنهم فهموا قول الشاعر :

حب السلام يثنى عزم صاحبه	عن المعالى ، ويغرى المرء بالكسل
فان جنحت اليه فاتخذ نفقا	فى الأرض أوسلما فى الجو واعتزل
ودع غمار العلا للمقدمين على	ركوبها ، واقتنع منهن بالأمل

الى أن قال :

فانما رجل الدنيا وواحدها	من لا يعول فى الدنيا على رجل

ثم ان أعظم التجارات وأشهرها فى «باريس» معاملات الصيارفة. والصيارفة قسمان : صيارفة المملكة أو (الميرى) ، وصيارفة « باريس » ، ووظيفة صيارفة الدولة بالنسبة للتجارة أن يضع الناس ما يريدن وضعه ، ويأخذوا كل سنة ربحه المعين فى قانونهم ، فلا يعد عندهم هذا الربح ربا الا اذا زاد عما فى القانون . وللانسان

أن يأخذ ما وضعه من المعاملة عند صيارفة الدولة متى أراد • ومثل ذلك صيارفة « باريس » فانهم يأخذون ويعطون الأموال بالمرابحة ، وهم يعطون الربح أزيد مما تعطيه صيارفة بيت المال الذين هم صيارفة المملكة ، ولكن المال الموضوع عند صيارفة المملكة آمن من الموضوع عند صيارفة المدينة ، وذلك لأن صيارفة المدينة يفلسون ، وأما صيارفة الدولة فان ما يأخذونه يكون دينا على الدولة ، والدولة دائما موجودة •

ومن أمور المعاملات المهمة عند أهل « باريس » : جمعية تسمى « الشركاء فى الضمانة » فانها تضمن لمن يدفع لها كل سنة قدرا هينا مخصوصا سائر ما يتلف فى بيته بحادثة قهرية ، كما اذا احترق بيته أو حانوته أو نحو ذلك فانها ترجعه له كما كان ، وتدفع له قيمته •

وفى مدينة باريس معامل سلطانية ومعامل غير سلطانية : فمنها معامل المعادن كأشغال الفضة والذهب واتخاذ الآنية منهما ، ومنها معامل الصينى (والفرفورى) (١) ومعامل الشمع الاسكندرانى، ومعامل الصابون والقطن والجلود المدبوغة ، وشغل السختيان (٢)، ونحو ذلك ، وصناعتهم تعظم جودتها شيئا فشيئا ، حتى انهم كل نحو ثلاث سنوات يعرضون أشغالهم على رءوس الأشهاد ، ويظهرون ما اخترعوه وما كملوه •

وفى باريس عدة خانات عظمى ، توجد فيها سائر المبيعات ، ووكائل وحوانيت وبيوت للتجارة أو الصناعة مكتوب على واجهتها اسم التاجر واسم تجارته ، وبعض الأحيان قد يكتب اسم المتجر ، ولا يمكن أن يشرع الانسان فى التجارة الا اذا دفع لبيت المال شيئا

---

(١) نوع من الصينى •

(٢) نوع من الجلد •

ولو هينا ، فيأخذ (نيشانا) علامة على الاذن له فى التجارة ، فيحتاج أن يكون معه (النيشان) ، وعلى تجارته ٠

وللتجارة مكتب مخصوص يسمى مكتب التجارة ، يتعلم فيه التلامذة علم التجارة ، وعلم تمييز صفات أنواع الأشياء المبيعة ، ومعرفة الأثمان والقيم ٠

وفى هذا المكتب خمس عشرة مدرسة ، وفيه تلامذة من أقاليم عديدة ، وبمقتضي قانون ذلك المكتب أنه بدفع القدر المعين يقبل من أراد الدخول للتعليم من سائر الأمم ٠

ومن الأمور التى تعين على النجامة والكسب تعمير طرق البر والبحر ، فمن ذلك صناعة الخلجان والقوارب التى تسير بالدخان ونصب القناطر،ونصب دواوين تسفير العربات الكبيرة (والتليغراف) وهى الاشارة ، ونصب البريد بالساعى ، والبريد بالخيل وغير ذلك ٠

فانظر الى مدينة « باريس » فان حولها أربعة خلجان تأتى منها المتاجر ، وفى نهر السين تسير قوارب على صورة العربات ، وقوارب تمشى بالنار سريعة السير ، وبمدينة « باريس » جملة أنواع من العربات مختلفة الشكل والاسم والسير والاستعمال ، فمنها عربات معدة لوسق الأمتعة من « باريس » الى البلاد البرانية ، (ص ١٢٥) وتسمى « رولاجة » (١) ومنها جنس معد لوسقه بالناس ليسافروا فيه ، ويسمى « الدلجنس » ومنها عربات صغيرة للسفر الى المحال القريبة من « باريس » تسمى « كوكو » (٢) (بضم الكافين) ويدفع فيها على كل رأس قدر معلوم ، كالسفر فى السفن ٠ وفى « باريس » عربات تستأجر الى أجل معلوم ، كيوم أو شهر أو سنة ، والعربات العادية فى « باريس » هى : الفياكرة » وهى ما فيها مقعد فيه

(١) Roulage.

(٢) Coucou.

سدلتان متقابلتان ، تسعان ستة أنفس ، ولها حصانان يسحبانها « والكبريولة » وهى نصف « الفياكرة » فلها سدلة واحدة : وركوب « الفياكرة » (١) أو « الكبريولة » تكون أجرته بالساعة ، أو يستأجر من محل الى محل آخر ، وأجرة محدودة لاتزيد ولا تنقص ، ووجودها فى سائر طريق « باريس » أكثر من وجود الحمير فى طريق القاهرة. وقد تجددت الآن عربات كبيرة تسمى « الأمنيبوسة » (٢) معناها : لكل الخلق ، وهى عربات كبيرة تسع كثيرا من الخلق ، مكتوب على بابها أنها تمشى الى الحارة الفلانية ، فكل الناس الذاهبين الى حارة واحدة يركبونها ، ويدفع كل منهم قدرا معينا،وهى موجودة فى أمهات خطوط « باريس » ومن العربات جنس ينقل أمتعة البيوت ، ومنها عجلات البياعين ويوسقونها ، ويدورون بها فى الطريق ليبيعوها ، وهذه العجلات قد يسحبها حصان ، وقد يسحبها حمار ، وقد يسحبها شخص وحده أو مع كلبه ، وبها أجناس أخر من العجلات لحمل الحجارة والتراب وغير ذلك ٠

وأما البريد المسمى عند الفرنسيس « البسطة » فانه من أهم المصالح النافعة فى التجارات وغيرها ، يسهل فيه اخبار الغير بواسطة المكاتبات التى تذهب عاجلا ، ويأتى ردها فى أسرع ما يكون ٠ وتدبيرها بكيفيتها التى هى عليها من أعظم ما يمكن ، فان المكاتيب التى تبعث فى البلد وأ العمالة تصل الى صاحبها من غير شك ، لأن سائر نمرة البيوت مكتوب عليها بالرقم عددها المسمى « النمرة » فبها يمتاز البيت عما عداه ، والمكتوب الذى تبعثه الانسان تضعه فى محل المكاتيب الموضوع فى كل حارة ، فيأتى الساعى ويأخذه ، فيصل المكتوب الى الحارة الأخرى ، ويأتى رده فى يومه ٠

ثم ان الفرنساوية يحترمون أمور المراسلات غاية الامكان ،

---

(١) Fiacre

(٢) Omnibus

فلا يمكن لانسان أن يفتح مكتوبا معنونا باسم آخر ولو كان متهما بشيء . ولما كان احترام المراسلات بباريس على هذه (ص ١٢٦) الحالة كثرت الرسائل بين الأحباب والاصحاب ، خصوصا بين العشاق ، لأمن الانسان على مكتوبه من أن يفتحه غير المرسل اليه ، المعنون باسمه ، واعلام العشق بين العاشق ومعشوقته يكون بالمراسلة ، وبها أيضا يحصل الوعد بالمواصلة . وفى باريس محل لارسال المعاملات والحوائج مع الساعى أيضا ، من غير خوف أبدا . ومن الأمور النافعة فى التجارات (الجورنالات) فيكتبون فيها كثيرا من البضاعة النافعة أو الجيدة الصنعة ، ويمدحونها ، ليروجوا السلع ، وليعلموا الناس بها ، وصاحب البضاعة يدفع لهم شيئا فى نظير ذلك ، وسيأتى الكلام عليها ان شاء الله تعالى . وقد يطبع التاجر الذى يريد ترويج سلعته عدة أوراق صغيرة ، ويرسلها مع خدم فى سائر البيوت ، ولسائر المارين ، بالطرق ويفرقها عليهم مجانا ، ففى هذه الأوراق يذكر اسمه واسم دكانه ، وما عنده من المبيع ، ويعين القيمة لسلعته .

وبالجملة ففى مدينة باريس يباع سائر ما يوجد فى الدنيا سواء كان خطيرا أو حقيرا ، ومن أعظم الأشياء دكاكين العقاقيرية ، فيها توجد سائر الأدوية مجهزة ، وسائر العقاقير التى على وجه الأرض المعروفة الاسم والخاصة .

وسائر الخلق « بباريس » يحبون المكسب والتجارة ، سواء الغنى والفقير ، حتى ان الصغير الذى لا يمكنه التكلم الا بالأشياء الصغيرة اذا أعطيته فلسا يفرح به ويصفق بيديه قائلا . ما معناه بالعربية : كسبت وقنيت : ولولا أن كسبهم مشوب فى الغالب بالربا لكانوا أطيب الأمم كسبا ، واذا كسدت تجارة أحدهم كما هو غالب فى تلك البلاد فسد حاله ، وآل أمره الى تطلب ما فى أيدى الناس ، وربما أخذ معه مكتوبا من أحد الكبار يدل على كساد حاله ، وأنه

يستحق الاعانة ، ويكثر وقوع مثل هذا الأمر فى هذه المدينة وان كثر أخذها وعطاؤها .

وتداول الأمطار والرياح لا يمنع الانسان منهم عن الخروج الى شغله ، يقولون بلسان حالهم : اليد الفارغة تسارع الى الشر ، والقلب الفارغ يسارع الى الاثم .

وأهل « باريس » أغنياء جدا ، حتى ان المتوسط منهم أغنى من تاجر عظيم من تجار القاهرة ، فلا يرضون قول الشاعر :

ولا فخر الا بالنوال وبالعطا وليس بجمع المال عز ولا فخر

بل يحرصون على الأموال ، ويسلكون سبيل الحرص زاعمين أنه يزيد فى الأرزاق ، ولا يقتدون بقول الشاعر :

وليس يزاد فى رزق حريص ولو ركب العواصف كى يزادا

وقد يوجد بها من أهالى الحرف الدنيئة من ايراده كل سنة أبلغ من مائة ألف فرنك ، وذلك من كمال العدل عندهم ، فهو المعول عليه فى أصول سياساتهم،فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار أو وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار ، ولاشك أنه تأسس فى قلوبهم قول الشاعر :

والملك الجبار والمنيع ماعنده هاد ، ولا شفيع
رعية الجبار مرعى الحرب والملك العادل نصف الخصب

وهذا لا يمنع من أنهم يدفعون (الميرى) عن طيب خاطر ، لما أنهم يرون أن الخراج عمود الملك اذا دفع كل انسان منهم ما هو عليه قادر ، فمال (الميرى) هو قوام صورة الممالك ، واحسان مصرفه فى استحقاقه خير مما هنالك ، قال الشاعر :

والمال أس لقيام الصوره وخير منه صالح المشوره

ولما كانت رعيتهم رائعة كانت الدولة عندهم لها ايراد سنوى عظيم ، فان ايراد الدولة الفرنساوية كل سنة نحو تسعمائة وتسعة وثمانين مليونا من الفرنكات .

ومن جملة أسباب غنى الفرنساوية أنهم يعـرفون التوفير ، وتدبير المصاريف ، حتى انهم دونوه ، وجعلوه علما متفرعا من تدبير الأمور الملكية،ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى،فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف ، فان الوزير مثلا ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادما ، واذا مشى فى الطريق لا تعرفه من غيره فانه يقلل أتباعه ما أمكنه داخل داره وخارجها وقد سمعت أن قريب ملك الفرنسيس المسمى : الدوق « درليان » وهو الآن السلطان الذى هو من أعظم الفرنسيس مقاما ، وأكثرهم غنى ، له من الأتباع وسائر من طرفه من العساكر ونحوها (كالبستانجية) والخدم وغير ذلك نحو أربعمائة نفس لا غير ، والفرنسـاوية يسـتكثرون ذلك عليه فانظر الفرق بين باريس ومصر ، حيث ان العسكرى بمصر له عدة خـدم .

الفصل الثانى عشر

(فى دين اهل باريس)

قد تقدم لنا فى الشرطة أن دين الدولة هو دين النصارى « القاثوليقية » وقد بطل هذا الشرط بعد الفتنة الأخيرة وهم يعترفون للبابا الذى هو ملك رومة بأنه عظيم النصارى وكبير ملتهم ، وكما أن الدين القاثوليقى هو دين الدولة الفرنساوية كذلك هو دين غالب الناس عندهم ، وقد يوجد « بباريس » الملة النصرانية المسماة : « البروتستانية » وغيرها ، ويوجد بها كثير من اليهود المستوطنين ، ولا وجود لمسلم مستوطن بها ·

وقد أسلفنا أن الفرنساوية على الاطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم ، فهم داخلون فى اسم الكتابيين ، فلا يعتنون بما حرمه دينهم ، أو أوجبه ، أو نحو ذلك ففى أيام الصيام فى « باريس » لا ينقطع أكل اللحم فى سائر البيوت ، الا ما ندر ، كبعض القسوس ، وبيت ملك الفرنسيس القديم ، وأما باقى أهل المدينة فانهم يستهزئون بذلك ولا يفعلونه أبدا ، ويقولون : ان سائر تعبدات الأديان التى لا نعرف حكمتها من البدع والأوهام · ولا تعظم القسوس فى هذه البلاد الا فى الكنائس عند من يذهب اليهم ، ولا يسأل عنهم أبدا ، فكأنهم ليسوا الا أعداء للأنوار والمعارف · ويقال : ان غالب ممالك الافرنج مثل « باريس » فى مادة الأديان · ثم ان « مسيو دساسى » لما اطلع على ذلك كتب عليه ما نصه : قولك ان الفرنساوية ليس لهم دين البتة ، وانهم ليسوا

نصارى الا بالاسم فيه نظر ، نعم ان كثيرا من الفرنساوية خصوصا من سكان « باريس » ليسوا نصارى الا بالاسم فقط لا يعتقدون اعتقادات دينهم ، ولا يتعبدون بعبادات النصرانية ، بل هم فى أعمالهم لا يتبعون الا أهواءهم ، تشغلهم أمور الدنيا عن ذكر الآخرة ، تراهم ما دامت حياتهم لا يهتمون الا باكتساب الأموال بأى وجه كان ، واذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم ، ولكن فيهم أيضا من يقيم على دين آبائه يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويعمل الصالحات ، وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء ، ومن العوام والخواص ، بل ومن المشهورين بفضل العلم والأدب ، غير أنهم فى ورعهم وتقاهم على مراتب شتى : منهم من يشارك عامة الناس تصرفاتهم ، ويحضر معهم فى محافل اللذات أعنى « السبكتاكل » « والبال » ومجامع الأغانى ، ومنهم المتقشفون المعرضون عن كل ما تشتهيه الأنفس ، وهؤلاء أقل عددا ، وان دخلت كنائسنا أيام الأعياد المعظمة ظهر لك صحة قولى ٠

هكذا انتهت عبارته والحامل له على ذلك : كونه من أرباب الديانة ، وعددهم نادر ولا حكم له ٠

ومن الخصال العادية المهولة ببلاد الفرنسيس أو بلاد النصارى « القاثوليقية » : عدم الاذن بزواج القسيسين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ، فان عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم ٠

ومن الخصال الذميمة : أن القسيسين يعتقدون أنه يجب على العامة أن يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ، ليغفروها لهم ، فيمكث القسيس فى الكنيسة على كرسى يسمى كرسى الاعتراف ، فسائر من أراد أن تغفر ذنوبه يذهب الى كرسى الاعتراف ، داخل باب بينه وبين القسيس حائل كالشبكة ، فيجلس ، ثم يعترف قدامه بذنوبه ، ويستغفره ، فيغفر له ٠ وقد عرف عندهم أن أكثر من

يدخل الكنيسة أو يذهب الى الاعتراف يكون من النساء والصغار ، وهذا موافق لقول بعض شعراء الغرب :

ان من يدخل الكنيسة يوما   يلق فيها جآذرا وظباء

ودرجة القسيسية عندهم مختلفة فأولهم الكردينال وهو بعد « البابا » في الرتبة ، وذلك أن البابا قبل توليته يشترط أن يكون « كردينالا » ، ثم بعده « المطران » ثم بعده « الأسقف » ثم « الخورى » ثم « نائب الخورى » ثم « الشماس » ٠

وعند الفرنساوية أعياد دينية متنقلة : يعنى لا تقع فى يوم معين كل سنة ، بل هى دورية ومرتبة فى الغالب على وقوع عيد الفصح ٠

فمن أعيادهم الغريبة « عيد الرفاع » وقد تقدم ، ومنها عيد ظهور السيد المسيح ، ويسمى عند الفرنسيس : عيد الملوك ، وذلك أن كل عائلة تصنع فطيرة عظيمة ، وتضع فيها حبة فول فى عجينها ، ويقسمون الفطيرعلى الندامى ، فكل من جاءت حبة الفول فى نصيبه فهو الملك ، فان جاءت فى نصيب رجل فانه يسمى باسم الملك ، ويخاطب فوق المائدة وتمام الليلة بخطاب الملوك ، ثم يختار من النساء امرأة يجعلها الملكة ، فتخاطب أيضا بذلك الخطاب ، وان جاءت الفولة فى نصيب امرأة فانها أيضا تختار من الحاضرين شخصا كالزوج لها ، وتطلق عليه اسم الملك ، فيكون سائر اكرام الليلة للملك والملكة ، برسوم خاصة ، وقوانين مألوفة ، وهذه الكيفية تصنع فى سائر البيوت فى مدينة « باريس » حتى فى بيت ملك الفرنسيس ٠

ومن جملة بدع القسيسين أنهم يصنعون فى عيد القربان موكبا ويلبسون فيه حللا مطرزة ، ويدورون المدينة بشيء يسمونه « البونديو » وكلمة « البونديو » مركبة من كلمتين : الأولى : « بون » ومعناها : طيب ، أو عظيم ، والثانية « ديو »

ومعناها : الاله ، فكأنهم يقولون ان الاله حاضر فى الجحفة (١) التى بين أيدى القسوس ، والمراد عندهم « بالبونديو » عيسى عليه السلام · والفرنساوية يعرفون أن هذه الأمور من باب الهوس الذى يدنس بلادهم ، ويزرى بعقول أهلها · غاية الأمر أن العائلة السلطانية كانت تعين القسيسين على هذه الأمور ، فتمتثل الرعية لذلك مع غاية الحط والتشنيع ·

وللقسيسين بدع لا تحصى · وأهل باريس يعرفون بطلانها ، ويهزءون بها ، ولهم أعياد آخر لا يسعها هذا الكتاب ·

ثم ان لكل انسان من الفرنساوية عيدا وهو يوم مولد القديس الموافق له فى اسمه فاذا كان انسان اسمه بولص مثلا فان عيده يكون عيد « مارى بولص » ، فترى كل انسان اسمه « بولص » يصنع وليمة ويشهر عيده ، وفى عيد الانسـان يهادونه بأنواع الأزهار ·

---

(١) الجحفة : بقية ماء فى حوض ·

الفصل الثالث عشر

(في ذكر تقدم أهل باريس في العلوم والفنون والصنائع ،
وذكر ترتيبهم ، وايضاح ما يتعلق بذلك)

الذى يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعة فى هذا العصر بمدينة « باريس » أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة ، وأنه لا يوجد من حكماء الافرنج من يضاهى حكماء«باريس» بل ولا فى الحكماء المتقدمين كما هو الظاهر أيضا ، غير أن صاحب النقد السديد قد يقول : ان سائر الفنون العلمية التى يظهر أثرها بالتجارب ، معرفة هؤلاء الحكماء بها ثابتة ، واتقانها عندهم لا نزاع فيه ، كما يشهد لذلك قول بعض أجلة الحكماء : « الأمور بتمامها ، والأعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها » ٠

وأما أغلب العلوم والفنون النظرية فانها معروفة لهم غاية المعرفة ، ولكن لهم بعض اعتقادات فلسفية ، خارجة عن قانون العقل ، بالنسبة لغيرهم من الأمم ، غير أنهم يموهونها ٠ ويقوونها ، حتى يظهر للانسان صدقها وصحتها ، كما فى علم الهيئة مثلا ، فانهم محققون فيه : وأعلم ممن عداهم بسبب معرفتهم بأسرار الآلات المعروفة من قديم الزمان ، والمخترعة له ٠

ومن المعلوم أن المعرفة بأسرار الآلات أقوى معين على الصناعات غير أن لهم فى العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان

ردها ، وسيأتي لنا كثير من بدعهم ، وننبه عليها في محالها ان شاء الله تعالى .

وانما نقول هنا : ان كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع ، فسائر كتب الفلسفة يجرى فيها الحكم الثالث ، من الخلاف الذى ذكره صاحب متن السلم فى الاشتغال بعلم المنطق فحينئذ يجب على من أراد الخوض فى لغة الفرنساوية المشتملة على شىء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة ، حتى لا يغتر بذلك ، ولا يفتر عن اعتقاده ، والا ضاع يقينه ، وقد قلت جامعا بين مدح هذه المدينة وذمها :

أيوجد مثل « باريس » ديار شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح أما هذا وحقكم عجيب !

ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها ، فان لغتهم لا تحتاج الى معالجة كثيرة فى تعلمها ، فأى انسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أى كتاب كان ، حيث أنه لا التباس فيها أصلا ، فهى غير متشابهة . واذا أراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا ، فان الألفاظ مبينة بنفسها . وبالجملة فلا يحتاج قارىء كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر ، بخلاف اللغة العربية مثلا ، فان الانسان الذى يطالع كتابا من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق فى الألفاظ ما أمكن ، ويحمل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها .

وأما كتب الفرنسيس فلا شىء من ذلك فيها ، فليس لكتبها شراح ولا حواش الا نادرة ، وانما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة تكميلا للعبارة بتقييد أو نحوه، فالمتون وحدها من أول وهلة كافية فى افهام مدلولها ، فاذا شرع الانسان فى مطالعة كتاب فى أى علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكة الألفاظ

فيصرف سائر همته فى البحث عن موضوع العلم ، وعن مجرد المنطوق والمفهوم ، وعن سائر ما يمكن انتاجه منها ، وأما غير ذلك فهو ضياع بمثلا اذا أراد انسان أن يطالع علم الحساب ، فانه يفهم منه ما يخص الأعداد من غير أن ينظر الى اعـــراب العبـــارات ، واجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبـــارة كانت قابلة لتجنيس وقد خلت عنـــه ، وأن المصنف قدم كذا ، ولو أخـــره كان أولى ، وأنه عبـر بالفـــاء فى محـــل الواو والعكس أحسن ، ونحو ذلك ، ثم ان الفرنسيس يميلون بالطبيعة الى تحصيل المعارف ، ويتشوقون الى معرفة سائر الأشياء ، فلذلك ترى أن سائرهم له معرفة مستوعبة اجمالا لسائر الأشياء ، فليس غريبا عنها ، حتى انك اذا خاطبته تكلم معك بكلام العلماء ، ولو لم يكن منهم ، فلذلك ترى عامة الفرنساوية يبحثون ، ويتنازعون فى بعض مسائل علمية عويصة ، وكذلك أطفالهم فانهم بارعون للغاية من صغرهم ، فالواحد منهم كما قال الشاعر :

عشق المعانى الغر وهو مراهق　　　وافتض أبكار الفنـــون وليـــدا

فانك قد تخاطب الصغير الذى خرج من سن الطفولية عن رأيه فى كذا وكذا ، فيجيبك بدلا من قوله لا أعرف أصل هذا الشىء بما معناه « الحكم على الشىء فرع عن تصوره » ونحو ذلك ، فأولادهم دائما متأهلون للتعلم والتحصيل ، ولهم تربية عظيمة ، وهذا فى الفرنسيس على الاطلاق ٠

والعادة أنهم يزوجون أولادهم قبل تمام تعلمهم ، وهذا يكون غالبا فى عشرين الى خمس وعشرين سنة ، فقل منهم من كان فى سن العشرين ، ولم يبلغ درجة التدريس ، أو يتعلم صنعته التى يريد تعلمها ، غير أنه قد يمكث مدة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون

غاية التمكن ، وهذا السن فى الغالب تظهر به براعة الانسان وحسن طالعته ، كما قال الشاعر :

اذا ما أول الخطى أخطـــا فما يرجى لآخره انتصـــار
اذا جاز الفتى عشرين عامـــا وما بلغ المراد فـذاك عـــار

فكأن هذه (١) السن عند سائر الأمم سن انتهاء الناجب ، فانظر الى الأخضرى فانه فى سن احدى وعشرين سنة قد نظم رسالة السلم وشرحها ، وكذلك العلامة الأمير فانه فى دون العشرين بيسير صنف مجموعه فتورك (٢) على قول الأخضرى :

ولبنى احـدى وعشرين ســـنه معـــذرة مقبـولة مستحسنه

بأنه وهو فى دون ذلك السن ألف فى أصعب من ذلك المقام . وما قلناه بالنسبة لأرباب المعارف من الافرنج .

وأما علماؤهم فانهم منزع آخر لتعلمهم تعلما تاما عدة أمور ، واعتنائهم زيادة على ذلك بفرع مخصـوص ، وكشـفهم كثيرا من الأشياء ، وتجديدهم فوائد غير مسبوقين بها ، فان هذه عندهم هى أوصاف العالم ، وليس عندهم كل مدرس عالما ، ولا كل مؤلف علامة ، بل لابد من كونه بتلك الأوصاف ، ولابد له من درجات معلومة ، فلا يطلق عليه ذلك الاسم الا بعد استيفائها والارتقاء ، ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس ، لأن القسوس انما هم علماء فى الدين فقط ، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا ، وأما من يطلق عليه اسم العالم فهو من له معرفة فى العلوم العقلية ، التى من جملتها علم الأحكام والسياسات .

ومعرفة العلماء فى فروع الديانة النصرانية هينة جدا ، فاذا

---

(١) فى الأصل (هذا) .
(٢) تورك : اعتمد .

قيل فى فرنسا : هذا الانسان عالم لا يفهم منه أنه عالم فى دينه ، بل انه يعرف علما من العلوم الأخر [ى] ، وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى فى العلوم عمن عداهم . وبذلك تعرف خلو بلادنا ، عن كثير منها ، وأن الجامع الأزهر المعمور بمصر القاهرة . وجامع بنى أمية بالشـــام ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، ومدارس بخارى ونحو ذلك كلها زاهرة بالعلوم النقلية ، وبعض العقلية كعلوم العربيـــة ، والمنطق ، ونحـــوه من العلـــوم الآلية . والعلوم فى مدينة باريس تتقدم كل يوم ، فهى دائما فى الزيادة فانها لا تمضى سنة الا ويكشفون شيئا جديدا ، فانهم قد يكشفون فى السنة عدة فنون جديدة ، أو صناعات جديدة ، أو وسائط ، أو تكميلات ، وستعرف بعض هذا ان شاء الله تعالى .

ومما يستغرب : أن فى رجال العســكرية منهم من طبـــاعه توافق طباع العرب العربا فى شدة الشجاعة الدالة على قوة الطبيعة ، وشدة العشق الدالة ظاهرا على ضعف العقل ، مزاجهم كالعرب فى الغزل بالأشعار الحربية . وقد رأيت لهم كلاما كثيرا يقرب من كلام بعض شعراء العرب مخاطبا لمحبوبته بقوله :

ولقد ذكرتك والوغى بحر طغى والنقع ليل والأسنة أنجم
فحسبته عرسا ونحن بروضة وأنا وأنت بظلـــه نتنعـــم

وقول الآخـــــر :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنهـــا برقت كبـــارق ثغرك المتبسم

وقول صاحب لامية العجم :

لا أكره الطعنة النجلاء قـــد شفعت
برشقة من نبـــال الأعين النجل (١)

---

(١) عين نجلاء : واسعة جميلة .

ولا أهاب صفاح البيض تسعدنى
باللمح من خلل الأستار فى الكلل (١)

ولا أخل بغزلان تغازلنى
ولو دهتنى أسود الغيل بالغيل (٢)

ولنذكر لك مجامع العلماء ، والمدارس المشهورة ، وخزائن الكتب ، ونحو ذلك لتعرف به مزية الافرنج على غيرهم ٠

فمن خزائن الكتب : الخزانة السلطانية ، وفيها سائر ما أمكن الفرنساوية تحصيله من الكتب فى أى علم كان بأى لغة كانت ، مطبوعة أو منسوخة ، وعدة ما فيها من الكتب المطبوعة أربعمائة الف مجلد ، وفيها مبلغ عظيم من الكتب العربية الخزائنية التى يندر وجودها بمصر أو بغيرها ، وفيها عدة مصاحف لا نظير لها أبدا ، ثم ان المصاحف التى عند الفرنساوية فى خزائنهم غير مهانة ، بل هى مصونة غاية الصون ، وان كان عدم اهانتها حاصلا غير مقصود ، غير أن الضرر فى كونهم يسلمونها لمن يريد أن يقرأ القرآن منهم أو يترجمه أو نحو ذلك ٠ وتوجد المصاحف للبيع فى مدينة « باريس » ، وبعضهم لخص من القرآن العظيم سائر الآيات التى اختارها للترجمة ثم ترجمها ، وضم اليها قواعد الاسلام ، وبعض شعبه ، وقال فى كتابه : انه يظهر له أن دين الاسلام هو أصفى الأديان ، وأنه مشتمل على ما لا يوجد فى غيره من الأديان ٠

ومن خزائن الكتب : الخزانة المسماة خزانة « مسيو » وتسمى خزانة « الأرسنال » (٣) ومعنى « أرسنال » (ترسانة) وهى أعظم الخزائن بعد الخزانة السلطانية ، وبها نحو مائتى ألف مجلد

---

(١) الغيل : الشجر الكثير الملتف ، والغيل : جمع غيلة ، وهى القتل خدعة ٠
(٢) الكلل : جمع كلة ، وهى الستر الرقيق ٠
(٣) Arsenal la Bibliothéque.

مطبوعة ، وعشرة آلاف منسوخة ، واغلب هذه الكتب كتب تاريخ واشعار ، خصوصا الأشعار الايطاليانية ٠

ومنها : خزانة « مزارينه (١) » ، وفيها خمسة وتسعون الف مجلد مطبوعة ، وأربعة آلاف منسوخة ٠

ومنها : خزانة « الأنسطيطوت » (٢) أى دار العلوم ، وفيها خمسون الف مجلد ٠

ومنها : خزانة المدينة ، وهى نحو ستة عشر الف مجلد ، وهى دائما فى الزيادة ، وكتبها آداب ٠

ومنها : خزانة بستان النباتات (٣) ، وفيها عشرة آلاف مجلد ، فى العلوم وفيهــا خزانة الرصــد السلطانى ، وفيهـا كتب علم الهيئة ٠

ومنها :خزانة مكتب الحكمة ٠ ومنها خزانة « آكدمة (٤) الفرنسيس » وهى خمســة وثلاثون ألف مجلد ، وكل هذه خزائن موقوفة ٠

وهناك خزائن مملوكة وهى كثيرة جدا : فمنها ما يشتمل على خمسين‌الف مجلد ، ومنها للدولة نحو أربعين خزانة ، فأقل ما يوجد فى كل خزانة منها ثلاثة آلاف مجلد ٠ وأكثرها فى الغالب خمسون ألف مجلد ٠ وقد تنيف عن ذلك ولا حاجة لتسميتها هنا ٠

ولكل انسان من العلماء أو الطلبة أو الأغنياء خزانة كتب على قدر حاله ، ويندر وجود انسان « بباريس » من غير أن يكون تحت

---

(١) Mazarine.

(٢) Bibliotheque de L'Institut.

(٣) La Bibliotheque du Jardin des plantes.

(٤) Bibliotheque de L'Academie Française.

ملكه شيء من الكتب ، لما أن سائر الناس تعرف القراءة والكتابة ٠ وسائر بيوت الأعيان فيها خلوة مشتملة على خزانة الكتب ، وعلى آلات العلوم وأدواتها ، وعلى التحف الغريبة التى تتعلق بالفنون ، كالأحجار التى يبحث عنها علم المعادن ونحو ذلك ، ففى « باريس » كثير من الخزائن التى يقال لها « خزائن المستغربات » (١) ، فيوجد بها ما تتشوق اليه نفوس الفضلاء ليستعينوا به على الغوص فى الطبيعيات كالمعادن والأحجار والحيوانات البرية والبحرية المحفوظة الجثة ، وسائر المواليد من الأحجار والنباتات ، وسائر الأشياء التى فيها آثار القدماء ٠

وتعلق هذه الأشياء بالعلوم أن الانسان يدرس ما يراه فى الكتب ويقابله ، فان رآى فى كتاب تعريف حجر كذا ، وحيوان كذا ٠ وكان الحجر أو الحيوان نصب عينه قابله مع الأوصاف المذكورة فى الكتب ، وأنفع الأشياء بالنسبة للطبيعيات بمدينة « باريس » البستان السلطانى المسمى « بستان النباتات » وفيه سائر ما يعرفه البشر من الأمور الخارجة من الأرض الغريبة ، ويزرع بأرضه سائر النباتات الأهلية التى يعالجون تطبعها عندهم بقوة الصناعة والحكمة ، فيطالع طلبة علم العقاقير والحشائش دروسهم ويقابلون ما فى الكتاب على ما يرونه ، ويأخذون فرعا من كل صنف من الحشائش يضعونه فى نحو ورقة ، ويكتبون اسمه وخاصيته ٠ وفيه أيضا سائر مراتب الحيوانات الحية غريبة أو أهلية برية أو وحشية ، فيوجد بها نحو الدب الأبيض والأسود ، والسبع ، والضبع ، والنمورة والسنانير الغريبة ، والابل ، والجواميس ، وغنم بلاد التبت ، وزرافة سنار ، وفيلة الهند ، وغزلان البربر ، والأيل ، وبقر الوحش ، وأنواع القردة ، والثعالب ، وسائر أنواع الطيور المعروفة لهم ٠ وسائر هذه الحيوانات التى تراها حية بهذا البستان تراها

---

(١) يريد الطب السطرى ٠ "Les musées"

ميتة أيضا محشوة بالتبن ، يراها الانسان على صورة الحية ، كبو البقر الذى يصنعه الفلاحون بوادى مصر ٠

ويوجد فى هذا البســتان أروقة مملوءة بالمعادن النفيســة ، وسائر الأحجار سواء كانت (غشيمة) (١) أو طبيعية ، فترى فيها مراتب الطبيعيات الثلاثة بسائر أجناسها وأنواعها وأصنافها ،ففيها كثير من الأشياء التى لا يمكن أن نجد لها أسماء عربية كحيوانات بلاد أمريكية أو نباتها وأحجارها ٠

وكل هذه الأشياء موضوعة بهذا البستان كالعينة أو الأنموذج من كل شىء ، ومكتوب على كل شىء اسمه باللغة الفرنساوية ، أو اللاطينية ٠ مثلا فى القاعة التى فيها سبع مكتوب عليها اسم السبع باللغة الفرنساوية وهو « ليون » وهكذا ٠

ومما وقع فى هذا البستان ما اشتهر أن بعض الســباع قد مرض ، فدخل حارسه ، ومعه كلب فقرب الكلب من الأسد ، ولحس جرحه فبرىء الجرح ، فحصلت الألفة بين الأسد والكلب ، ودخلت محبة الكلب فى قلب الأسد فصار الكلب يتردد دائما على الأسد ، ويتملق اليه ، ويراه كأنه من أصــحابه ، فلما مات الكلب مرض الأسد لفرقته ، فوضعوا معه كلبا آخر ، امتحانا لتطبعه ، فتسلى به عن الميت ، ولا زال معه ٠

وفى بستان النبات رواق يسمى « رواق التشريح » وفيه جميع « المومى » أى الجثث المحنطة المصبرة ونحوها من الجثث ٠

ويوجد بهذا الرواق بعض شىء من جثة المرحوم الشيخ سليمان الحلبى الذى استشهد بقتله للجنرال الفرنساوى « كليبر » وقتل

---

(١) غشيمة أى غفلا ، خاما ٠

الفرنساوية له فى أيام تغلبهم على مصر ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٠

ومن محال العلوم الفلكية « الرصد السلطانى » (١) بمدينة « باريس » وهو من أغرب المراصد الموجودة على ظهر الدنيا ، وذلك أنه مبنى من مجرد الحجارة بغير دخول الحديد أو الخشب فى مادته ، وهو على شكل مسدس الأسطحة المتوازية القائمة الزوايا ، موجه الضلوع الأربعة الى الجهات الأربع : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب ٠ وفى طرف الجهة الجنوبية صومعتان مثمنتا الزوايا ، وفى طرف الجهة الشمالية صومعة ثالثة مربعة وهى باب الرصد ، وفيه رسم الفرنسيس فى رواق فى الدور الأول خط نصف نهارهم ، فخرج ذلك الخط يقسم الرواق قسمين متساويين فمن هذا الخط يحسب الفرنساوية درجة الطول ، فينسبون اليه غيره من الأماكن المغايرة له فى السمت ، وقد أسلفنا ذلك موضحا فى الفصل الأول من المقالة الثانية ، وارتفاع سطحه ثلاث وثمانون قدما فوق الأرض ، وهو منقسم الى عدة أروقة مناسبة لحاجة أشغال الفلك ، فمن هذه الأروقة ستة لها ممارق مفتوحة قطر كل ممرق ثلاثة أقدام ، وهو موضوع على كيفية يمكن معها رؤية السماء ، ويعين فيها على ما يحتاج الى رصده ، فترى منها النجوم وأنت فى المخادع التى تحت الأرض ، وفى هذه الأروقة امتحنوا ثقل الأجسام الطبيعية ، وميزان الهواء ٠ وفى هذا الرصد رواق كبير فيه آلات ، وعلى قلته آلة تعديل الرياح المسماة : « الانيمومتر » (٢) بها تقاس قوة الرياح وفيها طشت يسمى « دن العيار » يعدل به ماء المطر الذى ينزل كل سنة ٠

ومخادع هذا الرصد هى داخلة فى الأرض التى عمقها يساوى سمك حيطان الرصد ، والى هذه المخادع ينزل بدرج على الدوران

(١) L'Observatire Royal.

(٢) Anémomètre.

والانعطاف ، كدرج المنارة ، وعدة درجها ثلثمائة وستون ، ووظيفة هذه المخادع أنها قد تفيد الطبائعيــة والكيماوية أن يصنعوا بهــا تجاربهم بأن يجمدوا فيها المائعات ، ويبردوا بها الأجسام ، ليعرفوا مزاج الأهوية ، وفيها رواق يسمى « رو:ق المناجاة » أو رواق الأسرار وذلك أن فيه أمرا عجيبا من قرع الصوت للأذن ، أى وصوله بالهواء اليها ، وذلك أن بالرواق عمودا يقابله عمود آخر ، فاذا وضع الانسان فمه على العمود ، وأسر بكلام فانه يسمعه الانسان الذى بالعمود الآخر ، ولا يسمعه من يقرب منه ، وهذه الأمور يفهمها من له المام بخاصية الصوت •

ومن المحــال العلميــة بمدينــة باريس موضـــع يقــال له : « الكنسروتواز » (بضم الكاف ، وسكون النون ، وكسر السين ، وسكون الراء ، وفتح الواو ، وسكون التاء) كلمة فرنساوية معناها المخزن أو المحفظ ، أو نحو ذلك ، وفى هــذا المحل جميع الآلات سواء العظيمة وغيرها ، خصوصا الآلات الهندسية ، كآلات الحيل ، وتحريك الأثقال ، ويزعم الفرنساوية أنه ليس فى الدنيا نظير هذا المخزن ، وفى هذا المحل يرد الصدى صوت الشخص برد عجيب •

ثم انه يكثر بباريس مدارس سائر العلوم والفنون والصنائع ، وقد سلف الكلام على اعتناء الفرنساوية بالحكمة يعنى علم الطب ولهم فيها مدارس كثيرة •

ولنذكر هنا محال العلماء ومراتبهم فنقول : ان العلماء فى مدينة « باريس » لهم مجامع عظيمة تسمى بأسماء مختلفة ، فمنها ما يسمى : « أكدمة » ، ومنها ما يسمى : مجمعا أو مجلســـا ، « الأنسطيطوت » غندهم اسم عام يشـــتمل على جميع اجتمــاع « الأكدمات » أى المجالس الخمس ، وهى : « أكدمية » اللغـــة الفرنساوية و « أكدمية » العلوم الأدبية ، ومعرفة الأخبار والآثار ، و « أكدمية » العلوم الطبيعية والهندسية ، و « أكدمية » الصنائع

الظريفة (١) ، و « أكدمية » الفلسـفة . وقولنـا « أكدمية » أو «أكدمة» أو «قدمة» هو لفظ مأخوذ من اسم مكان في مدينة «أثينا» كان أفلاطون الحكيم يعلم فيه تلاميذه ، ومنه قيل لطائفة من الفلاسفة القدماء : « الأكدميون » وكان يقال لهذا المكان « أكدمية » لأن صاحبه كان شخصا يونانيا اسمه : « أكدمس » ، وقد جعل هذا المكان وقفا لأهل مدينة « أثينا » ، وصيروه بستانا يتماشون فيه ، ويتفرجون ، فكان يدرس فيه أفلاطون ، ومنه قيل لجماعة أفلاطون « أكدميون »ويقال لهم « أفلاطونيون » وهم مشهورون أيضا في كتب العربية بالاشراقيين (بالقاف ، والفاء) ويقال لهم أيضـا الهيون ، ويطلق « أكدميون » الآن عند الفرنسـاوية فيفهم منه بمجرد اطلاقه أهل أكدمة الفرنسيس ، وهم كبار علماء الفرنساوية ، فاذا قيد فالمعنى ظاهر كما اذا قيل : « أكدمة مصر » ، فالمراد بها الجامع الأزهر ، لأن المراد به ديوان أكابر علماء مصر .

فأول علماء « باريس » بل وعلمـاء فرنسـا ديوان العلوم المسمى : « أكدمة الفرنسيس » وأهلها أربعون عالما ، كل واحد من الأربعين يسمى : عضوا ، يعني أن هذا الديوان بأربابه كالبدن ، وكل واحد كالعضو منه ، وفي الغالب أن أرباب هذا الديوان لهم فضل عظيم على من عداهم من الفرنسـاوية ، ووظيفتهم تأليف القواميس الفرنساوية ، وأنهم يمتحنون مؤلفات العلوم الأدبية وكتب التاريخ . وقد اتفق أن بعض علماء الفرنسيس قد بلغ درجة عالية في العلوم ، وصلح لأن يكون من أرباب هذه « الأكدمة » بدل واحد من أربابها مات ، وكان هذا العالم كثير المجون ، فتوقفوا في قبوله في هذا الديوان ، فما كانت حيلته الا أنه كان دائما يعرض بهجو أهلها . فمن نوادر وقائعه : أنه مر ذات يوم ومعه بعض أصحابه على هذه « الأكدمة » فتحدث مع أصحابه ، فتذاكروا في فضـل

---

(١) يريد بها الفنون الجميلة "Les Beaux Arts"

علماء « أكدمة » فقال : لا شك أن عقول أرباب هذا الديوان كعقل أربعة ، يشير بذلك الى بعض الأمثلة (١) الفرنساوية ، من قولهم فى مدح الانسان : ان له عقلا كعقل أربعة ومشيرا الى أن عقل كل عشرة منهم كعقل واحد ، فظاهر عبارته من باب المدح وباطنها غير ذلك ٠

ومن نوادره : أنه كتب قبل موته كعادة الفرنساوية على رخامة قبره المهيأ له بيت شعر باللسان الفرنساوى يقول فيه ما معناه بالعربية :

ها قبر من لم يك شيئا أيمه   كلا ولا من علما أكدمه

ومعناه : هذا قبر من لم يصل الى درجة أياما كانت حتى لو بلغت هذه الدرجة فى الحقارة درجة هؤلاء العلماء ٠

وهناك أكدمة تسمى « أكدمة تقييد الفنون الأدبية » وأهل ديوان هذه الجمعية ثلاثون نفسا ، ووظيفتها الاشتغال بالألسن النافعة ، وبآثار القدماء خصوصا بالمبانى الغريبة ، وبالعلوم الأدبية وبعوائد الأمم وأخلاقها ، وغالب شغلها تكميل آداب العلوم الفرنساوية بما خلت عنه ، مما هو فى كتب علوم اللغات الغريبة ، كاللاطينية ، والعربية ، والفارسية ، والهندية ، والصينية ، واليونانية ، والعبرانية ، والقبطية وغيرها ٠

ومن الأكدمات الأكدمة المسماة « أكدمة العلوم السلطانية » وأهلها منقسمون أحد عشر قسما ، لكل قسم منهم فرع مخصوص فتكون فروعهم اثنى عشر فرعا : فأهل القسم الأول : يشتغلون بالرياضيات ، كالهندسة والحساب : وأهل القسم الثانى بعلوم الحيل كعلم جر الأثقال ونحوه ، والثالث : بالعلوم الفلكية ، والرابع : بالعلوم الجغرافية ، والعلوم التجريبية ، والخامس :

---

(١) يريد الأمثال ٠

بعلم الطبيعة العامة ، والسادس : بالطبيعة ، والسابع : بعلم المعادن والأحجار ، والثامن : بعلم الحشائش ، والتاسع : بتدبير مصاريف الأرض ، والعاشر : بتطبيب الدواب ، والحادى عشر : بالتشريح ، والثانى عشر : بفن الطب والجراحة ٠

ومنها : الأكدمة السلطانية المسماة : « أكدمة مستظرفات الفنون » (١) ، وهى خمسة فروع : الأول : فن الرسم ، الثانى : فن النحاتة ، الثالث : فن العمارات ، الرابع : فن النقاشة ، والخامس : فن تركيب حروف الموسيقى ٠

ومنها : مكتب الفنون الظريفة ، وهو مكتب موقوف على تعليم علم الرسم وتوابعه ، وفيه يتعلم الرسم ، والنقاشة والعمارة ٠

ومن مجالس العلوم جمعية تسمى : « أثينة الفنون » وهى تعين على تقدم الفنون والصنائع ، وهى كالحكم الذى ينفذ الأشياء ، ويقضى فيها برأيه ٠

ومنها : « أثينة باريس » السلطانية ، وهى محل علوم وفنون ، ولا يكون فيها الانسان للتعلم الا اذا دفع شيئا يسيرا كل سنة ، والمدرسون فيها أرباب فضل ٠

ومنها : جمعية تسمى « الجمعية الفيلوماتية » (٢) ومعناه : محبو العلوم ـ والغرض من هذه الجمعية الاعانة على التقدم فى علوم التولدات ، وهى مرتبة الحيوانات والنباتات والمعادن ٠

ومنها : جمعية تشتغل بعلوم الانشاء والبلاغات والغرض من هذه الجمعية تدوين العلوم الأدبية ، وحفظ غريبها ، حتى لا تفسد

---

(١) Les Beaux Arts.

(٢) La Société philomathique.

لغة الفرنسيس ، واذا اخترع الانسان معنى غريبا ، أو أجاب عن سؤال غريب أو قال شعرا مقبولا ، فانهم يعطونه جائزة ذلك .

ومنها : جمعية تسمى « حسن الدروس » ووظيفتها تعليم الآداب القاثوليقية ، والدين القاثوليقى .

ومنها : جمعية تسمى « أكدمة ابناء أبلون » يعنى الأدباء ، وهى مجلس أرباب الفنون الأدبية .

ومنها : جمعية تسمى « الجمعية الأسياتية » (١) يعنى فى لغات أهل آسيا ، أو اللغات المشرقية ، ووظيفتها تحصيل كتبها الغريبة ، وترجمتها الى الفرنساوية ، أو طبعها لتشتهر .

ومنها : جمعية تسمى « الجمعية الجغرافيـة » وهى معـدة لتحسين وتكميل علم الجغرافيا ، فهى تقوى الناس على السفر الى البلاد المجهولة الأحوال ، فاذا سافر فيها انسان ورجع يطلبون منه سائر ما علقه عليها ، فتأخذ ما علقه وتقيده وتدخله فى كتب الجغرافيا ولذلك كان ذلك العلم عند الفرنساوية دائما يأخذ فى الكمال . وبالجملة : فهذه الجمعية هى التى تخدم سائر ما يتعلق بالجغرافيا ، كطبع (الخرطات) ونحوها .

ومنها : الجمعية « الغرماتيقية » يعنى المشتغلة بنحو اللغة الفرنساوية فان علم النحو يسمى فى اللسان الفرنساوى « الأغرمير » وباللاطينية والايطالية « أغرماتيقا » ووظيفة هذه الجمعية : الاشتغال بتصحيح اللغة وتجديد اصطلاحات ، أو ابقاء الاصطلاحات القديمة ، لأن اللسان الفرنساوى لسان غير قار القواعد كتابة وقراءة .

ومنها : جمعية تسمى « جمعية المولعين بالكتب الخزائنية » ووظيفة أهل هذه الجمعية الحث على طباعة الكتب النافعة النادرة .

---

(١) La Société Asiatique.

ومنها : جمعية للخطاطين ، وأهلها يشتغلون باجادة الخط ٠

ومنها جمعية تسمى : جمعية المغناطيسية الحيوانية ، وهى جماعة تقول : بوجود سيال مغناطيسى فى الحيوان ٠

ومنهـــا : جمعية « حفظة آثار القدماء » ، وهى جمعية معـدة لحفظ ســـائر ما يوجـد من الآثار الباهرة عند القدماء كبعض مبانيهم ، وموميائهم ، وملبسهم ونحـــو ذلك ، والبحث عن ذلك : ليتوصـــل به الى دراســـة عوائدهم ففى ذلك يوجـد كثير من الأمور النفيسة المأخوذة من بلاد مصر ، كالحجر المصور عليه فلك البروج المأخوذ من « دندرة » فان الفرنساوية يتوصلون به الى معرفة الفلك على مذهب قدماء أهل مصر ، فان مثل ذلك يأخذونه بغير شيء الا أنهم يعرفون مقامه ، فيحفظونه ، ويستخرجون منه نتائج شتى ، ومنافع عامة ٠

ومنها : مكتبة تسمى « مكتبة الأطوال » ، وأهلها اثنا عشر : ثلاثة مهندسون ، وأربعة فلكيون ، وأربعة بحرية ، وواحد جغرافى ، فيشتغلون بعلم الهيئة ، وتأليف (الرزنامات) السنوية ، وتحرير الزيجات (١) ، وذكر أطوال البلاد ٠

ومنها : الجمعية السلطانية فى علوم الفلاحة ، وتحرير توفير المصاريف البرانية والجوانية وأهل هذه علماء ، أغنياؤهم يعطون الجائزة لمن يخترع شيئا جديدا نافعا ٠

ومنها جمعية لتحسين الأصواف ، ووظيفة أهلهـــا مباشرة ما يتعلق بالغنم ٠

ومنها : جمعية تعين على حث الفرنســاوية على البراعة فى الفنون والصنائع ، وهى تعين الصنائع بسائر أنواعها على التقدم ،

---

(١) التقاويم ٠

فاذا اقترح انسان شيئا نافعا أخذ من أهل هذه الجمعية تحفة عظيمة وشهرة ٠

وفى باريس مدارس سلطانيـــة تســمى : « الكوليج » (١) (بضم الكاف ، وفتح اللام ، وسكون الياء) وهى مدارس يتعلم فيها الانسان العلوم المهمة التى تكون وسائل فى الأمور المقصودة منها ، وهى خمسة (كوليجات) يدرس فيهـا صناعة الانشـاء والتأليف ، والألسن القديمة الغريبة ٠ والعلوم الرياضيات ، وعلم التاريخ ، والجغرافيا ، والفلسفة ، وأصــول الطبيعيات ، يعنى كتبها الصغيرة ، وعلم الرسم ، وعلم الخط وفيها مراتب للطلبة ، فان الانسان يسلك فيها فى العادة مرتبة كل سنة ، ففى كل سنة من ست سنين يخرج الانسان من مرتبة الى أعلى ، فهى بالترقى ، لا بقوة الفهم ولا بغيره ، فلا يمكن للانسان أن يتعدى أبدا [مرتبته] ٠

وهناك (كوليجان) آخران غير سلطانيين ، وفيهما يدرس ما يوجد فى (الكوليجات) الخمسة السابقة ، وفيها (كوليج) آخر يسمى (كوليج الفرنساوية السلطانى) وهو أعظم جميعها فيتعلم فيه الرياضيات ، والطبيعة المخلوطة بالحساب ، والطبيعة العملية ، والهيئـة ، والطب ، والتشريح العمليان ، وفيـــه تعلم اللغـات : كالعربيـة والفارســية ، والتركيـــة ، والعبرانية ، والسريانية ، والهندسة ، ولغة أهل الصين ، وعلومهم ، ولغة التتار، والحكمة اليونانية التى هى فلسفة اليونان ، وعلم الفصاحة والبلاغة فى اللسان اللاطينى ، وعلوم بلاغة اللغة الفرنســاوية ٠ وهذا (الكوليج) يشتمل على أكابر المدرسين ، وفيه ستة آلاف طالب ، ومن أشهر المدارس : مدرسة « بوليتقنيقا » (٢) (بضم الباء وكسر اللام ، وسكون الياء والقاف ، وكسر التاء والنون ، وسكون الباء)

(١) Collège.

(٢) L Ecole Polytechnique.

يعنى مدرسه كليات العلوم ، وفيه يدرس الرياضيات ، والطبيعيات ، لتربية مهندسين فى علم الجغرافيا ، وفى العسكرية ، فمهندسو الجغرافيا يهندسون القناطر والأرصفة والطرق والجسور والخلجان ، وكل آلات الحيل ورفع الأثقال · وأما مهندسو العلوم العسكرية ، فهم يهندسون القلاع والحصون والبروج ، والتوقى من ضرر الأعداء ، واتخاذ العراضى ، وهندسة تسييب البارود · وأرباب هذه المدرسة محققون ، لهم باع فى سائر العلوم ، ويكفى فى فضل الانسان أن يكون من تلاميذها ·

ومنها : مكتب يسمى « مكتب الفروع الفقهية » فيدرسون فيه أحكام المعاملات والجنايات ونحوها ·

ومنها : مكتب موقوف على تعليم علم الرسم ، فيدرس فيه الذكور والاناث علم التضوير ·

ومنها : مكتب الغناء السلطانى فيتعلم فيه أيضا الذكور والاناث علم الألحان الصوتية والغناء الكنائسى ·

ومنها : مكتب موقوف أيضا على الرسم والرياضيات ، لتكون وسائل للفنون ، فيتعلم فيه الحساب ، والهندسة ، والقياس ، ونحاتة الحجر والخشب ، وعلم المساحة ، وتصوير البهيمة ، والآدمى ، والأزهار وأنواع الزينة ·

ومنها : مكتب القناطر والجسور : وفيه يتعلم هندسة الطرق والخلجان والأرصفة ·

ومنها : مكتب سلطانى لتعلم علم المعادن ، وفيه يتعلم وسائط كشف المعادن واستخراجها ·

ومنها : مدرسة الفنون والحرف يتعلم فيهما علما الكيميا والهندسة الداخلان فى الحرف والفنون ، وفيها يوجد سائر آلات الصنائع الموجودة الى هذا العصر ·

ومنها : مكتب يسمي : مكتب اللغات المشرقية المستعملة ، وفيه يتعلم الفارسي والملاباري والعربية الأصلية والدارجة ولغة الترك والأرمن والروم ·

ومنها : مكتب يسمى « مكتب الأرليغولوغى »(١) (بفتح الهمزة وسكون الراء وكسر اللام ، وسكون الياء ، وضم الغين واللام وكسر الغين الأخيرة) يعنى تفسير الكلمات المكتوبة من قديم الزمان فى اللغات القديمة ، فيفسرون فيه النقود والمعاملات المكتوبة فى الأزمنة السالفة والأحجار المنقوشة ، وترجمة الهياكل القديمة المكتوبة ·

ومنها : مكتب سلطانى يتعلم فيه تواريخ الدول وسياساتها ، ونحو ذلك ·

ومنها : مكتب سلطانى للموسيقى والانشاء ، والخطابة ، وفيه يتعلم أهل اللعب والغناء والآلاتية ، من الذكور والاناث ، وأهل التعلم به أربعمائة نفس ·

ومنها : مدرسة بستان السلطان ، التى هى بستان النباتات ، وبها يقرأ ثلاثة عشر درسا فى جملة فروع · كعلم الحشائش ، والطبيعيات ، والكيميا ، والمعادن ، والتشريح ، والمقابلة بين أجزاء بدن الآدمى والبهيمة ·

ومنها : مكتب يسمى « مكتب البستنجية » (٢) وفيه يتعلم علم زراعة الشجر ، وحفظه من البرد وتطبيع (٣) النباتات الغريبة المنقولة على اقليم المحل الذى نقلت اليه ·

---

(١) L'Ecole de L'archéologie.

(٢) البستنجة : البستانيين – يريد علم فلاحة البساتين ·

(٣) التطبيع : جعلها تنطبع بحالة الاقليم الجديد ·

ومنها : مكتب تقليم الأشجار غير المثمرة لاخراج ثمرها ·

ومنها : مكتب تعليم النباتات والمعادن لمن يريد السفر فى بلاد ليميز نباتها ومعدنها ·

ومنها : مكتب يسمى : « طب البهائم » (١) ، وفيه يتعلم تطبيب البهائم ، وفيه مارستانات للحيوانات المريضة ، وفيه مدرسة كيميا ، ومدرسة لعلم الطبيعة ، وفيه العقاقير ، وبستان حشائش ، ومكتب للفلاحة العملية ، وجملة أجناس من البهائم ، معدة لتجربة اختلاف أصناف البهائم وأصولها ، فيطلقون فيه صنفا مثلا من الخيل على صنف آخر ، كحصان عربى على حجرة (٢) أندلسية ليتولد منها صنف آخر ·

ومنها : مكتب الصم البكم ، وهو موقوف على مائة نفس ، ويدخلون فيه من احدى عشرة الى ست عشرة ، فيتعلم فيه القراءة والكتابة ، والحساب واللسان ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وصنعة من الصنائع · وفى هذا المكتب (ورشة) يتعلم فيها علم الطباخة ، والنقاشة ، والنجارة والخراطة والخياطة ، (والصرماتية) ونحوها ·
ومنها : مكتب العميـــان السلطانى ، وهو موقوف على جملة محصورة من العميان ، فيتعلمون القراءة على شىء مكتوب لهم كتابة مخصوصة فيمسونها باليد ، ويتعلمون أيضا علم الجغرافيا ، على خرطات مخصوصة أيضا ، ويتعلمون التاريخ واللغات ، والرياضيات، والموسيقى بالصوت وبالآلة ، وغير ذلك من الحرف كشغل الجرابات ونحوه ·

وغير ما ذكرنا يوجد أيضا عدة مدارس ·
ويوجد فى « باريس » أيضا مكاتب تسمى : « البنسيونات »

(١) يريد الطب البيطرى ·
(٢) الحجرة بسر الحاء : الأنثى من الخيل ·

جمع « بنسيون » (بفتح الباء وسكون النون ، وكسر السين ، وضم المثناة التحتية ، وسكون الواو) وهى مكاتب يتعلم فيها الصغار الكتابة والقراءة وعلوم الآلات كالحساب ، والهندسة ، وغيرها ، كالتاريخ ، والجغرافيا ، وهى نحو مائة وخمسين (بنسيونا) وفيها أكل الانسان ، وشربه ، ونومه ، وغسل ثيابه ، ونحو ذلك ، فيدفع أهالى الأولاد قدرا معلوما فى السنة ٠

وغير البنسيونات المذكورة يوجد بيوت صاحبها عالما ، فيأخذ عنده عدة أولاد ، ليأكلوا معه ، ويشربوا معه ، ويعلمهم بنفسه ، أو يحضر لهم معلمين عنده ٠

وغير هذا كله فكثير من الناس يحضر لأولاده المعلم فى البيت كل يوم ليعلمهم عنده ٠

ومن الأشياء التى يستفيد منها الانسان كثير الفوائد الشاردة التذاكر اليومية المسماة « الجرنالات » (١) ، جمع « جرنال » وهو يجمع اللغة الفرنساوية على « جرنو » وهى ورقات تطبع كل يوم ، وتذكر كل ما وصل اليهم علمه فى ذلك اليوم ، وتنشر فى المدينة وتباع لسائر الناس ، وسائر آكابر « باريس » يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر القهاوى ٠ وهذه « الجرنالات » مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها ، وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسنا أو قبيحا ، وأن تقول رأيها فى تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ، ما لم تضر بذلك ، فانه يحكم عليها وتطلب بين يدى القاضى ٠

« والجرنو » عصب ، فكل جماعة لها فى رأيها مذهب كل يوم تقويه وتحاميه ، وتؤيده ٠ ولا يوجد فى الدنيا آكذب من « الجرنالات » أبدا خصوصا عند الفرنسيس الذين لا يتحاشون الكذب الا من حيث كونه عيبا ٠

---

(١) الصحف Les journaux.

وبالجملة فكتاب « الجرنو » أسوأ حالا من الشـــعراء عند تحاملهم أو محبتهم ٠

« والجرنالات » مختلفة الأنواع والأصناف ٠ فمنها ما هو معد لذكر أخبار داخل مملكة الفرنسيس وخارجها ٠ ومنهـا ما هو مخصوص بأمور المملكة فقط ، وما هو للمعاملات وما هو للطب ولكل علم على حدته كعلم الطب الى آخره ٠

والجرنال الواحد ينطبع منه غالبا للبيع خمسة وعشرون ألف نسخة ، وكل جرنال تكثر نسخه على حسب رغبة الناس ٠ وأرباب « الجرنو » يعرفون الأخبار الغريبة قبل غيرهم ، لأن لهم مراسلات مع سائر البلاد ، وهم فى الواقع كخطباء الأمة يتعرضون للمدح والذم ، والاستحســـان والاســـتقباح ، والتحسين والتقبيح ، والاغـــراء والتحذير ، الى غـير ذلك ٠ وقبلهم فى ذلك المؤلفون ، وربمـــا اتخذ المؤلفون خطـابات أربـاب « الكازيطـــات » (١) ، مادة لهم وأعلى درجة منهم أرباب الخطابات بالجمعيـات العمومية الذين هم من أعضـاء المجالس ، وهم أعلى طبقة فى الاعتبـار من الشعراء ، فاذا نظرت وجدت هذا على نسق العرب فى قديم الزمان ، فقد قال أبو عمرو بن العلاء ما نصه : كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر ، الذى يقيد عليهم مآثرهم (٢) ويفخم شأنهم ، ويهـول على عدوهم ، ومن غزاهم ، ويهيب (٣) من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشـعر والشـعراء واتخذوا الشعر مكسبه ورحلوا الى السوقة،وتشرعوا(٤)الى أعراض الناس صار

---

(١) الكازيطات Gazettes هى الصحف ٠

(٢) فى الاصل : باثرهم ـ تحريف ٠

(٣) هيب الى فلان : جعله مهيبا عنده ٠

(٤) يريد : اتخذوا الى أعراض الناس طريقا ٠

الخطيب عندهم فوق الشاعر . ولذلك قال الأول : الشعر أدنى مروءة السرى (١) وأسرى (٢) مروءة الدنى ، ولقد وضع (٣) قول الشعر من قدر النابغة الذبياني ، ولو كان فى الدهر الأول ما زاده الا رفعة .

ومن جملة علوم « باريس » الدفاتر السنوية ، والتقويمات الجديدة ، والزيجات (٤) المصححة ، ونحو ذلك . فكل سنة يظهر فيها كثير من (الروزنامات) المشتملة على التواقيع وعلى غرائب العلوم والفنون ، وعلى كثير من أمور الدولة ، وعلى تسمية أكابر الدنيا ، وتسمية أعيان فرنسا ، وتعيين بيوتهم ودرجاتهم ووظائفهم ، فاذا احتاج الانسان الى اسم واحد ، والى بيته راجع فى ذلك الكتاب .

وفى « باريس » (أوض) القراءة أو خلوات القراءة ، فيذهب الانسان فيها ، ويدفع قدرا معلوما ، ويقرأ سائر « الجرنالات » وغيرها من الكتب ، ويستأجر منها ما يحتاجه من الكتب ويأخذه عنده ويرجعه .

ومما يبهر العقول فى باريس دكاكين الكتبية وخاناتهم ، وتجارات الكتب،فانها من التجارات الرائجة مع كثرتها وكثرة المطابع، وكثرة التأليف التى تنطبع كل سنة فانها يعسر حصرها ، وأغلبها المقصود منه الكسب لا النفع،ولا تمر سنة بمدينة «باريس» الا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير ، واعتناؤهم بالمعارف هو أحسن ما ينبغى أن يمدحوا به ، قال الشاعر :

---

(١) السرى : صاحب الشرف والمروءة .

(٢) أسرى : أشرف .

(٣) وضع من فلان : حط من قدره .

(٤) الزيجات : التقاويم .

اذا شئت أن تحظى من الكتب كلها   بأطيب مروى وأحسن مسموع
فطالع مجاميـع الدفاتر ، انهـا   تفرق من هم الفتى كل مجموع

وقال آخر :

اجعل جليسك دفترا فى نشره   ليريك من حكم الزمان نشـورا
ومفيد(١) آداب،ومؤنس وحشة   واذا انفردت فصاحبا وسميرا

وبالجملة فلا يمكن وصف مدينة « باريس » مع تفصيل علومها وفنونها ، الا أنه يمكن التعبير عن ذلك اجمالا كما ذكرنا ٠

(١) الأصل : « معيد » وهو تحريف ٠

المقالة الرابعة

فيما كنا عليه من الاجتهاد والاشتغال بالفنون المطلوبة لتحصيل غرض الوالى : وفى تدبير اشغال الزمن فى القراءة والكتابة وغيرهما ، وفى المصاريف الواسعة الخارجة من طرف الوالى ، وفى عدة مراسلات بينى وبين بعض خواص الافرنج تتعلق بالتعلم . وفى ذكر ما قرأته من الفنون والكتب بمدينة « باريس » .

ومن هذه المقالة تفهم أن تعلم الفنون ليس سهلا ، وأنه لابد لطالب المعارف من اقتحام الأخطار ، لبلوغ الأوطار ، فى تلك الأقطار .

قال الشاعر :

دعينى أنل ما لا ينال من العلا
فصعب العلا في الصعب ، والسهل في السهل
تريدين أدراك المعالى رخيصة
ولابد دون الشهد من ابر النحل

وقال آخر وهو من الكلام الجامع :

من كان يعلم أن الشهد راحته فلا يخاف للدغ النحل من ألم

وقال آخر أيضا :

ان الفضائل بالأخطار مولعة فابغ الفضائل وابذل جهدك الثمنا
وان أراك الهوى منه الهوان فقل حكم المنية فى حب الحبيب منى

الفصل الأول

(فيما حصـل لنا فى أول الأمر من الترتيب فى القراءة والكتابة وغيرهما)

من عادة أهـل « باريس » أنهـم فى التعليم يبتدئون بتعليم الانسان القراءة فى كتب عظيمة الحروف لترسم صورها فى ذهنه ، وفى هذه الكتب توجد الحروف الهجائية بتركيبها ، ثم بعدها عدة ألفاظ لغوية من الأسماء والأفعال · فهذه الطريقة يتعلم الانسان منها الكتابة ، ويحفظ هذه الكلمـات ، وينطق بها كما ينبغى ، حتى تخرج لغته من صغره صادقة الجودة ، ثم بعـدها تلقى فى هذه الكتب عدة جمل سهلة التعقل ، تناسب الصغار ، فمن هذه الجمل ما وجدناه فى الكتاب الذى قرأناه : هذه فرس لها أربع أرجـل ، والطيور ليس لها الا رجلان ، لكن لها أجنحة تطير بها ، وأما السمك فانه يسبح فى الماء ، ونحو ذلك مما هو معلوم للمخاطب ، فهو مثل قول النحاة : السماء فوقنا ، والأرض تحتنا ، الممثل به لما لم يفد فائدة جديدة ، على اختلاف تفسير الوضع (١) فى قولهم : الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع ، ثم بعد ذلك يوجد فى هذا الكتاب أوصاف الحيوانات المعروفة ، خصوصا التى تتعلق الصغار باللعب بها : من العصافير ، والطيور ، والسنانير ، ونحو ذلك ، ثم بعد ذلك نبذة صغيرة فى كيفية سلوك الصغار : وطاعتهم للوالدين ونحو

---

(١) يقول علماء الوضع : ان الكلمات انما أفادت معانيها بوضعها لهذه المعانى ·

ذلك ، ثم نبذة فى علم الحساب ، فبعد فراغ هذا الكتاب يبدءون فى قراءة كتاب أهم منه ٠

وفى كتاب النحو الفرنساوى وغيره ، وتقسيم الزمن على دروس الانسان ، فان الانسان يتعلم فى النهار عدة أمور مختلفة ، فيقرأ فى الصباح مثلا التاريخ ، ثم بعده درس تصوير مع معلم الرسم ، ثم بعده درس النحو الفرنساوى،ثم بعده درس تقويم البلدان ، ودرسا مع معلم الخط لتعليم قواعد الكتابة : الى آخره ٠ وقد أسلفنا ذلك ٠

ولما كانت آمال الوالى متعلقة بتعلمنا عاجلا ، ورجوعنا الى أوطاننا ابتدأنا فى « مرسيليا » قبل وصولنا الى « باريس » وتعلمنا فى نحو ثلاثين يوما التهجى ، ثم لما ذهبنا الى « باريس » مكثنا جميعا فى بيت واحد ، وابتدأنا فى القراءة ، فكانت أشغالنا مرتبة على هذا الترتيب ، وهو : أنا كنا نقرأ فى الصباح كتاب تاريخ ساعتين : ثم بعد الغذاء نتعلم درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغةالفرنساوية:
ثم بعد الظهر درس رسم ، ثم درس نحو فرنساوى ، وفى كل جمعة ثلاثة دروس من علمى الحساب والهندسة ٠ وفى مبدأ الأمر كنا نأخذ فى درسين : يعنى فى معرفة الكتابة الفرنساوية ، ثم بعد ذلك كنا نأخذ كل يوم درسا ، ثم انتهى الأمر الى أننا تعلمنا الخط ، فانقطع عنا معلم الخط ، وأما الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم نزل نشتغل بها حتى سهل الله علينا بالرجوع ، وقد مكثنا جميعا فى بيت واحد دون سنة نقرأ معا فى اللغة الفرنساوية ، وفى هذه الفنون المتقدمة ، ولكن لم يحصل لنا عظيم مزية الا مجرد تعلم النحو الفرنساوى ، ثم بعد ذلك تفرقنا فى مكاتب متعددة ، كل اثنين ، أو ثلاثة : أو واحد منا فى مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو فى بيت مخصوص عند معلم مخصوص ، بقدر معلوم من الدراهم ، فى نظير الأكل والشرب والسكنى ٠ والتعليم وتعهد أمورنا : من غسل ، ونحوه ، فكان يأخذ صاحب المكتب

أو البيت نحو عشرة أكياس كل سنة فى نظير ذلك ، ولا يلزمنا شىء فى المأكل والمشرب ٠

ولما كانت طباع هذه البلاد شدة البرودة كان لكل واحد منا فى كل سنة بثلثمائة قرش خشب للتدفى بها ، وغير هذه المصاريف العظيمة كان يشترى لنا من طرف (الميرى) أيضا القمصان والسراويل والنعال وسائر ما يلزم من الآلات والأدوات ، مثل الكتب والورق والحبر وأقلام التصوير وغيرها ٠ ومما ينبغى ذكره أيضا ما كان يعطى للحكماء (والأجزاجية) فى مداواة من كان يمرض منا : فان الحكماء « بباريس » مع كثرتهم غاية الكثرة ، يأخذون فى زيارتهم للمريض الموسر قدرا له وقع ، على اختلاف مراتبهم فى الشهرة وعدمها ، ويتعدد القدر بتعدد الزيارة (١) ، وهذا ان لم يكن للحكيم سنوية معلومة ، وقد أسلفنا ذلك فى باب اعتناء الفرنساوية بالطب، وتعهدهم للصحة ، فأقل الحكماء يأخذ فى كل زيارة يمكث فيها نحو نصف ساعة ثلاثة فرنكات ، والحكيم المتوسط يأخذ فى كل زيارة خمسة فرنكات ، والحكيم الجليل القدر يأخذ فى كل زيارة أبلغ من خمسين فرنكا ، وكلما تعددت الزيارة فى اليوم الواحد تعدد القدر ٠ وأما بالنسبة للمعدم فقد لا يأخذون منه شيئا ٠ ونحن نعد هناك من الموسرين ، بل من الأغنياء لتجملنا بالملبس الغريب عندهم ، ولنسبتنا للوالى

ولكثرة هذه المصاريف فى تعليمنا وغيره من سائر ما ذكرنا ، كان ناظر التعليم أو الضابط علينا يذكرنا به فى أغلب الأوقات لنجتهد ، وسترى بعض ذلك فى مراسلات كتبها لى بعد الامتحان العام ٠

---

(١) فى الأصل (الزيادة) ، وهو تحريف ٠

الفصل الثانى

(فى تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج)

حين اجتماعنا فى بيت الأفندية كنا لا نخرج منه ليلا ولا نهارا الا يوم الأحد الذى هو عيد الافرنج بورقة اذن البواب من الضباط الذى نظره علينا الوالى ، ثم بعد (ص ١٤٩) تفرقنا فى المكاتب المسماة « البنسيونات » (١) كنا نخرج أيام البطالة ، وهى يوم الأحد بتمامه ويوم الخميس بعد الدروس ، وأيام أعياد الفرنساوية ، ومنا من كان يخرج كل ليلة بعد العشاء ان لم يكن له درس بعده .

ولنذكر لك هنا « قانون نامة » الذى صنعه (الأفندية) بعد دخولنا فى « البنسيونات » وعبارته :

هذه صورة ترتيب (الأفندية) فى « البنسيونات » .

المادة الأولى : أن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات فى الساعة التاسعة ، ويأتوا الى البيت المركز من أول الأمر ، ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم الى (الأفندى) (النوبتجى) فى هذا الشهر ، لأجل أن يعلم ساعة دخولهم فى البيت ، وبعد ذلك يذهبون الى المواضع المعدة للفرجة ، بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة ، ثم يرجعون الى « البنسيونات » فى أيام الصيف فى الساعة التاسعة ، وفى أيام الشتاء فى الثامنة .

---

(١) Les Pensions.

وهذا الترتيب لازم ولابد ، فان رجع أحد الى « البنسيون » قبل ذلك ، وتعشى هناك ، فهو أولى وأحسن ومن اللوازم أن لايدور أحد فى الأزقة ليلا ، ومتى دخل فى « البنسيونات » يعطى الورقة المذكورة للمعلم ٠

المادة الثانية : أن من لم يمتثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من « البنسيون » بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين ٠

المادة الثالثة : أن كل من له شكاية من معلمه لا تسمع،ولاتقبل، حتى يكتبها فى ورقة ، ولا تسمع الا من جهة التعليم ، أو من جهة أخرى يحصل له منها ضرر ، ولكن قبل أن يكتب ورقة الشكاية يعرف عنها معلمه مرة ، ثم يكتبها (للنوبتجى) فى هذا الشهر ٠

المادة الرابعة : أن جميع (الأفندية) يمتحنون فى آخر كل شهر ، ليعرف ما حصلوه من العلوم فى هذا الشهر ، ويسألون عما يحتاجون اليه من الكتب والآلات ، ويكتب فى آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الصحيح ، ولأجل هذا ينبغى التفكر فى هذا الخصوص ، لأجل تحصيل غرض الوالى ٠

المادة الخامسة : لو احتاجوا شيئا من الكتب والآلات فى أثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ، ومعلمهم يخبر بذلك «مسيو جومار» فان رآه مناسبا يعطيهم ذلك بعد ما يخبر (النوبتجى) فان اشترى أحد شيئا من غير اجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده ٠

المادة السادسة : أنه بعد الامتحان بما ذكرنا فى المادة الرابعة ان استحق أحد من (الأفندية) الهدية بنجابته تعطى له كتب وآلات وسكة (١) ٠

---

(١) يريد النقود ٠ والسكة فى الأصل : حديدة منقوشة تضرب عليها الدراهم ٠

المادة السابعة : فى محل التفرج أو الطريق لا ينبغى لأحـد منهم أن يرتكب ما يخـل بمروءته وهـذا الأمر هو أهـم الجميع ، وممنوع أشد المنع ٠

المادة الثامنة : أن كل الأفندية الذين هم فى « البنسيونات » لايدخلون فى البيت المركز الا كل خمسة عشر يوما مرة ، وهو يوم الأحـد ٠

المادة التاسعة : أن يوم الأحـد الذى لا يأتون فيه الى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين الى مواضع التفرج أو الرياضـة أو ما ينبـغى رؤيتـه ، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل ، ان لم يكن عليهم شغل ، فيذهبون مع من ذكر الى المواضع المذكورة ٠

المادة العاشرة : يتبعون قوانين « البنسيون » كأولاد الفرنساوية بالتدقيق والاهتمام فى غير الأمور المتعلقة بالدين ٠

المادة الحادية عشرة : (١) اذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر لمخالفته واذا أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة ، وان كان أحد يتشبث بأفعال غير لائقة ، وأطواره غير مرضية ، وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حالة لموتبين عصيانه فمثل ما ذكر الوالى فى القوانين التى أعطاها لنا نتشاور مع المحبين له من أهـالى هذه المدينة ، ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالا الى مصر من غير شك ولا شبهة ٠

المادة الثانية عشرة : (٢) أن جميع (الأفندية) يكونون فى « البنسيونـات » فى هذا الترتيب على حـد سـواء ، وان كان فى

---

(١) فى الأصل (عشر) ، وهو خطا ٠

(٢) فى الأصل : عشر ، خطا ٠

« البنسيونات » مائدتان احداهمـا للمعلمين ، والأخرى للتلامـذة (فأفنديتنا) يأكلون مع معلميهم ٠

المادة الثالثة عشرة : (١) ان (الأفندية) المذكورين يلزمهم جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز ، وبسبب ذلك أعطينا كل واحد منهم صورة ذلك ٠

المادة الرابعة عشرة : كل المواد السابقة هى خلاصة أفكارنا ، ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينا الوالى ، وبناء على ذلك كل أحد يلزمه أن يتبعه،مع التنبه لأجل تحصيل رضاء الوالى ، فمن لم يمتثل ، أو تعلل بشىء يجرى عليه ما هو مذكور فى قانونه ٠

(١) فى الأصل : عشر ؛ خطأ ٠

الفصل الثالث

(فى ترغيب الوالى لنا فى الشغل والاجتهاد)

جرت عادته من مدة خروجنـــا من مصر بأنه كان يبعث لنـا « فرمانا » كل عدة أشهر ، يحثنـــا فيـه على تحصـــيل الفنون والصنائع ، فمن هذه « الفرمانات » ما كان من باب ما يسمى عند العثمانية احياء القلوب مثل الفرمان الآتى ، ومنها ما كان من باب التوبيخ على ما كان يصله منا ويبلغه عنا من بعض النـاس حقـا أو غير ذلك ، (كفرمان) آخر وصلنا قبل رجوعنا الى مصر القاهرة ، ولنذكر لك هنا (فرمانا) من النوع الأول الذى هو احياء القلوب ، وان كان فيه أيضا شائبة توبيخ لتعلم كيف كان يحثنا على التعليم • وهذه صورة ترجمته :

قدوة الأماثل الكرام (الأفنــدية) المقيمين فى « باريس » لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم •

ينهى اليكم أنه قد وصــلنا أخباركم الشـهرية والجداول المكتوب فيهــا مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منا ما حصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئاً وأنتم فى مدينة مثل مدينة « باريس » التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياســا على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنـــا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنـا غما كثيرا ، فيا (أفندية) ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل

واحد منكم يرسل لنـا شـيئا من أثمار شـغله وآثار مهارته ، فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة ، وجئتم الى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون ، فان ظنكم باطل فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم اذا جئتم بهذه الكيفيـة ، وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغي للانسان أن يتبصر في عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة ، وأن يجنى ثمـرة تعبه ، فبناء على ذلك أنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة ، وتركتم أنفسكم للسفاهة ، ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصـل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا في كسب نظرنا وتوجهنـا اليكم ، لتتميزوا بين أمثالكم ، فان أردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، ويبين زيادة على ذلك درجته في الهندسة ، والحساب ، والرسم ، وما بقي عليه فى خلاص هذه العلوم ، ويكتب فى كل شـهر ما نعلمـه فى هذا الشهر زيـادة على الشهر السـابق ، وان قصرتم فى الاجتهـاد والغيرة فاكتبـوا لنا سببه ، وهو اما من عـدم اعتنائكم ، أو مـن تشويشكم ، وأى تشويش لكم هل هو طبيعي أو عارض ، وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ما عندكم ، وهذا مطلوبنا منكم ، فاقرؤا هذا الأمر مجتمعين ، وأفهموا مقصـود هذه الارادة ٠

قد كتب هذا الأمـر فى ديـوان مصر فى مجلسـنا فى اسكندرية بمنه تعالى : فمتى وصلكم أمرنا هذا فاعملوا بموجبه ، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه (خمسة فى ربيع الأول ، سنة ١٢٤٥) خمسة وأربعة بعد الألف والمائتين من الهجرة ٠ انتهت صـورة المكتوب ٠

ومن وقت هذا المكتوب صرنا نكتب كل شهر جميع ما قرأناه وما تعلمناه فى ذلك الشهر ٠ ويكتب تحتـــه المعلمون أسـماءهم ويبعثونه الى الوالى ، فلما تسـاهل بعض منـا فى ذلك كتب « مسيو جومار » الينا جميعا مكاتيب ، ليأمر من كان مواظبـــا على كتابة هذه الأوراق فى كل شهر أن يدوم على مواظبته ، ويوبخ من تساهل ٠ وهذه صورة ترجمة المكتوب الذى أرسله الى فى هذا المعنى ، ولنذكره كما هو :

باريس ١٥ فى شهر يونية ٢٥ فى شهر محرم سنة ١٢٤٦

الى محبنا العزيز الشيخ رفاعة

لا يخفى عليكم الأمـــر الوارد مـــن الوالى المتعلق بالأوراق الشهرية ، المشتملة على الدروس التى قرأتموها ، فدم على ما أنت عليه من المواظبة ، وابعث هذه الأوراق فى اليوم الثلاثين كل شهر « لمسيو المهردار أفندى » واطلب منه أوراقا غير مكتوبة ، لتكتبهـا بعد ذلك ، ومن المعلوم أن هذه الورقة الشهرية لا تأخذ فى كتابتها الا نصف ساعة ، لأن الغرض منها مجرد ضبط عدد الدروس التى قرأتها ، ومعرفة نوعها ٠ وليكتب رئيس مدرستك فى كل شهر فى الورقة الشهرية تحت اسمك ، ولا يخفى على اجتهادك ، ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك ، فأطلب منك أن تواظب على توفية الحقوق التى كلفت بها ، واعلم وتيقن بمحبتى لك ٠

جـــومار

أحد أرباب ديوان الأنسطيطوت

الفصل الرابع

(فى بعض مراسلات بينى وبين بعض من كبار علماء الفرنساوية غير مسيو جومار)

فممن كاتبنى عدة مرات « مسيو دساسى » ولنذكر لك بعض مكاتيبه ، فمنها ما كتبه باللغة العربية ، ومنها ما كتبه باللغة الفرنساوية .

صورة مكتوب منه :

من الفقير الى رحمة ربه سبحانه وتعالى ، الى المحب العزيز المكرم ، والأخ المعز المحترم الشيخ الرفيع رفاعة الطهطاوى ، صانه الله عز وجل من كل مكروه وشر ، وجعله من ذوى العافية وأصحاب السعادة والخير .

أما بعد : فان القطعة التى أكملت المطالعة فيها من كتابك النفيس ، وحوادث اقامتك فى باريس رددتها اليك على يد غلامك ، ويصلك صحبتها حاشية منى على ما تقوله فى باب تصريف الفعل فى لغتنا الفرنساوية ، فاذا نظرت فيها تبين لك صحة ما نستعمله من صيغة الفعل الماضى ، فمن الواجب عليك أن تصنف كتابا يشتمل على نحو اللغة الفرنساوية المتداولة عند أمم أوروبا كلها وفى ممالكها ، حتى يهتدى أهل مصر الى موارد تصانيفنا فى فنون العلوم والصناعات ومسالكها ، فانه يعود لك فى بلادك أعظم الفخر ،

ويجعلك عند القرون الآتية دائم الذكر ، ودمت سالما

كتبه المحب سلوسترى دساسى

صورة مكتوب آخر :

الى حبيبنا الشيخ رفاعة الطهطاوى ، حفظه الله ، وأبقاه ٠
أما بعد : فانه سيصلك مع هذا ما طلبته منا من الشهادة بأننا قرأنا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك ٠ وكل ما أمعنت فيه النظر من أخلاق الفرنساوية وعوائدهم وسياساتهم وقواعد دينهم وعلومهم وآدابهم وجدناه مليحا مفيدا يروق الناظر فيه ، ويعجب من وقف عليه ٠ ولا بأس أن تعرض خط يدنا على « مسيو جومار » وان شاء الله يحصل لك بمصنفك هذا حظوة عند حضرة سعادة الباشا وينعم عليك بما أنت أهله ودمت على أحسن حال ٠

محبك الداعى : سلوسترى دساسى الباريزى

وصحبة هذا المكتوب أرسل الى ورقة باللغة الفرنساوية لأطلع عليها « مسيو جومار » وهى بالتقريظ أشبه ، وصورة ترجمتها ٠

لما أراد مسيو رفاعة أن أطلع على كتاب سفره باللغة العربية قرأت هذا التاريخ الا اليسير منه ، فحق لى أن أقول : انه يظهر لى أن صناعة ترتيبه عظيمة ، وأن منه يفهم اخوانه من أهل بلاده فهما صحيحا عوائدنا وأمورنا الدينية والسياسية والعلمية ، ولكنه يشتمل على بعض أوهام اسلامية ومن هذا الكتاب يعرف علم هيئة العالم وبه يستدل على أن المؤلف جيد النقد ، سليم الفهم ، غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به الا على « أهل باريس » والمدن الكبيرة ، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التى هو عليها، حيث لم يطلع على غير «باريس»وبعض المدن٠

وقد حرص (١) فى باب العلوم على ذكر المعلومات توطئـــة للتوصل الى المجهولات خصوصا فى نبذته المتعلقة بعلم الحساب ، وبهيئة الدنيا ٠

وعبارة هذا الكتاب ٠ فى الغالب واضـــحة غير متكلف فيها التنميق ، كما يليق بمسائل هذا الكتاب ٠ وليست دائما صحيحة بالنسبة لقواعد العربية ، ولعـــل سبب ذلك أنه اســـتعجل فى تسويده ، أنه سيصلحه عند تبيضه وفى التكلم على علم الشعر ذكر استطرادا بعض أشعار عربية أجنبية من موضوع هذا الكتاب ، على ما يظهر لى ٠لكنه ربما أعجب ذلك اخوانه من أهل بلاده ، وفى الكلام على تفضيل الصورة المدورة على غيرها من الأشكال ، ذكر بعض أشـــياء قليلة الجدوى فينبغى له حذفها ، وما ذكرت هذه الأشياء وبينتها هذا التبيين الا للاعلام بأنى دققت النظر فى قراءتى هذا الكتاب ٠

وبالجملة فقد بان لى أن مسيو رفاعة أحسن صرف زمنـــه مدة اقامته فى فرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن منهـــا كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعـــا فى بلاده ، وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس ، وله عندى منزلة عظيمة ، ومحبة جسيمة ٠

البارون سلوسترى دساسى

باريس فى شهر فبريه سنة ١٨٣١ (١٩ فى شعبان ســـنة ١٢٤٦) ٠

و (هذه) صورة ترجمة مكتوب كتبه لى قبيل خروجى من مدينة « باريس » ٠

---

(١) فى الأصل (أحرص) تحريف ٠

بعد اهداء السلام الى مسيو رفاعة ، يحصـــل لى حظ عظيم اذا جاء عندى يوم الاثنين الآتى ، والساعة فى ٣ ان أمكنه أن يسرنى برؤيتى له لحيظات لطيفة ، ويحصل لى أيضا غاية الانبساط اذا بعث لى أخباره بعد وصوله الى القاهرة ، فاذا لم يتيسر لى رؤيته طلبت له طريق السلامة ، ولا أزال أتذكر دائما آثاره ، وأستنشق أخباره ، مع انجذاب قلب ، وانشراح صدر •

البارون سلوسترى دساسى

وصورة ما كتبه « مسيو كوسين دى برسوال » مدرس اللغة العربية المتداولة فى المحاورات ، المشهورة باســـم الدارجة عند العامة ، بدار كتب خانة السلطانية « بباريس » وكنت كتبت له أن يبعث لى رأيه فى هذه الرحلة ، فكتب هذا الجواب ، وصورته :

حضرة المحب العزيز الأكرم ، الفصيح اللســـان والقلم ، جناب الشيخ رفاعة المحترم ، حفظه الله آمين •

بعد اهدائكم جزيل السلام ، ومزيد التحية والاكرام ، فقد ورد علينا عزيز مكتوبكم البارحة ، فبادرنا بقضاء حاجتكم ، فواصل لكم طية تحرير تحتوى على رأينا فى كتاب حوادث ســـفركم الذى تفضلتم علينا باطلاعنـــا عليه ، وبالحقيقة قلنا مثل ماهو اعتقادنا وشرحنا ما وجدنا فيه من المحاسن • وأما بخصوص المذام فما لقينا من ذلك شيئا •

وحيث انكم عازمون على السفر فى آخر هذا الشهر ، فالمأمول من حسن محبتكم أنكم بعد وصولكم بالسلامة الى بلادكم لا تحرمونا من خاطركم ، وتواصلونا بالاعلام •

بصحتكم ،ونترجاكم أيضا أنه اذا طبع كتابكم تبعثوا (١) لنا منه نسخة ، وبذلك تصـــيرونا (٢) ممنونين ، ولأفضالكم شاكرين ، والله تعالى يحفظكم والسلام ٠

محبكم كوسين دى برسوال

٢٤ شباط سنة ١٨٣١

والمراد بطيه التحرير ورقة شهادته بأنه اطلع على هذا الكتاب ، وقال رأيه فيه ٠ وصورة ترجمة هذه الطية التى كتبها لمسيو جومار باللغة الفرنساوية ليخبره برأيه فى هذه الرحلة : قرأت بالتأمل مؤلف الشـــيخ رفاعة الملقب بتخليص الابريز فى تلخيص باريز ، فوجدته يتضمن حكاية صغيرة فى سفر المصريين المبعوثين الى فرنسا من طرف وزير مصر الحاج محمد على باشا ، وتشتمل على تخطيط مدينة باريز ، وعلى نبذات موجزة فى جملة فروع من العلوم المطلوبة التعليم من هؤلاء التلامذة ٠ وقد ظهر لى أن هذا التاليف يستحق كثيرا من المدح وأنه مصنوع على وجه يكون به نفع عظيم لأهالى بلد المؤلف ، فانه أهدى لهم نبذات صحيحة من فنون فرنسا ، وعوائدها، وأخلاق أهلها ، وسياسة دولتها ، ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوروبا فى العلوم البشرية والفنون النافعة أظهر التأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الاسلام ، ويدخل عندهم الرغبـــة فى المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعـلم التمـدن الافرنجى ، والترقى فى صنائع المعاش ، وما تكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها ، أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى لهم تقليـــد ذلك ٠ وما نظر فيه فى بعض العبـارات يدل فى الغالب على سلامة عقله ، وخلوه من التعسف والتحامل ٠

---

(١) الصواب : تبعثون ٠

(٢) الصواب : تصيروننا ٠

وعبارة هذا الكتاب بسيطة أى غير متكلف فيها التنميق ، ومع ذلك فهى لطيفة • وحين كانت نسخة هذا الكتاب بيدى كان الجزء الذى يتعلق بالعلوم والفنون غير تام ، فما رأيت منه الا نبذة فى الرياضيات ، وعلم هيئة الدنيا ، ومبادىء أصول الهندسة ، والجغرافيا الطبيعية ، فهذه النبذات وان كانت موجزة الا أنهـــا مشبعة •

فيترجى أن المؤلف يدوم على تأليف النبذات الباقيـــة بهذه المثابة ، واذا اجتمعت هذه النبذات فى الكتاب هذا فانها تكون كتاب علوم مستقل ، مفتاحا لغيره من العلوم نافعا لأهل العربيـــة ، واذا فرغ الكتاب بهذه الطريقة فانه يستدل به على رفعة عقل مؤلفه ، واتساع دائرة معرفته •

كوسين دى برسوال

فاذا قابلت هذا المكتوب مع ما تقدم رأيت أن « مسيو دساسى» و « مسيو كوسين » اتفقا على حسن هذا الكتاب ، وعلى بســـاطة عبارته ، أى عدم التأنق فيها ، وعلى نفعه لأهل مصر •

وانما « مسيو دساسى » عابه بثلاثة أشياء : الأول : اشتماله على بعض مسائل يعتقد أنها من أوهام الاسلام ، الثانى : جعلتـــا ما ينسب لمدينة « باريس » وغيرها من المدن عاماً لســـائر بـــلاد فرنسا ، الثالث : ذكرنا بعض أشياء قليلة الجدوى عند تفضيل الشكل المدور على غيره من الأشكال •

وأما « مسيو كوسين » فانه لم يتعرض لما جعله « مسيو دساسى» من باب الأوهام ، ولما تحدثت معه فى شأن ذلك أجابنى بأنه لم ير ذلك مضرا ، حيث انى كتبت على ما هو فى اعتقادى ، والا لو تتبعت ما قاله الافرنج ، ووافقت آراءهم للحياء أو غيره لكان ذلك محض

موالسة ؛ وأما قوله « كمسيو دساسى » : ان عبارة فى هذا الكتاب بسيطة فمعناه أن تراكيبه لم يحاول فيها سلوك طريق البلاغة : يقال عند علماء الفرنساوية ، عبـارة بسيطة فى مقابلة العبـارة البليغة ·

ولنذكر لك هنا رسالة من شخص كان بينى وبينه محبـة أكيدة ، وصورة اجتماعى لهذا الشخص أنى دخلت مكتبـه لقراءة « الكازيطات » أى الوقائع اليومية ، فتعرفت بهذا الشخص الذى هو (محاسبجى) فى وزارة الخزينـة الماليـة ، واخوه مأمـور « ديرطمانه (١) » يعنى اقليما من أقاليم الفرنساوية ، وهو من بدنة عظيمة ، تسمى : « السلادانية » نسبة الى « سـلادان » يعنى صلاح الدين يتوهمون أنهم ينتسبون (ص ١٥٧) الى السلطـان صلاح الدين الأيوبى ، قائلين : انه يحتمل أن يكون حين محاربته مع الافرنج تسرى بفرنساوية ، فحملت منه ، ثم انطلقت الى بلادها ، فبقى الاسم فى أولادها وذراريها الى الآن · ثم انى كما تعرفت به تعرفت بسائر أقاربه ، ومازلت معهم على الصحبـة الأكيـدة مدة اقامتى فى « باريس » ، فلما سافرت كان عند أخيه المأمور فى اقليم الترك فى مدينة يقال لها « البى » فأرسل الى هذا المكتوب ، وهذه صورة ترجمته ، مع بعض حذف جائز ·

الى حضرة عزيزنا الشيخ رفاعة

قد سلمت أمانتك لابن شيخ المأمورية ، ليعطيها لك ، فانتظرها بعد وصول هذا المكتوب برمن يسير ، وقد وكلنى أخى بأن أخبرك بثنائه عليك على ما صنعته معه من الجميـل فى اعارتك له هذه الأمانة ، وأن أهنيك على بلوغك المأمول ·

---

(١) Département أى اقليم ·

هل عن قريب تفارقنا لترى وطنك العزيز ؟ فان شاء الله تجتمع بما تركته فيه من الأقارب والأحباب ، وتجده بخير ، فقد بلغني أن سفرك قد قرب جدا ، حتى انني لا أظن أن أقابلك في مدينة « باريس » ولكن لو سافرت قبل هذا الزمن بيسير لاجتمعنا في مرسيليا وودعتك في آخر مدينة من مدن الفرنساوية تعبر فيها في سفرك ، ولو تأخر سفرك مدة يسيرة لافترقنا في مدينة « باريس » التي كان بها أول اجتماعنا ، ولا أدرى ان كان التلاقي مقدرا أم لا ، ولكن تقلبات الدهر كثيرة ، خصوصا للافرنج ، فلا يمكنني أن أجزم بعدم الاجتماع • وبالجملة فلا شك أنك تركت في فرنسا صديقا يتذكرك ، ويتأثر لك بما يقع لك من النفع والضر ، ويسر غاية المسرة اذا بلغه أنك تحظى في بلادك بثمرة فضلك وأوصافك ، وليت شعرى ترجع الى بلادك بأى اعتقاد في طبيعة الفرنساوية ، وقد رأيت هذه الملة في وقت ينبغي أن يكون تاريخا من غرائب سيرها ، وأظن أنك تسأل في بلادك مرارا عديدة من هذه الفتنة العظيمة ، ونصرة الفرنساوية في طلب الحرية •

فاذا وقع اتفاقا أن سفرك توقف مدة أيام فمأمولى أن أراك في مدينة « باريس » والا فأرجو منك ألا تسافر حتى تودعني بلسان القلم بمحبتي لك غاية المحبة • انتهت صورته •

جول سلادان

وهذه صورة مكتوب تفهم منه أيضا رغبة الفرنساوية في تحصيل الكتب الغريبة وترغيبهم للمؤلفين أو المترجمين في ترجمة الكتب وتأليفها • وهذه صورة ترجمة هذا المكتوب :

الى مسيو الشيخ رفاعة :

قد حملني « مسيو دبنغ » أن أسأل عن ترجمتك لكتاب العلوم الصغير المشتمل على أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم ، لأن

« مسيو دبنغ » مؤلف هذا الكتاب ، فاذا كانت ترجمتك تنطبع فى مصر هل (١) يتيسر لمؤلف الأصل أن يقيد اســـمه لتحصيل عدة نسخ من نسخ هذا الكتاب بالشراء ، ونعرفك أنك تخبرنا الى أى محل وصلت فى الترجمة من المجلد الأول من جغرافية ملطبرون ، فان هذا الجزء الآن يطبع طبعا آخـــر مصححا مشتملا على زيادات لاتوجد فى الأول فلا بأس أن نحيطك به علما ، فانه يكمل طبعه فى أثناء هذا الشهر . ومنى اليك مزيد التحية .

محبك الصادق : رنو

بخزانة الكتب السلطانية بباريز

---

(١) الصواب : فهل .

الفصل الخامس

(فى ذكر ما قرأته من الكتب فى مدينة ، « باريس » وفى كيفية الامتحانات ، وفيما كتبه لى « مسيو جومار » ، وفيما كتب من خلاصة الامتحان الأخير ، فى الوقائع العلمية ، وأذكر هنا ما قرأته مرتبا بهذا الترتيب ، وان تكرر مع ما سبق)

تعليم أصول نحو اللغة الفرنساوية

كان خروجنا من الكرنتينة فى السابع والعشرين من شهر شوال سنة ١٢٤١ ، وبعد أيام قليلة فى مرسيليا ابتدأنا فى التهجى والقراءة ، وبعد نحو أربعين يوما تعلمنا الحروف الفرنساوية والتهجى ، ووصلنا « باريس » فى شهر محرم ، فرجعنا ثانيا للابتداء فى أصول الهجاء ، واشتغلنا بذلك نحو شهر ، ثم ابتدأنا جميعا فى قراءة أجرومية « تومند » (١) فى نحو اللغة الفرنساوية ، وكان المعلم يضيف اليها من أجرومية أخرى ما يحتاج اليه الحال فلما خرجت من بيت (الأفندية) قرأت مع « مسيو شواليه » أجرومية أخرى ، ومع معلم آخر يسمى « لمونرى » (٢) أجروميتين. وفى كل من البيتين ، يعنى بيت (الأفندية) وبيت المعلم كنت

---

(١) Charles — François Thomond : Eléments de la Grammaire françsiae. وقد كتب اسمه فى المطبوعة (لومند)

(٢) Lomonry.

أشتغل بالاعراب النحوى ، والاعراب المنطقى – يعنى تطبيق الكلام على قواعد النحو وقواعد المنطق ـ وبالاملاء والانشـــاء والقراءة ، ومازلت على ذلك ثلاث سنوات ٠

علم التاريخ

ابتدأنا فى بيت (الأفندية) حين كنا معا بكتاب « سير فلاسفة اليونان » فقرأناه ، وتممناه ، ثم ابتدأنا بعده فى كتاب تاريخ عام مختصر مشتمل على سير قدماء المصريين والعراقيين ، وأهل الشام ، واليونان ، وقدماء العجم ، والرومانيين ، والهنود ، وفى آخره نبذة مختصرة فى علم « الميثولوجيا » (١) يعنى علم جاهليـــة اليونان وخرافاتهم ، ثم قرأت عند « مسيو شواليـه » كتـــابا يسمى : « لطائف التاريخ » (٢) يتضمن قصصا وحكايات ونوادر ، ثم بعده قرأت كتابا يسمى « سير أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم » (٣) ثم تاريخ سبب عظم دولة قياصرة الروم وانقراضها (٤) ثم كتـــاب رحلة « انخرسيس » الأصغر الى بلاد اليونان (٥) ثم قرأت كتاب « سيغور » (٦) فى التاريخ العام ، ثم سيرة نابليون ، ثم كتابا فى علم التواريخ والآنساب ، ثم كتابا يسمى « بانورما العلم (٧) »

---

(١) Mythologie.

(٢) Les Agrements de L'histoire.

(٣) Les Moeurs des Peuples Leurs habitudes et leur Savoir Vivre Par Dipping.

(٤) L'Histoir de La Cause de La grandeur et de La decadence de L'Empire des Césars Romains, par Montesquieu.

(٥) Voyage du trés Jeune Anacharsis en Grèce.

(٦) Ségur.

(٧) Panorama du Monde.

يعنى مرآة الدنيا ، ثم رحلة صنفها بعض المسافرين فى بلاد الدولة العثمانية ، ثم رحلة فى بلاد الجزائر •

علم الحساب والهندسة

قرأت فى الحساب « بزوت » (١) ، وفى الهندسة المقالات الأربع الأول من كتاب لوجندره (٢) •

علم الجغرافيا بأنواعها

قرأت مع « مسيو شوالية » كتـاب جغرافيـــة يشتمل على الجغرافية التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية ، ثم قرأت رسالة أخرى فى الجغرافية الطبيعية مقدمة لقاموس فى الجغرافية ، يعنى معجم البلدان ، ثم قرأت الكتاب الأول بعينه مع معلم آخر غير « مسيو شواليه » ، وقرأت أيضا مع « مسيو شواليـــه » ، جملا عظيمة مـن جغرافية « ملطبرون » (٣) ورسالة ألفها التعليم بنته فى هيئة الدنيا ، وقرأت وحدى مؤلفات عديدة فى هذا الفن •

فن الترجمـة

ترجمت مدة اقامتى فى فرنسا اثنى عشر كتابا وشذرة يأتى ذكرها فى آخر هذا الكتاب ، يعنى اثنى عشر مترجما بعضها كتب كاملة ، وبعضها نبذات صغيرة الحجم •

كتب فى فنون مختلفة

قرأت كتابا فى علم المنطق الفرنساوى مع « مسيو شواليه »

---

(١) Etienne Bezout : Traité d'arithmétique.
(٢) Legendre : Eléments de Geometrie.
(٣) Malte-Brun.

و « مسيو المونرى » وعدة مواضع من كتـــاب « ليبرتروايال » (١) من جملتها المقولات وكتـــابا آخر فى المنطق يقـال له كتـــاب « قنديلياق » غير (٢) فيه منطق أرسطو ٠

وقرأت مع « مسيو شواليه » كتابا صغيرا فى المعادن وترجمته٠

وقرأت كثيرا من كتب الأدب فمنها مجموعة (٣) « نويل » ومنها عدة مواضع من ديوان « ولتير » (٤) وديوان « رسين » (٥) وديوان « رسو » (٦) خصوصا مراسلاته الفارسية التى يعرف بها الفرق بين آداب الافرنج والعجم ، وهى أشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية ، وقرأت أيضا وحـدى مراســلات انكليزية صنفها « القوته شستر فيلد » (٧) لتربيـــة ولده وتعليمه ، وكثيرا من المقامات الفرنساوية ، وبالجملة فقد اطلعت فى آداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة ٠

وقرأت فى الحقوق الطبيعية مع معلمها كتـــاب « برلماكى » وترجمته وفهمته فهما جيدا ، وهذا الفن عبـــارة عن التحســين والتقبيح العقليين ، يجعله الافرنج أساسا لأحكامهم الســياسية المسماة عندهم شرعية ، وقرأت أيضا مع « مسيو شواليه » جزأين من كتاب يسمى « روح الشرائع » (٨) مؤلفة شهير بين الفرنساوية يقال له «منتسكيو » وهو أشـــبه بميزان بين المذاهب الشرعيــة

---

(١) La Porte - Royale.

(٢) Condiliac.

(٣) Noël.

(٤) Voltaire.

(٥) Racin.

(٦) Rousseau : Les Lettres Persanes.

(٧) Le Comte Chesterfield.

(٨) L'Esprit des Lois.

والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجى ، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا : « منتسكيو الشرق » أى « منتسكيو الاسلام » وقرأت أيضا فى هذا المعنى كتابا يسمى « عقد التأنس والاجتماع الانسانى » (١) مؤلفه يقال له « روسو » وهو عظيم فى معناه ٠

وقرأت فى الفلسفة تاريخ الفلاسفة المتقدم المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم ، وقرأت عدة محال نفيسة فى معجم الفلسفة « للخواجه ولتير » وعدة محال فى كتب فلسفة « قندلياق » (٢) ٠

وقرأت فى فن الطبيعة رسالة صغيرة مع « مسيو شواليه » من غير تعرض للعمليات ٠

وقرأت فى فن العسكرية من كتاب يسمى « علميات ضابطان عظام » مع « مسيو شواليه » مائة صحيفة ، وترجمتها ٠

وقرأت كثيرا فى كازيطات العلوم اليومية والشهرية ، وفى « كازيطات » (٣) السياسيات اليومية التى تذكر كل يوم ما يصل خبره من الأخبار الداخلية والخارجية المسماة « البوليتيقة » وكنت متولعا بها غاية التولع وبها استعنت على فهم اللغة الفرنساوية وربما كنت أترجم منها مسائل علمية ، وسياسية ، خصوصا وقت حرابة الدولة العثمانية مع الدولة الموسقوبية ٠

ولنذكر لك هنا ترجمتنا رسالة فرضية من فرنساوى متطوع بالخدمة فى معسكر « الموسقو » ، حررها من مدينة « شملا » القريبة

---

(١) Le Contrat Social.

(٢) Condillac.

(٣) أى الصحف ٠

من جبل « بلقان » الى بعض امراء الألوية بمدينة « باريس » تاريخها اثنان وعشرون من يولية الافرنجى سنة ١٨٢٨ من الميلاد :

« اعلم يا محبنا أن هذه أول مرة التحم فيها صفنا مع الصفوف الاسلامية من منذ وصولنا الى العساكر الموسقوبية ، ثم ان سائر ما رأيته مما يذهل العقول ويحير الألباب ، تقصر عنه العبـــارة ، كيف وهو أمر غريب ! بالنسبة الى مثلى ، فلو كنت مثل جنابكم من العسكر المتمرن على الحروب سافرت فى غزوة مصر ، ورأيت واقعة أبى قير ، وحصار مدينة عكا لما حار لبى حين رأيت شيئا جديدا لم أكن عاينته قبل ذلك ، مما يكل عنه الوصف ، ولكن تأمل ياأخى فى أمرى حيث انى قد كنت فى خفر مليكنا ، وخرجت من مكتب « سنسير » ولم أحضر من الوقائع الا وقعة الأندلس ، فلم أشعر الا أن وجـدت نفسى قدام جبل « بلقان » بعد أن جبت البرارى والقفار ، وعاينت المشاق بتهديد أهلها لنا وتخلصهم منا ، وادهاشهم لجيوشنا ، وانظـر فى استعجابى وذهاب صـــوابى حين خرجت الفوارس التركية متصافة صفوفا عجيبة للحروب الاسلامية بأعلى « شملا » وقد وصل الى شريف علمكم من دفتر علم « الموسقو » تفصيل هذه الواقعة ، وشرح أحوال الجم الغفير من عســاكرنا ، والخبر بأنها صارت ضائعة ، وقد شاهدت بعينى رأسى ســـوء ميتة « الميرالاى باردى الموسقوبى » بحالة رديئة ، حيث انقســم نصفين بضربة مدفع تركية ، ومن الآن فقط ظهـــرت صعوبة هذه الحرابة ، وطول مدتها لا يعـــد من الغرابة ، وان كان بعساكرنا شجاعة وصلابة فى الحروب ، فعساكر الاسلام لها مصادمة قوية بمعزل عن الهروب . وهذه المصـادمة هى التى تستهل الخطـر ، وتخترق المانع لبلوغ الوطر ، ينتج منها ثمرتان : الأولى : أنهــا تلقى الحيرة فى عقول الرجال . والثانية : أن عاقبتها دائما تفرغ الفزع فى قلوب الأعداء ، ولو كانوا من الأبطال ، ولو شـــاهدت

عيناك ما شاهدته من أن الفرسان العثمانية تروع (ص ١٦٢) الانسان بمجرد منظرها المرعب ، وبسرعة اقتحامها المدهش المعجب ، ومشيها على صوت الألحان الوحشية ، وصهيل الخيول الكردية ، ونزولها كالصواعق على المشاة الموسقوبية لحكمت مثلى بأن هذه الحرابة تطول ، وأن اضطرام نارها قل أن يزول • أو ليس أن للدولة العثمانية فرسانا عظيمة مرتبة بترتيب عجيب ، وهمة عليه بنظام غريب ؟ أو هل ينكر أحد أن رجالهم متمرنون على ركوب الخيل ، وأن خيولهم على أصل خلقتهم الوحشية طائعة لسيدها فى الاقدام والاحجام ، يبلغ عليها فى الحرابة المقصود والمرام ؟ فياويح العساكر القرابة التى يلتحم صفها بصف هذه الخيول المركوبة لهؤلاء الفحول الذين لهم زيادة عن قوتهم الجهادية ، دعامة غيرتهم الاسلامية والوطنية ، وهذه مزية لا توجد يقينا فى عساكر « الموسقو » ، ثم ازدحام الخلائق فى أوقات الحروب له تدبير صحيح، ولكن فى هذه الواقعة لايجهل انسان ولو كان من « القزاق » أن الفخر لعساكر الاسلام • وهذا الخبر ربما ظهر لك أنه عجيب من مثلى ، خصوصا وأنا قد جئت متطوعا فى عسكر « الموسقو » ، لأشاركهم فى اقتحام الأخطار ، وأقتسم معهم الفخار ، ولكن لما وصلت الى هنا ظهر لى أن الظن قد خاب ، وأنى قد حدت عن الصواب • ورأيت أعداءنا الذين كنا نتهمهم بحقارة الرتبة والرداءة هم الليوث الضراغم ، ليس لهم شيء من الدناءة ، بل هم أقرب الى قبول التأدب والظرافة من الافرنج •

واعلم يا أخى أن غيرتى على خلاص الأروام من يد العثمانية لم تنقص شيئا ، ولكن أقول ليت شعرى ، هل تلزم الغارة على اسلامبول فى خلاصهم ؟ أو ليس مما يتحسر عليه أن ما خسرناه فى أخذ مدينة « ابرائل » من العساكر كان يكفى وحده فى فك أسر الأروام وتحرير رقابهم ، وتقليل سفك دمائنا بعساكر الاسلام•

وقد أسرنا عن قريب أحد ضباط العساكر العثمانية ، وكان شابا بديع الصورة كثير الجروح ، فعفا عساكرنا عن قتله ولم يكن ذلك لغيره ، ورقوا لملاحته وجراحته ، فخاطبته باللغة الايطاليانيـــة ، ففهم مقالى وأجاب ســـؤالى • وأخبرنى بأن أباه له من العمر الآن ثمانون سنة ، وله أخوان فى خدمة حسين باشا لا يشك فى نصرة الدولة العثمانية ، بل يقول : ان الترك يصلون الى موسقو • واعلم يا أخى أن فى « شملا » نحـــو مائتى ألف محـــارب ، ويتجدد عليهـــا كل يـــوم ، وسلطانهم بكل عظيم عن يقين • وها أنا الآن أطوى لك كتـــابى لأضع قدمى فى ركابى ، فالآن عســـــاكر الأعداء تحارب فى طليعة جيشنا ، وأنا بين دوى ألحان الترك ، وعجيج أصوات الروس غريق ، وهذه حرابة مهولة ان نظرت بعين التحقيق •

الفصل السادس

(فى الامتحانات التى صنعت معى فى مدينة « باريس »
خصوصا فى الامتحان الأخير الذى أعقبه رجوعى الى مصر)

اعلم أن من عادة الفرنساوية أن لا يكتفوا فى العلم بمجرد شهرة الانسان بالفهم ، أو الاجتهاد ، أو بمدح المعلم فى المتعلم ، بل لابد عندهم من أدلة واضحة محسوسة تفيد الحاضرين فى الامتحان قوة الانسان والفرق بينه وبين أمثاله · وهذا انما يكون بالامتحانات العامة يحضرها العام والخاص ، بدعوة مثل دعوة الولائم عادة · وهناك امتحانات خاصة ، وهى أن يمتحن المعلم تلامذته كل أسبوع أو شهر ، ليعلم قوة زيادتهم فى ذلك الأسبوع أو الشهر · وليكتب مفاد ذلك الى آبائهم ، فكنا فى البنسيونات بهذه المثابة ، وكل سنة يصنع معنا الامتحان العام بحضور أعيان الفرنساوية ·

فأول بحث صنع معنا كان أغلبه ومداره على اللغة الفرنساوية، وقد جرت العادة عندهم بأنهم يعطون هدية امتحان للبارعين فى الجواب المتميزين عن غيرهم ، ففى أول امتحان عام بعث لى « مسيو جومار » كتابا يسمى « رحلة أنخرسيس فى بلاد اليونان » سبعة مجلدات جيدة التجليد مموهة بالذهب ، يصحبها هذا المكتوب الذى صورته مترجما :

أول يوم من شهر أغسطس سنة ١٨٢٧ من الميلاد ·

قد صرت مستحقا لهدية اللغة الفرنساوية ، بالتقدم الذى حصلته فيها ، وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العام الأخير . ولقد حق لى أن أهنىء نفسى بارسالى لك هذه الهدية من طرف (الأفندية) النظار دليلا على التفاتك فى التعليم ، ولا شك أن الوالى يسر متى أخبر أن اجتهادك وثمرة تعلمك يكافئان المصاريف العظيمة التى يصرفهـا عليك فى تربيتك وتعليمك ، وعليك منى السـلام مصحوبا بالمودة .

وقوله فى الامتحان الأخير المراد أنه آخر بالنسبة لما قبله من الامتحانات الخصوصية .

وهدية الامتحان تشبه أن تكون مثل جائزة الشعراء : أو هى كقصب السبق وفى الامتحان العام الثانى بعث لى كتـاب « الأنيس المفيـد ، للطالب المستفيد » ، و « جـامع الشذور ، من منظـوم ومنثور » تأليف « مسيو دساسى » وصحبته هذا المكتوب ، وصورته مترجمـا .

باريس ١٥ شهر مارث سنة ١٨٢٨ من الميلاد .

قد صرت مستحقا لهدية النحو الفرنسـاوى ، بالتقدم الذى حصلته فى هذه اللغة ، وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العـام الأخير ، ولقد سرنى أنك صرت مستحقا أن أبعث لك علامة السرور منك ، تشويقا لك ، وها أنا باعث جدول امتحانك للوالى باجتهادك وفلاحك ، ولا شك أنه يسر بأنك تشتغل مع ثمـرة ، وأنك أهل لرعايته لك واعتنائه بتربيتك وتعليمك ، وعليك منى السلام .

وفى هذين الامتحانين أخذت هدية الامتحان .

وأما صورة الامتحـان الأخـير الذى به رجعت الى مصر أن « مسيو جومار » جمع مجلسا فيه عدة أناس مشاهير ، ومن جملتهم وزير التعليمات الموسقوبى رئيس الامتحان ، وكان القصـد بهذا

المجلس معرفة قوة الفقير فى صناعة الترجمة التى اشتغلت بهـــا مدة مكثى فى فرنسا ٠

وصورة ما تحصل من الامتحان وكتبه الفرنساوية فى وقائع العلوم ما نصـــه : وصــــور التلميذ رفاعة أنه قرىء فى المجلس دفتران : الدفتر الأول يشتمل على تعديد اثنتى عشرة ترجمة من اللغة الفرنساوية الى العربية ترجمهـا المذكور منذ ســـنة وهذه أســماؤها :

الأول : نبذة فى تاريخ اسكندر الأكبر ، مأخـــوذة من تاريخ القدماء ٠ الثانى : كتاب أصول المعادن ٠ الثالث : رزنامة سنة ١٢٤٤ من الهجرة ، ألفه « مسيو جومار » لاســتعمال مصر والشـــام ، متضمنا لشذرات علمية وتدبيرية ٠ الرابع : كتاب دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدهم ٠ الخامس : مقدمة جغرافية طبيعية مصححة على « مسيو هنبلض » ٠ السادس : قطعة من كتاب ملطبرون (١) فى الجغرافية ٠ السابع : ثلاث مقالات من كتـــاب « لجندر (٢) » فى علم الهندسة ٠ الثامن : نبذة فى علم هيئة الدنيا ٠ التاسع : قطعة من « علميات ضابطان عظام » العاشر : أصـــول الحقوق الطبيعية التى تعتبرها الافرنج أصلا لأحكامهم ٠ الحادى عشر : نبذة فى « الميثولوجيا » يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم ٠ الثـــانى عشر : نبذة فى علم سياسات الصحة ٠

الدفتر الثانى : يشـــتمل على رحلتــــه ، وذكر ســـفره ثم أحضر له عدة تآليف مطبوعة فى بولاق ، فترجم منهـــا مواضـــع بسرعة الى اللغة الفرنســـاوية ، ثم قرأ بالفرنســـاوية مواضـــع منها ما هو صغير ومنها ما هو كبير فى « كازيطة » مصر المطبوعة فى

---

(١) Malt-Brun.

(٢) Legendre.

بولاق ، ثم بحث معه فى ترجمة العلميات العسكرية المترجمه له فكان بعض الحاضرين بيده الاصل الفرنساوى ، والشيخ بيده الترجمه ، ثم انه يترجم العربية بالسرعة الى الفرنساويه قراءة لا كتابة ، ليقابل عبارة الترجمة مع عبارة الأصل ، وقد تخلص على وجه حسن من هذا الامتحان فأدى العبارات حقها من غير تغيير فى معنى الأصل المترجم ، ولكن ربما أحوجه اصطلاح اللغات العربيه أن يضع مجازا بدل مجاز آخر من غير خلل فى المعنى المراد ، مثلا : فى تشبيه أصل علم العسكرية بمعدن مشبع يستخرج منه كذا غير العبارة بقوله : العسكرية بحر عظيم تستخرج منه الدرر ، وقد اعترض عليه فى الامتحان بأنه بعض الأحيان قد لا يكون فى ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه ، وأنه ربما كرر ، وربما ترجم الجملة بجمل ، والكلمة بجملة ، ولكن من غير أن يقع فى الخلط ، بل هو دائما محافظ على روح المعنى الأصلى ، وقد عرف الشيخ الآن أنه اذا أراد أن يترجم كتب علوم فلابد أن يترك التقطيع ، وعليه أن يخترع عند الحاجة تغييرا مناسبا للمقصود ، وقد امتحن فى كتاب آخر ، وهو مقدمة القاموس العام المتعلقة بالجغرافيا الطبيعية ، وهذا الكتاب ترجمه هو الى العربية ولما كان وقت ترجمة هذا الكتاب لم يصل الى درجته الآن فى اللغة الفرنساوية ، كانت ترجمته دون ترجمة الكتاب الذى بحث معه فيه قبله ، وكان عيبه أنه لم يحافظ على تأدية عبارة الأصل بجميع أطرافها . وعلى كل حال فلم يغير فى المعنى شيئا ، بل طريقته فى الترجمة كانت مناسبة ، فتفرق أهل المجلس جازمين بتقدم التلميذ المذكور ، ومجمعين على أنه يمكنه أن ينفع فى دولته ، بأن يترجم الكتب المهمة المحتاج اليها فى نشر العلوم ، والمرغوب فى تكثيرها فى البلاد المتمدنة ، ولا شك أن بعض هذه الكتب قد يحتوى على أشكال ، وأحمد أفندى العطار من أهل بلاده يشتغل بالطباعة على الأحجار

. لأجل ذلك ، وقد كان حاضرا فى المجلس ، فقدم لأهل المجلس عدة عينات مطبوعة بيده على الحجر من تصوير وكتابه عربيه وفرنساويه، وقد ابتدأ فى معرفة تسيير الشوكة للنقش والقلم للكتابة ، وقلم الشعر لكتابة التصوير ، و ى تصويراته توجد حيوانات (ص ١٦٦) وامور عمارات وغير ذلك من الأمور المصنوعة بالخطوط من غير ظل ، ولكنه جاء فى فرنسا كبير السن فلم يمكنه أن يصور تصويرا صحيحا خاليا عن جميع العيوب ، ولكن يمكنه أن يعرف معرفة تامة طريق الطباعة على الحجر علما وعملا ، وينسخ (عينات) التصوير التى تعطى له ويطبعها بنفسه عند الحاجة ، ويمكنه أن يتأهل لفتح دار لطباعة الحجر ونظارتها ، وقد ترجم مختصرا فى صناعة الطباعة بالحجر وكتبها على الحجر وطبعها بيده ، وكانت نسخة منها موضوعة على (باش تختة (١)) « مسيو جومار » انتهى كلام « كازيطة » دائرة العلوم ٠

وكتب لى مكتوب تهنئة برجوعى الى مصر بعد تحصيل المرام غير أن هذا المكتوب قد ضاع منى وكان لا بأس بذكره هنا وصورة ترجمة ما كتبه لى « مسيو شواليه » وهو أشبه باجازة وشهادة لى :

وزارة الحرب

يقول الواضع اسمه فيه : « شواليه » تلميذ قديم من تلامذة مدرسة العلوم المسماة « بلوتكنيقا » (٢) الضابط المهندس المكتوب فى وزارة الحرب الوكيل من طرف « مسيو جومار » والأفندية النظار بالارشاد الى تعليم مسيو الشيخ رفاعة :

أشهد أنى مدة نحو الثلاث سنوات ونصف التى مكثها التلميذ

---

(١) منضد صغير ذو أدراج عدة ٠

(٢) مدرسة المهندسين : L'Ecole Polytechnique

المذكور عندى لم أر منه الا أسباب الرضى سـواء فى تعليمه أو فى سلوكه المملوء من الحكمة والاحتراس ، وحسن خلقه ولين عريكته ، وقد قرأ معى فى السنة الاولى اللغة الفرنساوية «والقسمغرافيا » (١) انتهى وفيما بعدها الجغرافيـا والتاريخ والحساب وغير ذلك • ولما كان خاليا عن الاستعداد والخفة اللازمين لتعلم الرسـم مع ثمرة ، لم يشتغل به الا مرة فى كل أسـبوع لمجرد امتثال أوامر الوالى ولكن صرف جهـده مع غاية الغيرة فى الترجمـة التى هى صنعته المختارة له وأشـغاله فيها مبينة فى اعلاماتى الشـهرية ، خصوصا فى « الجرنالات » الأولى التى أعطيتها « لمسيو جومار » وحسب هذا التلميذ ما فى هذه الاعلامات والجرنالات •

ومما ينبغى التنبيه عليه أن غيرة مسيو الشيخ رفاعة تناهت به الى أن أدته الى أن شغله مدة طويلة فى الليل تسبب عنه ضعف فى عينه اليسار ، حتى احتـاج الى الحكيم الذى نهاه عن مطالعـة الليل ، ولكن لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه ، لما رأى أن الأحسن فى اسراع تعليمـه أن يشترى الكتب اللازمـة له غير ما سمح به (الميرى) وأن يأخذ معلما (ص ١٦٧) آخر غير معلم (الميرى) أنفق جزءا عظيما من ماهيته المعدة له فى شراء كتب ، وفى معلم مكث معه أكثر من سنة ، وكان يعطيه الدرس فى الحصة التى لا يقرأ معى فيها •

وقد ظننت أنه يجب على وقت سفره أن أعطيه هذا الاعلام الموافق لما فى الواقـع ونفس الأمر ، وأن أضيف الى ذلك الافصاح عما فى ضميرى من كمال اعتقاد فضله ومحبته •

مسيو شواليه

٢٨ فى شهر فبريه سنة ١٨٣١

---

(١) L. Cosmogsaphier. علم الفلك •

المقالة الخامسة

(فى ذكر ما وقع من الفتنة فى فرنسا ، وعزل الملك قبل رجوعنا الى مصر ، وانما ذكرنا هذه المقالة لأنها تعد عند الفرنساوية من أطيب أزمانهم وأشهرها ، بل ربما كانت عندهم تاريخا يؤرخ منه) :

الفصل الأول

(فى ذكر مقدمة يتوقف عليها ادراك علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم) .

اعلم أن هذه الطائفة متفرقة فى الرأى فرقتين أصليتين . وهما : الملكية والحرية . والمراد بالملكية أتباع الملك القائلون بأنه ينبغى تسليم الأمر لولى الأمر ، من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء . والأخرى تميل الى الحرية ، بمعنى أنهم يقولون : لا ينبغى النظر الا الى القوانين فقط ، والملك انما هو منفذ للأحكام على طبق ما فى القوانين ، فكأنه عبارة عن آلة ، ولاشك أن الرأيين متباينان ، فلذلك كان لا اتحاد بين أهل فرنسا ، لفقد الاتفاق فى الرأى . والملكية أكثرهم من القسوس وأتباعهم ، وأكثر الحربين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية ، فالفرقة الأولى تحاول اعانة الملك ، والأخرى ضعفه واعانة الرعية . ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ، ولا حاجة الى ملك أصلا . ولكن لما كانت الرعية لاتصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ،

ويجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا هو حكم الجمهورية ويقال للكبار : مشايخ وجمهور ٠

وشريعة الاسلام التى عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة بالأنواع الثلاثـة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرهـا ومواردها ، فعلم من هذا أن بعض الفرنساوية يريـد المملكة المطلقة ، وبعضهم يريد المملكة المقيدة بالعمل بما فى القوانين،وبعضهم يريد الجمهورية، وقد سبق للفرنســاوية أنهــم قاموا سنة ١٧٩٠ من الميلاد وحكموا على ملكهم وزوجتــه بالقتل ، ثم صنعوا جمهـــورية ، وأخرجوا العائلة السلطانية المسماة « البربون » من مدينة« باريس »وأشهروهم مثل الأعداء ولازالت الفتنة باقية الأثر الى سنة ١٨١٠ ميلادية ، ثم تسلطن « بونابارته » المسمى : « نابليون » وتلقب بسلطان سلاطين : ثم لما كثرت محارباتــه ، وكثر أخـذه للممالك وخيف بأسه وبطشه تعاهد عليه ملوك الافرنج ، ليخرجوه من المملكة ، فأخرجوه منها ، مع محبة الفرنساوية له ، وأعادوا البربون الى محلهم رغما عن أنف الملة الفرنساوية ، فكان أول من تسلطن منهم « لويز الثامن عشر » ولأجل ترغيب الناس فى حكمه وتمكين ملكه صنع قانونا بينه وبين الفرنساوية بمشورتهم ورضائهم ، وألزم نفسه أن يتبعه ولا يخرج عنه ، وهو الشرطة،وقد ذكرناها مترجمة فى باب سياسة الفرنساوية، ولاشك أن وعد الكريم ألزم من دين الغريم ٠ وقد جعل هذا القانون له ولمن بعده من ورثة مملكة الفرنساوية ، وأنه لايزاد فيه ولا ينقص الا اذا اتفق عليه الملك وديوان « البير » وديوان وكلاء الرعية ، فلابد من الديوانين والملك ، ويقال انه صنع ذلك على غير مراد أهله وأقاربه، وهم يحبون التصرف المطلق فى الرعية ، ويقال : انهم تعصبوا عليه ، وكان رئيس العصبــة أخـاه « كرلوس العاشر » حتى انــه اطلع على ما أخفاه له فأبطله ،: ويقال ان « كرلوس العاشر » أرادفى « كبرلويز الثـامن عشر » أن ينقض ذلك القـانون ، ويرجع الى طريق اطـلاق

التصرف ، فلم يمكنه ذلك ، ثم بعد موت أخيه أظهر « كرلوس » الحيلة، وأبطل ما كان نواه ، وأظهر أنه لا يريد شيئا من ذلك ، وجوز لكل انسان أن يبدى فى الكازيطات رأيه بالكتابة من غير أن ينظر فيه قبل طبعه واظهاره فصدق الناس كلامه واعتقدوا أنه لا يخلف وعده ، بل فرحت سائر الرعية بتدبيره ومشيه على القوانين ، ثم انه انتهى أمره الى أن هتك القوانين التى هى شرائع الفرنساوية وخالفها ، وقبل هتكه للشريعة بانت منه أمارات ذلك بمجرد تقليده الوزارة للوزير : « بولنياق » وهو معلوم المذهب والتدبير ، يعنى أنه يميل الى كون الأمر لا يكون الا للملك ، ويقال : ان هذا الوزير هو ابن زنا ، زنت أمه بهذا الملك ، فولدته منه ، فهو فى الحقيقة أبوه ، وشهير بالظلم والجور ومن الحكم التى فى غاية الشيوع : أن ظلم الاتباع مضاف الى المتبوع • وفى الحديث : من سل سيف الجور سل عليه سيف الغلبة ولازمه الهم • وقال الشاعر :

من أنصف الناس،ولم ينتصف بفضله منهم فـذاك الأمير
ومن يرد انصافه مثـل ما أنصف ، أضحى ماله من نظير
ومن يرد انصافه ، وهو لا ينصفهم فهو الدنىء الحقير

ولما كان هذا الوزير سابقا « ايلجيا »ببلاد الانكليز من طرف الفرنساوية ، يعني رسولا للمصالح بين الدولتين ، كانت الفرنساوية تنسب اليه كل ما خالف مذهب الحرية • وكلما شاع عنه أنه راجع الى فرنسا يظن جميع الناس أنه لايـأتى الا ليتقلد منصب الوزارة ويغير القوانـين ، فلذلك كان يبعضه سائر أرباب الحريـة وأغلب الرعية • وقد عـرف الفرنساوية من قبـل أن اختياره للوزارة كان مقصودا لهم ، وقد حصل بعد توليته بنحو سنة •

وقد قلنا فيما سبق : ان ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية يجتمعون كل سـنة للمشـورة العمومية • فلما اجتمع هذا الديوان عرضوا على الملك أن يعزل هذا الوزير ومن معه من الوزراء

الستة ، فلم يصغ لكلامهم أصلا ، وقد جرت العادة أن ديوان المشورة يعمل فيه جميع الأشياء بمقالة أكثر أربابه ، وكان المجتمع فى هذا الديوان للمشورة فى قضية الوزراء أربعمائة وثلاثون نفسا ، منها ثلثمائة لا يرضون بابقاء الوزراء ، ومنهم مائة وثلاثون يحبون ابقاءهم، فكان العدد الأكثر عليهم ، والعدد الأقل لهم ، فتيقنوا عزلهم ، وكان الملك يحب ابقاءهم ، لاستعانته بهم على تنفيذ ما أضمره فى نفسه فأبقاهم ، ثم خرم القانون بعدة أوامر ملكية فكانت عاقبتها خروجهم واخراجهم له من بلادهم معزولا ، فهو كما قال الشاعر :

لم يدر مايجنى عليه القول	ولا لماذا أمره يؤول
يلقى الكلام كيف ما ألقاه	لم يحسن الفكرة فى عقباه
وهكذا التهوير فى المقال	وصحبة الأشرار والجهال
يخفضك الجاهل أنى رفعك	يرديك وهو زاعم أن ينفعك

الفصل الثانى

(فى ذكر التغيرات التى حصلت وما ترتب عليها من الفتنة)

قد سبق لنا من القوانين السالفة فى الكلام على حقوق الفرنساوية فى المادة الثامنة أنه لايمنع انسان فى فرنسا من أن يظهر رأيه ، ويكتبه ويطبعه ، بشرط أن لا يضر ما فى القوانين فان أضر به أزيل ، فلما كانت سنة ١٨٣٠ ، واذا بالملك قد أظهر عدة أوامر ، منها : النهى عن أن يظهر الانسان رأيه ، وأن يكتبه أو يطبعه بشروط معينة ، خصوصا « للكازيطات » اليومية ، فانه لابد فى طبعها من أن يطلع عليها أحد من طرف الدولة ، فلا يظهر منها الا ما يريد اظهاره ، مع أن ذلك ليس حق الملك وحده ، فكان لايمكنه عمله الا بقانون ، والقانون لا يصنع الا باجماع آراء ثلاثة : رأى الملك ورأى أهل ديوانى المشورة يعنى ديوان البير ، وديوان رسل العمالات ، فصنع وحده مالا ينفذ الا اذا كان صنعه مع غيره ، وغير أيضا فى هذه الأوامر شيئا فى مجمع اختيار رسل العمالات ، يعنى فى الذين يختارون رسل العمالات ليبعثوها فى « باريس » وفتح ديوان العمالات قبل أن يجتمع مع أنه كان حقه ألا يفتحه الا بعد اجتماعهم كما فعله فى المرة السابقة ، وهذا كله على خلاف القوانين. ثم ان الملك لما أظهر هذه الأوامر كأنه أحس فى نفسه بحصول مخالفه ، فأعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بأنهم أعداء للحرية ، التى هى مقصد رغبة الفرنساوية ، وقد ظهرت هذه

الأوامر بغتة حتى ظهر أن الفرنساوية كانوا غير مستعدين لها ، وبمجرد حصول هذه الأوامر قال غالب العارفين بالسياسيات : انه يحصل فى المدينة محنة عظيمة يترتب عليها ما يترتب ـ كما قال الشاعر :

أرى بين الرماد وميض جمـــر ويوشـــك أن يكون له ضرام
فان النـــار بالعيدان تذكو وان الحرب أولهـــا الكلام

ففى مساء اليوم الذى ظهرت فيه هذه الأوامر فى « الكازيطات » أخذ الناس فى الحركة بقرب المحل المسمى بالروايال « يعنى » السراية السلطانية التى سكنها عائلة أقارب الملك المسماة « عائلة أورليان » التى منها الملك الآن ، وهذا الوقت ظهر الغم على وجوه الناس ، وكان هذا يوم السادس والعشرين فى شهر يولية ، وفى يوم السابع والعشرين منه لم يظهر غالب « كازيطات » الحرية لعدم رضائهـــا بالشروط ، فلـذلك بلغت الأوامـر جميـــع النـاس وحصلت حـركة عظيمـة بعـدم ظهـور « الكازيطـات » التى من عادتها أنها لاتفتر عن الظهور الا لمهم عظيم ، فأغلقت « الورشات » والمعامل (والفبريقات) والمدارس ، فظهر بعض كازيطات الحرية آمرة بعصيان الملك والخروج عن طاعته ، ومعددة لمساويه وفرقت على الناس من غير مقابل ، وبهذه الديار ، بل وفى غيرها قد يبلغ الكلام ، حيث تقصر السهام • خصوصا مادة الخطات ، فانها قوية وخصوصا بلاغة الانشاء ، فلها مدخلية عظيمة كما قيل : ان نزل الوحى على قوم بعد الأنبياء نزل على بلغاء الكتاب ! خصوصا اذا كان ما يذكر فى تلك اليوميات مقبولا عند العامة ، ومقصـــودا عنـد الخاصـــة ، فان هذا هو عين البلاغة الصحيحة ، اذ هى ما فهمته العامة ، ورضيت به الخاصة ، فلما سمع بذلك ولاة الحسبة حضروا فى المحال العامة ، ومنعوا الناس من قراءة هذه « الكازيطات » ، وحاصروا مطابعها ، وهموا بكسر آلات الطباعة ، وكسروا بعضها ،

وحبسوا من اتهموه من الطباعين ، (وبهدلوا) كثيرا ممن أظهـــر شيئا مخالفا لترتيب الملك من الرعية ، وهذا أيضا مما قوى غضب الفرنساوية ، فكتب أرباب هذه الكازيطات يعنى رؤساء الفرنساوية الذين هم يكتبون فيها آراءهم « ورقة انكار » وأشهروها وعددوا نسخها ، ولصقوها بجدران المدينة وأمروا فيها الرعية بالحرب ، وعينوا محـــله ، وكان الميعاد فى درب « سراية باليروايال » (١) فازدحـــم فيه كثير من الأمم ، وفيمـــا حوله من الحارات ، فكانت العساكر السلطانية تحـــاول تفريق هذا الازدحام ، فعظـــم دوى الرعية ، وكثرت أصواتهم ، وظهر غضبهم فى ســـــائر الدروب والحارات، فهجم العسكر على الرعية ، والتحم القتال بين الفريقين ، فكانت الرعية تقاتل أولا بالأحجار ، والعساكر بالسيوف وآلات الحــرب ، فكثر القتـــال وعظمت المطاردة من الجانبين ، ثم بحث الرعية عن آلات الحرب ، وظهر صوت البـــارود من الجانبين ، فى مدينة « باريس » فكأنما لسان حال الفرنساوية الذى هو أصدق من لسان مقالهم جعل يقول :

★ ان بنى عمك فيهم رماح ★

فعظم القتال وكان أكثر المقتول والمجروح من الرعية ، كما قال الشاعر :

فالحرب تنكح ، والنفوس مهورها
مابـين أبـــكار تزف وعـــــون

وترى الدماء على الجراح طوافيا
وكأنهـــا رمد بنجـــل عيـــون

---

(١) Le Sérail Palais Royal.

فاشتد غضبهم ، وعرضوا القتلى فى المحال العامة ، لتحريض الناس على القتال ، واظهار عيوب العساكر • وقامت أنفس الناس على ملكهم ، لاعتقادهم أنه أمر بالقتـــال ، فما مررت بهذا الوقت بحارة الا وسمعت فيها : السلاح ! السلاح ، أدام الله الشرطة ، وقطع دابر الملك ! فمن هذا الوقت كثر سفك الدماء ، وأخذت الرعية الأسلحة من السيوفية بشراء أو غصب • وأغلب العملة والصنائعية خصوصا الطباعين هجموا على (القرقولات) وخانات العســاكر ، وأخذوا منها السلاح والبارود ، وقتلوا من فيها من العســـاكر ، وخلع الناس شعار الملك من الحوانيت والمحال العامة ، وشعار ملك الفرنسيس هى صورة « زهر الزنبق » ، كما أن شــــعار ملك الاسلام « صورة هلال » وملك الموســـقوبية « صورة عقــاب » ، وكسروا قناديل الحارات وقلعوا بلاط المدينة ، وجمعوه فى السكك المطروقة ، حتى يتعذر مشى الفرسان عليه ، ونهبوا (جبخانات) البارود السلطانية • فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك ، وهو خارج أمر بجعل المدينة محاصرة حكما ، وجعل قائد العسكر أميرا من أعداء الفرنساوية مشهورا عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع أن هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأى ، فانه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح، فان عفو الملك أبقى للملك ! ولما ولى على عساكره الا جماعة عقلاء ، أحبابا له وللرعية ، غير مبغوضين ولا أعداء ، ولكن أراد هلاك رعاياه حيث نزلهم بمنزلة أعدائه ، مع أن اســتصلاح العــدو أحزم مــن استهلاله ، ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحـــلم وبالحيـــاء	والرفق بالمذنب ، والاغضاء
ان لم تقل عثرة من يقال	يوشـــك أن يصيبك الجهال

فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لأضداده ، فلو أنعم فى اعطاء الحرية ، لأمة بهذه الصفة حرية • لما وقع فى

مثل هذه الحيرة ، ونزل عن كرسيه في هذه المحنة الأخيرة ، لاسيما وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها ، واعتادوا عليها وصارت عندهم من الصفات النفيسة ، وما أحسن قول الشاعر :

وللناس عادات وقد ألفوا بها … لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم … فذاك ثقيل عندهم وبغيض

وفى اليوم الثامن والعشرين أخذت الرعية من يد العساكر محلا يسمى : « دار المدينة » الذى هو محل شيخ مدينة باريس ، فعند ذلك ظهر الخفر الأهلى يعنى « الرديف » (١) وهم عساكر كانت سابقا تخفر الأهالى ، كما أن للملك عساكر (ورديان) (٢) تخفره وقد كان أبطلهم الملك « شرل » أو « كرلوس العاشر » فلما وقعت الفتنة ظهروا ليمانعوا عن الرعية ، فشهروا أسلحتهم للقتال ، وطردوا سائر العساكر من محلهم ، وأحرقوا كثيرا منها ، وفى هذه الأوقات ارتفعت المحاكم ، وصار الحاكم هو الرعية ، ولم يمكن للدولة عمل شىء ، فقد بذلت ما عندها من القوة لاخماد ذلك وتسكينه فلم تقدر عليه ، فكان جميع المحافظين متحركين ، و (الطبجية) (٣) معينة لاثنى عشر ألفا من الورديان السلطانى ، وستة آلاف من عساكر الصف ، فكانت جملة العساكر السلطانية ثمانية عشر ألف نفس غير الطبجية والمحافظين ، وكان من يحمل السلاح من الرعية أقل من هذا العدد ولكن من لايحمل السلاح يحارب بالأحجار ، أو يعين المتسلح • وبعد أخذ دار المدينة وسلب مدفع من العساكر الحربية ظهر انهزام سائر العساكر السلطانية

---

(١) الرديف : الجند الاحتياطى •
(٢) يريد بهم الحرس •
(٣) رجال المدفعية •

بالبلدة ، ثم ذهبوا الى الديوان المسمى « لوور » (١) والى قصر « طويلريا » (٢) وهو (سراية الملك) ووقع الحرب فيهما بين العساكر وأهل البلد ، وبينما هم فى الحرب بهذا المحل اذ انتشر البيرق المثلث الألوان الذى هو علامة الحرية على الكنائس والهياكل العامة ، ودقت نواقيس الخطر لاعلام سائر الناس داخل وخارج « باريس » من أهل المدينة أو غيرها ، بطلب حمل السلاح منهم للاستعانة على العساكر ، فلما رأت العساكر أن النصرة للرعية ، وأن ضرب السلاح على أهل بلادهم وأقاربهم عار عليهم امتنع أغلبهم ، وعزل كثير من رؤسائهم نفسه من منصبه ، وفى اليوم التاسع والعشرين فى الصباح ، ملك أهل البلد ثلاثة أرباع المدينة ، ووقع أيضا فى أيديهم قصر « طويلريا » و « لوور » فملكوهما ، ونشروا عليهما بيرق الحرية ، فلما سمع بذلك سر عسكر المأمور بادخال أهل « باريس » فى طاعة السلطان ، رجع ، فكان هذا تمام نصرة أهل البلد ، حتى ان العساكر دخلت تحت (بيرق) الرعية ، ومن هذا الوقت ترتب حكم وقتى وديوان مؤقت ، لنظم البلاد حتى ينحط الرأى على تولية حاكم دائم ، وكان رئيس هذا الحكم المؤقت سر عسكر ، المسمى « لافييته » (٣) وهو الذى قاتل فى الفتنة الأولى للحرية أيضا ، وهذا الرجل شهير بأنه يحب الحرية ، ويحامى عنها ، ويعظم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد فى « البوليتيقة » وليس صاحب قريحة ، مستخرجا للعلوم من حيز العدم كغالب رجال الفرنساوية ومشاهيرهم ، خصوصا فى العلوم العسكرية ، ولكن

---

(١) Louvre.

(٢) La Palais des Tuileries.

(٣) La Fayette

أعظم الناس مقاما ، لاقريحة وفهما ، وليس المراد القدح فى معرفته، بل فى انتهاء الرياسة اليه ، ومما يشاهد فى سائر بلاد الدنيـا أن التصدر ليس دائما على قدر المعرفة وان كانت المعرفة موجبة له بالشرع والطبع ، ومن الغريب أن مثل هذا الأمر يقع أيضا فى البلاد الحسنة التمدن ، وأظن أن هذا كله مصداق الحديث الشريف الذى هو « ذكاء المرء محسوب عليه من رزقه » وكما قال الشاعر :

اذا أبصرت ذا فضل فقيرا فلا تعجب لفقر فى يديه
فقد قال النبى مقال صدق ذكاء المرء محسوب عليه

وما أحسن قول الشاعر :

ولو أن السحاب همى بعقل لما أروى مع النخل القتادا
ولو أعطى على قدر المعـالى سقى الهضباتواجتنب الوهادا

الفصل الثالث

(كيف كان يصنع الملك فى هذه المدة ، وفيما جرى بعد ذلك من رضائه بالصلح ، بعد فوات أوانه ، وفى خلعه المملكة على ابنه)

اعلم أن أوامر الملك برزت منه وهو فى بلدة « سنكلو » على القــــرب من باريس ، فالفتنـــة حصلت فى باريس ، والملك لم يكن بها ، ثم ان أهل المدينة بعثــوا له أن يغير وزراءه ، وأن يســترد أوامره ، ويسترجعها ، يعنى أن يكتب أمرا بأنه أعاد اليه ما كان أمر به فلم يرض بذلك ، وأرســـلوا اليـــه فى ذلك عدة وكلاء ، ليستعطفوه ، ويترجــوه فى هذا المعنى ، فلم يفد كلامهـــم ، بل كان : أضيع من دمع على طلل ، وأخبروه أن الرعية لا تريد ذلك أبدا ، وأنه ربما ترتب عليه فساد أعظم من ذلك ، فأجاب بأن كلامه غير قابل للتغيير والتبديل ، فلما تحقق عنده أن دولته قد أشرفت على الزوال بسبب عدم قبوله للمصالحة ، أرسل يطلب منهم ذلك بنفسه ، فأجابوه بأنه لم يبق محل للصلح ، وأن أوان الصلح قد فات ، وأنه لم يتبصر فى العواقب ، ومــن لم يتبصر فى العواقب لقى النوائب ٠ وأنه لم يدقق النظـــر ، والا لما حصـــل له ذلك [الضرر] وفى اليوم الثلاثين من شهر يولية اتفق رأى أهل مشورة رسل العمالات على أن يبعثوا ليترجوا « الدوق درليـــان » قريب السلطان من بدنة ثانية بأن يكون قائم مقـام المملكة ، حتى تقع

مشورة أخرى على من يتولى مملكتهم وكان خارج « باريس » فبمجرد ما وصله ما اقتضاه نظر هذه المشورة وصل الى « باريس » فى الحادى والثلاثين ، ونزل فى دار المدينة ، وأجاب برضائه بما صنعه أهل هذا الديوان وعند دخوله شرع يذكر عبارة عظيمة فى السبب الحامل له على الرضاء بذلك ، وملخصها : أنه قد حصل لى غاية التحسر على الأمر الذى جعل « باريس » فى هذه الحالة المسببة عن خرم القوانين أو تفسيرها بمعنى بشع تحتمله عباراتها ، ولقد امتثلت وجئت بينكم لأخلص البلاد من الفشل ، ولابد أن ألبس معكم علامة الثلاثة ألوان التى قد لبستها كثيرا فى أول عمرى ، ثم ختم عبارته بقوله : والشرطة تصير من هذا الوقت حقا . يعنى أنه يعمل بقوانين المملكة ، وتصير متبعة لايحاد عنها لكونها حقا ، ولقد صارت هذه الجملة عند الفرنساوية مثلا من الأمثال ، وألفاظها بالفرنساوية فى غاية الحماسة ، ثم ان « شرل » العاشر ظن أنه يمكنه التخلص من زوال مملكته بخلع المملكة على ابنه ونزوله عنها له : شعر :

يودلو أن أيام الحمى رجعت   وقل أن رد شىء بعد ما ذهبا

فما كان ذات يوم فى « سنكلو » (١) الا وخرج ابنه « الدوفين » (٢) فى ساحة ، وجمع فيها العساكر ، وأعلمهم بأن أباه ولاه ملكا ، فتلقت العساكر هذا الخبر باستخفاف وبغير اعتناء . ثم ان الملك لما ولى ابنه سافر مع ديوانه وجلسائه فى ليلة التاسع والعشرين من شهر يولية ، وبقى الدوفين وحده ينتظر عاقبة توليته ، فأحضر جميع من معه من العساكر ، وسيرها قدامه ، ليرى كيفيتها ، فلما علم أنها لا ترضى بالمحاربة معه ، نوى

---

(١) Saint cloud.

(٢) لقب ولى عهد فرنسا . Le Dauphin.

السفر ، وخرج من « سنكلو » فبعد عدة ساعات من خروجه ، انتشر على قصر « سنكلو » (البيرق) المثلث ، وهذا القصر هو (سراية) السلطان فى هذه البلدة ، فوصل السلطان وأتباعه فى « رنبوليا »(١) فى غرة شهر أغسطوس ، وفى اليوم الثانى من هذا الشهر بعث « شرل » العاشر وابنه « الدوفين » ورقة « للدوق درليان » (٢) قريبهما يذكران فيها أنهما خلعا المملكة على الدوق « دبردو (٣) حفيد الملك ، وابن أخى الدوفين ، وأنهما جعلا « الدوق درليان » وكيله ووليه ، حتى يبلغ رشده ، وطلبـــا منه فى هذه الورقة أن يبعث لهما جماعة ، ليؤمنوهما فى خروجهما من فرنسا ، فعرض « الدوق درليان » ذلك على مشورة رسل العمالات فلم يرضوا بخلع المملكة ، ورضوا بأن يبعثوا له عدة وكلاء من الكبار ، ليؤمنوه فى خروجه من فرنسا ، ثم انه جاء الخبر فى « باريس » أن الملك لم يرض الخروج حالا ، فوجهوا اليه جملة من العساكر ، ليكرهوه حالا على الخروج ، فبمجرد سماعه بذلك أجاب بالخروج متوجها الى بلاد الانكليز .

شـــعر :

والدهـــر طـورا بعز يقضى ، وطـــورا بهـــون

وهكذا حال الدنيا ، وأحسن ما قيل فى التسلية والصبر على مكارهها قول بعضهم :

سلا بنفسى عن الدنيا وبهجتها أنى أرى فانيــا منها تلافانى
والصبر أحمد ما أوليتمن قلق ما كنت فى شدة الا تلافانى

وفى هذا الوقت كان ابن عمه قائم مقام المملكة « بباريس » فكان الأمر والنهى له ولدواوين المشورة ، فأول ما صـــنعه تقرير

---

(١) Rambouillet.
(٢) Le Duc d'Orléens.
(٣) Duc de Bordeaux.

بقاء الثلاثة ألوان التى هى علامة على حـرية الملة الفرنســاوية ، ثم فتح ديوان مشورة العمالات وديوان مشورة البير ، وقد جرت العادة أنه عند فتح ديوان مشورة العمالات يحضر الملك ، ويخطب على منبر بكلام فصيح ، يذكر فيه ما صنعه من التحسين فى بلاده ، وما هو عازم على فعله فى سنته ، ولما كان هذا الدوق قائما فى هذا الوقت مقام الملك صعد على المنبر يقول كلاما وجيزا مضمونه :

أنه يتحسر على الخطر الذى حصل لمدينة « باريس » عقب هتك قوانين المملكة ، ثم بعد فراغه سلم لديوان المشورة الورقة التى بعثها له « كرلوس » العاشر وابنه « الدوفين » المتضمنة لخلعهما المملكة على الدوق « دبردو » وأنهما يسميانه « هنرى » الخامس ، لأنه تقدم فى فرنسا أربعة ملوك كل منهم يسمى : « هنرى » ثم خرج قائم مقام المملكة من المشورة ، وصار ديوان المشــورة يفتح كل يوم للتدبير .

الفصل الرابع

(فيما انحط عليه رأى أهل المشورة ، وفيما ترتب على
هذه الفتنة من تولية الدوق دورليان ملك الفرنساوية)

اعلم أن المشورة كانت تدبر حالة فرنسا المستقبلة . وقد أسلفنا أن آراء الفرنساوية مختلفة ، حتى انهم فى المشورة مختلفون فى الموضع ، فمنهم الملكية يجلسون فى الجهة اليمنى ، والحريون فى الجهة اليسرى ، والتابعون لآراء الوزراء فى الجهة الوسطى ، وكل منهم يقول رأيه من غير معارض له ، لأن العبرة بكثرة الأصوات ولا زال هذا الأمر ، معمولا به الى الآن ، ولم تغير الفتنة شيئا من ذلك ، فكان أصحاب الآراء فرقتين : فرقة تريد المملكة ، وفرقة تريد الجمهورية ، والفرقة الأولى منها من كان يريد تمليك الدوق « دوبردو » حفيد الملك القديم ، ومنهم من كان يريد تولية ابن « نابليون » الذى هو « بونابارته » ومنهم من كان يريد تمليك « الدوق درليان » قائم مقام المملكة ، وعائلة « درليان » هى العائلة الثانية الوارثة للمملكة ، بعد انقراض العائلة الأولى البكرية ، وهى عائلة « البربون » ثم انه ظهرت ورقة مطبوعة ، وألصقت فى الحارات والمشارع العامة ، مضمونها ، قد صح بالتجربة أن الجمهورية لا تناسب بلاد الفرنساوية ، وأما الدوق دبردو فتوليته تجعل الفرنساوية تحت حكم « البربون » فتقع الفرنساوية فيما فرت منه ، وأما ابن نابليون فهو تربية قسيسين وهم أعداء الحرية فتعين « الدوق درليان » انتهت .

وقد دبرت المشورة عدة مواد انحط عليها الرأى ٠

المادة الأولى : أن الكرسى فارغ حسا ومعنى ، ولاحق لأحد فيه فلابد من شغله بأحد ٠ الثانية : من أغـــراض الفرنســـاوية ومن مصالحهم أن تحذف العبارات الداله على الاســـتعلاء من الشرطة ، التى هى كتـــاب قوانين المملكة ، لأن بقـــاءها بهذه الكيفية يحط بمقام الرعية الفرنســـاوية ، ولا بد أن يحذف من الشرطة بعض المواد الغير اللائقة وتبدل بغيرها ، حتى تكون مصلحة على ما تقتضيه الحال الراهنة ، ثم بعد تمام ذلك طلب ديوان مشورة وكلاء الرعية أن المصلحة العامة اللازمة حالا لجميع الفرنساوية أن يترجى حضرة سعادة « الدوق درليان لويز فليب » قائم مقام المملكة ، لأن يكون ملكا وتكون مملكته وراثة بعده لأولاده الذكور ، ثم بعـــده لأكبر أولاده ، وهكذا ٠ يعنى أن، الملك اذا مات انتقلت المملكة لأكبـــر أولاده ، فاذا مات أو حصل له عذر كانت لابنه الأكبر ، وهكذا ، وأن يقبل المملكة ويرضى بالشروط ، وبصيغة المبايعة التى يعينها له أهل المشورة ، وأن يلقب بملك الفرنساوية ، لا بملك فرنســـا ، والفرق بينهما أن ملك الفرنساوية معناه كبير على نفس الأشخاص بجعلهم له ملكا ، بخلاف ملك فرنسا ، فان معناه أن أرض فرنسا مادامت باقية فهو سيدها وملكها ، ولا منازع له من أهـــل بلاده فيها وسبب ذلك أن الملوك السالفين كانوا يلقبون ملوك فرنسا ، وكان اذا كتب الواحد منهم يقول ما صورته : أنا فلان بفضل الله تعالى ملك فرنسا « ونوار » (١) على كل من يـرى هذه الأوامر الحاضرة سلام قد أمرنا ونأمر بما سيأتى لنـــا ٠ وقوله : ملك فرنسا ظاهر ، وأما قوله « ملك نوار » فان هذا لقب اصطلاحى له ، لمجرد الشرف : وسبب ذلك أن أسلاف ملك فرنسا كانوا يحكمون

---

(١) Navarre

على مملكة « نوار » ثم انتقلت منهم الى ملوك أسبانيا ، فصــــارت حصة منها وبقى اللقب لملك فرنسا ، وأما ملك الفرنساوية فانه يقول فى كتابته : أنا فلان ملك الفرنساوية منى السلام على من حضر فى الحال والاستقبال قد أمرنا ونأمر ففرق بين عبارة الأول والثانى، فان الأول : جعل نفسه ملك مجموع فرنســـا ونوار بانعـــام الله سبحانه وتعالى عليه ، والثانى : جعل نفســـه ملك الفرنسيس ، ولم يقل بفضل الله ، ولقد تحـــاشى عن أن يقول ذلك لارضـــاء الفرنساوية فانهم يقولون انه ملك الفرنسيس بارادة ملتــــه ، وبتمليكهم له ، لا أن هذه خصوصية خص الله سبحانه وتعالى بهـا عائلته ، من غير أن يكون لرعيته مدخلية فظهــر من هذا أن قوله بفضل الله ، معناه عنــدهم باســتحقاقه لذلك بولادته ونســـبه ، كمــا أن قوله ملك فرنســـا معنـــاه صاحب الأرض والسلطنة عليها ؛ والا فلو كان عندنا لاستوت العبارتان ، فان كون الملك ملكا باختيار رعيته له ، لا ينافى كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والاحسان ، ولا فرق عندنا مثلا بين ملك العجم وملك أرض العجم ، ثم بعد تمام المشورة بعث اليه أهلها عدة رسل ، فقرأ عليه رئيس الرسل ما اتفق عليه أهل ديوان المشورة ، فأجـــاب حـالا بقوله : قد سمعت والقلب فى اضطراب ما عرضتموه على من خلاصة مجلس المشورة ، من انتخابى للمملكة ، ولقد صح عندى أن عبارتكم الصادرة عنكم هى أيضا عبارة لسان حال الرعية بتمامها ، وظهر لى أن ما صنعتموه فى القوانين يناسب ما ذهبت اليه فى السياسات التى مارستها مدة حياتى ، ولكن حصل لى من ذلك انفعال عظيم لأننى لست انسى مدة حياتى ما قاسيته سابقا من الأهوال ، حتى اننى كنت عزمت على أن لا أطمع أبدا فى قضية السلطنة ، ونويت على أن أعيش خاملا مرتاحا بين عيالى ، ولكن حبى لعمار بلادى غلب ذلك ، فهو جدير بأن أوثره عليه ، حيث قد أيقنت أن الضرورة دعت

اليه ، ثم انه عين اليوم الذى يتتوج فيه ، فى ديوان رسل العمالات ، فلما جاء اليوم الموعود جاء في الساعة المتفق عليها بموكب عظيم ، من غير خفر سلطاني ، ومن غير جلساء ، وقد جرت عادة ملوكهم بأن زينة الموكب انما هى بذلك ، وكل ما مشى خطوة حياه جميع الناس من الجوانب بقولهم : حفظ الله « الدوق درليان » حفظ الله الملك ، فلما دخل الديوان ركب مصطبة بقرب الكرسى ، وسلم على أهل المجلس ثلاث مرات ، ثم جلس على دكة أمام الكرسى وابنه الأكبر عن يمينه ، والثاني عن يساره ، وخلفه أربعة وزراء فى العسكرية يلقبون بالمارشالات جمع « مارشال » ، وهو أعلى مراتب العسكرية عند الدولة الفرنساوية ، وهو دائما مضاف الى فرنسا ، فيقال : مارشال فرنسا ، وبالفرنساوية « مارشال د فرانسا » والدال علامة على الاضافة بين المضاف والمضاف اليه ، مثل اللام المقدرة فى الاضافة عندنا ، فعلامة الاضافة ظاهرة عند الفرنسيس ، ثم بعد جلوسه عزم على أهل ديوان « البير وديوان رسل العمالات » بالجلوس ، ثم طلب من رئيس الديوان أن يقرأ عليه الخلاصة التى عزم عليه أهل الديوانين فيهما بالمملكة ، فلما فرغ الرئيس من قراءتها أجاب « الدوق » المذكور بقوله : ياساداتنا ، قد سمعت مع التأمل خلاصة الديوانين ، وقد وزنت عبارتهما وأمعنت فيها النظر ، وأقول : رضيت من غير شرط ولا تعليق بجميع الشروط المذكورة فى الخلاصة ، وبتلقيبى ملك الفرنسيس الذى أعطيتموه لى ، وها أنا حاضرٌ مستعد للحلف والمبايعة على أنى أحفظ ذلك ، ثم قام الملك مكشوف الرأس ، ورفع يده اليمنى ، وشرع يقول هذه الصيغة ، الآتية بترتيب وترتيل ، وبصوت ثابت من غير لجلجة ، وهذه الصيغة مترجمة : أشهد الله سبحانه وتعالى على أنى أحفظ مع الأمانة الشرطة المتضمنة لقوانين المملكة ، مع ما اشتملت عليه من الاصلاح الجديد المذكور فى الخلاصة ، وعلى أنى لا أحكم

الا بالقوانين المسطورة وعلى طريقها ، وأن أعطى كل ذى حق حقه ، بما هو ثابت فى القوانين ، وأن أعمل دائما على حسب ما تقتضيه مصلحة الرعية الفرنساوية وسعادتها وفخرها ، ثم صعد على كرسى المملكة ، وشرع يقول : ياساداتنا ، قد حلفت فى هذا الوقت يمينا عظيما ، وما جهلت بالواجبات المرتبة به على ، مع عظمها واتساعها ، لما أن نفسى تحدثنى أننى أوفى بها ، وما قبلت المبايعة الا عن رضى ، وقد كنت عزمت على ألا أركب أبدا الكرسى الذى أعطته لى الملة الفرنساوية ، ولكن لما رأيت أن فرنسا قد جرحت حريتها ، وتكدرت الراحة العامة بأرضها ، وبهتك قوانين المملكة قد أشرفت على الفساد ، وجب نصب القوانين ، وكان ذلك من وظيفة ديوان « البير وديوان رسل العمالات » ، وقد وفيتهم بذلك ، فما صنعناه من اصلاح الشرطة يستلزم الأمن فى المستقبل فمأمولى أن فرنسا تصير مرتاحة فى داخلها ، ومحترمة فى خارجها ، والصلح فى بلاد أوروبا يزيد ثباتا ، فلما فرغ من كلامه صاحت الأصوات : حفظ الله الملك « لويز فليب الأول » ، ثم سلم الملك على المجلس ، وخرج ، مصافحا من رآه من أهل المجلس وغيرهم ، وركب حصانه ، ومشى ، وصار يصافح الناس عن يمينه وعن يساره ، وربما عانق كثيرا من الناس ، وكان موكبه مؤلفا من أهل البلد ، ومن خفر الملة المسمى الخفر الأهلى يعنى « الرديف » ولما دخل الليل نورت باريس بوقدة عظيمة وكان تملكه فى السابع من شهر أغسطوس سنة ١٨٣٠ من الميلاد .

الفصل الخامس

فيما حصل للوزراء الذين وضعوا خطوط أيديهم على الأوامر السلطانية التى كانت السبب فى زوال مملكة الملك الأول الذى فعل فعلته ، وفى العواقب لم ينظر ، وطمع بما لم يظفر ، كمـــا قال الشاعر :

ان النفوس على اختلاف طباعها طمعت من الدنيا بما لم تظفر

اعلم أن الفرنساوية بعد هذه الفتنـــة اهتموا غاية الاهتمام بالتفتيش على الوزراء الذين كانوا السبب فى ذلك ، وأيضا فانه بمقتضى القوانين أن الوزراء يضمون ما يقع فى المملكة من الخلل فهم المحاسبون دون الملك : وليس على الملك شيء أصلا ، فحملهم ثقيل ، ووظيفتهم شاقة التحمل ، فعليهم الوزر فى كل ما يحدث ، قال الشاعر :

يتداول الناس الرياسة بينهم وأريد حظهمو فلا أستطيع
وأكلف العبء الثقيل وانما تبلى به الأتباع لا المتبوع
فعليهم الأثقال يرمى حملها وعلى الرئيس الختم والتوقيع

فبرزت الأوامر فى جميع طـرق البلاد أن يوقفوهم اذا مروا عليهم ، وقد قلنا : ان رئيس الوزراء كان « بولنيـــاق » فمسك من الوزراء أربعة منهم هذا الأمير المذكور ، وصورة القبض عليه : أنهم وجدوه خارجا من بلاد فرنسا فى صورة خادم لامرأة عظيمة ، فعرفوه ، وأوقفوه وخفره الخفر الموجـــود فى الطريق خوفا من

الرعية ، ثم أعلموا بذلك الديوان فى « باريس » فكتب هو مكتوبا الى ديوان مشورة « البير » وقد كان من رجال المشورة يقول فيه : انه لا معنى للقبض عليه حيث انه من اهل هذا الديـوان ، واحتج بالمادة الرابعة والثلاثين من الشرطة ، لا يمكن أن يحبس أحد من أهل ديوان « البير » الا بأمر أهل ذلك الديوان ، ولا يمكن أن يحكم عليه غيرهم فى مواد الجنايات ، فما كان جوابهم الا أنهم اجتمعوا وقرأوا مكتوبة ثم تشاوروا فكانت خلاصة المشورة الاذن بالقبض عليه وحبسه حتى يحكموا عليه ، فجىء به الى بلدة « ونسينه » (١) بقرب « باريس » ، وحبس فى قلعتها ، ثم قبض على الثلاثة الأخـر وحبسوا معا من غير أن يحصل لأحد منهم شىء من الترذيل أبدا مدة حبسه ، ثم انهم مدة حبسهم بنوا لهم محلا عظيما فى ديوان مشورة « البير » لتسمع دعواهم فيه وجعلوه بنـــاء متينا وثيقـــا على صـــورة عظيمة ، حتى لايمـــكن للرعية الهجـوم عليهم لأذيتهم ولا لأحبابهم أن يخلصوهم من الحبس ، وكلفوا ذلك أموالا لها وقع عظيم ثم جاءوا بهم الى هذا المكان وحبسوهم فى محل منه ، وصاروا يأتون بهم كل يوم وكانت دعوتهم من أعظم ما يتعلق غرض الانسان بسماعه ٠

ومن أجل ما يدل دلالة قطعية على تمدن الفرنساوية وعدل دولتها : ولنذكر لك بعض شىء منها فنقول :

اعلم أن ملك الفرنسيس الجديد لما تولى تعلقت ارادته بعزل سبعين رجلا من أهل مشورة « البير » الذين كان ولاهم «شرل العاشر» الملك السابق ثم سمى منهم تسمية جديدة من كان على غرضـــه فلو كان هؤلاء السبعون (فضلوا) من أهل الديوان لكانوا يحامون عن الوزراء ، فكان غالب أهل ديوان مشورة « البير » أعداء لهم

(١) Le Ville de Vincennes.

الا أن التمسك بالقوانين ، وطيب نفوسهم فى الجملة وعدم ميلهم بالطبيعة الى الظلم كان سببا فى نجاة الوزراء المذكورين، ومما يتعجب منه أن الوزير « بولنياق » حين القبض عليه أراد أن يختار واحدا يحامى عنه من العارفين بالأحكام ، فلم يختر الا « مرتتياق » أحد الوزراء المعزولين قبله ليس بينه وبينه وصلة ولا محبة ، وأعجب من ذلك أن الآخر الذى هو « مرتنياق » وفى بذلك مع غاية الأمانة التامة ، وبذل ما عنده من المعارف لدفع الايرادات عن موكله ، وكذلك كل واحد من الوزراء المقبوض عليهم وكل محاميا له ، ثم لما فتحوا الدعوى أرسلوا لكل واحد من الوزراء المحبوسين يطلبونه بخصوصه مع غاية الرفق واللين ٠

وكيفية أول ما يسأل به : ما اسمك ؟ ما وصفك ؟ ما منصبك؟ ما رتبتك ؟ فيجيب بأجوبة هذه الأسئلة ، ولو كانوا يعرفون ما ذكر ثم قالوا لكل واحد منهم : أتقر بأنك وضعت خط يدك تحت أوامر الملك ؟ قال : نعم ، ولأى شىء فعلت ذلك ؟ فيجيب بأن الملك أراده ، ولأى شىء أراد الملك فعل ذلك ؟ وهل عزم عليه من قديم الزمان أو الآن فقط ؟ وقد كان كل منهم يجيب فى مثل هذه الأسئلة بقوله : لا أفشى سر ديوان حضرة الملك أصلا ، مع غاية التعظيم فى المجلس لمليكهم المعزول ولم يتفوه أحد منهم بشىء من أسرار الديوان أبدا ، ولم يكرههم أحد على ذلك ٠ ثم بعد سؤالهم وانتهائه ، وكتب خلاصته جاء المحامون عنهم ومكثوا أيضا عدة أيام ، ليظهروا أن الوزراء بريئون من الذنوب وأن مقصدهم كان حسنا ، وهكذا ، فبعد ذلك امتحنت المشورة جميع الدعوى ٠ ثم قضت بما هذه صورته : من حيث ان الوزراء وضعوا خط أيديهم تحت الأوامر المخالفة لقوانين المملكة ، ومن حيث انهم هتكوا حرمة القوانين ومخالفتها ، حكمت المشورة عليهم بالحبس الدائم ، وتجريدهم من أوصاف الشرف والقابه ، وحكمت على « بولنياق »

زيادة على ذلك بالموت الحكمي وهو تقريبا نظير مسئلة من انقطع خبره وحكم بموته القاضي باجتهاده ، بعد مضى مدة لا يعيش فوقها غالبا ، والموت الحكمى عند الفرنساوية ، ويقال له « الموت المدنى » هو أن يكون حكم الحي عندهم كحكم الميت فى كثير من الأحوال ، وهو أن المحكوم عليه بذلك يزول عنه جميع ما يملكه ليدخل تحت يد ورثته مثل ما اذا مات حقيقة ، ولا يصح ان يرث غيره بعد ذلك : ولا أن يورث هو غيره الأموال التى ملكها بعد ذلك ، ولا يمكنه أن يتصرف فى أمواله جميعها أو بعضها بهبة أو وصية ، ولا يجوز اهداؤه ، ولا الوصية له الا بالقوت ، ولا يجوز أن يكون وليا ولا وصيا ولا شاهدا فى شهادة شرعية ، ولا تقبل دعواه ، ولا ينعقد نكاحه ، بل ينفسخ نكاحه الأول ، بالنظر للأحكام المترتبة عليه : ولزوجته وأولاده أن يصنعوا فى أمواله أو فى أنفسهم كما لو مات هو حقيقة . وبالجملة فهو حى ملحق بالموتى ، ولكن لما كان هذا الوزير وأمثاله ممن يحكم عليهم بذلك من أعيان الناس ، وكانت ذريته حسنة التربية ، كان المحكوم عليه بذلك يبقى فى العادة على ما كان عليه قبل الحكم ، لكون عائلته تعتقد أن هذا من باب التعدى المحض ، وأنه ناج بينه وبين مولاه ، ولا تفارقه زوجته أصلا ، لاعتقادها أنها فى عصمته باطنا ، ولو ولدت منه بعد ذلك ولدا ورثه الأخوة معهم ، وان كان هذا خلاف الأحكام المترتبة على الموت الحكمى ، ولما سمعت الرعية بذلك قاموا وقالوا لابد من الحكم عليهم بالموت الحقيقى ، فأخبرهم أهل الدولة أن هذا يناقض ما تطلبونه من الحرية والعدل والانصاف ، وأن كتاب القوانين لم يعين نوع عقوبة الوزراء اذا حصلت منهم خيانة ، وانما حكمت

المشورة بالاجتهاد عقوبة لهم وزجرا لأمثالهم ، ويصــــلح فى حقهم قول الشاعر :

فهم من المجد فى حضيض وهم من الجد فى الروابى

وهــم اذا فتشــــوا وعــدوا أعز من عـــودة الشـــباب

ثم ليلة أن حكم عليهم بذلك ، قبل أن يطلعوهم على خلاصــة المشورة أخرجوهم من هذا الحبس الذى كان بنى لأجلهم ، وخفروهم الى قلعة « ونسينه » (١) فحبسوهم بها ، ومنها نقلوهم الى قلعـــة أخرى ، وهم محبوسون بها الى الآن ، والحكم عليهم بهذه الكيفية ، مما يدل على حسن أخلاق الدولة الفرنساوية .

(١) Le chateau de Vincennes.

الفصل السادس

(فيما كان بعد الفتنة فى سخرية الفرنساوية على «شرل العاشر» وفى عدم اكتفاء الفرنساوية بذلك)

اعلم أنه جاء الى الفرنســـــاوية خبر وقوع بلاد الجزائر فى أيديهم قبل حصول هذه الفتنة بزمن يسير ، فتلقوا هذا الخبر من غير حماسة ، وان أظهروا الفرح والسرور به فبمجرد ما وصل هذا الخبر الى رئيس الوزراء « بولنياق » أمر بتسييب مدافع الفـــــرح والسرور ، ولقد صدق من قال :

وكم سرور طيه أحزان   لأجل هذا خلق الزمان

وصار يتماشى فى المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه ، حيث ان مراده نفذ ، وانتصرت الفرنســـاوية فى زمن وزارته على بلاد الجزائر ، فما كانت أيام قلائل الا وانتصرت الفرنساوية عليه ، وعلى ملكه نصرة أعظم من تلك ، حتى ان مادة الجزائر نسيت بالكلية، وصار الناس لا يتحدثون الا بالنصرة الأخيرة : على أن حاكم الجزائر خرج منها بشروط ، وأخذ منها ما يملكه ، وملك الفرنسيس خرج من مملكته يتندم على ما وقع منه • وللزمان صروف تدول ، وأحوال تحول • وكان هذا هو عاقبته على غارته على بلاد الجزائر بأسباب واهية لا تقتضى ذلك ، بل بمجرد ارضاء هوى النفس ، واذا ، نصر الهوى بطل الرأى •

مما وقع أن المطران الكبير لما سمع بأخذ الجزائر ، ودخـــل الملك القديم الكنيسة يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك جـــاء اليه ذلك المطران ليهنيه على هذه التصرة ، فمن جملة كلامه ما معناه : أنه يحمد الله سبحانه وتعالى على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الاسلامية ، ولا زالت كذلك ـ انتهى ـ مع أن الحرب بين الفرنساوية وأهالى الجزائر انما هو مجرد امـــور سياسية ، ومشاحنـــات تجارات ومعاملات ومشاجرات ومجادلات ، منشؤها التكبر والتعاظم .

ومن الأمثـال الحكمية : لو كانت المشاجرة شجرا ، لم تثمر الا ضجرا . فلما وقعت الفتنة كسر الفرنسلوية بيت المطران بعـد هروبه وخربوه ، وأفسدوا جميع ما فيه حتى انه تخفى ، ولم يعلم له أثر ثم ظهر واختفى ثانيا ، وهجم على بيته ثانيا ، ولازال مذموما مخذولا ، وقال الشاعر :

لاتعجبن رويدا انهـا دول   دنيـا تنقل من قوم الى قوم

ثم ان الفرنساوية لما رأوا أن « شرل العاشر » أخرج « باشا الجزائر » من مملكته أيضـا ، صاروا يهزءون « بشرل العاشر » ، ويصورونه هو وباشـا الجزائر فى الطرق ، ويكتبـون فى وقائع النوادر تلميحات غريبة ، ونكات ظريفة ؛ فمن جملة ذلك أنهـم صوروه هو والباشا المذكور وكتبوا تحت صورة باشـا الجزائر : وأنت أيضا جاءت نوبتك ؟!! كأن الباشا يقول للملك اســتفهاما ليهزءوا به : وأنت أيضا عزلت كما عزلتنى !

شـــعر .

فقل للشامتين بنـا رويدا   أمامكم المصـائب والخطوب

وقال آخـــر :

الدهر يفترس الرجال فلا تكن ممن تطيشه المناصب والرتب
كم نعمة زالت بأدنى زلة ولكل شىء فى تقلبه سبب

وكتبوا أيضا فى وقائع النوادر ما نصه : ان الباشا المذكور يقول « لشرل » العاشر قم بنا نلعب لعب كذا ، على قدر معلوم ، وان لم يكن معك شىء جمعنا لك شيئا ، على سـبيل الصدقة من الناس ! يشيرون بذلك الى أن باشا الجزائر خرج من بلاده غنيا ، و « شرل العاشر » خرج من بلاده فقيرا ، وصوروا ايضا الملك المذكور فى صورة أعمى يتكفف الناس ، ويقول فى سؤاله : أعطوا بعض شىء للفقير الأعمى ، يشيرون الى أنه لم يتبصر فى عواقب الأمور ، وصوروه أيضا هو ووزيره « بولنياق » خارجين من كنيسـة ، اشارة الى أنهما لايفلحان الا فى هذه العبادة الباطلة ، وأنهما قسوس لا أمراء ، وكانوا يزعمون أن الملك كان يلبس فى بعض الأحيان لبس القسيسين ، ويقدس بالنـاس كالقسيس فى كنيسـته التى فى (سرايته) . وكانوا يصيحون فى البـلدة بعـد هذه الفتنـة بورقات مطبوعة ، فيها : عشـق هذا الملك وفسـاده فى صغر سنه ، وفسق المطران الكبير ، وهكذا . وبأن ابن ابنـه ليس هو ابنا حقيقيا ، وانما هو ابن مزور ، والعجيب أنهم كانوا يصيحون بهذه الأوراق ليبيعوها فى ساحة بيت الملك الجديد ، الذى هو من أقارب الملك . وأعجب من ذلك أنهم يكتبون فى هذه الورقة : أن الملك الجديد هو الذى كتب ذلك سابقا فى « جرنالات » الانكليز ، بعد ولادة حفيد الملك القديم ، ويصيحون بذلك ، ولا أحد ينكر عليهم ، لما أن حرية الرأى قولا وكتابة تقضى بذلك .

وبعد تولية هذا الملك ظهرت عدة تعصبات عظيمة ، منها من يريد عزله ونصب الجمهورية لعدم اكتفائه بالحرية وطلبه أزيد من

ذلك ، ومنهم من تعصب لنصب الحكم القديم ، وتوليـــة حفيـد الملك السابق ٠

ولا زالت هذه الفتنة باقية الآثار الى الآن ، وربما تعدت آثارها الى غيرها من البلاد ٠

فمن ذلك : الفتنة التى ترتب عليها انعزال اقليم البلجيك من مملكة الفلمنك ، وقد كان جزءا منها ٠

ومن آثارها أيضا : طلب بلاد له الحرية والخروج من حكم الموسقوبية ٠

ومنها : الفتن التى وقعت فى بلاد ايطاليا ٠

الفصل السابع

(فيما كان من دول الافرنج ، بعد سماعهم بانعزال الملك الأول وتقليد المملكة للملك الثاني ، وفى رضائهم بذلك)

لا يخفى أن العائلة السلطانية القديمة قد رجعت بعد تعاهد الدول الافرنجية على السلطان « نابليون » واخراجه ونفيه الى جزيرة « سنت هلينة » ٠ وترجيع هذه العائلة الى البلاد بعد أن كانت فى البلاد الغريبة ، فتملك هذه العائلة انما هو بمعاهدة ملوك الدول الافرنجية ، فهى فى الحقيقة مملكة على فرنسا رغما عن أنف غالب الفرنساوية ٠ فلما وقعت الفتنة خشى الفرنساوية من أن الملوك المذكورين يأتون بجيوش الى بلادهم ، وينصبون كرسى هذه العائلة ، فتخلصوا من ذلك بتملك العائلة الأخرى التى هى عائلة « أرليان » ، ولكنهم لم يعلموا هل ترضى الملوك بذلك أو لا ، وعزموا على أنهم اذا لم يرضوا بذلك وجاءوا لمحاربتهم حاربوهم ، ولو حصل ما حصل ، وجهزوا ما يدل على ذلك ٠

ولنذكر لك هنا نسبة ملوك الافرنج بالنظر لهذه المادة فنقول : اعلم أن ملك أسبانيا يوافق بسياسته وسلوكه سياسة ملك فرنسا القديم ، وهو أيضا من أقاربه ، لأن العائلة التى تحكم ببلاد أسبانيا من العائلة التى تحكم ببلاد فرنسا ، فهى تميل اليها ظاهرا وباطنا ، ومثلها فى ذلك الميل بلاد البرتوغال ، فهاتان المملكتان لا يحصل منهما شيء يخاف به على العائلة القديمة ٠وأما بلاد ايطاليا فان دولة « نابلى » ودولة « رومة » ودولة « سردنيا » توافق

أيضا فى سياستها سياسة « البربون » ، يعنى العائلة القديمة ، فحينئذ ملوك هذه الدول تأثرت باطنا بما وقع فى بلاد الفرنساوية ، وأما دوله « المسقو » ، ودوله « النيمسا » . ودوله « البروسه » ، و « الانكليز » فانها متعاهدة على تولية عائلة « البربون » القديمة المملكة ، فهى أيضا تأثرت بذلك نوع تأثر ، وخصوصـــا الدولة المسقوبية ، وأما الدول الصغيرة ببلاد الافرنج فانها تابعة للدول الكبيرة ، فلم يبق مع دولة الفرنساوية الجديدة الا بعض أقاليم صغيرة تريد الحرية ، غير أن أهل دولة الانكليز أظهرت الرضـــا بما وقع ، فلذلك ملكهم كان أول من اعترف بالمملكة لملك الفرنساوية الجديد ، وقد جرت العادة أن الملك اذا تولى لابد من أن يعترف له الملوك بالتملك ، ويقروه على ذلك ، وهو من الرسوم غالبا . يقال ان حضرة مولانا السلطان الأعظم لما سمع بذلك ، وأخبره « الايلجى » أجاب بأنه لا يصنع شيئا حتى يرى ما تصنعه ملوك الافرنج ، فان أقروه على ذلك أقره أيضا ، ومدخلية الدولة العلية فى ميدان دوائر الدولة الافرنجية قليل .

وممن توقف فى الاقرار مدة طويلة ملك الموسقو ، ثم بعد ذلك أقره بشرط أن لا يتغير شىء فى ميزان بلاد الافرنج ، يعنى أن الافرنج تبقى على ما هى عليه ، من غير أن يحصل بها راجحية أو موجوحية فى السياسة ، بمعنى أن مملكة فرنسا مثلا لا تزيد عما كانت عليه قبل الفتنة . والظاهر أن أكثر الملوك التى أقرت ملك الفرنساوية الجديد انما أقرته على ذلك ، ورضيت بما وقع رضاء وقتيا ، حتى أن الفرنساوية تحس بذلك وتجهر به ، كانها لا تثق بذلك الصلح الذى تراه كانه هدنة وتعليق .

ولما خرجت من فرنسا كان جميع الناس يتوقع فيها اشهيار

الحرب وظهوره بين النيمساوية والفرنساوية ، أو الموسقوبية ، أو الاسبانيول ، أو البروسه ٠

والله سبحانه وتعالى أعلم بما كان وبما يكون ، وللفرنساوية الآن التئام مع الانكليز لم يسبق مثله أبدا ، وأما الكلام على الرجوع فراجعه فى خاتمة الرحلة ٠

المقالة السادسة

(فى ذكر نبذات من العلوم ولفنون المسرودة فى الباب الثانى من المقـــدمة)

وهى تشتمل على عدة كتب

الكتاب الأول

فى تقسيم العلوم والفنون من حيث هى ، وفى ذكر الفنون والعلوم العامة لجميع التلامذة

الفصل الأول

[فى تقسيم العلوم والفنون على طريق الافرنج]

اعلم أن الافرنج قسموا المعارف البشرية الى قسمين : علوم وفنون

فالعلم هو الادراكات المحققة المذكورة بطريق البراهين ، وأما الفن فهو معرفة صناعة الشىء على حسب قواعد مخصوصة ؛

ثم ان العلوم تنقسم الى رياضية وغيرهـــا ، وغير الرياضية تنقسم الى طبيعيات والهيات •

والعلوم الرياضية هى : الحساب ، والهندسة ، والجبر ، والمقابلة •

والعلوم الطبيعية هى : تاريخ الطبيعيات ، وعلم الطبيعة ، وعلم الكيمياء •

والمراد بتاريخ الطبيعيات علم الحشائش ، والأعشاب ، وعلم المعادن والأحجار وعلم الحيوانات ..

وهذه الفروع الثلاثة تسمى مراتب التولدات : مرتبة النباتات ، ومرتبة المعادن ، ومرتبة الحيوانات ·

وأما الالهيات فتسمى أيضا علم ما وراء الطبيعيات : أو ما فوق الطبيعيات ·

وأما الفنون فانها تنقسم الى فنون عقلية ، والى فنون عملية ، فالفنون العقلية ما يكثر قربها من العلوم ، مثل علم الفصاحة والبلاغة ، وعلم النحو ، والمنطق ، والشعر ، والرسم ، والنحاتة ، والموسيقى ، فان هذه فنون عقلية ، لأنها تحتاج الى قواعد علمية · وأما الفنون العملية : فهى الحرف ·

هذا هو تقسيم حكماء الافرنج ، والا فعندنا أن العلوم والفنون فى الغالب شيء واحد ، وانما يفرق بين كون الفن علما مستقلا بنفسه ، وآلة لغيره ، ثم ان العلوم المطلوبة من عموم التلامذة هى : الحساب ، والهندسة ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والرسم ، ومعرفة هذه كلها تكون بعد معرفة اللغة الفرنساوية ، وما يتعلق بها ، فلذلك وجب علينا هنا أن نذكر نبذة منها :

الفصل الثانى

[فى تقسيم اللغات من حيث هى ، وفى ذكر اصطلاح اللغة الفرنساوية]

اعلم أن اللغة لما كانت ضرورية فى افهام السامع معنى يحسن سكوت المتكلم عليه وكانت لازمة فى التفهيم والتفهم وفى المخاطبات والمحاورات ، وجب عند جميع الأمم على المتعلم أن يبتدىء بهـا ، ويجعلهـا وسـيلة لما عداها ، واللغـة من حيث هى الألفـاظ المخصوصـة الدالة على المعـانى المخصوصـة ، وطريقهـا الكلام والكتابة المختلفة باختلاف الأمم ، وهى قسمان : لغات مستعملة ولغات مهجورة ، فالأول ما يتكلم بها الآن كلغة العرب ، والفرس ، والترك ، والهنـد ، والفرنسيس ، والطليانيـة ، والانكليز • والأسبانيول ، والنمسا ، والموسقو ، والثانى ما انقرض أهله واندثر ولم يبق الا فى الكتب مثل اللغة القبطية ، واللاطينية ، واليونانية العديمة المسماة بالاغريقيـة • ومعرفة هذه اللغات المهجورة فى المخاطبات نافعة لمن أراد الاطـلاع على كتب المتقدمين ، وفى بلاد الافرنج توجـد مدارس مخصوصـة معدة لتعلم هذه الألسن لما يعلمون من نفعها •

وكل لغة من اللغات لابد لها من قواعد لتضبطها كتابة وقراءة ، وتسمى هذه القواعد باللغة الطليانية « أغرماتيقا » وباللغة الفرنساوية « اغرمير » ومعناها تركيب الكلام ، يعنى علم ضبط اللغة بنحوها ، فلا مانع من أن يراد بالنحو قواعد اللغة من حيث هى ، وهو مرادنا هنا فهو : علم به يعرف تصحيح الكلام والكتابة على اصطلاح اللغة المرادة الاستعمال ، والكلام ما قصد به افادة السامع معنى يحسن

عليه السكوت ، وهو يتركب من الكلمة ، وأقسامها عند أهل اللغة العربية ثلاثة : الاسم ، والفعل والحرف ، والاسم اما مظهر نحو زيد ، أو مضمر نحو هو ، أو مبهم نحو هذا • والفعل اما ماض كضرب ، أو مضارع كيضرب ، أو أمر كاضرب • والحرف اما مختص بواحد من قسيميه كمن وقد ، أو مشترك بينهما كهل وبل •

وانما قسمنا هذا التقسيم هنا لأنه سيأتي لنا أن الفرنساوية عندهم الضمير واسم الاشارة قسيمان للاسم ، ولا يعدان منه بوجه من الوجوه فانهم جعلوا أجزاء الكلمة عشرة ، كل واحد منها قسم مستقل له علامة وهي الاسم ، والضمير وحرف التعريف والنعت والمشترك وهو أسماء المفعول والفاعل والفعل والظرف ويسمى عندهم مكيف الفعل ، وحروف الجر وحروف الربط وحروف النداء والتعجب ونحوه • فيقولون في تعريف الاسم هو كلمة تدل على شخص أو شيء أي على العالم وغير العالم مثل زيد وفرس وحجر • وفي تعريف الضمير : هو ما يقوم مقام الاسم وحرف التعريف هو أيضا عندهم لام التعريف كما عندنا الا أنه يختلف باختلاف الاسم الداخل عليه فانه للمذكر «لُ» بالضم ، وفي المؤنث «لَ» بالفتح ، ولجمعيهما «لس» ، ولكن السين لا ينطق بها ويقولون في تعريف النعت هو ما يدل على الاتصاف بوصف من الأوصاف كحسن وجميل ، فهو نظير الصفة المشبهة ، وأما اسم الفاعل واسم المفعول فانهما نحو ضارب ومضروب ، والظرف عندهم مثله في لغة العرب ، وحروف الجر مثل الظروف ، وحروف الجر في اللغة العربية ، فاذا قال الانسان باللغة الفرنساوية جئت قبل زيد وبعده ، فان قبل وبعد من حروف الجر عندهم ، واذا قال جاء زيد أولا أو قبل أو نحو ذلك فانه ظرف • وأما الحروف الروابط فانهم يعرفونها بأنها ما تتوسط بين كلمتين أو جملتين نحو واو العطف في قولك جاء زيد وعمرو ، ونحو أن في قولك أؤمل أن أعيش زمنا طويلا • ومن هذا القسم اذن وحينئذ من نحو

قولك أنت عاقل ، فاذان أنت قابل للتعلم أو أنت فحينئذ قابل ، وحروف النداء والتعجب ونحوها معلومة ، وقواعد لغتهم يلزمها هذا التقسيم •

ويظهر أن قول بعضهم أقسام الكلمة أو الكلام ثلاثة فى سائر اللغات ، وان الحصر عقلى لعلة استقلالها بالمفهومية وعدمه ، ودلالة ما استقل بالمفهومية على زمان وعدمها فيه بعض شيء •

ورأيت فى كتب الفرنساوية من قسمها أولا الى هذه الأقسام الثلاثة ، ثم قسمها تقسيما ثانويا ، فالحصر حينئذ عقلى على حاله •

ثم ان كل انسان يعبر عن مقصوده اما بالكلام أو بالكتابة ، فكلامه يسمى عبارة ومنطقا • وتعبيره عن مقصوده بالكتابة يسمى نفسا ومسطرة وقلما ، فقد يكون قلم الانسان أفصح من عبارته ، فانه قد يكون الانسان ألكن ، ويكون قلمه فصيحا ثم انه اذا أفصح واغرب غرابة مقبولة كانت عبارته عالية ، وان كانت عبارته مؤدية للمقصود من غير ركاكة فهى مناسبة ، وان كان بها بعض شيء يمجه السماع فهى ركيكة أو رديئة ، وعلى كل فالعبارة اما بها اطناب أو اختصار أو على الأصل ، ثم ان الكاتب اما أن يفصح عن مراده بنظم أو نثر ، وعلى كل فاما أن يكون كلامه أو تأليفه باللغة المستعملة فى المحاورات المسماة الدارجة أو باللغة الموافقة ، فقواعد النثر هو الأصل فى الكلام والتأليف ، ولا يحتاج الى وزن وتقفية الا فى السجع ، وهو لسان العلوم والتاريخ والمعاملات والمراسلات والخطابات ونحو ذلك ، ولاتساع اللغة العربية كان بها كثير من كتب العلوم منظوما ، وأما لغة الفرنسيس فلا ينظم فيها كتب العلوم أصلا •

والنظم هو أن يفصح الانسان عن مقصوده بكلام موزون مقفى ، وهو يحتاج زيادة عن الوزن الى رقة العبارات ، وقوة الأسباب الداعية لنظمه ، ويعجبنى قول بعضهم موريا :

صوغ القريض على اختلاف رجاله ما بين حصبا لاتعد وجوهر
واذا أردت بأن تفوز بدره نظما فخذه من «صحاح الجوهرى»

ولبعضهم :

يا من يقول الشعر غير مهذب ويسومنى التكليف فى تهذيبه
لو كان كل الخلق فيك مساعدى لعجبت من تهذيب ماتهزؤ به(١)

وقال بعضهم فى فقد الأسباب :

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة باب الدواعى والبـواعث مغلق
خلت الديار : فلا كريم يرتجى منه النوال ، ولا مليح يعشـق

وقال آخر :

الشـعر لا يخفى عليـكم حاله قد بار وا أسفاه ، بعد نفاق(٢)
وارحمتا لبنى القريض ، فانهم ماتوا ،وهم أحيا، من الاملاق(٣)

ونظم الشعر غير خاص بلغة الغرب ، فان كل لغة يمكن النظم فيها بمقتضى علم شعرها ، نعم ، فن العروض على الكيفية الخاصة به المدون عليهـا فى لغـة العرب وحصره فى البحور الستة عشر المستعملة هو لخصوص اللغة العربية ، وليس فى اللغة الفرنساوية تقفية النثر . ومعرفة فن النظم لا تكفى فى نظم الشعر ، بل لابد أن يكون الشاعر به سجية النظم سليقة وطبيعة ، والا كان نفسه باردا وشعره غير مقبول :

الى العربى مل فى نظم شـعر فذاك لسـان أرباب الكمـال
فشـعر الفرس أسكرنا بجـام وشعر الترك طرز بالخيـال

(١) الصواب: : ما تهذى به ، ليكون الجناس تاما .
(٢) نفاق : مصدر نفق البيع : راج ، ورغب الناس فيه .
(٣) الاملاق : الافتقار .

ولنذكر هنا خلاصـــة صغيرة من الأشـــعار ملخصة من أحسن القصائد والمقطعات فنقول : قد اشتهر أن أرق بيت قالته العرب فى الغزل قول جرير :

ان العيون التى فى طرفها حور قتلتنـــا ، ثم لم تحيين قتـــلانا
يسلبن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله انســـانا

ولنذكر هنا حكاية لطيفة ، وهى : أنـه دخل أعرابى على ثعلب ، فقـال له : تزعم أنك أعلم الناس بالأدب ؟ فقـال : كذا يزعمون ، فقال : أنشدنى أرق بيت قالته العرب ، وأسلسه فقال قول يرير : ان العيوم الى آخـره ، فقال : هذا الشعر غث رث ، قد لاكه السفلة بالسنتها ، هات غيره ، فقـال ثعلب : أفدنا من عندك يا أعرابى ، فقال : قول مسلم بن الوليد صريع الغوانى :

نبـــارز أبطال الوغى فنبيدهم ويقتلنا فى السلم لحظ الكواعب
وليستسهام الحرب تفنىنفوسنا ولكن سهام فوقت فى الحواجب

فقال ثعلب لأصحابه : اكتبوها على الحناجر ، ولو بالخناجر ! فشعر مسلم ابن الوليد أقوى حماسا من قول جرير . وأقول : ان نسبة القوة بينهما كنسبتها بين قول بعضهم :

خطرات النسيم تجـرح خديـــه ولمس الحرير يدمى بنانه

وقول ابن سهل الاسرائيلى :

انى له عن دمى المسفوك معتذر أقول : حملته فى سفكـه تعبا

ومما يمكن نظمه فى سلك قول مسلم بن الوليد قول بعضهم :

نعد العذارى من دواهى زماننا واقتلهـــا أحداقهـــا والمحاجر
ونشكو اليها دائرات صروفـه وأعظمها أطواقهـا والأســـاور

ويعجبني قول أمين أفندى الزلالي في همزيته :

واقرن صبوحك بالغبوق، ولاتدع ... فرص السرور بغدوة ومساء
واعقد ببنت الحان ، واجعل مهرها ... عقلي ، وأشهد سائر الندماء
واستجلها بكرا تقلد جيدها ... بعقود دز بل نجوم سماء

الى أن قال :

من كف ساق في لماه ولحظه ... وحديثه نوع من الصهباء
وبخده ورد حماه بأسهم ... عن قطفه باللحظ والايماء

ويحسن هنا ذكر قول الشهاب الحجازي :

لا وغصن راق للطرف ورق ... وعليه حلل الظرف ورق
وشموس لم تغب عن ناظرى ... والشعور الليل والخد الشفق
وعيون حرمت نومي وما ... حللت لى غير دمعي والأرق
ما احمرار الراح الا خجلا ... من رضاب سكرت منه الحدق
والذى قد حسبوه حببا ... فوق خد الكاس قطرات العرق

ويعجبني قول بعضهم :

لولا شفاعة شعرها فى صبها ... ما واصلت وأزالت الأسقاما
لكن تنازل في الشفاعة عندها ... وغدا على أقدامها يترامى

وينتظم في سلكه قول بعضهم :

سل سيفا من لحظه ثم أرخى ... وفرة وفرت عليه الحميلة (١)
ان شكا الخصر طولها غير بدع ... لنحيل يشكو الليالى الطويلة

(١) الحميلة : علاقة السيف .

ومما يفوق قول الواو (١) الدمشقى أو يساويه :

قالتمتى الظعن ياهذا؟فقلتلها : اما غدا زعموا أولا فبعد غـد
فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا ،وعضتعلى العناب بالبرد

وقول بعضهم :

بنفسى بيضـــاء العـــوارض أقبلت
بوجـه كأن الشرق من حسنه غرب
وبين الازار الملوى حقف رملة (٢)
وبين الوشـــاح المتلوى غصن رطب
وتحت لثام الخز أنفســها لظى (٣)
وفوق الرواد السكب لامعهـــا سكب
تبدت مع الأتراب تدعو على النوى(٤)
وان لم يكن فى الغانيـات لهـا ترب
تسيل على الخد الأسيل (٥) دموعها
وصب دمـوع العين يروى به الصب
وقد وكلت احـدى يديهـا بقلبهـــا
مخافة أن يرفض منصدرها القلب(٦)
فلمـــا أجـــزن الجسر قمـــن وراءه
كسرب من الغزلان ليس له سراب (٧)

---

(١) الصواب : الوأواء .
(٢) الازار : كل ما سترك ، والحقف : كل ما اعوج من الرمل واستطال .
(٣) الخز : الحرير ، واللظا : النار أو لهبها .
(٤) الأتراب : جمع ترب وهو من ولد معه ، والنوى : البعد .
(٥) الأسيل : اللين الأملس الطويل .
(٦) ارفض : تفرق ، وذهب .
(٧) السرب من الغزلان : القطيع منها . وسرب (فى آخر البيت) بمعنى البال والقلب والنفس .

وعضت بـدر الثغر فضة معصـم
يكاد يثنيـه من الذهب القلب (١)

وكادت تحط الرحـل لولا عزيمتى
قسى جفون العين أسـهمها الهـدب

ومما بعد من الأشعار الرقيقة قول الشاعر :

يصـفر وجهى اذا تأملـه طرفى فيحمر خـده خجلا
حتى كـأن الذى بوجنتـه من دم جسمى اليه قد نقلا

ومما ينسب للخليفة هارون الرشيد :

واذا نظرت الى محاسنهـا فلكل (٢) موضع نظرة نبل(٣)
وتنـال منـك بحد مقلتهـا ما لا ينـال بحده النصـل
شـغلتك وهى لكل ذى بصر لاقى محاسن وجههـا شـغل
فلقلبهـا حـلم يباعدهـا عن ذى الهوى ، ولطرفها جهل
ولوجههـا من وجههـا قمـر ولعينها من عينها كحل (٤)

ومن أرق ما قيل أيضا قول الشاعر :

لاموا على صب الدموع كأنهـم لا يعرفون صـبابتى ولـوعى
فأجبتهم : وعد الخيـال بزورة أفـلا أرش طريقـه بدموعى !

ومما يعجب فى الرثاء قولى أبى الطيب فى أبى شجاع فاتك :

يا من يبـدل كل يوم حلـة أنى رضيت بحلة لا تنـزع
مازلت تخلعهـا على من شاءهـا حتى لبست اليوم ما لا يخلـع
مازلت تدفع كل أمـر فـادح حتى أتى الأمر الذى لا يدفـع

---

(١) يثنيه : يكون ثانيا له • القلب (بالضم) : سوار المرأة •
(٢) الأصل : « فكل » وبه ينكسر الوزن ولعل الصواب ما ذكرناه : فلكل •
(٣) النبل : عظام الحجارة أو صغارها •
(٤) الكحل : سواد منابت شعر الأجفان خلقة •

فظللت تنظر لارماحك شرع(١)	بين الأقام ولا سيوفك قطع
بأبى الوحيد وجيشه متكاثر	يبكى ومن شر السلاح الأدمع
واذا حصلتمن السلاحعلى البكا	فحشاك رحت به وخدك تقرع

الى أن قال :

من للمعاقل والجحافل والسرى(٢)	فقدت بفقدك نيرا لا يطلع
ومن اتخذت على الضيوف خليفة	ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيع

وقوله أيضا فى فاتك المذكور :

لا فاتك آخر فى مصر نقصده	ولا له خلف فى الناس كلهم
من لا تشابهه الأحياء فى شيم	اضحى تشابهه الأموات فىالرمم
عدمته وكأنى سرت أطلبه	فما تزيدنى الدنيا على العدم

الى أن قال :

الدهر يعجب من حملى نوائبه	وحمل جسمى على أحداثه الحطم(٣)
وقت يضيع وعمر ليت مدته	فى غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه فى شبيبته	فسرهم وأتيناه على الهرم

بالجملة والتفصيل فاحسن وأظرف سائر ما قيل :

سلوت على الأحبة والمدام	وملت عن التهتك والهيام
وسلمت الأمور الى الهى	وودعت الغواية بالسلام
وملت الى اكتساب ثواب ربى	وقدما طال عزمى بالغرام
وما أنا بعده معط عنان الـ	ـهوى لكن ترى بيدى زمامى

(١) شرع : مسددة ، مصوبة ٠

(٢) الجحافل : جمع جحفل ، وهو : الجيش العظيم ٠

(٣) الحطم : الشديدة ٠

أبعد الشيب وهو أخو سكون ... يليق بأن أميل الى غرام

فشرب الراح نقص بعد هذا ... ولو من راحتى بدر التمام

فكم أجريت فى ميدان لهو ... خيول هوى وكم ضربت خيامى

وكم قبلت وردا من خدود ... وكم عانقت غصنا من قوام

سأوتى الكاس تعبيسا وصدا ... وان جاءت تقابل بابتسام

عزمت على الرجوع عن المناهى ... ومثلى من يدوم على اعتزام

الفصل الثالث

(في فن الكتـــابة)

هو فن يعرف به التعبير عن المقصود بنقوش مخصوصة تسمى حروف الهجاء أو حروف المعجم ، وأغلب الحروف الهجائية متفقة فى سائر اللغات ومبدوءة بحرف الألف الا عند الحبشة ، فان حرف الألف هو الثالث عشر ، وصناعة الكتابة شديدة النفع عند سائر الأمم ، وهى روح المعاملات واحضـــار الماضى ، وترتيب المستقبـــل ورســـول المراد ، ونصف المشـــاهدة · ثم ان العرب والعبرانيين والسريانين يكتبون من اليمين الى الشـــمال ، والصينيون يكتبون من أعلى الى أســـفل ، وتكتب الافرنـــج من الشـــمال الى اليمين ، وهل الأوفق طبعا الكتابة من اليمين الى الشمال كما تكتب العرب وغيرهم ممن ذكر معهم ، أو العكس كما تكتب الافرنج ؟ ·

مما يدل على الأول ترتيب الأعداد فانها مرتبة طبعا ، وهى تبتدىء من اليمين الى اليسار ، فالآحاد التى هى أجزاء العشرات تكون على يمين العشرات ، والعشرات كذلك بالنسبة للمئات ، وهى كذلك بالنسبة للألوف ، واذا كانت الأعداد أصولا لغيرها ــ يعنى أشياء أولية اتفقت فيها الطبائع على اختلاف أصحابها ــ دل ذلك على أن مخالفتها مخالفة للأصل وثبت نقيضه وهو المراد · وحاول الافرنج فحملوا القراءة والكتابة على قراءة الأعداد وكتابتها فقط ، فبرهنوا بهذا على أوفقية طريقتهم للطبع · فمن باب أولى يقـــال : ان الكتابة من أعلى الى أسفل مخالفة لمقتضى الطبع ويقال : ان العرب كانت تعرف الكتابة فى زمن سيدنا أيوب عليه السلام ، وقد وقع

اختلاف فى أن الحروف الهجائية هل هى من الأوضاع الالهية أو من الأوضاع البشرية ، وعلى الثانى فقد وقع الاختلاف فى أنها من أوضاع أى ملة ، فقال بعضهم : انها من أوضاع السريانيين أو من أوضاع قدماء المصريين ، واستظهر الأول فعليه تكون انتقلت من السريانيين الى اليونان ، بدليل أن الحروف اليونانية هى عين السريانية الا أنها انقلبت من الشمال الى اليمين ، ومن أهل اليونان أخذ الرومانيون حروفهم •

وجودة الخط لا تدل على الفضل ، وعدم تأدية الكتابة حقها دليل على الجهل •

وقد تنازع الشعراء فى التفضيل بين السيف والقلم ، ثم بين قلم الانشاء والحساب • وأشار المتنبى (١) الى تفضيل السيف فى قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب

وأشار السيوطى فى كتاب الأوائل الى تفضيل القلم على السيف حيث قال :

الكتب عقل شوارد الكلم ... والخط خيط فرائد الحكم (٢)
بالخط نظم كل منتثر ... منها ، وفصل كل منتظم
والسيف ، وهو بحيث تعرفه ... فرض عليه عبادة القلم

(١) البيتان الآتيان لأبى تمام فى مطلع قصيدته التى هنا بها للمعتصم بعد عودته منتصرا من غزوة فى بلاد الروم •

(٢) عقل الدابة : ربطها • وشوارد الكلم : نوادرها وغرائبها • فرائد الكلم : نفائسها •

وتمـــام رفع المنازعة فى تاريخ الدول لابن الكردبوسى فى قوله : قوام الملك (١) شيئان السيف ، والقلم ٠ والثانى مقدم على الأول ٠ وبرهن على ذلك ٠ والظاهر أن يقال فى ذلك ما قيل فى الكتابتين : من أن صناعة الانشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ، فيقال ان السيف أرفع من القلم ، والقلم أنفع منه ٠

---

(١) قوام الملك : عماده ، وما يقوم به

الفصل الرابع

(فى علم البلاغة المشتمل على البيان والمعانى والبديع)

وهو علم تحسين العبارة ، أو علم تطبيق العبارة على مقتضيات الأحوال ، والمقصود منه على العموم توصل الانسان الى الافصاح عما فى ضميره بفصيح الكلام وبليغه .

وهذا العلم بهذا الحيثية ليس من خواص اللغة العربية ، بل قد يكون فى أى لغة كانت من اللغات ، فانه يعبر عن هذا العلم فى اللغات الافرنجية بعلم « الريثوريقى » نعم هذا العلم فى اللغة العربية أتم وأكمل منه فى غيرها ، خصوصا علم البديع فانه يشبه أن يكون من خواص اللغة العربية ، لضعفه فى اللغات الافرنجية .

وبلاغة أسلوب القرآن الذى نزل اعجازا للبشر من خصوصيات اللغة العربية ، ثم انه قد يكون الشىء بليغا فى لغة غير بليغ فى أخرى ، أو قبيحا فيها ؛ وقد تتفق بلاغة الشىء فى لغتين أو لغات ، كما اذا أردت أن تعبر عن رجل شجاع بأنه أسد ، فتقول زيد أسد ؛ فان هذا مقبول فى غير اللغة العربية كما هو مقبول فيها . واذا أردت أن تعبر عن شخص حسن بأنه بديع الجمال ، فتقول : هو شمس أو عن حمرة خده فتقول : خدوده تتلظى ، فان هذا التشبيه حسن فى اللغة العربية ، غير مقبول أصلا فى اللغة

الافرنجية · وكذلك ما يقال في الريف ونحوه ، مثل قول الشاعر :

خليـــلى ان قالت بثينـــة : مـــاله
أتانا بلا وعـد ؟ فقولا لهـــا : لهـــا

سها ، وهو مشغول بعظم الذى بـه
ومن بات طول الليل يرعى السهاسها(١)

بثينة تزرى بالغزالة فى الضـــحى
اذا برزت لم يبق يوما بها بها (٢)

لهـــا مقلة نجـلاء كحـــلاء خلقـــة
كأن أباها الظبى أو أمهـــا مها (٣)

دهتنى بـــود قاتـــل ، وهو متلفى
وكم قتلت بالود من ودها دهـــا (٤)

وماست بأعطـــاف لطـــاف تهزهـــا
فعاينت غصن البان من هزهازها (٥)

وقالت : وقد سارعت فى السير دونها
وقاطعت طرقا دونهـــا ومهـــا مهـــا

سلافة ريق (٦) عتقت ، ثم روقت
فمن لم يمت بالسكر من صفوها وهى

---

(١) السها : كوكب خفى فى مجموعة « بنات نعش » ·
(٢) الغزالة : الشمس ·
(٣) النجلاء : الواسعة · والمها جمع مهاة ، وهى البقرة الوحشية ·
(٤) دها : دهاء ·
(٥) زهاء : ازدها ·
(٦) الظاهر أن الصواب : ريقى ، ليكون مقول القول · وعتق : قدم · ووهى الرجل : حمق ·

وفى الشفة اللعســا دوا كل مدنف

فان كنت مشتاقا الى رشفها فها (١)

فأغلب التشبيهات الموجـودة فى هذه الأبيـــات غير مقبولة عندهم ، لأنهم يقولون ان الطبع لا يألف الريق مثلا لكونه آيلا الى البصاق • واذا شبهت بضع العذراء قبل افتضاضها بالوردة التى لم تفتح ، ثم بعده بالوردة المفتوحة كان ذلك عظيما عند الفرنسيس• فمبنى البلاغـة عندهم على ما يقبله الطبع • ويقال : نســبة علم البلاغة للبلاغة كنسبة العروض للشعر ، فحينئذ قد توجد البلاغة عند من لا يحسن علمها ، كما أنه قد يحسنه غير البليغ •

وأغلب نفع البلاغة يكون في الشعر والخطابات ونحوها من كتب الآداب والتواريخ وأعظم نفع ذلك العلم الموصـل الى معرفة أسرار التنزيل واعجازه ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى زمن شعر ونظم وكهانة ، فأيده الله سبحانه وتعالى بالقرآن الذى لو « اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » فظهر لأرباب العقول الصائبة أنه كلام قادر يقدر ولا يقدر عليه ، وأنه لا يشبه كلام المخلوقين ، فآمنوا به ، واتبعوه ، الا من حق عليه العذاب • فنزل القرآن الشريف على مقتضيات الأحوال ، وكانت سائر عبـاراته مناسبة للأحوال لفظا ومعنى ، واذا أردت توضيح العلوم الثلاثة ومعرفة قواعدها فعليك بكتب المعانى والبيان والبديع •

---

(١) المدنف : المريض •

الفصل الخامس

[فى المنطق]

هو علم يبحث فيه عن المعلومات التصورية والتصديقية من حيث توصيلها الى غيرها ، والمشهور أن واضعه « أرسطو الحكيم » المسمى أيضـــا : « أرسطاطاليس » وفى كتب الفرنساوية أن أرسطاطاليس هو الذى قد كمل هذا الفن ، وأن « أفلاطون » أيضا هذبه ، وأن « زنون » وضعه · ونسبة هذا العلم للجنان كنسبة النحو للسان ، والعروض للنظم ونحو ذلك ·

ولهذا العلم مباد ومقاصد ، فمباديه التصورات والتصديقات ومقاصده التعريفات والأقيسة ، والتصـــور ادراك غير الحـكم ، وعكسه للتصديق فاذا تصورنا حقيقة الرجـــل من غير أن نحـكم عليه باثبـــات ونفى كان ذلك تصـــورا ، واذا حكم عليه بأن عالم مثلا فانه يكون تصديقا ، والتصور قسمان : بسيط ، مركب ، فالتصور البسيط : ادراك الشىء مجردا عن صفاته ، والمركب : ادراك الشىء مع بعض صفاته ، مثال الأول : ما اذا تصورت الانسان ولم يخطر ببالك أنه متحرك ، ومثال الثانى : ما اذا تصورته وميزته من الجماد بتحركه فالتصور لا يكون الا فى المفردات ، كما أن التصديق لا يكون الا فى القضايا ، والقضية ، هى حكم يحصـــل باثبات تصور الى آخر ، أو نفيه عنه ، فالتصور المسند اليه الاثبات أو النفى يسمى : الموضوع ، والتصور المسند الى الموضـــوع مما تقدم يسمى : المحمول ، والموضوع والمحمول يسميان جزءى القضية ،

وهذان الجزآن يجمعهما جزء ثالث يسمى رابطة · مثال ذلك ما اذا قلت : زيد فصيح فان زيدا هو الموضوع وفصيح هو المحمول ، والرابطة مقدرة والتقدير زيد هو الفصيح ، أو زيد يكون فصيحا ، وأما اذا قلت : زيد هو الفصيح فان الرابطة ظاهرة ، ثم ان القضية اما كلية يعنى مستغرقة لسائر الأفراد ، كما اذا قلت : كل انسان صنعة الله تعالى ، واما جزئيـة كما فى قـولك : بعض الحيوان انسان · وكل من القضية الكلية والجزئية مسور ··

واما شخصية واما مهملة فالأولى كزيد قائم والثانية كالانسان كاتب بقطع النظر عن الكلية والجزئية · واما طبعية : كمـا فى قولك : الظلم ردىء · والقضية أيضـا اما بسيطة أو مركبة ، فالقضية البسيطة ما كانت غير متعددة الموضوع والمحمول ، كما فى قولك : الفضيلة حميدة ، والرذيلة ذميمة ، وبخلافها المركبة ، فهى ما تعدد فيها الموضوع فقط ، أو المحمول فقط ، أو هما معا ، كما اذا قلت : الفضيلة والرذيلة ضدان ، أو الفضيلة محبوبة مطلوبة ، أو الفضيلة والرذيلة ضدان لا يجتمعان ، ونحو ذلك ، واذا كانت القضية المركبة مصنوعة من عدة قضايا بسيطة فانه يكفى فى كذبها كذب بعض أجزائها · وأما التعريفات التى هى مقاصد التصورات ومصححات القضـايا فانهـا تنقسم الى تعريف بالحد ، وتعريف بالرسم ، وتعريف لفظى ، فمثال التعريف بالحد قولك الانسـان حيوان ناطق ، ومثال التعريف بالرسم قولك : الانسـان حيوان كاتب ، ومثـال التعريف اللفظي قولك الانسـان هو الآدمي اذا فرضـنا أن لفظ الآدمي أشهر وأعـرف من لفظ الانسـان · ويمكن أن يجعل من هذا القسم الثالث سائر تفسير الألفاظ المترجمة من لسان الى آخر ، مثال ذلك : اذا قدرنا أن أعجميا لا يعرف معنى كلمة الله ، فانك تعرفهـا له تعريفا لفظيـا بقولك له : الله هو « خداى » ·

وكل من الحـد والرسم ينقسم الى تام ، والى ناقص ، على حسب كونه بالجنس ، أو الفصل القريب أو البعيد ، أو بالخاصة ، أو بالعرض العام ، كل منها منفردا أو مجتمعا ، وهذا كله موضح فى كتب المنطق ٠

وأما القياس : وهو المقصود الأصلى من علم المنطق فهو ما يلزمه لذاته تصديق آخر ، مثال ذلك : ما اذا قلنا ان الله سبحانه وتعالى لابد أن يقتص من الظالم للمظلوم ، فانك تقول هكذا : الله سبحانه وتعالى حكم عدل ، وكل من كان كذلك فانه يقتص للمظلوم من الظالم ، فتكون النتيجة هكذا الله سبحانه وتعالى يقتص للمظلوم من الظالم ٠ فمتى سلمنا القضيتين الأوليين فلابد أن نسلم القضية الثالثة ، والقضيتان الأوليان تسميان مقدمتين ، واحداهما تسمى صغرى ، والأخرى كبرى ، وروح القياس هو النتيجة ٠

والقياس يكون صحيحا اذا كان صحيح المادة والصـورة ، وفاسدا اذا فسدت احداهما ، والمراد بصحة المادة أن سائر قضاياه تكون صحيحة ، والمراد بصحة الصورة أن يكون منظوما على كيفية يكون انتاجها ضروريا ، والقيـاس الصحيح : هو المسمى بالحجة والبرهان ، وأما القيـاس الفاسد أو البرهـان الفاسد فيسمى سفسطة ، وهو ما يشبه الصحيح وليس صحيحا ، لعـدم ملازمة نتيجته الظاهرية للمقدمات الصحيحة ٠

وفى كتب الفرنسيس أن القاعدة التى ينبنى عليها القيـاس الصحيح ويمتاز من السفسطة هى اثبـات أصـلين أحدهما مبنى الصحة ، والآخر مبنى الفساد ، وهما أن المستلزم لشىء مستلزم لذلك الشىء ، والنافى لشىء ناف لشىء آخر هو ناف لذلك الآخر ، أو ناف للاثنين معا ، وكيفية تطبيق هذا على القياس انك اذا سئلت عن الغضب هل هو مذموم ، فأردت أن تستدل على أنه مذموم ، فانك تبحث عن طرف القضية الذى هو الموضوع ٠ فانك ترى من

جمله تعريف الغضب أنه عيب ، فحينئذ كلمة غضب متضمنة لمعنى العيب فتركب مقدمة هكذا : الغضب عيب ، ثم تقابل العيب مع الذم الذى هو محمـــول القضية ، فانك تجد أن العيب يســـتلزم الذم ، فتقول : العيب ذميم ، فاذا لما رأيت أن الغضب يســـتلزم العيب والعيب يســـتلزم الذم ، فانك تنتج منـــه أن الغضب ذميم ، فكل قياس لا يمكن أن تطبقه على هذا الأصـــل فانه يكون سفسطة ، مثال ذلك أرسطو فيلسوف ، وبعض الفلاسفة صالح ، فأرسطو صالح ، فان الانتاج فاسد • وذلك أن القضايا لا تستلزم النتيجة ، لأنه لا يلزم من كون أرسطو هو أحد الفلاسفة ، وأن بعض الفلاسفة صالح أن أرسطو صالح •

وبعض أجزاء القياس قد يحذف للعلم به ، كما فى قولك : الفضيلة حميدة ، فينبغى كسبها •

والقيـــاس اما حملى أو شرطى ، فكل ما تقدم مثال للحملى ، ومثال الشرطى : لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجودا ، لكن الشمس ليست بطالعة ــ تخرج النتيجة قائلة ــ فالنهار ليس بموجود • ومحل ذلك كتب المنطق •

ثم ان الافرنج كمـــا يطلقون الكلمـــات على قـــواعد اللغـــة الفرنساوية ، ويسمون ذلك اعرابا نحويا ، يطبقونهـــا على قواعد المنطق ويسمون ذلك [اعرابا] منطقيا ، فاذا أراد انسان اعراب « زيد فاضل » اعرابا نحويا فانه يقول مثلا زيد مبتدأ وفاضل خبره أو نحو ذلك مما يليق بقواعد نحوهم ، واذا أراد أن يعرب اعرابا منطقيا فانه يقول : زيد موضوع ، وفاضل محمول ، وهذه القضية قضية شخصية ، ويفعلون ذلك فى سائر الجمل •

الفصل السادس

[فى المقولات العشر المنسوبة الى أرسطو]

من المعلوم أن أرسطاطاليس حصر الأشـياء المتعقلة فى عشر مراتب تسمى مقولات ، فجعـل المواد داخلة تحت الأولى ، وجعل سائر الأعراض داخلة تحت التسعة (١) الأخرى ·

المقولة الأولى : مقولة الجوهر ، وهو جسمانى وروحانى ·

الثانية : الكم وهو اما منفصل اذا كانت الأجزاء متفرقة مثل العدد ، أو متصل اذا كانت الأجزاء مجتمعة · وهو اما متتابع مثل حركة الفلك ، أوقار وهو المسمى العظم أو الامتداد للجسم ، من الطول والعرض والعمق · فمن الطول وحده تتعقل الخطوط ومن الطول والعرض تتعقل السطوح ، ومنها مع العمق يحصل الجسم التعليمى ·

الثالثة : الكيف ، وقسمه أرسطو الى أربعة أقسام ، فالأول : هو الاستعدادات يعنى تهيئات العقل أو الجسم المكسوبة بالأعمال المتكررة مثل العلوم والفضـائل ، والرذائل ، والقدرة على الكتابة والرسـم والرقص ، والثـانى القوى الطبيعية : مثل قوة النفس والبدن ، كالادراك ، والارادة ، وقوة الحفظ والحواس الخمسة ، والقـدرة على المشى ، والثـالث القوى المشـاهدة : مثـل الصـلابة ، والرخاوة ، والكثافة ، والبرد ، والحر ، والألـوان

(١) الصواب : التسع ·

والأصوات ، والروائح ، والأذواق ، والرابع الصور ، والأشكال التى ينتهى بها الكم مثل : الاستدارة والتربيع والكروية والتكعيبية.

الرابعة : مقولة الاضافة وهى النسبة بين شيئين مثل الأب ، والابن ، والمخدوم ، والخادم ، والملك ، والرعية ، وكنسبة القدرة والارادة لمتعلقيهما ، والبصر للمبصر بالقوة وكالنسبة التى تقتضى المشاركة ، كالشبيه ، والمساوى ، والمباين ، والأصغر ، والأكبر .

الخامسة : مقولة الفعل ، سواء كان قائما بالفاعل مثل : المشى ، والقيام ، والرقص ، والمعرفة والعشق . أو واقعا منه على غيره مثل الضرب ، والقتل الى آخره .

السادسة : مقولة الانفعال ، مثل الانكسار ، والانحراف .

السابعة : مقولة الأين ، يعنى جواب السؤال الذى يتعلق بالمكان مثل قولك : فى مصر ، فى الحريم ، فى الفراش .

الثامنة : مقولة المتى ، وهو جواب السؤال الذى يتعلق بالزمان ، كما اذا قلت : متى كان موجودا فلان ؟ فقيل من منذ مائة سنة ، أو متى وقع هذا ؟ فقيل : البارحة .

التاسعة : مقولة الوضع ، كحالة الجلوس ، والوقوف ، وكونه قبل ، أو بعد ، أو أمام أو على اليمين ، أو على اليسار .

العاشرة : مقولة الملك ، وهو وجود شىء مع الانسان منسوب اليه ، كاللباس ، والزينة ، والسلاح ، فتعلق ذلك به وحوزه له هو هذه المقولة فهذه المقولات العشر التى ذكرها أرسطو ، وعدت من الأمور الخفيــة ، والافرنج يقولون انه ليس فى معرفة هــذه المقولات كبير فائدة ، بل معرفتها مضرة لشيئين : الأول أن الانسان يظن أنها مبنية على حكم عقلى ومحصورة بحصر استدلالى ، مع أنها ليست الا اصطلاحية جعلية ، حصرها بعض الناس فى هذه الأقسام

ليظهر بها الرياسة على غيره ، مع أنه يوجد فى ذلك الغير من يمكنه أن يحصرها حصرا آخر جديدا ، كما فعل ذلك بعض الناس من أنه حصر المقالات فى سبعة ، وسماها المواد العقلية :

المادة الأولى : العقل أو الجوهر المدرك .

الثانية : الجسم ، أو الجوهر ذو الامتداد .

الثالثة : القدر أو صغر كل جزء من أجزاء الهيولات .

الرابعة : وضع الهيولات على التناسب بين أجزائها .

الخامسة : صورة الأشياء .

السادسة : الحركة .

السابعة : السكون .

الشيء الثانى أن متعلمها يكتفى بمجرد ألفاظ وهمية ويظن أنه على شيء ، مع أنه لم يعرف بها شيئا له فى الواقع معنى واضح محقق .

الفصل السابع

(فى علم الحساب المسمى باللغة الأفرنجية الارتيماطيقى) (١)

اعلم أن « الأرتيماطيقى » هو أحد العلوم الرياضية الخالصة ، وذلك لأن حكماء الافرنج قسموا الرياضيات الى خالصة وغير خالصة أو مختلطة ، فالرياضيات الخالصة هى علم الحساب الغبارى ، والهوائى (٢) وعلم الجبر ، والمقابلة (٣) وعلم المهندسة ، ونحو ذلك، وأما الرياضيات المختلطة فهى : علوم الحيل ، وفن تحريك الأثقال ونحوها • والرياضيات الخالصة هى ما تبحث عن الكميات ، والأشياء القابلة للزيادة ، والنقصان • والرياضيات المختلطة هى ما يدخلها أشياء خارجية من علم الطبيعة وغيره •

والحساب أهم العلوم الرياضية وقد دلت كتب التواريخ على أن واضع هذا العلم أهل برور الشام ، يعنى الصوريين ، وقدماء أهل مصر – يعنى أن هاتين الأمتين هما أول من جمع الأعداد والحساب ، ونظماهما فى عقد الترتيب ، حتى ان فيثاغورس الحكيم رحل من بلاد اليونان الى مصر ، فتلقى فيها هذا العلم• ومما اشتهر بين السلف أن علم الحساب من مخترعات الصورتين ويقال : انهم أيضا أول من استعمل القوائم والدفاتر ، والظاهر أن الأصابع هى أول الطرق التى

---

(١) L'Arithmétique.

(٢) يريد بالحساب الغبارى : ما يقوم به الحاسب على التراب والرمل ، وبالهوائى ما يقوم به الهواء •

(٣) يريد بالمقابلة المعادلات الجبرية •

استعملها الانسان فى الحساب ، وأن ذلك هو السبب فى كون أول عقد فى العدد هو عقد العشرات ، والثانى عقد عشرات العشرات التى هى المئات ، والعقد الثالث عقد عشرات المئات أو الألوف وهكذا ، لأن الأصابـع عشرة ، فكان الانتقال من عقـد الى آخر من عشرة الى عشرة ، ولما كانت الأصابع لاتكفى الا فى تمييز عشرة عشرة احتاج الأمر الى طريقة أخرى،وعلامات أخرى فأخذوا صغار الحصى ، وحبوب الرمل والقمح ونحوها ، واستعملوها لضبط المعدودات ، كما هو الآن عند بعض همل أمريكة ، وبعض همل غيرها من أقسام الأرض ، حتى ان بعض قدماء الأمم الماضين لايوجد فى لغاتهم ما يمكن التعبير به عما فوق العشرات ، فانهــم كانوا يعبرون عن مائة وسـبعة وعشرين مثــلا ، بقولهم : ســبعة وعشرتان وعشرة عشرات ، وذلك لأن الأقدمين كانوا يذكرون العدد الأصغر قبل الأكبر ، فيبتدئون بالآحاد ثم بالعشرات ثم بالمئات ، وهكذا . كما قال بعضهم : انه يوجد فى كتب العبرانيين واليانيين ما يدل على ذلك ، وهو أيضا أسلوب اللغة العربيـة فيما دون المائة ، وأما الآن فقد تبحر الأمم فى علم الحساب وتنوعوا تفننوا فيه ، حتى وصــلوا الى كماله وحد علم الحساب علم يبحث فيه عن الأعداد من حيث ما يعتريها من الأعمال .

والعدد : اجتماع الآحاد ، وهو قسمان : صحيح وكسر ، وزاد بعضهم ثالثا،وهو ما تركب منهما ، وسماه عددا مشتملا على الكسور، ويتعلق بهذه الأعداد أعمال أربعة هى : الجمع ، والطرح ، والضرب ، والقسمة ، وهى معلومة فى كتب هذا الفن .

وأما علم الهندسة ، فموضوعه قياس الامتدادات الثلاثة التى هى الطول والعرض والعمق ، كما أشرنا اليه فى منظومتنا فى علم الهندسة بقولنا :

موضوعـه قيـاس الامتـداد	فسره بالثلاثــة الأبعــاد
الطول والعرض كذا والعمق	وشرح هذى غير مستحق

وأما الجغرافيا ، فقد تقدم منها نبذة فى مقدمة الكتاب ، وانما ينبغى لنا هنا أن نذكر أقسامها ، فنقول : انه تارة ينظر الى الأرض من جهة شكلها وسكونها أو تحركها ، أو نسبتها لما عداها من الأجرام الفلكية ، فتسمى الجغرافيا الرياضية أو علم هيئة الدنيا ، وتارة تلاحظ من جهة مادتها الترابية أو المائية ، وما يتعلق بذلك مما يظهر على سطحها مثل الجبال ، فتسمى بالجغرافية الطبيعية أى المتعلقة بطبيعة الأرض • وتارة ينظر اليها من جهة اختلاف أهلها فى الدين والملة ، فتسمى : بالجغراقيا الدينية ، وتارة ينظر اليها من جهة اختلاف أهلها فى التدبير والسياسة والرسوم والقوانين ، فيسمى ذلك بالجغرافيا السياسية أو التدبيرية وتارة تعتبر من جهة التغيرات والتقلبات الحاصلة طول الأزمان المختلفة فى الأرض وفى أجزائها ، بالنسبة للدين والسياسة ونحو ذلك ، ويسمى ذلك بالجغرافيا التاريخية • وهذه هى الأصول ، والافالقسمة غير حاصرة ، ومن أراد الكلام على ذلك فعليه برسالتنا المسماة « بالتعريبات الشافية » بمريد (١) الجغرافيــة فانه موضح فيها غاية التوضيح ، غير أنه ينبغى لنا هنا الكلام على مسألة من مسائل علم الجغرافيا الرياضية التى هى علم الهيئة ، فنقول :

الافرنج قسموا الكواكب الفلكية الى ثوابت والى سيارة ، والى سيارة السيارة ، والى ذوات الذنب ، وعدوا الشمس من الثوابت ، والأرض من السيارة ، والقمر من سيارة السيارة ، أى التابعة فى السير للكواكب السيارة • وهذا المـذهب يسمى عنـدهم منهب « كبرنيق (٢) النيمساوى » ، وقد كشف المتأخرون منهم عدة كواكب سيارة لم يظفر بها المتقدمون ، لفقد الآلات عندهم ، ووجودها لهؤلاء الافرنج ، فبذلك بلغت السيارات المعروفة عندهم أحد عشر ، غير الشمس والقمر ، فـان الأولى من الثوابت على رأيهم ، والثـانى من

---

(١) الصواب : « لمريد » •

(٢) وفى الأصل كيرنيق وهو خطأ • Copernie

سيارة السيارة ، ولنذكرها لك على حسب قربها من الشمس ، فنقول: هى : عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، و « وستة » (بكسر الواو ، سكون السين المهملة ، وفتح التاء المثناة) أى المجمرة السيارة ، و « بونون » (بضم الياء والنون بعدها واو) وتسمى (زوجة المشترى) ويقال لها : بنت زحل ، و « سريس » (بكسر السين والراء بعدها ياء مسكنة) ويقال لها (أى السنبلة السيارة) و « بلاس » (بفتح الباء وتشديد اللام) ومعناه « أبو الفلق » والمشترك ، وزحل ، و « أورانوس » (بضم الهمزة وراء بعدها ألف ثم نون مضمومة) ومعناه الفلك الأعلى •

وهذه الكواكب الجديدة لا يمكن رصد دورانها على نفسها الا بصعوبة ، لصغر بعضها فى رأى العين ، وبعد البعض الآخر ، بل لا يمكن رصد ما عدا « أورانوس » الابالنظارات الفلكية ، ولهذا سميت عند الافرنج بالسيارات النظارية ، ويؤمل الافرنج كشف غيرها من السيارات •

وأما التاريخ فهو أيضا مما ينبغى للانسان الاطلاع عليه ، لاسيما أرباب الدول ، ولنذكر لك هنا نبذة لطيفة ذكرها هنا بعض المؤلفين من الافرنج ، فنقول :

التاريخ مدرسة عامة يقصدها من أراد من الأمم أن يفوز بالتعلم وهو أيضا تجريبيات حوادث الأعصر التى تساعد الحال الراهنة ، ومن جهة اشتماله على عبر محفوظة يعين المرء على التفكر فى ظاهر الآتى ، فمنه يعتبر من اعتبر من جميع الناس أياما كان مقامهم ، لما أنه يظهر على رؤوس الأشهاد الآثار الرديئة المترتبة على تشاجرهم واختلافهم ، ومثل هذه الصورة المهولة تحملهم على التخلق بالأخلاق الحميدة مثل الحلم والعدل ، ومن التاريخ يفهم الملوك أنه فى زمن سلطنة ملك حسن التدبير ينبغى أن تكون شوكة الملك وكرسيه ظلا ووقاية قال « بسوه » : لو فرض أن التاريخ لا ينفع

غير الأمراء فانه يجب قراءته للأمراء ، ولكن انما يفتح التاريخ للعاقل كنوزه ، ليفهم منها خفياته ورموزه . فيشغل فكره مدة قراءته عن تغيرات معيشة الانسان الباطلة ، ثم ينتقل من ذلك الى مادة أهم من ذلك ، فتنكشف له سلاسل الزمن العديدة التى تمس حلقتها الأخيرة خلق العالم ، أو ليس أن هذه السلاسل كميدان عظيم يطلع الانسان فيه دفعة واحدة على جميع الأمم والدول وأزمان كل ؟ فانظر الى هذا المحفل العظيم المحتوى على أرباب سعود ونحوس ، فكم فيه من مدائن دمرت ، ومن دول انقرضت ، ومن ممالك ذهبت واندثرت ، ومن محال خربت ، ومن مقابر عمرت ، فكأن كل شيء يؤول الى القبور، وهى التى تعلو وحدها على ميدان الأرض ! فكم تظهر زينة الحياة الدنيا هينة حقيرة اذا نظر الانسان من سماء التاريخ ! وكم يظهر أن الجمعية التى فى زماننا يسيرة هينة بجانب جمعيات أهالى القرون والأعصار ، فشتان بين ملوك عصرنا الذين يمكن للناظر أن يقيس عظمها المحسوس ، وملوك تلك الأزمنة التى يظهر للأعين كأنهم جبال مرفوعة على دائرة أفق الأعصر السالفة ! وانظر ما تكون حروبنا الوقتية ، وحبنا للعلو والشرف المؤقتين ، عجائب منازعة السلف من مبدأ العالم ، على مكان من الأمكنة ، أو على شبر من أرض ، فمن نظر حق النظر فى عجائب التاريخ فانه يكتسى بثياب الجد ، ويتجرد من ملابس الهزل ، ويصعد على ذروات النظر فيرى تحت رجليه أن العالم بأسره أشبه ببحر محيط ، تسبح فيه سفن آمال الخلق وأمانتهم من غير دفة ، عرضة للرياح الشديدة ، وينتهى أمرها الى الانكسار على ما يصادمها من الشعوب ، ولا تجد من المراسى ما ترسى عليه غير فرضات القدم ! فاذا نظرت من هذا المحل ترى بعين مجردة عن الطمع حطام الدنيا الفانية ، والمدح الباطل المقصودين المرغوبين لكثير من الناس كلاشيء ، أو ليس أن للدهر نكبات ، وتغيرات فى جميع ماوهبه وأعطاه ، فأى مملكة أمنا على كرسيها من السقوط ؟ وأى دولة أيسنا على تختها من الارتفاع ؟ أو ما رأينا أن الهيكل الواحد

يتداول على محرابه عدة أديان متباينة ؟ وكم ارتكبت الرذائل حيث كانت الفضائل قاطنة ؟ وكم من قواعد فخر وغنى آل أمرهـا الى أن أعقبها الفقر والحقارة ؟ وكم شوهد أن الخشونة والتمدن يمشيان بهرولة على سطح الكرة ، ويتبادلان على أجزائها من غير تخلل واسطة بينها ؟ وكيف قد آل أمرك أيتها المدائن التى كنت عامرة ببلاد آسيا ، وقد كنت تحكمين على جميع الأمم يامدن « نينيويونس » ، و « بابل » السحر ؟ أو «يا اصطخر» فارس ، وتدمر سليمان ، كيف صارت الآن مجالك خرابا ، وقد كنت كراسى دول العلوم فلم يبق لك من فخارك القديم ، وبهائك الجسيم غير الاسم وبعض رسم من حجر ! ومع ذلك فلم يحل ببلد من بلاد الدنيا ، من النكبات العجيبة والبلايا الغريبة ، مثل ما حل بمصر المباركة المصابة بالشقاء التى كانت خيولها تسبق سالفا خيول سائر الممالك فى الركض فى ميادين الفخار والعلم والحكمة ! فكأن الدهر أراد أن يصب على هذه البلاد دفعة واحدة اما نعيم الانعام ، أو عذاب الانتقام ، مع أنه لم يكن من الأمم مثل قدماء مصر ، فى كونهم بذلوا جهدهم فى الجلوس على مبانى هياكلهم المشيدة ، وأرادوا بذلك أن يكونوا مؤبدين ، فبادوا جميعا واتقرضوا، حتى ان أهل مصر الموجودين الآن ليسوا جنسا من أجناس الأمم ، بل هم طائفة متجمعة من مواد غير متجانسة ، ومنسوبون الى عدة جنوس مختلفة ، من بلاد آسيا وأفريقية ، فهم مثل خليط ، من غير قياس مشترك، وتقاطيع شكل صورهم لاتتقوم منها صورة متحدة بها يعرف كون الانسان مصريا من سحنته ، فكأنما سائر بلاد الدنيا اشتركت ، فى تأهيل بر النيل !؟ انتهى مترجما من مقدمة « الخواجا آكوب » فى تاريخ مصر .

وعلم التاريخ واسع ، وإن شاء الله تعالى يصير التاريخ على اختلافه منقولا من الفرنساوية الى لغتنا وبالجملة فقد تكفلنا بترجمة علمى التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئته تعالى .

الخـــاتمة

(فى رجوعنا من باريس الى مصر ، وفى عدة أمور مختلفة)

من المعلوم أن نفس القارىء لهذه الرحلة تتطلع الى معرفة نتيجة هذا السفر الذى صرف عليه مصاريف لم تسبق لأحد ، ولا سمع بها فى التواريخ عند سائر الأمم ، وانما تسطيرها ؛ لأنها أنجبت علماء منهم من وصل الى رتبة أساطين الافرنــج ، فهم ما بين مدبر للأمور الملكية • حائز كمال الرتبة فى السياسات المدنية ، كحضرة صاحب البراعة واليراعة رب الطالــع السعيد • وذى (١) النجابـة والرأى السديد • عبدى أفنــدى ، وما بين متمكن فى معرفــة ادارة الأمور العسكرية • راق فيها الى درجة علية • وما بين ربانى بسائر الأمور البحرية ، أو خبير بالطب ، أو بالكيميا الصحيحة المرضية ، وبصير بالطبيعيات ، وماهــر فى علم الزراعة والنبــاتات ، ومنهم فائق الأقران فى الفنون والصنائع، وحرى بفتح (فبريقات) تشتهر ببراعته بغير منازع ، ولولا خوف الاطالة لذكرت جميع من ظفر بقصده من الأفندية ، على حسب حوزه للمراتب العلية • ولعمرى لا أستطيع عدم التعرض لعدة أشخاص قد بلغ فضلهم الغاية فى الامتياز ، غير أننى أســلك فى ذكرهم غاية الايجـــاز ، كيف لا أقول ان حضرة مصطفى مختــــار بيك أفندى قد بلغ درجة كبــــار الفرنساوية ، فى علم ادارة المهمات العسكرية ، وقد حاز مرتبة سامية من العلوم وتمكن من المنطوق منها والمفهوم ، ولاشك أنه ممتاز بالعلوم التدبيرية، وجامع لمعارف الديار الافرنجية ، وسع الله به دائرة المعارف ، بممالك مصر والشام ، وليس كل من اكتسب المعارف ، يصدر عنه عمــل اللطائف • قال الشاعر :

---

(١) فى الأصل « وذو » وهو خطأ •

وعادة السيف أن يزهو بجوهره   وليس يعمل الا فى يدى بطل

وأما حضرة حسن بك أفنـــدى ، وكذا الأفندية البحريون ، ففضلهم وكمال علومهم ثابت بالبرهـان ، يـدل عليه امتيازهـم بين الأقران . شهرة اصطفان أفندى غنية أيضا عن البيان ، فقد حاز من العلوم ما حاز ، وفاز من الفنون بما فـاز . ولا ينكر فهم « الطـين أفندى » فى جميع أنواع العرفان ، ولا خليل أفندى محمود ، وتعلم أحمد أفندى يوسف مشهود غير مجحود . وبالجملة فالجل من الأفندية حصل المرام ، ورجع لنشر هذا بديار الاسلام .

ولنذكر هنا رجوع العبد الفقير الى مصر ليتم غرض هذه الرحلة فنقول : خرجنا من باريس فى شهر رمضان سنة ١٢٤٦ وسرنا نقصد مرسيليا ، لنركب البحر ونرجع الى اسكندرية ، فمررنا على مدينة « فنتنبلو » بقرب باريس بها قصر سلطانى ، وهذا القصر شهير بأن نابليون نزل فيه عن سلطنة فرنسا ، وخلعها عنه سنة ١٨١٥ من الميلاد ، ويشاهد به عمود على شكل الهرم مبنى من الحجارة ، والقصد منه أنه تبقى آثاره ، لتذكر رجوع « البربون » فى فرنسا ، فتجد مرسوما عليــه أسماؤهم وتاريـخ ولادتهم ، وغير ذلك . وفى هذه الفتنة الأخيرة محا الخلق هذه الأسامى ، فلا يشاهد منها الا الآثار . وهكذا عادة الزمان ، فى تلونه بجميع الألوان ، وغدره وفتكه بقوم ، واقباله على آخرين قبل تمام يوم . قال الشاعر :

قتلت صناديد الرجال فلم أدع   عدوا ولم أمهل على جيشه خلقا
وأخليت دار الملك بعد ملوكهم   فشردتهم غربا وبددتهم شرقـا
فلما بلغت النجـم عزا ورفعة   وصارت رقاب القوم اجمع لى رقا
رمانى الرداسهما فأخمد جمرتى   فها أناذا فى حفرتى عاطلا ملقى

وكتابة تلك الرســـوم من عادة الافرنج ، تأســـيا بالسلف من أهـالى مصر وغيرهم . فانظـــر الى بنــــاء أهل مصر للبرابى وأهرام الجيزة ، فانما بنوها لتكون آثارا ينظر بعدهم اليها من رآها .

ولنذكر لك آراء الافرنج فيها ، وما ظهر لهم بعد البحث التام حتى تقابله بما ذكره المؤرخون فيها من الأوهام . فنقول :

ملخص كلام الافرنج : أن الذى بناها هو ملوك مصر ، وأنه اختلف فى زمن بنائها . فبعضهم زعم أنها بنيت من منذ ثلاثة آلاف سنة . وأن البانى لها ملك يقال له : «قوف»(١) وبعضهم قال ان البانى لها ملك يقال له : « خميس » أو « خيوبس » ، والأظهر أن أحجارها منحوتة من صعيد مصر لا من البحيرة . وقال بعضهم : ان مدة بنائها لم تكن أزيد من ثلاث وعشرين سنة . وأن العملة الذين بنوها كانوا ثلثمائة وستين ألف نفس ، ولكن بمصاريف عظيمة ، حتى ان ما صرف على البصل والكرات للعملة يبلغ على ما قاله « بلنياس » نحو عشرين مليونا من القروش المصرية ، ثم ان هذه الأهرام تنسب الى أحد ملوك الفراعنة ، وأنه أعد الهرم الأكبر ليضم جثته ، والآخرين لدفن زوجته وبنته ، فلم يدفن هو فى الأول بل بقى هذا لهرم الآن مفتوحا. وأما الهرمان الآخران فدفنت فيهما بنته وزوجته ، وسدا سدا محكما . هذا ما حكاه الافرنج فى شأن الأهرام ، ومما قيل فى عظم بناء الهرمين العظيمين :

خليلى ما تحت السماء بنية يشابه بنياها بنا هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما على الأرض يخشى دائما سطوة الدهر

وقال بعضهم فى الأهرام ، مضمنا عجز بيت من معلقة طرفة .

لقد بت بالأهرام حول أحبة جفونى ببرد يابس وتجلد
يقول بها صحبى لبرد جليدها وهجرى : لا تهلك أسى وتجلد

قال السيوطى فى منتهى العقول : انه يتعجب من قول العلماء أن أعجب ما فى مصر الأهرام ، مع أن البرابى بالصعيد أعجب منها ، والبرابى هى المشهورة عند العامة بالمسلات . ولغرابتها نقل منها

(١) لعله خوفو .

الافرنج اثنتين الى بلادهم : أحداهما نقلت الى رومة فى الزمن القديم ، والأخرى نقلت الى باريس في هذا العهد .

وأقول : حيث ان مصر أخذت الآن في أسباب التمدن ، والتعلم على منوال بلاد أوروبا فهى أولى وأحق بما تركه لها سلفها من من أنواع الزينة والصناعة ، وسلبه عنها شيئا بعد شيء بعد عند أرباب العقول من اختلاس حلي الغير للتحلى به ، فهو أشبه بالغصب ، واثبات هذا لا يحتاج الى برهان ، لما أنه واضح البيان وقد صنع نابليون في باريس عمودا مفرغا من المدافع التى سلبها من الموسقو والنمسا ، وقد حاول الموسقو اسقاطه حين حلولهم بباريس، فما ظهر الا عجزهم عن ذلك .

ثم بعد أن جزنا « فنتنبلو » شاهدنا مدينة « تيمور » (١) بعد سير أربع ساعات من « فنتنبلو » وهى على عشرين ساعة من باريس ، ثم بعدها مررنا على مدينة « كونة » (٢) على شط نهر « ألورة » (٣) وهى مدينة تصنع فيها الهلاليب للمراكب السلطانية ، ثم على مدينة « مولن » (٤) ، وبها كثير من أولاد العرب الذين صحبوا الفرنساوية من مصر الى فرنسا ثم سرنا حتى وصلنا مدينة « رونة » (٥) وهى على سبعة وتسعين فرسخا فرنساويا على جنوب باريس ، قبل الوصول الى مدينة « ليون » (٦) بثلاثة عشر فرسخا ، وأهلها تسعة آلاف نفس ، وبها ديوان مشورة (للفبريقات ؛ ومشورة للزراعة ، وكتبخانة (٧) ومخزن آلات طبيعية وهندسة ، وبها قنطرة ظريفة

---

(١) Nemours.

(٢) Cosne

(٣) Loire

(٤) Moulins

(٥) Roanne

(٦) Lyon.

(٧) المكتبة هى الكتبخانة .

على نهــر « لوار » ورصيف مشهور ، وهى ساحــل لمركز تجارات « ليون » وغيرها من ســـائر أنواع البضائع ، وبأراضيها مقاطع الرخام ٠

ونهر « لوارة » يمكن المسير فيه بقــرب هذه المدينــة : وهذه المدينة غير مدينة « روان » البعيدة عن باريس جهة الشمال بثلاثين فرسخا ، والتى يمر بها السين ، والتى هى من اقليم « نورمنديا » ٠

ثم وصلنا الى مدينة ليون ــ وقد تقدم الكلام عليها ــ ثم وصلنا الى مدينة « اورغون » (١) التى على جنــوب باريس بمائة وثمانية وســبعين فرسخا فرنساويــا وهى فى سفح جبــل ــ شهيرة بكون نابليون حال عبوره بها تخفى ، خوفا من أهلها ، ولا زلنا نمر ببلاد حتى وصلنا الى « مرسيليا » وقد تقدم الكلام عليها مستوفى (٢) ٠ ومنها نزلنا فى سفينة تجارية ، وسرنا قاصدين اسكندرية ، ولا حاجة أيضا الى ذكر ما شاهدناه ، لأنه عــين ما سبق فى المقصد ــ غايــة ما نقول ان كل من يعرفنى من الفرنساوية طلب منى أننى بمجرد دخولى اسكندرية أذكر ما يقرع فكرتى مما أستغربه لبعد عهدى من مصر ، ولرؤيتى خلافه فى بلاد الافرنج ، وتعودى على مشاهدة غيره يظهر لى غرابة ما أراه أول وهلة ، حين وصولى ، فوعدت ، ووفيت ٠

هذا حاصل ما كان لخصته (٣) ، حسب الامكان ، فلم يبق علينــا حينئــذ الا ذكر خلاصــة هذه الرحلة ، وما دققت فيه النظر وأمعنت فيه الفكر ، فأقول : ظهر لى بعد التأمل فى آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شبها بالعرب منهم للترك ، ولغيرهم من الأجنــاس ، وأقوى مظنـــة القرب بأمور ، كالعرض والحرية

---

(١) La Ville d'Orgon

(٢) فى الاصل : « مستوفيا » ٠

(٣) فى الاصل « لخصت » ٠

والافتخار ، ويسمون العرض شرفا . ويقسمون به عند المهمات ، واذا عاهدوا عاهدوا عليه ، ووفوا بعهودهم ، ولاشك أن العرض عند العرب العرباء أهم صفات الانسان ، كما تدل على ذلك أشعارهم ، وتبرهن عليه آثارهم . قال الشاعر :

واني لحلو للصديق ، وانني … لمر لذى الأضغان أبدى له بغضى
واني لأستغنى فما أبطر الغنى … وأبذل ميسورا لمن يبتغي قرضي
وأعسر أحيانا فتنفذ عسرتي … وأدرك ميسور الغنى ومعي عرضي

وهتك العرض : هو ما يعبر به عندهم بالسبة والعار ، قال الشاعر :

تعيرنا أنا قليل عدادنا (١) … فقلت لها ان الكرام قليل
وماضرنا أنا قليل وجارنا … عزيز ، وجار الأكثرين ذليل
يقرب حب الموت آجالنا لنا … وتكرهه آجالهم فتطول
وانا لقوم ما نرى القتل سبة … إذا ما رآته عامر وسلول
اذا سيد منا خلا قام سيد … قؤول لما قال الكرام فعول
سلي ان جهلت الناس عناو عنهم … فليس سواء عالم وجهول

ولا يظن بهم أنهم لعدم غيرتهم على نسائهم لاعرض لهم فى ذلك حيث ان العرض يظهر فى هذا المعنى أكثر من غيره ، لأنهم وان فقدوا الغيرة ، لكنهم ان علموا عليهن شيئا كانوا شر (٢) الناس عليهن ، وعلى أنفسهم ، وعلى من خانهم فى نسائهم ، غاية الأمر أنهم يخطئون فى تسليم القياد للنساء ، وان كانت المحصنات لا يخشى عليهن شيء كما قال الشاعر :

اذاغاب عنها البعل لم تفش سره … وترضى اياب البعل حين يؤوب

---

(١) الرواية المشهورة : « عديدنا » .

(٢) فى الأصل « أشر » .

قال الزمخشري ، عند قوله تعالى : حكاية عن قول العزيز : « واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين » : ما كان العزيز الا حليما، وقيل : انه كان قليل الغيرة قال الشيخ أثير الدين أبو حيان، في تفسير هذه الآية الكريمة : وتربة مصر اقتضت هذا يعني قلة الغيرة ، وأين هذا مما جرى لبعض ملوك بلادنا ، وهو أنه كان مع ندمائه الخصيصين به في مجلس أنس وجارية تغني وراء الستارة فاستعاد بعض جلسائه بيتين من الجارية ، وكانت قد غنت بهما ، فمالبث أن جيء برأس الجارية مقطوعا في طشت ،وقال له الملك استعد البيتين من هذا الرأس ، فسقط مغشيا عليه ، ومرض مدة حياة ذلك الملك ! أقول : وأين غيرة هذا الملك من غيرة عبد المحسن الصوري على محبوبه ، حيث قال :

تعلقته سكران من خمرة الصبا ... به غفلة عن لوعتي ونحيبي
وشاركني في حبه كل ما جد ... يشاركني في مهجتي بنصيب
فلا تلزموني غيرة ما ألفتها ... فان حبيبي من أحب حبيبي

انتهى « سكردان ابن حجلة صاحب ديوان الصبابة » وبالجملة فسائر الأمم تتشكى من النساء ولو العرب ، قال الشاعر :

لقد باليت مظعن أم أوفى ... ولكن أم أوفى لا تبالي

وقال آخر :

فان تسألوني بالنساء فانني ... بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المال حين علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب

وحيث ان كثيرا ما يقع السؤال من جميع الناس على حالة النساء عند الافرنج كشفنا عن حالهن الغطاء ، وملخص ذلك أيضا :

أن وقوع اللخبطة (١) بالنسبة لعفة النســاء لا يأتي من كشفهن أو سترهن ، بل التربية الجيدة والخسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك في المحبة والالتئام بين الزوجين • وقد جرب في بلاد فرنسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات الى الرتبة الوسطى من الناس دون نساء الأعيان والرعاع ، فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهم الشبهة كثيرا ، ويتهمــون في الغالب ، فكثيرا ما كانت تتهم الفرنساوية نساء العائلة الملكية المسماة «البربون»، على أن مما يقوى كلامهم ما وقع لزوجـة ابن ملك فرنسا المعزول التى هى أم « الدوك دوبردو » الذى خلع عليه جده المملكة بعد عزله ، ولم يقبله الفرنساوية ، وقالوا ان هذا الولد ابن زنا ، فان أمه ولدت ولدا آخر من الزنا ، وادعت أنهـــا تزوجت سرا ، فانكسر بذلك ناموسها ، وبعد أن كانت تطلب مملكة فرنسا لابنها الأول ، وكانت آخذة في أسباب توليته ، وكان يخشى منها وقوع شيء في المملكة ــ سقطت من الأعين ، وبعد أن وقعت في يد الفرنساوية ، وكان يظن هلاكها ، تركوا سبيلها قائلين : انها صــارت مهملة ورجعت الى أهلها بولدها الأخير •

ومن أغرب ما وقــع ببــلاد الافرنــج في هذا الأمر : أن ملك الانكليز « جرجس الرابع » اتهم زوجته بالفاحشة بعد أن عهد منها ذلك المرار العديدة ، واشتهرت بذلك عند الخاص والعام ، لكونها كانت تسافر ببلاد الافرنج مع من تريد ، ولها فى كل محل عشاق ، فلما رفع أمرها عند شرعهم ، وأقيمت الدعوى كمـا ينبغي ، وقصد باثبات زناها طــلاقها ليتزوج بغيرهــا ، فلم تثبت أمور كافيــة فى الطلاق ، فحكم القاضى بابقائها على عصمته قهرا عنه ، فبقيا متفرقين ، ولكن لم يتزوج غيرها ، وذاع أمرهما وشاع ، ولكن فى الحقيقة وان كان يعتقد فيها ذلك الا أنه بمجرد القرائن لا بالمشاهدة ، الا لانثلم

---

(١) لعله يريد الاختلاط •

عرضه ، فمادة العرض التى تشبه الفرنسـاوية فيها العرب هو اعتبار المروءة وصدق المقال ، وغير ذلك من صفات الكمال .

ويدخل فى العرض أيضا العفـاف ، فانهم تقـل فيهم دناءة النفس ، وهذه الصفة من الصفات الموجودة عند العرب ، والمركوزة فى طباعهم الشريفة ، وان كانت الآن قد تلاشت فيهم ، واضمحلت فانما هو لكونهم قاسوا مشاق الظلم ، ونكبات الدهر ، وأحوجهم الحال الى التذلل والسؤال ، ومع ذلك فقـد بقى منهم من هو على أصل الفطرة العربية ، عفيف النفس على الهمة ، كما قال الشاعر :

فدعنى ونفسى والعفـاف فاننى	أخذت عفافى فى حياتى ديدنى
وأصعب من قطع اليدين على الفتى	صنيعة بر نالها من يدى دنى

وأما الحرية التى تتطلبها الافرنج دائما فكانت أيضا من طباع العـرب فى قديم الزمان ، كمـا تنطق به المفاخرة التى وقعت بين « النعمان بن المنذر » ملك العرب ، « وكسرى » ملك الفرس .

وصورتها : أنه قدم النعمان على كسرى ، وكان عنـده وفود الروم والهند والصين والعجم والترك وغيرهم ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم وعماراتهم وحصونهم ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ، ولم يستثن فارسا ولا غيرها .

فقال كسرى ، وقد أخذته الغيرة : يانعمان ، لقـد فكرت فى العرب وفى غيرهم من الأمم ونظرت فى حال من يقدم على من الوفود ، فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع ألفتها ، وعظيم سلطانها وكثرة مدائنها ، ووثيق دينها .

ورأيت الهنـد شهيرة الحكماء طيبـة الثراء ، كثيرة الأنهار ، والبلاد والثمار ، عجيبة الصناعة ، مرونقة الحسان ، معمورة بالأهل .

وكذلك الصين عجيبة فى اجتماعها ، وكثرة صنائع أيديها ، وهمتها فى الحروب وصنعة الحديد ، وأن لها ملكا يجمعها .

وكذلك الترك مع ما هم عليه من سوء الحال فى المعاش ، وقلة الريف والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، فان لهم بعد ذلك ملوكا تضم قاصيهم ، وتدبر أمورهم .

ولم أر للعرب شيئا من ذلك من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ، ولا حرمة ولا قوة ، ولا عقد ، ولا حكمة ، مع ما يدل على تدانيها وذلها ، وضعف همتها ، بحالهم التى هم بها مع الوحوش النافرة ، والطيور الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة . قد حرموا من مطاعم الدنيا ومشاربها وملابسها ولهوها ولذاتها ، وأعظم طعام ظفروا به لحوم الابل التى يعافها كثير من الطيور والسباع ، لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها ، وان قرى (١) أحد ضيفا اعتدها مكرمة ، وان أطعم لقمة عدها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما عدا هذه التنوخية التى أسس جدى اجتماعها ، وشد مملكتها ومنعها من عدوها ، ليجرى له ذلك الى يومنا هذا ، فان لها مع ذلك آثارا وحصونا وأموالا تشبه أموال بعض الناس . لكننى أراكم لا تسكتون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخرون ، وتريدون أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

فقال النعمان : أصلح الله الملك ، صدقت ان هذه الأمة تسمو بفضلها ، وبعظم خطبها ، وعلو درجتها ، الا أن عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك من غير رده عليه ، ولا تكذيب له ! فان أمنتنى من الغضب مما أتكلم به فعلت .

---

(١) فى الأصل « أقرى » .

قال كسرى : [تكلم] وأنت آمن ، فقال النعمان : أما أمتك فلا تنازع فى الفضل لموضعها التى هى به من عقولها وأخلاقها ، وبسطة محلها ، وبحبوحة عزها ، وما كرمها الله تعالى به من ولايتك وولاية آبائك وأجدادك ، وأما الأمم التى ذكرت فما من أمة الا فضلتها العرب بفضلها .

قال كسرى : لماذا ؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها وذمتها وبأسها ورياستها وسخائها وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ووفائها .

فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل مجاورة لآبائك وأجدادك الذين فتحوا البلاد ، ووطئوا العباد ، وأقاموا الملك ، وقادوا الجيوش . ولم يطمع فيهم طامع ، ولم يزالوا عندهم محترمين، ولا نال أحدا منهم نائل ، بل حصونهم ظهور خيولهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء والى جانبهم السيوف ، وعدتهم السقف ، اذ غيرها من الأمم ، انما عزها بالحجارة والطين والجزائر والبحور والقلاع والحصون .

وأما حسن وجوهها وألوانها ، فقد يعرف بذلك فضلهم على الهند المحترفة ، والصين المتجمشة ، والترك المشوهة ، والروم المقترة الوجوه .

وأما أنسابها وأحسابها : فليس أمة من الأمم الا وقد جهل أباؤها وأصولها ، وكثير من أولها وآخرها ، حتى ان أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسب ، ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب الا ويسمى آباءه أبا فأبا أحاطوا بذلك أحسابهم . وحفظوا بذلك أنسابهم . فلا يدخل رجل فى غير قومه ، ولا ينسب الى غير نسبه ولا يدعى الى غير أبيه .

وأما شجاعتها وسخاؤها : فان أدناهم رجلا يكون عنده البكرة والناب عليها بلغته وحمولته وشبعه وريه ، فيطرقه الطارق الذى

يغتذى بالفلذة ، ويجتزىء (١) بالشربة ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج له عن دنياه كلهـا فيما يكتسبه من حسن الأحدوثـة وطيب الذكر والثناء .

وأما حكمة ألسنتها : فان الله تعالى أعطاهم أشعارا ، وورونق كاملا ، وحسن وزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالاشارة وضربهمالامثال: وبلاغتهم فى الصفات ما ليس من ألسنة الأجناس .

ثم ان خيولهم أفضل الخيول ، ونساءهم أعف النساء ، ولباسهم أحسن اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وأحجار جبالهم الجزع ، ومطاياهم التى لا يبلغ الا على مثلها سفر . ولا يقطع الا بمثلها بلد قفـر .

وأما دينها وشريعتها ، فانهم متمسكون به أعظم تمسك ، وان لهم أشهرا حرما ، وبلدا محرما ، وبيتا محجوجا ، ينسـكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل فيه قاتل أبيـه وأخيه ، وهو قادر على أخـذ ثأره منه وادراك رغمه فيه ، فيحجزه كرما ، ويمنعه دينه عن تناوله عن تناوله اياه ، احتراما لذلك البيت وتشريفا له .

وأما وفاؤهم : فان أحدهم يلحظ اللحظة ، فهى عقد لأهلها ، لا يرجع عما أضمره في نفسه حتى يبلغه ، وا أحدهم يرفع عودا من الأرض ، فيكون رهنا بدينه فلا يطلق رهنه ولا يخفر ذمته ، خوفا من الله تعالى ، وان أحدهم يبلغه أن أحدا استجار به وعسى أن يكون نائيا عن داره ، فيمنع عنه عدوه ، ويحميه منه ولو تفنى قبيلته ، أو تلك القبيلة التى استجار عليها ، وذلك لما أخفر من جواره ، وان أحدهم ليلجأ اليه المحروم ، والمحـدث عنه ، بغير معرفة ولا قرابـة فينزلونه عندهم ، وتكون أنفسهم وأموالهم دون ماله .

---

(١) فى الأصـل « يقتدى بالقادات ، ويجترى » وهو تحريف .

وأما قولك أيضا الملك ، حفظك الله : انهم يقتلون أولادهم من الحاجة فانما بفعله من فعله منهم زغم أنفه حذرا من العار ، وخيفة وغيرة من الأزواج ·

وأما قولك أيها الملك : أن أفضل طعام ظفروا به لحوم الابل على ما وصفت منها فما تركوا مادونهـا الا احتقارا له ، فعمـدوا الى أجلها وأفضلها ، فكانت مراكبهم ومطاعمهم ، من أنها أكثر البهائم لحوما ، وأطيبها شحوما ، وأرقها ألبانا ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وانه لاشيء من اللحوم يفاخر لحمها الا استبان فضلها عليه·

وأما محاربتهم وأكالهم بعضهم بعضا ، وتركهم الانقياد الى رجل واحد يسوسهم ويدبر أمورهم ، فانما يفعل ذلك من الأمم من علمت الضعف من أنفســها ، وتخوفت من نهوض عدوهـا عليها ، فانهـم يحتاجون الى ملك ، يدبر أمرهم ، ويكون رجلا من أعظمهم شأنا وقدرا، ويكونون معترفين بشرفه على ســـائرهم فينقادون اليه بأزمتهم ، وينقادون الى أمره ·

وأما العرب : أيها الملك ، فان كثيرا فيهم ، لعظم كرمهم ووفائهم، ودينهم ، وحكمة ألسنتهم ، وسخاء نفوســهم يقولون : انهم ملوك بأجمعهم مع رفعتهم ، فلا ينقاد أحد الى الآخر فانهم أشراف ·

وأما اليمن ، التى وصفها الملك : فان آباءك وأجـدادك أعلم بصاحبها لما أتاه ملك الحبشة في مائتي ألف ، وتغلب على ملكه وجاء الى بابك وهو مستصرخ ذليل حقير مسلوب فلم يجره أحد من أجدادك ولا آبائك ، فاستجار بالعرب فأجاروه ، ولولا ما وتر به من بلية العرب لمال الى نقص ، ولم يرجع الى محله . ولولا أنه وجد من يجيد معه الطعان بقتل الأحرار ، وتبدد شمل الكفار ، وبذبح العبيد الأشرار لم يرجع الى اليمن ·

قال فعجب كسرى مما جاء به النعمان ، ثم قال له : انك لأهل لموضعك من الرياسة ولأهلك ولأهل اقليمك ، ولما هو أفضل منه

ثم كساه وأتهم عليه وأعطاه أشياء جزيلة ثم سيره الى موضعه من الحيرة ، ثم بعد سير اليه وقتله ٠

والتنوخية فرقة من اليمن ، وقال المتنبى على لسان بعضهم :

قضاعة تعلم أنى الفتى الـ ذى ادخرت لصروف الزمان
ومجدى يدل بنى خندف على أن كل كريـم يمـان
أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان
أنا ابن الفياقى أنا ابن القوافى أنا ابن السروج أنا ابن الرعان
طويل النجاد طويل العماد طويل القناة طويل السنان
حديد اللحاظ حديد الحفاظ حديد الحسام حديد الجنان
يسابق سيفى منايا العباد اليهـم كأنهما فى رهـان
يرى حده غامضات القلوب اذا كنت فى هبوة لا أرائى
سنأجعله حكما فى النفوس ولو ناب عنه لسانى كفانى

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : حضر رجل من أهـالى مصر الى عمر ابن الخطاب ، وجعل يشكو من عمرو بن العاص ، فقال: يا أمير المؤمنين ان هذا مقام العائذ ٠

فقال عمر : لقد عذت فما شانك ؟ قال تسابقت بفرسى أنا وأبن عمرو بن العاص فسبقته ، فحمل على بسوط فى يده ، وجعل يقنعنى بالسوط ، ويقول لى أنا ابن الأكرمـين : وبلغ ذلك لعمرو بن العاص فخشى أن آتيك لآشتكى ولده وحبسنى فتفلت من الحبس، وها أنا قد أتيتك ٠

قال : فكتب كتابا : من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ، انه اذا أتاك كتابى هذا فاحضر الموسم يعنى الحج أنت وابنك ٠ ثم التفت الى المصرى ، وقال لـه : قم حتى يأتى غريمك ، فلمـا حضر عمـرو ابن العاص وابنه الحج وجلس عمر بن الخطاب وجلسوا بين يديه ، وشكى المصرى كما شكى أول مرة ، فاومأ عمر بن الخطاب ،

وقال له خذ الدرة وانزل بها عليه : قال : فدنا المصرى من ابن عمرو بن العاص ، ونزل عليه بها ·

وعن أنس قال : والله لقد ضربه ، ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم يزل يضربه حتى استحببنا أن لا يضربه ، وذلك من كثرة ما يضر به، وعمر رضى الله عنه يقول اضرب ابن الأكرمين ·

قال عمرو بن العاص : قد شفيت يا أمير المؤمنين ، قال عمر بن الخطاب للمصرى أنزع عمامته ، وضع الدرة على صلعة عمرو، فخاف المصرى من ذلك ، وقال يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى فما لى أضرب من لم يضربنى ·

فقال عمر رضى الله عنه : والله لو فعلت لما منعك أحد ·

ثم التفت رضى الله عنه ، وقال لعمرو بن العاص : متى استعبدتم (١) الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم (٢) ، أحرارا · انتهى ·

فمنه يفهم أن الحرية أيضا من طباع العرب من قديم الزمان

هذا ، ولا ينبغى لنا أن نختم هذه الرحلة من غير أن نشكر محاسن من ساعد الوالى فى نجاح مقصوده من ترتيب أمور التلامذة وتعليمهم بمدينة باريس محب البلاد المصرية وأهلها«الخواجة جومار» فانه يسعى بهمته ورغبته فى تنفيذ مقصد الوالى ويسارع فى المصلحة بلا انكار فكأنه من أبناء مصر البارين بها فهو جدير بأن ينظم فى سلك المحبين ·

ومما يدل على ذلك غاية الدلالة ما ذكره فى روزهامته ، التى ألفها ، لا ستعمال مصر والشام سنة ألف ومائتين وأربع وأربعين من الهجرة ، فانه ذكر فيها أنه ان صدرت له ارادة [من الوالى] ليؤلفن

---

(١) فى الأصل « متى استعبدت من ناس » ·

(٢) فى الأصل « وقد ولدتهم أمهم » ·

كل عام روزمانة بهذا الوضع ، ليعين على حسن تمدن الايالات المصرية ، فمن جملة ما قاله فى مقدمته أنه يذكر فى هذه الروزنامة عدة أمور :

الأمر الأول : الدلالة على تقدم الحرف والصنائع اللازمة لمصر من أولها لآخرها ٠

الثاني : تجارة أهالى أوروبا وآسيا وأفريقية كقوافل بلاد البربر ودارفور وسنار وبلاد الحجاز ، ومقابلة الاقيسة والمكاييل والموازين المختلفة باختلاف البلاد المستعملة هى فيها ٠

والثالث : ذكر أمور الزراعة فانها كانت سببًا فى سالف الأعصر فى غنى أهل مصر ، فلهذا ينبغى أن تكون أول ما تهتم به الدولة فى مملكة مصر الطيبة التربة والزراعة كثير الفروع المهمة ، فمن ذلك علم توفير المصايف الخلاتية ، ويتشعب عنه اصلاح المزارع، والمروج المستحدثة المدبرة وتتميم زراعة القطن والنيله والعنب والزيتون والتوت واستخراج دقيق النيلة ، واستخراج أنواع كثيرة من الزيوت ، ومعرفة تربية النحل ودود القز ، ودود الصباغة ، وتعهد الحيوانات الأهلية ، وتحسين الحيوانات البلدية بعزلها عن غيرها كالخيل والمعز ، وحيوانات الأصواف ، وجلب البهائم البرانية ومعرفة طب البهائم ، ومعالجة أمراضها كمرض « السواف » وحفظ الحبوب من السوسة ، وغرس الأشجار ، وترتيبها بحافات الطرق ، وخدمة البساتين وسائر الأبنية الخلائية المناسبة لمصالح الزراعة ٠ وفى مادة الزراعة نذكر الترع والخلجان المعدة لسقى الأراضى وللأسفار ، وكذلك نذكر الطرق والجسور والقناطر فى السهول والجبال المعدة لتوصيل المياه ، فهذه كلها تذكر فى الفلاحة ٠

الرابع : نتكلم على أمور مختلفة من علوم الطبيعة ومن علم المواليد الثلاثة ، ومن العلوم الرياضية وهناك نتكلم على المادة

المغناطيسية التى تستعملها الأطباء فى معالجة الشلل ونحوه ، وكذلك القوة الكهربائية ، والحرارة الكروية ، والحوادث السماوية، والندى ، والمطر الذى يحدث بين المدارين ، وكذلك نتكلم على أحجار الصواعق ، وعلى جبال النار المسماة بالبركانية ، وعلى الآلات الطبيعية كميزان الزمان ، وميزان الحر ، وميزان الرطوبة ، ووقاية الرعد ، والنظارات الفلكية ، والنظارات المعظمة للأشياء الدقيقة التى لا يدركها النظر .

ونتكلم أيضا على علم المعادن واستخراجها وقطع الحجارة من مقاطعها ، وعلى علم الحشائش الطبيبة ، والنباتات المستعملة فى الفنون والصنائع ، وعلى البهائم النافعة ، وعلى علم الجبر والمقابله والهندسة .

الأمر الخامس : يشتمل على جملة فروع من علم توفير المصاريف وسياسة الدولة ، وعلى تنبيهات على علم أحوال الممالك والدول ، وعلى سبب ثروتها وغنى أهلها ، وعلى أحوال المعاش والمعاد وعلى ولادة الذكور والاناث فى كل بلدة من البلاد ، وعلى الادارة الملكية، وعلى الأصول العامة المستعملة أساسا لسياسات الأفرنج ، وهى الحقوق العقلية والحقوق القانونية والحقوق البشرية ، أى الحقوق التى للدول بعضها على بعض .

السادس : سياسة الصحة العموميه والخصوصية ، ففى ذلك نتكلم على تلقيح البقرى للجدرى ، وعلى الطاعون ومعالجاته ، وعلى الأمراض والعوارض العامة وعلى بعض تشريح .
السابع : نذكر فيه جملة تعليمات مختلفة من مسائل أدبية وفلسفية ولغات وعلوم مثل علم الفصاحة ، وفيه نتكلم أيضا على المكاتب والمدارس فى البلاد المختلفة ، ونبذات فى تواريخ البلاد خصوصا مصر ، وعلى حكايات ونوادر من غرائب الآداب والبلاغة الافرنجية والمشرقية ، وكذلك نذكر شيئا من علم المنطق ، ونبين الوسائط

المسهلة المعلمة بالايجاز للقراءة والكتابة والحساب ، وطرق تعليم هذه الأشياء فى أقرب زمن لسائر العامة ٠

الثامن : نبحث فيه عن عدة أشـــياء متنوعة ، وفيه نذكـر أخبار التجارة والسفن البحرية واقامة العربات العامة وتحسـين الطرق والترع والخلجان والقناطر المعلقة ، والاشــــارة المسماة تيلغراف ـ يعنى اشـــارة الأخبـــار ـ وجميع الأشغال المتجددة عند الافرنج ، ونضم لذلك لوحات أشكال لكمال الفائدة ، وكذلك نرسم خرطـات جغرافيـــة وصـــور النبـاتات والحيوانات التى تنقل من البلاد الغريبة وتربى فى مصر ، ونذكر كثيرا من الأمور التى تتجدد على تداول الأزمان ٠ وبالجملة فنذكر نبذا صغيرة متشعبة من أصول عظيمة ومستفادة من أفواه الثقات سهلة الفهم لسائر الناس ، ولا نستعير منها شيئا من صعاب الكتب انتهى كلامـه ٠ ولم ينجـز ما وعد به لأنه علق ذلك على الارادة السنية ولم يصدر له أمر الى الآن ٠ وبالجملة فهو من المولعـين بحب مصر ظاهـرا وباطنـا ومن الراغبين فى خدمة الوالى حبا له ولدولته ٠

وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى فى ذكر حوادث السفر لتلك الجهة التى لا ينكر معارفها الا من لا انصاف عنده ولا معرفة له ، قال الشاعر :

قد تنكر العين ضوء الشمس منْ رمـد
وينـكر الفـم طعم الماء من سقم

والفضل كالشمس لا يخفى على أحد
الا على أكمـه عمـا يـراه عمى

ولا ينبغى أن يمنع ذو الحق حقه ، كما قال الشاعر فى هذه الأبيات المملوءة من الحكمة :

اذا كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيما ولا توصـه

وان ناصح منك يوما دنا　　فلا تنأ عنه ولا تقصه
وان باب أمر عليك التوى　　فشاور لبيبا ولا تعصه
وذو الحق لا تنتقص حقه　　فان القطيعة فى نقصه
ولا تذكر الدهر فى مجلس　　حديثا اذا كنت لم تحصه
وقص الحديث الى أهله　　فان الوثيقة فى قصه
ولا تحرصن فرب امرىء　　حريص مضاع على حرصه
وكم من فتى ساقط عقله　　وقد يعجب الناس من شخصه
وآخر تحسبه أنوكا　　ويأتيك بالأمر من فصه

ولا أحد يخلص من قال الناس وقيلهم ، كما قال الشاعر :

ومنذا الذى ينجومن الناس سالما　　وللناس قال بالظنون وقيل

وحيث كان العمل بالنية ، والمدار على حسن الطوية ٠ فلا معول على من لم يكن نير السياسة ٠ ساطع الكياسة ، ولا اكتراث الا بمن رقى رتبة عليه فى الرسوم والقوانين وتشبث بالشريعة ، وكان فيها ذا رياسة ٠ ودرى أن القصد انما هو حسن أهل ديارنا على استجلاب ما يكسبهم القوة والبأس ، وما يؤهلهم لاملائهم الأحكام على هؤلاء الناس ٠

وبالجملة فنحن الآن على ما كان عليه الأمر فى زمن الخلفاء العباسية ، كما قال الشاعر :

وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه　　وأول الغيث قطر ثم ينهمل

ولبعض أقاربى :

يا من غدامعجبامما اقترحت وقد　　أضحى يروم مقال العاذل اللاحى
أما رأيت اذاشمس الضحى غربت　　يلجا الحريص الى ضوء بمصباح

وقال آخر :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به   ولا يكون له فى الأرض آثـار

وعلى كل حال فأرجو ممن نظر فيه أن يتصفحه بجملته ، ليكون على بصيرة مما يقول ، فان المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل منه ، ولا أقول الا كما قال الشاعر :

فاليـك وشـيا حـاكه   فى الطرس ذو باع قصير
واستر اذا عيب بـدا   والله يعفـو عـن كثـير

تعليـــق

رفاعة رافع الطهطاوى :
المفـكر والمعلم

سيرة حياة المعرفة والحرية :

فى شهر أكتوبر من عام ١٨٠١ ، خرجت من مصر حملة نابليون بونابرت ، أول حملة استعمارية على الشرق ترغم على الانسحاب من « مستعمرتها » المسلوبة ، دون شروط • وأخـذت الحملة معها فى صندوق من الرصاص جثة كليبر ، خليفة نابليون فى قيادة الحملة وحكم المستعمرة ، وأول جنرال استعمارى تعدمه يد الثورة الوطنية فى الشرق • وأخذت الحملة أيضا كتاب « وصف مصر » الذى وضعه علماؤها ، بينما سلمت للانجليز « حجر رشيد » الذى سيؤدى فك طلاسمة بعد سنوات الى ازالة ستار الغموض والجهل عن أعظم وأعرق حضارات الانسان القديم • ولكن الحملة تركت وراءها روح المقاومة التى أثارتها والثقة فى النفس واكتشاف الذات بعد قرون الاستسلام والخنوع والضياع ، كما تركت الحملة وراءها عددا من الرجال الذين صدمهم التفوق الحضارى الذى كانت تمثله فأيقظ التحدى عقولهم• وبعد ذلك بأيام،دخل محمد على القاهرة ، ضمن جيش اعادة السيطرة العثمانية ، لكى يبدأ مغامرته الكبرى بهدف اعادة الروح الى سلطنة العثمانيين وهى المغامرة التى أدت ، على العكس ، الى اعادة الروح لمصر نفسها وللعالم العربى •

ولكن فى منتصف ذلك الشهر نفسه ، ولد رفاعة الطهطاوى ،

(★) عن مجلة الاداب اللبنانية العدد السابع يوليو ١٩٧٧ ، السنة ٢٥ •

فى بلدة طهطا من قلب صعيد مصر · ولم يكن لولادته يومذاك مغزى، الا انه ولد فى البلدة التى أغرقت بنادق أهلها القديمة سفينة القيادة لحملة فتح الصعيد التى أرسلها نابليون من القاهرة ، .فلم تستطيع أبدا أن تزعم انها فتحته · ولكن ولادته رغم ذلك كانت هى ثالث الأحداث فى ذلك الشهر التى سمت البداية لتاريخ مصر الحديث · بل ربما كانت ولادته ، هى الحدث الأكثر أهمية ، اذا نظرنا الى التاريخ بحثا عن أعماقه الحقيقية وأساسه · فان العمل الذى انجزه الصبى الصعيدى فيما بعد هو الذى أعطى المعنى الايجابى للحدثين الأولين ، فقد كان على شعب مصر ، الذى دفع الثمن كله أن يكون هو الذى يصنع بجهده ذلك المعنى ، وان يكون هو الذى يجسده ·

يصعب علينا الآن بالفعل ان نتخيل نوع العالم الذى جاءه رفاعة الصغير يوم مولده · كانت قد مرت ثمانية قرون تقريبا منذ بدأت سيطرة الأجناس الآسيوية ، المتخلفة حضاريا وثقافيا ، على مصر والوطن العربى : من الأكراد والشركس والتركمان والمغول والأتراك · جاءوا قادة عسكريين ، ومماليك وغزاة فاتحين · وكانوا محاربين عظماء ، ولكنهم كانوا أيضا أصحاب تخلف حضارى وثقافى عريق · وبحكم سيطرتهم السياسية القائمة على القهر ، وبحكم غربتهم عن لغة الثقافة العربية ووصولهم الى السيطرة دون سند أولى من « مؤسسات » هذه الثقافة ــ الا الأسانيد الشكلية ــ وبحكم قسوتهم الأصلية وقسوة النظام الاجتماعى السائد ، فقد ترابطت هذه العوامل لكى تفرض على مصر ، وعلى الوطن العربى كله ستارا من التخلف والفساد العقلى والأخلاقى أصبح فيما بعد مضرب الأمثال· والقصص التى تروى عن ذلك ليست لها نهاية ، كما ان ذلك التخلف قد احتوى فى مضمونه نسيانا كاملا للتراث الحضارى والثقافى العظيم الذى ازدهر حتى قبل وصول « الآسيويين » بعشرات قليلة من السنين · ان علماء الأزهر الذين ظنوا ان العلماء الفرنسيين يستخدمون نوعا من السحر فى معامل الكيمياء لكى يخدعوهم ، وأقر

مؤرخهم الكبير « عبد الرحمن الجبرتى » بأنهم يأتون أعمالا : «لا تسعها عقول امثالنا » هؤلاء العلماء كانوا جديرين بأن يظنوا نفس الظنون بأسلافهم العظماء من الفلاسفة والعلماء العرب ، من أمثال الفارابى وابن سينا أو الكندى أو ابن الهيثم أو البيرونى ·· هذا اذا اتيح لهم أن يسمعوا عن تلك الأسماء ·

ونحن الآن قد نستخدم لغة السجع والتورية اللفظية لكى نصنع بعض الفكاهات ·· ولكن هذه اللغة كانت هى اللغة الوحيدة التى يمكن أن يعبر بها من شاء الكتابة من هؤلاء العلماء · ولم تكن هذه اللغة الفقيرة قد استخدمت أبدا ، منذ نحو ألف سنة للتعبير عن شيء من العلوم الطبيعية ، ولا الفلسفة العقلية ، ولا العلوم البحتة ـ كالرياضة ـ ولا العلوم النظرية ـ كالفلك والهندسة · ونظرة واحدة الى المجلدات الأولى من كتاب فى التاريخ وضع فى هذه السنوات الألف ، تكشف عن التصور الخرافى الذى نقله المؤرخون من كتابات اليهود وغيرهم · ومن بقايا ما عرفوه من حكايات شعبية عن تاريخ شعبهم والشعوب المجاورة · وبعد مئة سنة فقط من موت المؤرخ وعالم الاجتماع الكبير عبد الرحمن بن خلدون ·· وضع ـ عالم ـ أزهرى كتابا لتعليم أمير من المماليك فى مادة ـ وصف العالم ـ أو الجغرافيا ، ولكن هذا الكتاب يصلح لأن يكون دائرة معارف لكل الخرافات القديمة عن شكل كوكبنا وما يعيش فيه من أحياء ، ولا يكاد وصف مصر نفسها فيه يكون صحيحا ·

أما عن أدوات الموت ، فيكفى أن نتذكر ان الجبرتى قال ان الناس الذين تجمعوا لمشاهدة القتال بين الفرنسيين والمماليك فى انبابة : « لما عاينوا القنبر ـ أى قذائف المدافع ـ ولم يكونوا عاينوه من قبل ، صاحوا : يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف ، وان الجبرتى أيضا أبدى اعجابه بالعربة الصغيرة ذات العجلة الواحدة التى صنعها الفرنسيون لتسهيل نقل الأتربة · وقال انها ـ معجزة الناس الفرنساوية ـ وانها ـ شيء لطيف ··

ولكن هذا العالم كان قد اهتز هزة عنيفة فى السنتين السابقتين على مولد رفاعة • وان هؤلاء الناس الذين استنجدوا بخفى الألطاف حينما عاينوا القنبر ــ سبكوا شبابيك الجوامع والبيوت بعد عام واحد لكى يصنعوا مدافع وقنابل ليمنعوا كليبر من العودة للقاهرة فى ثورتها الثانية ، ونظموا أول مقاومة وطنية مسلحة وسرية ضد السلطة الاستعمارية انتهت بقتل كليبر نفسه بعد أيام ، واستمرت لكى تعزل ولاة السلطان الذين جاؤوا من الاستانة واحدا بعد الآخر وارغمت السلطان بالثورة على تعيين الوالى الذى ارادته قيادة المقاومة من نفس مشايخ الأزهر الذين سحرتهم معامل الكيمياء واستصغروا عقولهم أمامها قبل عامين اثنين فقط •

كان بعض هؤلاء المشايخ قد اكتشف معنى الحرية ومعنى ان تحكم الأمة نفسها بنفسها ، ومعنى أن تكون الأمة منظمة تدافع عن نفسها بالسلاح • وقد تكرر هذا الدفاع أيام حملة فريزر فى رشيد والاسكندرية • وتحت نفس القيادة التى شجعت محمد على لكى يقاوم الغزوة الانجليزية ولا يهرب كما فعل المماليك • واكتشف بعض المشايخ الآخرين قيمة العلم والحضارة • وهؤلاء هم الذين ارتبط بهم رفاعة الشاب حينما وصل الى القاهرة لكى يدرس فى الأزهر وهو فى السادسة عشرة من عمره ، فقيرا يحفظ القرآن وبعض كتب شروح النحو والبلاغة والفقه •

وفى القاهرة يكتشف شيخه الكبير ، وشيخ الأزهر فيما بعد ، حسن العطار الذى كان يجمع فى بيته الم تلاميذه لكى يتباحثوا فيما عرفوه من علوم الفرنسيين ، وأسباب تفوقهم الظاهر على المماليك ، وولعهم بالمعرفة والنظام والنظافة ، واكتشف الشيخ الكبير موهبة تلميذه الشاب • وبينما كان عقل الشاب يتفتح أمام ما يسمعه ، كانت الدولة توطد أركانها • فقد أباد محمد على بقايا المماليك وقضى على أسس النظام الاقتصادى والادارى القديم • واكتشف ان باشوات

الاستانة سيعملون على خلعه حتى لا يخلق مركزا قويا ينافسهم من القاهرة ، وقرر أن – جيشا قويا – هو ما يمكن ان يحميه • وبمجيء عدد من ضباط جيش نابليون المهزوم فى ووترلو ، وعدد من الاقتصاديين والسياسيين اتباع – سان سايمون – الاشتراكى الخيالى الفرنسى ، حصل طموح محمد على ، على الأفكار العلمية اللازمة لتجسيد خياله – وهو كعسكرى لابد أن يفكر فى ان بناء الجيش يمكن أن يكون النواة التى ينبغى أن يشيد فوقها وحولها بناء الدولة كلها • ان جيشا حديثا يحتاج الى ادارة وصناعة وعلوم ومدارس واقتصاد حديث ، ولا يمكن أن تنتجه مؤسسات متخلفة ، وبذلك بدأ تجنيد الشباب للجيش • وارسال أفراد قلائل لتلقى العلوم اللازمة لتوسيع هذا الجيش وتغذيته بما يلزمه وتغذية الدولة التى ستنفق عليه وترسله فى الحروب المطلوبة منها ، أو الحروب التى ستفرض عليها •

ويكتشف رفاعة ، مع الفقر واحتياجه للرزق المنتظم الذى لا يتيحه التدريس فى الأزهر ، يكتشف أهمية الالتحاق بوظيفة فى هذه المؤسسة الجديدة التى ستبنيها الدولة ، والتى ستبنى هى الدولة بدورها •

يصبح رفاعة ، الأزهرى الذكى ، تلميذ حسن العطار الذى تفتحت آفاق خياله وعقله بأحاديث أستاذه عن حضارة الغرب ، يصبح موظفا فى الدولة الجديدة ، اماما وواعظا فى احدى وحدات الجيش الجديد • ومن هنا تبدأ رحلة الخلق الجديد •

لقد كان من الممكن أن يعود رفاعة الطهطاوى من باريس الى القاهرة مثلما ذهب ، مجرد امام وواعظ فى احدى وحدات الجيش ، وكان يمكن أن يعود ، حتى بعد انضمامه الى البعثة كدارس وليس كمجرد امام وواعظ ، كواحد منها ، وواحد من الذين درسوا معه ومن بعده فى عواصم أوروبا ، فيتحول الى مجرد اداة تكتيكية متوسطة

الاعداد ، تؤدى خدمة معينة للجيش محمد على ودولته ثم تنتهى مثلما انتهت دولة محمد على وانتهى جيشه بعد هزيمته أمام القوى الاوروبية التى أفزعها تقدمه فاتخذت ضده وضد مصر ، أو ضد عمله على انعاش السلطة العثمانية فى الحقيقة ٠

ولكن رفاعة ، يقدم لنا نموذجا مثاليا للدور الذى يمكن أن تلعبه العبقرية الفردية فى التاريخ : العبقرية التى تكتشف المغزى الحقيقى لاحداث عصرها وتيار تلك الأحداث ، وتكتشف واجبها فى استخلاص كل ما هو ممكن من ذلك التيار لصالح قوى التقدم الحقيقية والأصيلة٠

لقد انتهت « اسطورة » محمد على بهزيمته واجباره على قبول شروط أوروبا وباشوات السلطنة المتواطئين ضده ، وجاء بعده وبعد موت ابنه ابراهيم باشا ، حفيده الخديوى عباس ، صورة من الولاة القدماء تخلفا وجهلا وقسوة وغباء وحرصا على التخلف والجهل والغباوة ، وتغلق مدرسة الألسن وكل ما انشأه رفاعة وتلامذته من المدارس ومؤسسات الدولة المتمدينة التى تحايلوا لخلقها مستفيدين من طموح محمد على ، ومن الضرورات الى خلقها وفرضها على الدولة وعلى المجتمع كله ذلك الطموح ٠٠ وينفى رفاعة الى السودان ٠

فكيف كان يمكن أن تبدو أسطورة محمد على ، الا لونا من الذكريات يتبادلها المشايخ والموظفون والضباط القدماء المسرحون من الجيش المتضائل ٠٠ لولا الكتب الألف التى كان رفاعه وتلاميذته قد نقلوها الى العربية فى كل الفنون والعلوم وطبعوها ، فوزعت بين مئات البيوت وألوف الأيدى ٠٠

ولم يعد فى وسع الخديو المتخلف الغبى لا ان « يغلقها » كما أغلق مدارس رفاعة،ولا أن ينفيها مثلما نفى المعلم الأول الذى اختارها بنفسه وأشرف على ترجمتها ، وراجع الكثير منها ، وتلقى بيديه أول نسخة منها جميعا طوال سبعة عشر عاما ؟ ويتكرر نفس الموقف أثناء

سنوات تحرير الوالى سعيد الذى جاء بعد عباس ، ثم أثناء حكم اسماعيل ، حتى بلغت تلك الكتب أكثر من ألفين ٠

فبينما كان محمد على يحلم بالامبراطورية ٠وبكرسى الصدر الأعظم فى الأستانة ، ويحصى النقود التى جمعها جباته بالسياط من فلاحى مصر وتجارها ، وبينما كان يظن أن دولته ٠٠ ومن أكبر موظفيها رفاعة نفسه ـ لا عمل لها الا تصنيع الأسلحة والجنود وجمع النقود ٠٠ كان رفاعة يضع الأساس لاستمرار تطور مصر نفسها وبنيانها الحضارى الحديث كله ٠٠ بصرف النظر عن مصير هذه المغامرة التى ما كان العصر الاستعمارى يقبلها فى المنطقة التى تمثل محور الارتكاز لاستراتيجية الدول العظمى طوال القرن التاسع عشر ، لم يكن محور حلم الباشا هو مصر ، وانما السلطنة العثمانية التى كان التاريخ قد حكم عليها بالزوال ، ولم يكن يبقيها الا منطق توازن القوى فى وسط العصر الاستعمارى ، ولم يكن هم الباشا عظمة الاسلام وانما مجده الشخصى ٠٠ أما الشيخ المعلم فكان محور حلمه هو مصر فى المستقبل لأنه تفرغ لتعليمها ولغرس البذور التى لاتموت ولا تتحكم فيها أية معاهدات دولية ولا أية نهايات لمصائر أفراد بعينهم، وكان همه هو المصريون وحريتهم ورخاؤهم واستنارتهم وحكمهم لأنفسهم وحصولهم على حياة جديرة بالبشر ، يصنعونها بأنفسهم ٠

كان يمكن فى باريس أن يتعلم اللغة وأن يتقن الترجمة ، وأن يكتفى بترجمة نصوص الكتب المدرسية التى ستلقى فى الفنون العسكرية على ضباط وجنود الجيش طبقا لخطة محمد على وتصور رجاله عن وظيفة هذه البعثة التعليمية والبعثات المشابهة ٠٠ ولكن ها هو رفاعة الشاب يحرث أرض المعرفة كلها لكى يعد نفسه للمهمة التى قرر أن يتولاها ، والتى رأى أن التاريخ نفسه يؤذن بامكانية تحقيقها : مهمة بعث الحياة فى عقل هذه الأمة ووجودها اعتمادا على أصولها بالذات ، وعلى أساس بث الروح الحية فى الادارة الأساسية

لمصنع الحضارة واستيعابها وهي : اللغــة ، حتى تمتلك الأمــة فى لغتها أسرار تلك الحضارة الحديثة وأوعيتها وما تحتويه ٠

وفي يقينى أن المعلم الاول ، كان واعيا منذ البداية بما يفعله . وبما يريد انجازه ، ربما نبهه أحد الى ضرورة أن يهتم بكل فروع المعرفة حتى يصبح « مترجما » يترجم كل شيء الى لغته العربية ٠ ولكن من المؤكد أنه هو الذى اختار فروع المعرفة التى يركز اهتمامه عليها٠ والكتب التى سيشرع فى ترجمتهــا للاستفادة المبــاشرة بمادتهــا ولتطويع اللغة العربية ـ بمفرداتها وتركيبتها ـ من أجل أن تصبح قادرة على استيعاب هذه المادة وما يترتب عليها حتما من أفكار ٠ لقد طلب اليــه أستاذه الشيخ حسن العطار قبــل السفر أن يســجل ملاحظاته ، ولكن رفاعــة هو الذى كتب صورة الحضارة والثقافــة الغربيتين ، ولخصهما ، ونقدهمــا ، واكتشف موقفهما الحقيقى من « الشرق » ومن وطنه ، وعرف انهما قد يكونان اداة تصلح لتطوير بــلاده ، ولكن من الخطــر الاستسلام لهمــا ، ومن الغباء السعى الى استبدال جوهر وطنه بهما ٠

وتوحى مختارات المعلم الأول للترجمة ، وموضوعاته للتأليف ، انه اكتشف الحاجات الحقيقية لحياة أمته ، ولعقلها ، اكتشف انها بحاجة الى المعارف العملية وتطبيقاتها ، فاهتم بالرياضة والهندسة والمعادن والادارة والاقتصاد ، ولكنه اكتشف أيضا حاجتها الى تغيير تصورها عن الكون وعن الكواكب الذى تعيش فيه ، وفى هذا سر اهتمامه الشخصى الخاص بالجغرافيا وبالفلك ٠ ولا شك انه توقف كثيرا عند المغزى الذى تدل عليه الحقيقة التى نعرفها عن التطابق بين بداية علوم الفلك والجغرافيا الحديثة وبين بداية عصر النهضــة والتحرر الفكرى فى الغرب ٠ فبهذين العلمين حصل الانسان الغربى على « الاحساس » الصحيح بوضع البشر فى الكون ٠٠ وبشكل هذه الأرض التى يقفون فوقها واستبدلوا التصور الخرافى القديم بشعور

« ملحمي » يقيني جديد يدفعهم دفعا الى مرحلة جديدة من الصراع ضد الطبيعه ، يشعرون فيه بانهم يواجهون أشياء يمكنهم بالفعل معرفتها والوصول اليها ، واخضاعها لاحتياجات الانسان ، وليسوا أمام « مشاعل معلقة فى السماء يسكنها الملائكة كما جاء فى « نهاية الأرب » وفى تعاليم الكنيسة الكاثوليكية قديما ولا يقفون فوق « اسطوانة مستديرة يمسكها تدبير الهى فوق قرن ثور ، ويقال فوق ظهر سلحفاء يقف أو تقف فوق ظهر حوت يسبح في بحر الظلمات » . ولاشك أن المعرفة « العلمية » بحقيقة ذلك الوضع والايمان بهما يخلقان شعورا مختلفا وحالة عقلية متميزة كل التميز عن الشعور الذى تولده الخرافات الأخيرة .

وهذا الشعور وتلك الحالة العقلية هما ما سعى اليهما المعلم الأول ، لانهما يعنيان « الحرية » والقدرة على الفعل .. النتيجة المحتمة للعلم ، بدلا من حالة القهر والعجز التى تخلقها التصورات الخرافية .

والى جانب الجغرافيا والفلك ، اهتم المعلم الأول بالتاريخ وبما يمكن أن نسميه « فلسفة التاريخ » أو « علم الاجتماع » ، أو بنوع من «الانثروبولوجيا» ــ «علم تاريخ العقائد» . فبعد تصحيح احساس الناس بوضعهم فى الكون وفى كوكبهم ، اكتشف المعلم الأول حاجة أمته الى تصحيح تصورها عن تاريخ المجتمع الانسانى نفسه أو تاريخ البشر أنفسهم على هذا الكوكب ، ثم الى تصحيح تصورها عن تاريخها، هى بالذات . ولذلك لم يكتف بترجمة وتأليف الكتب التى تقدم « حقائق » ذلك التاريخ وانما أضاف اليها الكتب التى تكشف معنى تلك الحقائق بوصفها ظواهر موضوعية .. تحكمها قوانين لا سيطرة للبشر عليها الا اذا حققوا الوعى بها ، كسائر قوانين العلم التى تتحكم فى سائر ظواهر الطبيعة ، وهى الكتب التى تمنح أمته التصور الصحيح عن حياة وعقائد وتصورات الأمم الأخرى ، حتى يسود أمته احساس موضوعى ازاء هؤلاء الأخرين ، ينتج عن المعرفة بحقيقتهم .

بدلا من التصورات الخرافية التى نجدها أيضا فى كتب مؤرخى الألف سنة الماضية وعلمائها ٠

ونظرة الى كتاب الطهطاوى عن تاريخ مصر وتاريخ العرب : « أنوار توفيق الجليل فى تاريخ مصر وتوثيق بنى اسماعيل » تكشف أيضا عن رغبته فى اقامة تصور المصريين عن تاريخهم على نحو صحيح: انهم أصحاب تلك الحضارة العريقة القديمة التى تطورت حتى التقت بنهر التاريخ العربى فاستوعب أحدهما الأخر وصارا نهرا واحدا له « روافد » بعيدة متعددة الأصول ، وان عليهم أن يعيشوا الوعى بهذا البعد التاريخى لوجودهم « الاجتماعى » حتى يعرفوا أنفسهم والمعنى الحقيقى لحضارتهم المعاصرة ، وحتى يعرفوا انهم هم الذين صنعوا تلك الحضارة ، وانهم صنعوها من خلال صراع عظيم ضد عناصر وعوامل القهر الكثيرة ٠

وأخيرا نكتشف اهتمام المعلم الأول باللغة ، سواء عن طريق اثرائها مباشرة بالترجمة ، واحيائها لكى تتمكن من استيعاب تلك العلوم والمعارف التى لم تستخدمها أبدا طوال ألف سنه ، والتى تطورت وتشعبت بشكل هائل طوال تلك القرون العشرة ، أو عن طريق تحديد المصطلحات العلمية الجديدة وتوحيدها عن طريق وضع القواميس الخاصة فى نهاية كل كتاب مترجم ، تحديدا للمعانى وتوحيدا لها فى أذهان من يستخدمون الاصطلاحات فى العمل أو فى التعليم ٠ وكان المعلم الأول عمليا الى أقصى حد فى هذا المجال ، فكان يلجأ الى اللهجة العامية لكى يأخذ منها المصطلح الذى يريده اذا لم تسعفه الفصحى،فاذا لم يجد فى العامية بغيته كتب المصطلح الأوروبى بالحروف العربية كما هو ٠وكذلك فى اسلوب التعبير الذى كان قائما فى عصره على ضرورة استخدام المحسنات البديعية من سجع وجناس وتورية ٠٠ الخ ٠٠

لقد اكتشف خطورة ذلك القيد الثقيل على العقلية العربية منذ

تعلم الفرنسية فى الشهر الأول من اقامته فى باريس ، وبدأ منذ ذلك الحين، فى الصفحات الأولى من كتابه الأول « تخليص الأبريز » محاولة التخلص من ذلك القيد ، سعيا الى دقة التعبير وتطابقه مع حقائق الأشياء ومع جوهر المعانى التى يريد التعبير عنها ٠

ان هذا الصراع الكبير من أجل تحرير اللغة،ومن أجل تحريرها من « التقديس » من أجل اثرائها بالمفردات والمصطلحات وأساليب التعبير ، انما تكشف عن ادراكه لأن اللغة وعاء للثقافة والحضارة جميعا ، وانه دون اعداد هذا الوعاء ، لكى يكون مستعدا للاتساع والتشكل باشكال ما يحتويه ، فانه لا أمل فى تطور حقيقى لعقل أمته ، وبالتالى لحياتها ٠

لقد انتهت مغامرات الباشوات الثلاثة ، محمد على ، ثم سعيد ثم اسماعيل ، نهايات تتناقض جوانبها بين النفع والضرر ، كما تتناقض مقدماتها بين الخير والشر ، أما مصر فقد فازت بما صنعه أبناؤها ، وعلى رأسهم معلمها الأول الكبير وما حققوه من معرفة وحرية وبنيان مادى ومعنوى ، حضارى وثقافى تقوم عليه حياتهم الجديدة ٠

وفى ظنى أن هذا البنيان ، وفى جانبه المعنوى الثقافى بالذات، قد كان فى حساب القوى التى كانت تخطط للقضاء على النهضة المصرية لتحويل مصر الى مستعمرة ونقطة حراسة لطريق المواصلات الامبراطورية فى نفس العصر الاستعمارى٠ولا شك ان الأجيال التالية للمعلم الأول ، قد جاهدت لكى تكمل طريقه ، وكان عليها أيضا أن تجاهد ضد ذلك المخطط الذى ارادنا أن نتخبط فى طريق المعرفة والحرية ٠ ولعلنا نستطيع فى اعادة اكتشاف معنى العمل الذى حققه « جدنا الجليل » أن نعود الى طريقه المستقيم ٠

المعلم الأول :

بطاقة حيـــاة

١٥ أكتوبر ١٨٠١ ــ يولــد فى طهطا ، ويتولى أبوه واخوالــه تعليمه الأول بالعلوم التقليدية وعلى الاسلوب الأزهرى ٠

ــ ١٨١٧ ــ يأتى الى القاهرة ويلتحق بالأزهر ٠

ــ ١٨٢٢ ــ التدريس فى الأزهــر ، وتدعيم علاقتــه بالشيخ حسن العطار ، أكبر من أدرك أهمية الجانب الحضارى الذى مثلتــه الحملة الفرنسية والتحدى الكامن فى هذا الجانب ٠

ــ ١٨٢٤ ــ يلتحق بالجيش الجديد ــ أكبر مؤسسات محمد على ــ كامام وواعظ ٠

ــ ١٨٢٦ ــ باريس ، والذهاب اليها اماما لبعثة من ٣٤ طالبا ، نصفهم من أصــل مصرى ، لدراسة العلوم الفيزيقية والانسانيــة ، والاجتماعية المختلفة ٠ وطلبه الانضمام الى البعثة كدارس لا مجرد امام وواعظ ٠ وقرار ضمه الى البعثة لدراسة الترجمة ٠

ــ ١٩ أكتوبر ١٩٣٠ ــ الامتحان النهائى فى ختام الدراسة ، يقدم للجنة الامتحان نصوص١٢كتابا أو فصولا من كتب قام بترجمتها خلال سنوات الدراسة الخمس ، تشمل جوانب من علوم التاريــخ والتعدين والجغرافيا وعلم الاجتماع والهندسة المدنية وفن القيادة العسكرية والقانون العام وفلسفة القــانون والميثولوجيا اليونانيــة والصحة العامة وتقويم البلدان ٠٠ هذا بالاضافة الى المخطوطة الكاملة لكتاب « تخليص الأبريز ٠٠ » الذى يقدم فيه اكتشافــه للحضارة الغربيــة ٠: تاريخها واصولهــا ومؤسساتها السياسية والثقافيــة والاقتصادية والتشريعية والقضائية ، وأدبها وأصول السلوك والعادات

فيها ، وحقوق الافراد .. ووجهة نظره النقدية والموضوعية فى كل ذلك .

ـ ١٨٣١ ـ العودة الى الوطن ، وبدء العمل مترجما فى مدرسة الطب تحت رئاسة مترجم لبنانى ، ثم الاشراف على المدرسة التجهيزية « الثانوية » ويعمل على تطوير مناهج الدراسة فى مواد : الحساب والهندسة ، ووصف الكون « الفلك » والتاريخ الطبيعى ، والتاريخ الاجتماعى ـ القديم ـ والحديث ، والمنطق .

ـ ١٨٣٣ ـ الانتقال الى « مدرسة الطوبجية » للمدفعية ، والشروع فورا فى اعداد وتنفيذ مشروع اقامة « الجامعة » الأولى فى مصر وانشاء « مدرسة التاريخ والجغرافيا » وتدريس علم الجغرافيا بنفسه ، ثم طلب اعفائه من العمل فى مدرسة الطوبجية ، والتخطيط لانشاء « مدرسة الألسن » لتكون النواة الحقيقية للجامعة . وترجمة المجلد الأول من « جغرافية ملطبرون » .

ـ ١٨٣٥ ـ افتتاح مدرسة « الترجمة » التى أصبحت مدرسة الألسن « فيما بعد ، وقبول الدفعة الأولى ٢٧ طالبا ، تخرج منهم عشرون والشيخ رفاعة يدرس التاريخ والجغرافيا والمنطق والقانون والفلسفة والأدب ، والاشراف الفنى والادارى ، توجيه الطلبة فى الدراسة ، واستثمارهم فورا فى الترجمة ، والتركيز على العلوم الانسانية،وعلى التاريخ والقانون والفلسفة بالذات ويترجم أول كتاب فى تاريخ العقائد وعادات الشعوب ، مع بدء جمع الآثار المصرية واستصدار أمر صيانتها ومنعها من التهريب والضياع .

ـ ١٨٣٧ ـ يصدر ترجمته لكتاب « قدماء الفلاسفة » .

ـ ١٨٨٣ ـ ترجمة كتاب « تاريخ قدماء المصريين » وترجمة كتاب « المنطق » .

ـ ١٨٤٠ ـ انشاء « مدرسة المحاسبة » لدراسة العلوم

الاقتصادية والادارية ، انشاء « مدرسة الادارة الافرنجية » ، للعلوم السياسة والادارية العليا •

١٨٤١ – « عودة قليلة الى الوراء » انشاء أقسام متخصصة للترجمة : فى الرياضيات ، والعلوم الطبية الطبيعية ، العلوم الاجتماعية ، الترجمات التركية وقرار التدريس باللغة العربية لكل المواد •

– ١٨٤٢ – الاشراف على صحيفة الوقائع المصرية،وبدء اصدارها على أساس ان العربية لغتها الأساسية بدلا من التركية •

– ١٨٤٣ – اضافة وظائف جديدة ، تفتيش عموم مكاتب الأقاليم ، والاشراف على « الكتبخانة الافرنجية » وعلى عدد من المدارس العسكرية والمدارس الأولية فى الأقاليم •

– ١٠ – نوفمبر ١٨٤٨ – وفاة ابراهيم باشا ابن محمد على وخليفته فى حياته ، ثم وفاة محمد على نفسه بعد أقل من سنة ، وانفراد الخديو عباس بالحكم ••

– نوفمبر ١٨٤٩ – عباس يغلق مدرسة الألسن ، ثم المدرسة التجهيزية بمشورة انجليزية ، ويقصر توزيع « الوقائع » على أصحاب الوظائف الكبرى •

– ١٨٥٠ – عباس ينفى رفاعة الطهطاوى الى السودان – ترجمة مسرحية – « تليماك » – فى السودان ، الكفاح من أجل العودة للوطن•

– ١٨٥٤ – موت عباس ، وولاية سعيد ، وعودة رفاعة من السودان ، وتعيينه مترجما فى مجلس محافظة القاهرة وعضوا بالمجلس ، أول مشروعاته « انشاء مكاتب الملة » أى مكاتب الأمة ، لنشر التعليم بين عامة أفراد الشعب ، أى محو الأمية ، أمية القراءة والكتابة ، وأمية الفكر وسعيد يتجاهل المشروع •

ـ ١٨٥٥ ـ تعيينه وكيلا للمدرسة الحربية ، ثم انشاؤه مدرسة أركان الحرب ، ثم يحولهـا الى مدرسة للتثقيف والتعليم الانسانى العام ، بدراسة اللغات الشرقية والأوروبية والتاريخ والجغرافيا ٠٠ الخ الى جانب العلوم التطبيقية الأساسية ٠

ـ ١٨٥٥ ـ منظوماته الشعرية الوطنية التى دعا فيها الى محو آثار نكسة عباس وبدء النهوض من جديد ٠

ـ ١٨٥٦ ـ اقناع سعيد بتبنى مشروع احياء التراث العربى والاسلامى والبدء بطبـع تفسير الرازى للقرآن ، وخزانـة الأدب ، ومقامات الحريرى ٠

ـ ١٨٦١ ـ نكسة سعيد ، وفصل رفاعة من العمل حتى وفاة سعيد بعد اغلاق مدرسة أركان الحرب ٠

ـ ١٨٦٣ ـ وفاة سعيد وولاية اسماعيل ، وعودة رفاعة الى النشاط ٠ الاشراف على « المـكاتب الأهليـة » ورئاسة مجلسهـا ، والاشراف على تدريس اللغة العربية ، ورئاسة قلم الترجمة الجديد وترجمة جميع القوانين الفرنسية ٠

ـ ١٨٦٨ ـ اصدار كتابه « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل » ٠٠ أول كتاب مصرى علمى عن تاريخ مصر القديمة ، وتاريخ العرب قبل الاسلام ٠

ـ ١٨٦٩ ـ اصدار كتابه « مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » لبحث موضوع « التمدن » وأصوله وأطواره ، مع اصدار كتابه فى تبسيط علم النحو وقواعد اللغة العربية ٠

ـ ١٨٧٠ ـ انشاء مجلة « روضة المدارس » أول مجلة ثقافية وفكرية وأدبية فى مصر ، واصدار ملاحقها فى شكل كتب كاملة ، فى

الفلسفة والجغرافيا والصحة العامة وعلم النبات والفلك ، والفقه الاسلامى ، والأخلاق ، والتاريخ العربى والاسلامى ·

ـ ١٨٧٣ ـ اصدار كتابه « نهاية الايجاز فى تاريخ ساكن الحجاز » ـ عن تاريخ وسيرة الرسول · صدر بعد وفاته فى نفس العام : ١٨٧٣ ·

سامى خشبة

الفهـــرس

الموضـــوع	الصـفحة

الموضـــوع	الصــفحة

الموضـــوع	الصـــفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٠٧/١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3370 — 1

من الرجال من ترتبط حياته بحقبة معينة، وتتصل أعماله بما يشغل زمنه أوثق اتصال، ويتشكل مصيره بمغزى الأيام التى عاشها، فإذا هو جزء من التاريخ، تطور تطوره، ونما نموه، وإذا هو يبدو أمامنا وكأنه قد تقمص عصره وجسمه لنا فى صورة إنسان. من الرجال من خصصت له أمته دوراً كبيراً وانتظرته ليؤديه، فأقبل فى الموعد المحدد، وأظهر من الجدارة ما يعادل الأمل المعقود عليه، واستطاع أن يضطلع بمهمته حتى يكملها على خير وجه. من هؤلاء الرجال «رفاعة رافع الطهطاوى»، فقد وجدت فيه مصر صانع نهضتها حينما أفاقت فى فجر القرن التاسع عشر.



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٤٧٥ قرشاً

تصميم الغلاف : أحمد عبد الغفار